A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY

مقدمة الطبعة الاولى

لا مشاحة فى أن تاريخ الاسلام من أهم التواريخ العامة . لانه عبارة عن تاريخ العالم المتمدن فى الاجيال الوسطى أو هو حلقة موصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث . فيه انتهى التمدن القديم ومنه أشرق التمدن الحديث . وقد علقنا بدرس هذا التاريخ منذ أعوام وكنا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء الهلال ونعلق ما يبدو لنا من حقائقه على أمل التفرغ لتأليف تاريخ مطول فيه . وقد أعلنا عزمنا على ذلك غير مرة ولا نزال على هذا العزم بعون الله

ونظراً لما نعتقده من افتقار قراء العربية على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم الى نشر هذا التاريخ فيما بينهم - لانه تاريخ لسانهم وأمتهم وبلادهم بل هو تاريخ تمدنهم وآدابهم وعاداتهم - ما فتئنا نختلس الفرص لنشر ما يسهل تناوله وتدعو الحاجة اليه في حينه مما يتعلق بهذا التاريخ . وأخذنا نهيء أذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعاً فى الهلال . لان مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء وخصوصاً في بلادنا والعلم لا يزال عندنا في دور الطفولة . فلابد لنا من الاحتيال في نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة . والروايات أفضل وسيلة لهذه الغاية

وقد صدر من تلك السلسلة الى الآن ست حلقات تتضمن وصف أهم وقائع التاريخ الاسلامي الى مقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبدالملك بن مروان[1] . وقد آنسنا من جمهور القراء شوقاً الى التوسع في هـذا التاريخ واستطلاع كنه التمدن الاسلامي . ورأينا في أفاضل كتابنا تطلعاً الى البحث في هذا التمدن والنظر في علاقته بالتمدن الاوربي الحديث . وكتب الينا غير واحد من أهل الادب يسألوننا رأينا في ذلك فرأينا أن نجعل تتمة السنة العاشرة من الهلال كتاباً في هذا الموضوع نبين فيه تاريخ هذا التمدن ونستطرد الكلام الى علاقته بالتمدن الافرنجي

وتاريخ الامة الحقيقي انما هو تاريخ تمدنها وحضارتها وليس تاريخ حروبها وفتوحها وخصوصاً على ما تعوده مؤرخو العرب في تاريخ الاسلام . فانهم يسردون الوقائع على علاتها وقلما يشيرون الى الاسباب التى تربط تلك الوقائع بعضها ببعض بحيث يرتاح العقل الى تعليلها والنظر فيها وترسخ في ذهنه حقيقة تلك الامة . على أننا نظنهم معذورين في ذلك باعتبار ما كانت تدعوهم اليه الحال من تجنب الخوض في

---

(١) بلغت الحلقات التي صدرت من هذه السلسلة الى صدور هذه الطبعة ١٩ حلقة

أسباب تلك الوقائع وأكثرها لا ينجو الباحث فيه من الانتصار لأحد الجانبين وهم يتجنبون ذلك . ولعل لهم عذراً آخر

أما الآن فليس ما يمنعنا من الخوض في هذا العباب . وقد حاول غير واحد من علماء الشرق من الافرنج وغيرهم استطلاع كنه ذلك التمدن فلم يجدوا في كتب القوم ما يشفي غليلا لتشتت تلك الحقائق وتبعثرها . ولذلك لما نشرنا في العام الماضي عزمنا على تأليف هذا الكتاب كتب الينا جماعة من هؤلاء الافاضل يستغربون اقدامنا على ركوب هذا المركب الخشن

والحق يقال أننا أعلنا هذا العزم ونحن لا نتوقع العثور على ما يزيد على صفحات تتمة السنة العاشرة (١٦٠ صفحة) فشمرنا عن ساعد الجد وبذلنا جهد المستطاع في مطالعة ما كتبه العرب في الادب والتاريخ والسياسة وسائر العلوم فيما وفقنا اليه من الكتب المطبوعة والمخطوطة

ومن أمثلة ما قرأناه من كتب التاريخ والفتوح والتقاويم مؤلفات ابن الاثير وابن خلدون وابن خلكان والمقريزي والبلاذري وأبي الفداء والمسعودي والمقري والفخري والسيوطي وابن خرداذبه وياقوت والاصطخري وغيرهم . ومن كتب الادب الاغاني والعقد الفريد لابن عبد ربه والكشكول والمستطرف وسراج الملوك وغيرها . ومن كتب التفسير والحديث والفقه تفسير الرازي والزمخشري وصحيح البخاري ومشكاة المصابيح والهداية وغيرها

ومن كتب السياسة والادارة كتاب الخراج لابي يوسف وكتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر . والاحكام السلطانية للماوردي والعقد الفريد للملك السعيد ومقدمة ابن خلدون . وغير ذلك من الكتب في مواضيع أخرى لا يخطر للمطالع انها تفيده في هذا الموضوع ، وقد عثرنا فيها على فوائد جمة . مثل حياة الحيوان للدميري وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما . فضلا عن المعاجم والفهارس مثل كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي وكتاب كشف الظنون وكليات ابي البقاء وغيرها وكل ذلك في اللغة العربية

ثم طالعنا ما يستطاع الوصول اليه مما ألفه الافرنج في الاسلام وتاريخه وآدابه في اللغات الفرنسية والانكليزية والالمانية . مثل كتاب لابون الفرنسي في تمدن العرب (١) وكتاب ليبو في تاريخ المملكة الرومانية الشرقية (٢) ومقالات في المجلة

(١) La Civilisation des Arabes, par le Dr. Gustave Le Bon.

(٢) Hist. du Bas-Empire par Lebeau 30 vol.

الاسيوية الفرنسية (١) وكتاب فون كريمر بالالمانية في تاريخ تمدن المشرق (٢) وكتاب مولر الالماني في تاريخ الاسلام (٣) وكتاب سنانلي لين بول الانكليزي في الدول الاسلامية (٤) وكتاب جبين الانكليزي في المملكة الرومانية (٥) وغيرهم

وقد زاد عدد ماطالعناه من الكتب العربية والافرنجية على مائتي مجلد . عدا ما راجعناه من القواميس العامة والموسوعات على اختلاف اللغات والمواضيع . مع مارسخ في ذهننا من مطالعة تاريخ المشرق بتوالي الاعوام ـ فوفقنا بعد كل ماتقدم الى ما يملأ أضعاف الكتاب المطلوب من الابحاث الفلسفية في تاريخ ذلك التمدن العجيب من الوجوه السياسية والادارية والعلمية والادبية والاخلاقية . فلم نر بداً من قسمة الموضوع الى أجزاء نصدر الجزء الاول منها الآن ثم نصدر مايليه من الاجزاء تتمة للسنين التالية من الهلال ان شاء الله

فالجزء الاول وهو هذا أساس مايليه من الاجزاء . وقد صدرناه بمقدمات تمهيدية في العرب والتمدن وحال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الاخيرة قبيله. والحكومة في الجاهلية والكعبة وقريش الى ظهور الدعوة الاسلامية وكيفية ظهورها . وانتشار الاسلام والفتوح الاسلامية الى قيام الدولة الاموية فالعباسية فالاندلسية فالفاطمية فغيرها . وقد نظرنا في كل ذلك نظر الناقد فلم نذكر حادثة الا اسندناها الى عللها واسبابها وبينا مانتج عنها وذكرنا علاقتها بما بعدها . وخصوصاً في ما ساعد العرب على فتح المملكتين الفارسية والرومية مع قلة عددهم وضعف معداتهم . وهو بحث فلسفي لم يستوفه احد في لغة من اللغات على مانعلم ـ الا ماقد تراه في كتب الباحثين من الافرنج واكثره مختصر لا يروى غليلا . ولا يعابون في ذلك والموضوع بعيد عنهم ولا علاقة له باحوالهم ولا بأديانهم ولا بآدابهم ولا بتاريخهم الا قليلا ـ وانما اللوم علينا نحن ابناء هذا اللسان وقد سبقنا الافرنج الى البحث في تاريخ بلادنا وأمتنا وآدابنا واخلاقنا

وعمدنا بعد تلك المقدمات الى النظر في المملكة الاسلامية في ابان عزها وفي

(١) Journal Asiatique.

(٢) Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, von A. von Kremar.

(٣) Der Islam im Morgen und Abendland, von Dr. Muller.

(٤) The Mohammadan Dynasties, by S. Lane-Poole.

(٥) Roman Empire, by Gibbon.

احصائها . ثم في الدولة الاسلامية ومصالحها وكيف نشأت وتشعبت الى المصالح المتعددة كالخلافة وما يتبعها والوزارة وولاية الاعمال وبيت المال والجند وسائر الدواوين. ثم تاريخ كل من هذه المصالح وما تفرع منها او ألحق بها . وقد عانينا المشاق الكبرى في استخراج حقائق تلك التواريخ من كتب القوم . فربما قرأنا المجلد الضخم فلا نستفيد الا فقرة أو فقرتين وقد لا تتم الحقيقة الواحدة الا بمطالعة المجلدين أو الثلاثة

ومن أمثلة ما اتفق لنا من هذا القبيل اننا بعدما كتبنا تاريخ ولاية الاعمال وتاريخ القضاء في الدولة الاسلامية عمدنا الى البحث عن رواتب العمال ورواتب القضاة في زمن الخلفاء الراشدين . فوجدنا في فتوح البلدان للبلاذري ان عمر بن الخطاب «بعث عمار بن ياسر على صلاة أهل الكوفة وجيوشهم وعبد الله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم وعثمان بن حنيف على مساحة الارض الخ» لكنه لم يذكر مقدار عطاء أحدهم ، ثم وجدنا في كتاب سراج الملوك للطرطوشي في باب سيرة السلطان في الانفاق من بيت المال وسيرة العمال قوله: «ولم يقدر عمر الارزاق الا في ولاية عمار فأجرى على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه وعبد الله بن مسعود مائة درهم كل شهر الخ » ولم يذكر منصب عمار ولا منصب ابن مسعود . ولكننا جمعنا بين الروايتين فاستنتجنا منهما ان راتب من يتولى الجيوش والصلاة في عمل من الاعمال كانت على عهد عمر بن الخطاب ستمائة درهم وراتب القاضي مائة درهم في الشهر . وعلمنا من قرائن أخرى ان الذي يتولى الصلاة والجيوش في أيام عمر هو العامل . ومن قرائن أخرى ان عماراً كان عاملا لعمر على الكوفة فتحققنا من مجموع ماتقدم أن راتب العامل كان على عهد عمر ستمائة درهم وراتب القاضي مائة درهم — وقس عليه

وسنبحث في الجزء الثاني عن ثروة المملكة الاسلامية وغنى أهلها وحضارتها وعلاقتها بالدول المعاصرة ووصف أحوال الخلفاء في مجالسهم وألعابهم واهتمامهم بالعلم والعلماء والشعر والشعراء والدخول عليهم وجلوسهم للناس وقصورهم وبذخهم وركوبهم وضيافتهم وكرمهم والابنية الاسلامية والمدن الاسلامية الخ ...

والجزء الثالث يبحث في العلوم والآداب والشعر والصناعة وحالها في الشام والعراق قبل الاسلام وكيف ارتقى اليها المسلمون وتاريخ ذلك الارتقاء ومقداره

والجزء الرابع يبحث في الآداب الاجتماعية في تلك العصور الزاهرة على ما يقتضيه المقام [1]

(١) تبين لنا بعد التقدم في تأليف الكتاب انه لا يتم الا ان يكون خمسة اجزاء كما سترى

وسنختم المقال ببيان نسبة التمدن الافرنجي الحديث الى التمدن الاسلامي ويكون الكلام في ذلك جلياً واضحاً بعد تفصيل عوامل هذا التمدن في الاجزاء السابقة (١)

فترى مما تقدم ان الموضوع شاق ووعر فضلا عن حداثته في عالم التأليف مع قصورنا في هذا الشأن . وفي ذلك تمهيد للعذر على ما قد يشوب هذا الكتاب من النقص . ونتقدم الى أهل الفضل أن يؤازرونا بملاحظاتهم وآرائهم للانتفاع بها فيما سيصدر من الاجزاء التالية ان شاء الله تعالى

(١) عدلنا عن هذا البحث في هذا الكتاب واجلناه الى كتاب آخر

مقدمة الطبعة الثانية

ظهر هذا الكتاب منذ بضع عشرة سنة فتناوله الادباء والعلماء بالتقريظ والانتقاد في الصحف العربية وغيرها . وجاءتنا كتب أهل العلم من أقطار العالم الاسلامي ينشطوننا ويستحثوننا . وفيهم من جاهر صريحاً أنه لم يكن يظن تأليف مثل هذا الكتاب ممكناً لقلة المآخذ المساعدة على ذلك . فزادنا تنشيطهم ثباتاً على هذا العمل حتى ظهر الكتاب في أجزائه الخمسة

وكان له وقع خاص عند أدباء اللغات الاخرى فأخذوا في نقله كله أو بعضه الى ألسنتهم . فنقل الى أهم اللغات الشرقية ـ نعني الفارسية والاوردية والتركية ظهر مطبوعا فيها كلها . ونقل الى أهم لغات أوربا نعنى الانكليزية والفرنسية وقد ظهر جزؤه الرابع فى الاولى وسيظهر جزؤه الاول في الثانية . وتضاعف الاقبال على الطبعة العربية حتى نفدت نسخ هذا الجزء منذ بضعة أعوام ونحن نتحين الفرص لاعادة طبعه . فلم نتمكن من ذلك إلا الآن

وما برحنا منذ صدور الطبعة الاولى ونحن نجمع ما يمر بنا من الفوائد التى يحسن ادخالها في هذا الكتاب عند اعادة طبعه . فاجتمع لدينا من ذلك شيء كثير أضفناه الى هذه الطبعة . ونظرنا في ما وصل الينا من انتقادات المنتقدين أو ملاحظات الملاحظين مما نشر في الصحف أو الكتب أو جاءنا في الكتب الخصوصية . وتدبرناها كلها باخلاص وروية فأصلحنا ما صح عندنا وأغفلنا الباقي وهو الاكثر ـ وانما توهم المنتقدون خطأه لانهم نظروا فيه من وجه غير الذي نظرنا فيه نحن . أو انا اطلعنا عليه في مصادر لم يطلعوا عليها . فاكتفينا في هذه الحال بذكر المصدر الذى عولنا عليه فى ذيل الصفحة

فجاءت هذه الطبعة أكبر من الاولى وأوفر مادة وأحسن ترتيباً وأكثر صوراً واشكالا . وفي ما أضفناه اليه من الصور أو الخرائط ما يزيد البحث ايضاحاً . فعسى أن يقع عملنا هذا موقع الاستحسان . وحسبنا انا قمنا ببعض الواجب في سبيل آداب هذا اللسان

مقدمات تمهيدية

البحث في تمدن الامة يتناول النظر في ما بلغت اليـه من سعة الملك والعظمة والثروة ووصف ما رافق تمدنها من أسباب الحضارة وثمارها . ويدخل في ذلك تاريخ العلم والادب والصناعة ولوازمها كالمدارس والمكاتب والجمعيات وبسط حال الدولة ومناصبها وما انتهت اليه من الرخاء . وما هو مقدار تأثير ذلك في هيئتها الاجتماعية . وذلك يستلزم وصف عادات الامة وآدابها الاجتماعية ومناحيها السياسية واسناد ذلك الى أسبابه وبواعثه

غير ان النظر في هذا التمدن على هذه الصورة لا يكون واضحاً وافياً الا اذا تقدمه البحث عن حال تلك الامة في بداوتها وكيف تدرجت الى الحضارة وما هي العوامل التي ساعدتها على ذلك . والبحث المشار اليـه ضروري خصوصاً في تاريخ التمدن الاسلامي لان فيه عوامل خاصة به لا وجود لها في تمدن الامم الاخرى

وبناء على ذلك لم نر بداً من تصدير هذا الكتاب بمقدمات تمهيدية نبسط فيها حال العرب قبل الاسلام ونسبتهم الى التمدن وما تقدم الدعوة الاسلامية من أحوال تلك الامة . وكيف كانت جزيرة العرب عند ظهور الدعوة وكيف كانت حال الروم والفرس يومئذ . وما الذي ساعد هؤلاء العرب على فتح تينك المملكتين مع قلة عددهم وضعف معداتهم . وكيف نشأت الدولة الاسلامية وارتقت من حالها الدينية في أيام الراشدين الى حالها السياسية في أيام الامويين فالعباسيين فالفاطميين فغيرهم

فاذا فرغنا من ذلك عمدنا الى الكلام في سعة المملكة وتاريخ دوائرها ومناصبها وغير ذلك

فنبدأ بوصف حال العرب قبل الاسلام

العرب والتمدن

زعم بعض الكتاب من الافرنج ان العرب لا فضل لهم في تمدنهم الاسلامى لانهم أنشأوه على أنقاض التمدنين اليوناني والفارسي . فالتمدن الاسلامي عندهم عبارة عن مزيج من ذينك التمدنين مع بعض التعديل . وان العرب من فطرتهم بعيدون عن الحضاره لانهم لم ينشئوا تمدناً من عند أنفسهم فى عصر من العصور الجاهلية ولا الاسلامية . وعندنا ان العرب من اكثر الامم استعداداً للحضارة وسياسة الملك لا يقلون فى ذلك عن سواهم من الامم التي تمدنت قديماً أو حديثاً ـ واليك البيان :

قدماء العرب

المشهور عند المؤرخين ان العرب يقسمون الى قسمين كبيرين . العرب البائدة



حمورابي ملك بابل واقفاً بين يدي اله الشمس

كعاد وثمود . والعرب الباقية . وان العرب الباقية يقسمون الى القحطانية سكان بلاد اليمن وما جاورها وهم ينتسبون الى قحطان أو يقطان بن عابر وينتهي بأرفخشاد الى سام . والاسماعيلية او العدنانية وهم سكان الحجاز ونجد وما جاورهما من أواسط

جزيرة العرب . وينتسبون الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل من امرأته هاجر ويسمون أيضاً مضرية ومعدية لمثل ذلك السبب

وقد بينا فى كتابنا العرب قبل الاسلام (ج ١) ما كان للعرب من الدول القديمة فى ما بين النهرين قبل الميلاد ببضعة وعشرين قرناً . نعني دولة حمورابى واضع أقدم الشرائع الانسانية التي وصلت الينا . وقد أتينا هناك بالادلة التى ترجح كون دولته



زينوبيا (الزباء) ملكة تدمر

عربية وبينا أن تلك الامة كان لها تمدن عظيم وآداب راقية . وكان للمرأة فيها منزلة وحرية حتى تقلدت المناصب السياسية والقلمية (١) وتفرع من الحموراييين بعد ذهاب دولتهم دول العالقة المختلفة ومن فروعهم عاد وثمود والانباط وعرب تدمر وغيرها

ويلي الحموراييين عرب اليمن وهم القحطانية . وقد تمدنوا قبل الاسماعيلية لان بلادهم أقرب الى الخصب والرخاء من بلاد هؤلاء فنشأت منهم دول قديمة عاصرت الفراعنة وملوك بابل وأشور . وقد ظهروا بعد الحموراييين بعدة قرون . ذكرنا منهم الدول المعينية والسبأية والحميرية . أصحاب مأرب وصنعاء وغيرها

أما الاسماعيلية وهم أهل الحجاز ونجد فاكثرهم أهل بادية وقد ظهر منهم دول قبل الميلاد وبعده . أشهرها دول القبائل أصحاب الوقائع التى جرت بينهم قبيل الاسلام وتعرف بأيام العرب

(١) العرب قبل الاسلام ٤٠ ج ١ والهلال ١٩٥ سنة ١٣

ثم ان العرب ليس في أرومتهم ما يمنع استعدادهم للحضارة لانهم اخوان الاشوريين والكلدانيين والفينيقين ، ولهم استعدادهم وأهليتهم . فالذين أقاموا منهم في بلاد مثل بلاد ما بين النهرين أدهشوا العالم بمدنيتهم . والمقيمون في جزيرة اكثر بقاعها جرداء لا أنهر فيها ولا جداول وانما يستقون من مياه المطر قضوا قروناً في البداوة . فلما أتيح لهم الاقامة في البلاد الخصبة بعد الاسلام لم يكن تمدنهم فيه يقصر عن تمدن أولئك

فالتمدن الاسلامي ليس أول عهد العرب بالحضارة . فقد كان المعينيون والسبأيون والحميريون واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب لتوسط بلاد اليمن بين الممالك المتمدنة في ذلك الحين . فكانت تجارات الهند تحمل في البحر الهندي الى بلاد اليمن وحضرموت فيحملها اليمنية الى الحبشة ومصر وفينيقية وفلسطين وبلاد الادوميين والعمالقة والمديانيين والى بلاد المغرب . وكذلك كان الاسماعيليون

وساعد العرب على التوسع في وسائل التجارة ـ فضلا عن توسط بلادهم ـ أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات أكثر الامم المتمدنة في ذلك الحين . لان اللغات السامية كانت يومئذ لاتزال متقاربة لفظا ومعنى . فالعربي والكلداني والاشوري والعبراني والحبشي والفينيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة لقرب عهد تلك اللغات من التشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية المتشعبة من اللغة الفصحى الآن . فكان العربي من حمير او مضر اذا جاء العراق لا يحتاج في مخاطبة الكلداني أو الاشوري الى ترجمان . وكذلك اذا يمم فينيقية أو الحبشة فانه يفهم لسان اهليهم كما يفهم الشامي لسان أهل مصر اليوم . ويؤيد ذلك ماجاء في التوراة عن ابراهيم الخليل فانه نزح من بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبل الميلاد واجتاز سوريا وفينيقية وبلاد العرب وخالط أهلها ولم يفتقر في مخاطبتهم الى مترجم . وكذلك بنو اسرائيل فى تيههم حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فانهم قضوا أربعين سنة في أعالى جزيرة العرب ولم يحتاجوا الى مترجم بينهم وبين أهلها

والمسافر في بلاد العرب اليوم يجد أكثرها رمالا قاحلة لكنه لو نقب تحت تلك الرمال لوقف على آثار القصور وغيرها من بقايا المدنية . روى مؤرخو العرب البائدة عما خلفه العاديون من الابنية الفخمة هناك مانعده من الخرافات لخروجه عن المألوف عندنا . مثل حديثهم عن مدينة ارم ذات العماد التى زعموا « ان شداد بن عاد بناها في الاحقاف في بقعة مساحتها عشرة فراسخ في عشرة فجعل جدرانها من الجزع اليماني وغشاه بصفائح الفضة المموهة بالذهب وبنى داخل المدينة مئة الف قصر

على عمد من الزبرجد واليواقيت طول كل عمود مئة ذراع. وأجرى في وسطها انهاراً وعمل فيها جداول الى تلك القصور. وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت » الى غير ذلك مما يفوق طور الاحتمال. لكنه يشف عن حقيقة مهما قيل في تحقيرها فانها تدل على ان بعض ابنية العرب البائدة كانت مرصعة في بعض جدرانها أو اساطينها بالحجارة الكريمة. وهذا غاية ما يمكن أن يصل اليه البذخ والترف. ولا يكون ذلك الا في ابان المدنية

عرب اليمن

أما عرب اليمن القحطانية فقد تمدنوا تمدناً لاتزال آثاره مطمورة تحت الرمال في حضرموت ومهرة واليمن. وأشهرهم عندالعرب حمير وسبأ وكهلان. وتاريخ هذه الدول



الحروف الحميرية (المسند) وما يقابلها في العربية

اقرب عهداً من عاد وثمود. وقد اكتشف السياح بعض آثارهم وأكثر ما اكتشفوه أنقاض بعض الابنية في صنعاء وعدن وحضرموت. فاستخرجوا منها ألواحاً مكتوبة بالقلم الحميري (المسند) أكثرها دعاء ديني أو نحوه. ولم يتمكنوا من التنقيب عن الدفائن المهمة في داخلية البلاد لمشقة الوصول اليها. ناهيك بما ذكره مؤرخو العرب

عن أبهة تلك الدول وكانت قد انحلت قبل الاسلام . لكن أخبارها كانت الى ذلك العهد لاتزال مألوفة وفيها مايدل على تمدن قديم لا يقل عن تمدن الاشوريين والمصريين والفينيقيين . فقد انشؤوا المدن وعمروا القصور وغرسوا الحدائق ونحتوا التماثيل واحتفروا المتاجم ونظموا الجند وفتحوا البلاد ووسعوا التجارة واتقنوا الزراعة . وقد ذكرهم هيرودوتس الرحالة اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد فقال : « ان في جنوبي بلاد العرب وحدها البخور والمر والقرفة والدار صيني واللاذن » وعدها من أغنى ممالك العالم في زمانه

ومن آثار العرب فى اليمن مالا يزال التاريخ يلهج بذكره ويعد من عجائب الابنية . نعني السد المشهور بسد مأرب . بنوه نحو القرن الثانى قبل الميلاد كما بنى محمد على باشا القناطر الخيرية في رأس الدلتا . وكما بنت الحكومة المصرية منذ بضع عشرة سنة خزان اسوان

سد مأرب

وسد مأرب هذا عبارة عن حائط موصل بين جبلين يحجز الماء الذي يسيل بينهما فيرتفع ويروى السفحين الى أعلاها . جعلوا فيه شعباً وأقنية وساقوا اليه سبعين وادياً تصب مياهها فيه . فمثل هذا السد العظيم يحتاج الى مهارة في الهندسة وهمة عالية وهو اقدم خزان للماء ذكره التاريخ . وعرب اليمن أسبق الامم الى هذه الهندسة . وكان بناؤه متيناً صبر على صدمات الماء وتأثيرات الهواء بضعة قرون. ولما ضعفت الدولة عن تجديده وأحسوا بقرب تهدمه أخذوا بالمهاجرة من جواره في أواسط القرن الثانى للميلاد وتفرقوا في البلاد . والمشهور عند العرب ان الغساسنة فى الشام والمناذرة فى العراق والاوس في المدينة والازد في منى وخزاعة بجوار مكة منهم . ثم انفجر السد وطغت المياه فهاجر من بقى . وذلك ما يعبرون عنه بسيل العرم

وذكر استرابون الرحالة اليوناني في القرن الاول قبل الميلاد ان مأرب كانت في زمانه مدينة عجيبة سقوف أبنيتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة . وفيها الآنية الثمينة المزخرفة مما يبهر العقول . وذلك يهون علينا سماع ما ذكره العرب عن ارم ذات العماد

وفي اعتقادنا أنهم لو بحثوا في انقاض مأرب وصنعاء وغيرهما من عواصم ملوك سبأ وحمير لعثروا على أحافير ثمينة تكشف للعالم عن تاريخ جديد كما كشفت آثار وادي النيل عن تاريخ الفراعنة . وكما كشفت آثار وادي الفرات عن أخبار ملوك أشور وبابل . ولا يتأتى ذلك الا بارسال البعثات العلمية للحفر والتنقيب

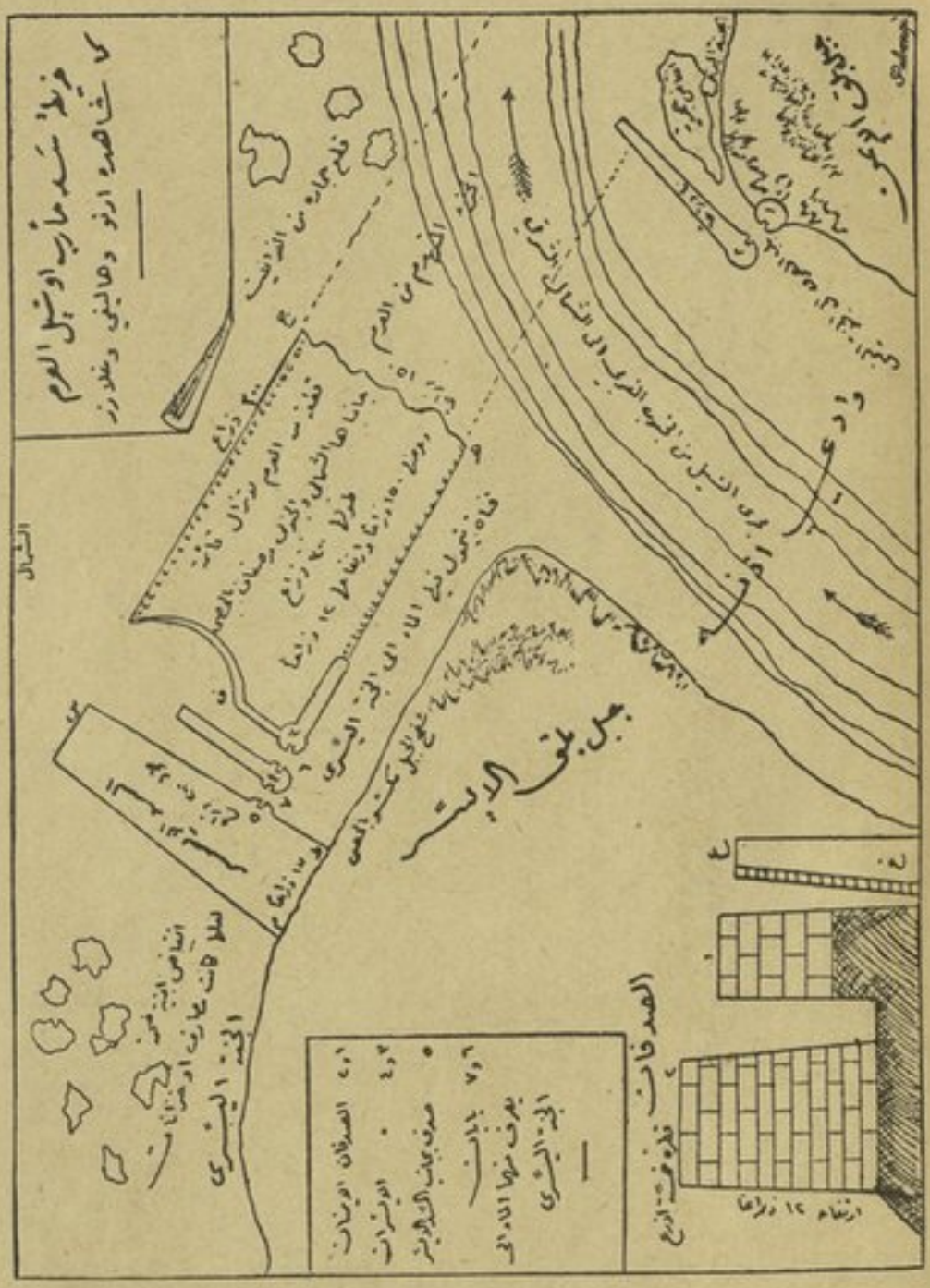
جبل بلق الايسر
الصدفان
الجنة اليسرى
الشمال

الانباط

ومن الامم العربية التي تمدنت قبل الاسلام الانباط أصحاب مدينة بطرا (Petra)



نقود الانباط وعليها صور ملوكهم

بين فلسطين وشبه جزيرة سينا . وقد امتدت سيطرتهم على تلك الجزيرة وما جاورها من جزيرة العرب الى الحجاز . وكان الانباط واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب وقد عاصروا الرومان في ابان مجدهم وكثيراً ما كانوا عوناً لبعض قوادهم في الحروب حتى تأتى لاحدهم الملك الحارث الثالث ان

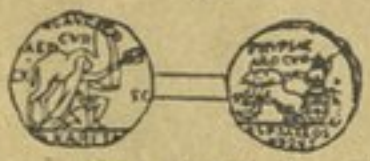

نقود الحارث الثالث واسكاوروس

يتولى دمشق برهة قصيرة في القرن الاول للميلاد قبل عهد الغساسنة بأجيال . وقد ضرب النقود باسمه واسم الحاكم الرومانى هناك . وما زالت دولة الانباط سائدة الى أوائل القرن الثاني للميلاد فدخلت في حوزة الروم وضاعت فيها ولاتزال أنقاضها في بطرا وعليها الكتابة النبطية يقرأونها كما يقرأون الكتابة الحميرية (١)

ومن الامم العربية التي تمدنت قديماً العمالقة وقد تفرعوا من الحموراييين على مانظن وهم مشهورون بشدة البطش . ومنهم الملوك الرعاة الذين فتحوا مصر وتولوها عدة قرون . غير مستعمرات العرب في مشارف الشام والعراق ومن مدنهم بصرى

(١) العرب قبل الاسلام ٦٧ ج ١

في حوران للغساسنة والحيرة في العراق للمناذرة — أيقال بعد ما تقدم ان العرب بعيدون بفطرتهم عن الحضارة ؟

التمدنان اليوناني والفارسي

على اننا لا ننكر أن التمدن الاسلامي قام على أنقاض التمدنين اليوناني والفارسي لكن شأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان والرومان والفرس وسائر الدول العظمى . لان اليونان اقتبسوا اكثر عوامل تمدنهم من المصريين وزادوا فيها ووسعوها على مقتضى مؤثرات الطبيعة حتى صار تمدناً معروفاً بهم . فأخذ عنهم الرومان وعدلوا فيه تعديلا طفيفاً جداً . وكذلك الفرس فان تمدنهم قام على انقاض تمدن الاشوريين والبابليين والكلدانيين قبلهم وأخذوا أيضاً عن اليونان

على أن تلك الامم لم تستطع الظهور في عالم الحضارة الا بعد أجيال متوالية . اما العرب فلم يمض على نشوء دولتهم قرن حتى ظهر تمدنهم وبانت ثمار عقولهم . وفي القرنين الثاني والثالث ملأوا الارض علماً وأدباً ومدنية وحضارة

وزد على ذلك ان الجرمان الذين نشأت منهم فيما بعد أعظم دول الارض قضوا أجيالا متطاولة وهم يسطون على المملكة الرومانية قبل الاسلام وبعده وفتحوا كثيراً من مدنها ودخل بعضهم رومية نفسها ولم يكن من ثمار فتوحهم في القرون الاولى غير النهب والقتل . واعتبر ذلك في فتوح الهونيين في القرن الخامس للميلاد فانهم اكتسحوا شمالي المملكة الرومانية وشرقيها وفتحوا المجر ورومانيا وسائر تركيا اوربا وأنشأوا هناك دولة عرفت بدولة الخاقانات حكمت مئتي سنة — كما فعل العرب باكتساح سوريا ومصر والعراق — لكن الهونيين لم ينشئوا تمدناً ولا استبقوا حضارة مع انهم أقرب الى مركز التمدن اليوناني من العرب . وسطا الشعب السلافي في القرن السادس للميلاد على المملكة الرومانية الشرقية حتى طرقوا أبواب القسطنطينية ثم عادوا ولم يتمدنوا — ألا يدل ذلك على ان في العرب استعداداً خاصاً للحضارة ؟

عصر الجاهلية في الحجاز

الجاهلية العرب عصران : الجاهلية الاولى في عهد الحموراييين ومن خلفهم في اليمن وغيرها. والجاهلية الثانية نريد بها حالة جزيرة العرب ولا سيما الحجاز قبل الاسلام بعدة قرون . وللحجاز شأن خاص في ذلك . ففي الجاهلية الثانية تمدن العرب في جنوبي جزيرة العرب وفي شماليها وظل أهل الحجاز في أواسطها على بداوتهم لجدب أرضها وجفاف تربتها مع بعدها عن الاحتكاك بالدول العظمى لتوسطها في الصحراء ووعرة المسالك اليها . حتى امتنعت على الفاتحين العظام مثل رعمسيس الثاني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد والاسكندر الكبير فى القرن الرابع قبله . وايليوس غالوس على عهد أوغسطس قيصر في القرن الاول للميلاد . وامتنعت أيضاً على ملوك الفرس في ابان دولتهم فآل امتناعهم هذا إلى اطمئنانهم وسكونهم - والانسان لا ينزع إلى الاصلاح الا مضطراً بخطر أو نحوه. ولكنه مفطور على الاثرة والمنافسة فقامت المنازعات بين العرب أنفسهم وأصبحت مصادر الارتزاق فيها الغزو والنهب . فشغلهم ذلك عن الالتفات الى المصادر الاخرى

على انهم كانوا على جاهليتهم أهل أنفة وذمام وكرم ووفاء - مما يدل على استعدادهم لمستقبل عظيم

قضى أهل الحجاز في جاهليتهم الثانية قروناً لا يعلم مقدارها الا الله وهم في حال البداوة الا ما اقتبسوه ممن هاجر اليهم من جالية اليمن جيرانهم أو من لجأ الى بلادهم من اليهود وخصوصاً في القرون الاخيرة قبل الميلاد والاولى بعده فراراً من اضطهاد حكامهم الرومانيين ولا سيما بعد خراب بيت المقدس . وربما هاجر اليهم أيضاً الانباط وهم أهل تمدن كما تقدم فجعلوا مكة والمدينة والطائف دار هجرتهم بعد استبداد الرومان فيهم . أما اليهود فكانوا يقيمون في المدينة على الاكثر

الآداب الدينية الجاهلية

وكان لليهود تأثير عظيم على عرب الحجاز من حيث الآداب الدينية وطقوسها . فاقتبس العرب منهم اموراً كثيرة كانوا يجهلونها كالحج والذبائح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالاعياد ونحوها . وعلموهم بعض اقاصيص التوارة وفصولا من التلمود ونشروا بينهم كثيراً من تقاليدهم وعاداتهم . وقد يكون بعض تلك الآداب أو الطقوس متسلسلا اليهم مما كان عند اسلافهم في الجاهلية الاولى. فضلا عمن هاجر

الى الحجاز من أهل اليمن وغيرهم من الامم التي كانت تحيط بجزيرة العرب كالكلدان والمصريين والاحباش وغيرهم . فأصبح أهل الحجاز بعد ذلك الاختلاط فئتين أهل البادية الباقين على الفطرة وهم العرب الرحل . وأهل المدن المقيمون في مكة والطائف والمدينة وهم الحضر



مكة ومسجدها وفي وسطه الكعبة في القرن الثامن عشر للميلاد

وكانت مكة أشهر مدن الحجاز لاتخاذها حجاً يؤمه الناس من أقاصي البلاد لزيارة الكعبة . فأصبحت بتوالي الاجيال مركزاً للتجارة لما يتوافد اليها من الحجاج في المواسم كل عام . فطمحت اليها أنظار أهل السلطة من القبائل القوية . وكانت في أوائل أزمانها في حوزة الحجازيين بني اسماعيل وهم سدنة الكعبة أي حجابها . ثم نزح اليها بنو خزاعة من اليمن بعد سيل العرم نحو القرن الثاني للميلاد وتسلطوا عليها. وغلبوا الحجازيين عليها بما تعودوه من السيادة في عهد دولتهم باليمن . والاسماعيليون (أو العدنانيون) يومئذ ضعاف لا يقوون عليهم . ولكن ناموس الاجتماع قضى عليهم كما قضى على سواهم . فدارت الدائرة بعد عدة أجيال على بني خزاعة وضعف أمرهم وقوي امر العدنانية فتفرع منهم كنانة وتشعب من كنانة قريش

قصي بن كلاب والكعبة

ففي نحو القرن الخامس للميلاد كان سيد قريش ورئيسها قصي بن كلاب بن مرة . وكان حكيما عاقلا ذا سياسة ودهاء فتزوج ابنة ولي الكعبة (وهو من خزاعة) طمعاً

بالسدانة . فولد له أولاد اعتز بهم واشتغل بالتجارة حتى صار غنياً . فلما اقترب أجل حميه أوصى بسدانة الكعبة لابنته زوجة قصي فاعتذرت بأنها لا تستطيع فتح الباب واغلاقه ـ وهو عمل سادن البيت عندهم ـ فأوصى بالولاية لابن له اسمه المحترش وكان ضعيفاً فابتاع قصي ذاك المنصب منه بزق من الخمر (١)

فشق ذلك على خزاعة وحدثت بسببه حروب بينهم وبين قريش ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم فحكموا بينهم رجلا من قريش ففضى لقصي . وما زالت سدانة الكعبة في قريش حتى جاء الاسلام

وكانت سدانة الكعبة تستلزم السيادة على مكة . فجمع قصي أهله من قريش في مكة وحولها فملكوه عليهم . فقسم مكة أرباعاً بينهم فبنوا المساكن فعمرت مكة بهم وأصبح هو سيدهم في كل شيء وخلفه بعده ابنه عبد مناف . وكان في جملة أولاد عبد مناف ولدان هاشم وعبد شمس فلما دنت وفاة عبد مناف أوصى بالسدانة لهاشم وكان لعبد شمس ابن اسمه أمية (جد بني أمية) حسد عمه على الرئاسة فآل ذلك الى المنافرة . فكره هاشم أن ينافر ابن أخيه فلم تتركه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشرين سنة . فرضي أمية وجعلا الكاهن الخزاعي حكما بينهما . فاستفتياه ففضى لهاشم بالغلبة فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعمها وغاب أمية عن مكة بالشام عشرين سنة على حسب الشرط . وكانت تلك أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية وتوارثتها أعقابهما الى أيام الاسلام . وتولى الكعبة بعد هاشم ابنه عبد المطلب جد النبي صاحب الشريعة الاسلامية

وكانت منزلة قريش من سائر قبائل العرب مثل منزلة اللاويين من بني اسرائيل. ولهم مثل امتيازاتهم وهي تشبه امتيازات الكهنة في النصرانية . فكانوا لا يؤدون أتاوة ولا يتكلفون دفاعاً . يحكمون على الناس ولا يحكم عليهم أحد . وكانوا يتزوجون من أية قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم في ذلك . وكانوا لا يزوجون أحداً الا اشترطوا عليه أن يكون متحمساً في دينهم والتحمس التشدد في الدين (٢) وقد فرضوا فروضاً ألزموا الناس باتباعها

(١) ابن الاثير ٩ ج ٢ (٢) معجم البلدان ٦٢٠ ج ٤

حكومة العرب في الجاهلية

ونريد بالعرب خاصة عرب الحجاز وبالاخص قريش لان منها ظهر نبي المسلمين

والحكومة في الجاهلية متشابهة عند سائر أهل البادية . فان المناصب التي تعد عند أهل العالم المتمدن بالعشرات تجتمع عندهم في شخص الامير . فالامير هو الملك والقاضي وصاحب بيت المال وقائد الجند وكل شيء . وكانت الامارة تفضي فيهم الى أقواهم عقلا وأكثرهم دهاء وسياسة بلا تواطؤ أو تعمد . واذا تساوى عدة منهم بالقوة والدهاء اختاروا أكبرهم سناً وأوسعهم جاهاً . واذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعاً اقترعوا بين أهل الرئاسة . فمن خرجت عليه القرعة رأسوه كبيراً كان أو صغيراً

ذلك كان شأن العرب الرحل أهل الغزو والسطو . أما الحضر وهم أهل مكة فقد كانت السيادة فيهم لسادن الكعبة . ولما افضت السدانة الى قريش صارت السيادة لهم في كل شيء

الكعبة والتجارة وقريش

كانت قريش كما قدمنا حضراً أهل تجارة وتجارتهم قائم أكثرها بالحجاج الذين يردون مكة في المواسم . فكان من مقتضيات مصلحتهم تسهيل طرق القدوم وترغيب الناس في الحج . وفي جملة مابعث القبائل على زيارة الكعبة انه كان لكل قبيلة منها صنم خاص بها تأتي في المواسم لزيارته والذبح له حتى زاد عدد الاصنام في الكعبة على ثلثمائة صنم وفيها الكبير والصغير . ومنها ماهو على هيئة الآدميين أو هيئة بعض الحيوانات أو النباتات

سوق عكاظ

وكان على مقربة من الطائف سوق يجتمع اليها الناس في الاشهر الحرام فينصبون خيامهم بين نخيله يبيعون ويشترون ويتبادلون . وهي سوق عكاظ المشهورة . وكان للعرب أسواق أخرى في أماكن أخرى . ولكن هذه كان يجتمع فيها أهل البلد المجاور لها . وأما عكاظ فكانت تتوافد اليها العرب من كل جهة . وزادت قريش في بواعث الاجتماع اليها انهم جعلوها مسرحاً للادب والشعر تتسابق فيه القبائل الى

اظهار نوابغها من الشعراء والخطباء فيتناشدون ويتحاجون ويتفاخرون . ومن كان له أسير سعى فى فدائه ومن كانت له حكومة قدم ما يقوم له بأمر الحكومة . وكان لعكاظ في أيام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل في ما قد يقع من الخلاف أو نحوه. والغالب ان يكون ذلك الحاكم من بني تميم . ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ وقفوا في عرفة . ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويرجعون إلى مواطنهم

وكان رجال قريش يرحلون للتجارة رحلتين فى العام رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى بصرى في حوران بضواحى الشام . فكانت مكة واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام وكانت طرق التجارة خطرة إلا عليهم لاعتقاد العرب حرمتهم لانهم ولاة الكعبة . وكانوا كثيراً ما يسافرون الى بلاد فارس أو الى الشام فيأتون من الشام بالانسجة والاطعمة ويحملون من فارس السكر والشمع وغيرها

فالكعبة كانت مصدر ارتزاق أهل مكة ولولاها لم يستطيعوا المقام فى ذلك الوادي وهو غير ذى زرع . على ان أسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدن في أطراف العراق والشام جعلتهم أوسع العرب علما واكثرهم خبرة ودراية . ونظراً لعلاقة الكعبة باسباب معائشهم بذلوا العناية في إدارة شؤونها وسهلوا على الناس القدوم اليها فأنشأوا فيها أماكن للسقاية وأخرى للطعام وجعلوا مايجاورها حرما لا يجوز فيه القتال وتولى بعضهم السقاية وبعضهم الطعام وبعضهم غير ذلك . وما زالت تلك المناصب تتعدد حتى أصبحت قبيل الاسلام بضعة عشر منصباً. هي عبارة عن مناصب الدولة في ذلك العهد اقتسمتها قريش في بطونها وأشهرها عشرة أبطن . هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم . لكل من هذه البطون منصب أو غير منصب واليك هي :

مناصب القرشيين

١ السدانة : وهي الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها يفتح بابها للناس ويقفله ولها المقام الاول عندهم . ومثل هذا المنصب قديم عند اليهود فقد كان عندهم كاهن خاص لحراسة الهيكل يسمونه حافظ الباب . وقد جعل صاحب العقد الفريد السدانة والحجابة منصبين

٢ السقاية : وصاحبها يتولى سقاء الحجاج لقلة الماء في مكة فينشيء حياضاً من الجلد توضع في فناء الكعبة تنقل اليها المياه العذبة من الآبار على الابل فى المزاود والقرب . وما زال ذلك شأنهم حتى حفرت زمزم . وكانت السقاية في بنى هاشم

٣ الرفادة : وهي خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها الى صاحب

الرفادة فيصنع منه طعاماً يأكله الفقراء . وأول من أشار بالرفادة قصى المتقدم ذكره . وكانت الرفادة في بني نوفل ثم في بني هاشم

٤ العقاب : وهو اسم راية قريش فكانوا اذا أرادوا الحرب أخرجوها فاذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه اياها والا فانهم يسلمونها الى صاحبها وهو من بني أمية

٥ الندوة : وهي دار بناها قصي بجانب الكعبة للشورى فيجتمع بها كبار قريش للمشاورة ولا يدخلها الا من بلغ الاربعين من عمره . وكان لا يتزوج رجل ولا امرأة الا في تلك الدار ، ولا يعقد لواء الحرب الا فيها ولا تدرع جارية من قريش الا فيها فيشق صاحب الدار درعها ويدرعها بيده . وكانوا يفعلون ذلك في بناتهم اذا بلغن الحلم . وكانت دار الندوة في أيدي بني عبد الدار

٦ القيادة : وهي امارة الركب وصاحبها يسير أمام الركب في أسفارهم للقتال أو التجارة . وكانت القيادة في بني أمية وصاحبها منهم في أول الاسلام ابو سفيان والد معاوية

٧ المشورة : وصاحبها يستشار في الامور الهامة وكانت في بني أسد . فلم تكن قريش يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليهم

٨ الاشناق : وهي الديات والمغرم وصاحبها اذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشا صدقوه فيه . وكانت لتيم

٩ القبة : هي قبة كانوا اذا خرجوا الى حرب ضربوها وجمعوا فيها ما يجهزون به الجيش أشبه بما يسمى عندنا بالمهمات الحربية

١٠ الأعنة : وهي أعنة الخيل وصاحب هذا المنصب يتولى خيل قريش ويدبر شؤونها في الحرب

١١ السفارة : هي انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب وأرادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيراً . وان نافرهم حي لمفاخرة جعلوا السفير منافراً ورضوا به . وكان آخر سفراء قريش في الجاهلية عمر بن الخطاب قبل ان يسلم

١٢ الايسار : وهي الازلام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة ونحوها اذا هموا بأمر عام من سفر أو قتال فكانوا يستقسمون بالازلام بما يشبه سحب القرعة عندنا وكان يتولى ذلك رجل من بني جمح

١٣ الحكومة : وهي عندنا الفصل بين الناس اذا اختلفوا وتشبه القضاء في الاسلام أو التحكيم

١٤ الاموال المحجرة : وهي أموال كانوا يسمونها لآلهتهم وفيها النقد والحلى وربما أشبهت بيت المال . وكانت ولايتها في بني سهم

١٥ العمارة : ويراد بها أن لا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته (١)

فترى مما تقدم أن بعض هذه المناصب لا أهمية لها على الاطلاق . ولكن يظهر انهم أكثروها ليرضوا كل بطون قريش خوفا من التحاسد واجلالا لقدر الكعبة والمبالغة في تعظيمها

وترى أيضاً انهم جمعوا بها بين السياسة والدين والادارة والحرب ولكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية أو هو نوع من الحكومة لا نرى له شبيها بين الامم المتمدنة وربما اشبهت الحكومة الشورية من بعض الوجوه الا ان للشورى رئيساً كالملك أو السلطان وليس في هذه شيء من ذلك الا ما قد يكون لصاحب دار الندوة أو السدانة من الرياسة

النهضة العربية قبل الاسلام

اذا تدبرت تاريخ العرب قبل الاسلام على غموضه وابهامه تبين لك أمور تدعو الى الاعتبار واعمال الفكرة . منها أن العرب على اختلاف القبائل والبطون قلما نبغ فيهم شاعر أو خطيب أو حكيم أو كاهن في عصورهم الجاهلية الاخيرة الا بعد دخولهم في القرن الاول قبل الهجرة . ولا يعترض بضياع أخبار من ظهر منهم قبل ذلك التاريخ فقد حفظوا أخبار عاد وثمود وصالح وهود قبل ذلك بقرون متطاولة وذكروا بضعة شعراء ظهروا قبل القرن الاول المذكور . فلو نبغ غيرهم من الشعراء أو الخطباء لما ضاع ذكرهم ضياعاً تاماً . وأما تاريخهم في جاهليتهم الاولى وهم في بابل أو اليمن فلم يصلنا منه مايشفى الغليل

فتكاثر الشعراء والخطباء والحكماء في القرن الاول قبل الاسلام دفعة واحدة ما عبرنا عنه بالنهضة العربية أو الادبية . على انها لم تكن تقتصر على الادب والشعر ولكنها شملت الدين . فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الافكار واختلطت الاعتقادات وأصبح أهل الجاهلية لا يعرفون لمن يصلون ولا إلى من يتوسلون . يذبح أحدهم للصنم ويدعو الى الله . وفيهم عبدة الحجارة وعبدة النار وعبدة الاصنام . وفيهم

(١) العقد الفريد ٣٨ ج ١

الموحدون والمشركون وغير ذلك من أنواع العبادات المتضاربة. وظهر في أثناء ذلك الاضطراب من حرم الخمر ورفض الاصنام . وأصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة. وكان ذلك حديث الناس في مجالسهم. فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة وهم بعضهم بادعائها مما يدل على تنبه الاذهان الى أمر الدين والتفكير في عواقب الاعمال

سبب تلك النهضة

بينا في ما تقدم استعداد العرب العدنانية للنهوض وأهليتهم للتمدن لما فطروا عليه من صفاء الذهن وسرعة الخاطر . ولكنهم لم يكونوا يستخدمون تلك القوى لاشتغالهم بالغزو وقعودهم عن طلب العلى مع بعدهم عن العالم المتمدن . والانسان تظهر قواه بالفرك أو الضغط شأن القوى الطبيعية . فالفرد لا يسعى في طلب العلى غالباً الا اذا عضه الفقر فأحرجه الرزق أو نافسه منافس في أمر يبعث الى الاستئثار به

أما الامم فانما يدعوها إلى طلب العلى الحروب الخارجية أو الثورات الداخلية . والاولى اكثر تأثيراً لما يرافقها غالباً من الاختلاط بالامم الاخرى . وفي ذلك من الاحتكاك ما يدعو إلى الاقتباس والمنافسة . وفي التاريخ شواهد كثيرة على ذلك

سطو الحبشة

ومن هذا القبيل ما أصاب العرب في القرنين الاخيرين قبل الاسلام . كان عرب الحجاز قبل الاسلام يعتقدون الاذعان لدولة حمير اليمنية وكانوا يؤدون لها الاتاوة . ثم سطا الاحباش على اليمن في القرن الرابع للميلاد وبعده . وتغلبوا على الحميريين فقلت هيبتهم في قلوب العدنانيين

لكن هؤلاء ظلوا على الطاعة بعامل الاستمرار . فاتفق أن الحميريين شددوا في طلب الاتاوة في سنة محل وضيق فضاق العدنانيون ذرعاً وتحدثوا في الخروج من



خرطوش بحرف المسند فيه اسماء ابرهة وارياحيس وزبيمان من قواد الاحباش في اليمن

الطاعة . وأول من فعل ذلك ربيعة في أواخر القرن المذكور واقتدى به غيره [١] فكان ذلك من بواعث استنهاض الهمم

ثم سطا الاحباش على الحجاز في أواسط القرن السادس للميلاد يريدون فتح مكة والاستيلاء على الكعبة . وكانت سدانتها يومئذ الى عبد المطلب جد النبي فجاء الاحباش بأفيالهم ورجالهم وعدتهم وأهل مكة لم يعودوا شيئاً من ذلك لما للكعبة من المنزلة الرفيعة فى نفوس القبائل وغيرهم. فلما رأوا الاحباش قادمين شعروا بما يهددهم من الخطر وأحسوا بافتقارهم الى الاتحاد لدفع الاجانب عنهم . فدفعوا الاحباش وقد تنبهت أذهانهم وأخذت مواهبهم في الظهور

ومما يدل على شدة تأثير ذلك الهجوم في نفوسهم انهم جعلوا يؤرخون منه وهو ما يسمونه عام الفيل وكانوا قبل ذلك يؤرخون بموت الوليد بن المغيرة من مخزوم أو هشام بن المغيرة [٢] . ولم يقتصر تأثير ذلك الاحتكاك على تلك النهضة الادبية او الدينية . لكنها أنتجت رجالا نبغوا فى السياسة والقيادة والادارة وكانوا من اهم العوامل تأثيراً في سرعة نشر الاسلام . كما انتجت الثورة الفرنسوية بونابرت ورجاله

ومهما يكن من السبب فان بلاد العرب كانت قبل الاسلام في نهضة أدبية دينية تمهيداً لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتها - ومثل هذه النهضة تتقدم الدعوات الدينية على الغالب استعداداً لقبولها

(١) العرب قبل الاسلام ٢٢٣ ج ١ (٢) الاغاني ١١ ج ١٥

الدولة الاسلامية

كيف نشأت

فرغنا من المقدمات التمهيدية في حال بلاد العرب قبل الاسلام فنتقدم الى الكلام في نشوء الدولة الاسلامية وكيف تكونت وتطورت حتى صارت على ماعرفناه منها في ابان التمدن الاسلامي

الدعوة الاسلامية

نشأة النبي الاولى

تلك كانت حالة العرب في الحجاز لما ظهر النبي صاحب الشريعة الاسلامية ودعا الناس الى التوحيد . فأظهر دعوته سنة ٦٠٩ للميلاد وعمره أربعون سنة ولا يسع المقام تفصيل سيرته وانما نذكر هنا ما يتعلق بالموضوع لبيان الاسباب التي رافقت ظهور الدعوة وساعدت على انتشارها

ولد صاحب الدعوة الاسلامية وقد مات أبوه . وبعد ست سنوات ماتت أمه فكفله جده عبد المطلب وكانت له السقاية والرفادة من مناصب الكعبة وله مقام رفيع في قريش . لكنه توفي بعد سنتين فكفله عمه أبو طالب وكان وجيهاً محترماً فشب محمد في بيته كأحد أولاده . وكان أبو طالب صاحب تجارة مثل سائر قريش فكان اذا خرج في تجارة اصطحبه في أسفاره فاشتهر منذ حداثته بالحصافة والذكاء وصدق السريرة حتى لقبوه بالأمين واشتهر في مكة بهذا اللقب . فعرفت به خديجة بنت خويلد وكانت ذات ثروة وتجارة فعهدت اليه الاتجار بمالها فاتجر وربح فازدادت إعجاباً به فعرضت عليه الزواج بها فتزوجها وتمتع بمالها . فوسعت حاله وأصبح من أهل الرخاء واليسار والكل يحبونه ويحترمونه

الدعوة

ولما بلغ الاربعين من عمره مال الى الخلوة والاعتزال عن الناس فأوى الى الجبال والشعب كما يفعل النساك . وأول ما ابتدىء به الرؤيا الصالحة . وفي رمضان من تلك السنة كان في جبل حراء على ثلاثة أميال من مكة وخديجة معه (١) وأسرع يوماً

(١) ابن الاثير ٢٨ ج ٢

اليها وأخبرها ان جبرائيل ظهر له وأمره أن يقول : « اقرأ باسم ربك الذي خلق - الآية » فقرأها وانه خرج الى وسط الجبل فسمع صوتاً من السماء يناديه : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » فذعر وأسرع الى خديجة فأخبرها وكان لها ابن عم اسمه ورقة بن نوفل قرأ الكتب ونظر فيها وخالط أهل التوراة والانجيل وسمع أقوالهم . وكان مشهوراً في مكة بسعة العلم في الدين والنبوات . فذهبت اليه وأخبرته بما كان فقال : « والذي نفس ورقة بيده لان صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه نبي هذه الامة »

فرجعت خديجة اليه وأخبرته بقول ورقة فاطمأن باله ورجع الى مكة وهو لا يجسر على اظهار دعوته لعلمه بما سيكون لها من ثقل الوطأة على قريش لما فيها من تعييب آلهتهم وتحقير أصنامهم . وفي ذهاب تلك الاصنام ذهاب تجارتهم وأموالهم وكل آمالهم . ولم يكن من الجهة الاخرى يتوقع اذا أنبأهم برسالته انهم يصدقونه فعمد الى بث دعوته سراً بين أقرب الناس اليه . قضى في ذلك ثلاث سنين فاجتمع حوله نفر قليلون في جملتهم ابن عمه علي بن أبي طالب وكان لا يزال غلاماً وابو بكر الصديق وكان من وجهاء قريش وابو عبيدة بن الجراح وغيرهم . فهم بدعوة الناس جهاراً وبدأ بعشيرته الاقربين فكلف ابن عمه علياً أن يصنع لهم طعاماً يدعو أهله اليه وفيهم عمومته بنو عبد المطلب وأولادهم وهم نحو أربعين رجلا . فدعاهم الى بيت أبيه أبي طالب . فلما فرغوا من الطعام هم محمد بالكلام وكان أهله قد سمعوا بدعوته سراً واستخفوا بها . فلما هم بالكلام علموا انه سيدعوهم الى ترك الاصنام وعبادة الله فابتدره عمه أبو لهب وكان أشدهم وطأة عليه فأسكته فسكت وتفرقوا ولم يقل شيئاً

لكنه لم يفشل ولا ضعفت عزيمته فأعاد الوليمة ثانية وقد صمم على التصريح بما في ضميره فلما فرغوا من الطعام قال:« ما أعلم ان انساناً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم اليه فأيكم يوازرني في هذا الامر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم »(١) فظلوا ساكتين وجل سكوتهم استخفافاً . فتقدم علي بن عمه وقال: « انا يانبي الله أكون وزيرك عليهم » فاخذ النبي برقبته وقال : « هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا » فقام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب:« قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه » ثم انصرفوا

(١) ابو الفداء ١١٩ ج ١

النبي وقريش

على ان استخفافهم هذا لم يقعده عن عزمه ولا أبعده عن قومه . وبدلا من وقوفه عند ذلك الحد تهيباً وحذراً جاهر بسب الاصنام ونسب أهله وآباءهم الى الكفر والضلال . فلما علموا بمجاهرته بسب الاصنام أجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمدوا أذيته لكنهم لم يروا سبيلا الى ذلك وهو في كفالة عمه أبي طالب . فجاءوا عمه وفيهم أبو سفيان فقالوا له : « ياأبا طالب ان ابن اخيك عاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فانهه عنا أو خل بيننا وبينه » فردهم أبو طالب رداً حسناً ووعدهم خيراً

ثم رأوه لايزال عاملا على سب آلهتهم فعادوا الى ابي طالب وقد اشتد بهم الغيظ وقالوا له : «ان لم تنه ابن أخيك والا نازلناك واياه حتى يهلك أحد الفريقين » فعظم ذلك على ابي طالب وأدرك عاقبة الامر فلما عادوا من عنده قال لابن أخيه : « يا ابن أخى ان قومك قالوا كذا وكذا » فظن عمه يخذله فشق عليه ذلك وقال : « ياعم لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر في شمالى ما تركت هذا الامر » وبكى وهم بالانصراف فناداه عمه وقال له : « قل ما أحببت فو الله لا أسلمك أبداً »

وكانت دعوته في أثناء ذلك تذيع على مهل وقد أسلم جماعة من خيرة الناس كان لهم شأن عظيم في التاريخ الاسلامى منهم ابو بكر الصديق وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وحمزة بن عبد المطلب (عمه) وعمر بن الخطاب . وكان لاسلام هذين الآخيرين وقع حسن عند النبي لانهما كانا من أهل الوجاهة والقوة

أما سائر أعمامه وأهله فلما يئسوا من وساطة عمه ابي طالب رأوا أن يحتالوا في استرضائه بالحسنى فبعثوا اليه وقد اجتمع كبارهم فى ندوة . فجاء فاستقبلوه بالترحاب وقالوا له:« ياحمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا والله لا نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه مثل ماادخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما بقى أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك . فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالا . وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا . وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك »

فقال لهم : « مابي ما تقولون وما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف

فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً . فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم . فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم »

فلما لم يروا سبيلا اليه جعلوا يعذبون الذين اسلموا وصدقوادعوته والمسلمون صابرون على ذلك العذاب . حتى اذا اشتد أذى قريش لهم وضاقوا ذرعاً عن تحمل ماكانوا يسومونهم من سوء العذاب والاهانه أشار النبي على الذين ليس لهم عشيرة تحميهم أن يخرجوا من مكة الى أرض الحبشة . فهاجروا اليها تباعاً فبلغ عدد المهاجرين ٨٣ رجلا ماعدا النساء والاولاد وهى الهجرة الاولى . ولا يخفى ما تقتضيه الاسفار من مكة الى الحبشة من المشقة لما في ذلك من ركوب البحر وخصوصاً في تلك الازمان مع ما حملوه معهم من النساء والاطفال . فيدل ذلك على ما كان عليه هؤلاء من الاعتقاد المتين بالاسلام

ويليق بناالوقوف هنيهة فيهذا المقام لابداء ماارتسم في مخيلتنا من أمرهذه الدعوة على أثر مطالعتنا الطويلة فى تاريخها فنقول :

هل كان يعتقد صدق رسالته

زعم بعض الكتاب من غير المسلمين ان صاحب الشريعة الاسلامية انما قام بهذه الدعوة طمعاً بالسيادة ورغبة في ملاذ الدنيا

وأما نحن فلا نرى مسوغاً لهذا القول وتاريخ الدعوة يدل دلالة صريحة على أنه انما قام بها عن صدق واخلاص . فلم يدع الناس الى الاسلام الا وهو يعتقد اعتقاداً متينا بصحة رسالته وان الله أرسله لبث تلك الدعوة . ولولاهذا الاعتقاد لم يصبر على ما ناله من الاضطهاد وضروب العذاب . وقد رأيت أنه كان قبل ظهوره بالدعوة موضع احترام أهل مكة كافة . وأهله يحبونه ويكرمونه وهو في عيش هنيء لما اكتسبه من اسباب اليسار بزواجه بخديجة واتجاره باموالها . فأصبح بعد ظهوره بالدعوة وقد ناصبه أهل مكة العداء وساموه أنواع العذاب وأهانوه . حتى تقموا على بني هاشم لانهم اهله فتعاقدوا عليهم ان لا يناكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة أودعوها في جوف الكعبة . فاضطر بنو هاشم ان ينفردوا الى الجبال فأقاموا في الشعب ثلاث سنين لا ينزلون مكة الا خفية — الا من جاهر منهم بعداوته كأبي لهب ونحوه

ولا يعترض على ما تقدم بأنه لم يثبت الا لاحتمائه بعمه ابي طالب . لاننا رأيناه بعد وفاة عمه أكثر ثباتاً منه في حياته . مع ان الناس أصبحوا اكثر اضطهاداً له مما كانوا قبل وفاته . وخصوصاً بعد وفاة خديجة وقد ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين . فتتابعت بموتهما المصائب عليه واستبدت به قريش ولا سيما عمه أبو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن أبي معيط لانهم كانوا جيرانه بمنزله . فكانوا يلقون الاقذار في طعامه ويرمونه بها وقت صلاته

حتى اذا لم يعد يستطيع صبراً على هذا الضيم فر الى الطائف لعله يلقى فيها من ينصره ويؤمن بدعوته . فلم يلق إلا الاعراض والاهانة . فعاد وقد يئس منهم لكنه لم يرجع عن حرف من دعوته . ولم يكتف أهل الطائف باعراضهم عنه بل أغروا بعض سفهائهم وعبيدهم أن يسبوه ويصيحوا به ففعلوا حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى الحائط وردوا السفهاء عنه فرجعوا . فأحس عندئذ بما هو فيه من ضيق فشكا أمره الى الله وعاد الى مكة ولم يغير ذلك شيئاً من عزيمته . فلقيه قومه هناك وهم أشد وطأة عليه مما كانوا من قبل

فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبهم وبعيدهم مع علمه انه اذا رجع عن دعوته لقي منهم ترحاباً واكراماً كما صرحوا له جهاراً لكنه لم يكترث لشيء من ذلك ولا همه امر الدنيا

فلولا اعتقاده المتين بصدق الدعوة التي قام بها وانه منتدب لهذه الرسالة من الله سبحانه وتعالى لما صبر على كل ذلك

أهل المدينة والدعوة

ولما يئس من أهله ومواطنيه جعل يعرض نفسه على القبائل في أيام الحج لعله يلقى فيهم من يصغى اليه وأهله يعترضونه ويقفون في سبيله . وخصوصاً عمه أبولهب فانه كان إذا رآه في جماعة يخاطبهم في شأن الاسلام اعترضه وقال للناس : « انما يدعوكم ان تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم الى ما جاء من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » . ولكن ذلك لم يقعده عن دعوة الناس وما زال يعرض نفسه عليهم في المواسم حتى بايعه نفر من أهل يثرب كانوا وسيلة لنشر الاسلام في تلك المدينة في برهة قصيرة

ولعل السبب في سرعة انتشار الاسلام هناك كثرة من في المدينة من اليهود وهم أهل كتاب يعتقدون الوحي ويدركون معنى النبوة . وليس فيهم من يخاف على تجارته إذا بطلت عبادة الاصنام . بل هم يفضلون إبطالها لتسقط مكة وتنهض مدينتهم

وخصوصاً اذا هاجر اليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزاً للدين الجديد يحج اليها الناس بدلا من حجهم الى مكة . واليهود كما لايخفى أهل نظر فى التجارة واصحاب فراسة في أبواب الكسب . ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة والتحاسد لتباعدهما في الانساب . لان أهل مكة من العدنانية وأهل المدينة من القحطانية عرب اليمن . فنشطه أهل المدينة ودعوه اليهم على أن ينصروه . فهاجر اليهم سنة ٦٢٢ للميلاد . وهاجر معه من بايعه من قبيلته وهم « المهاجرون » تمييزاً لهم عن الفئة الاخرى من الصحابة وهم « الانصار » أهل المدينة . سموا بذلك لانهم نصروا النبي في مدينتهم . وبهذه الهجرة يؤرخ المسلمون وقائعهم الى الآن

ولقي المسلمون في المدينة ترحاباً عظيما فاشتد أزرهم وتحولوا الى محاربة أهل مكة فجعلوا يناوشونهم في أثناء مرورهم بتجاراتهم بين الشام ومكة وفي أماكن أخرى وهي الغزوات المشهورة. أعظمها غزوة بدر الكبرى التى انتصروا فيها وكانت فاتحة نصراتهم في الغزوات الاخرى حتى أخضعوا جزيرة العرب كلها وفتحوا مكة وأسلم القرشيون كافة . فوجه النبي التفاته الى العالم الخارجي وخاطب الملوك يدعوهم الى الاسلام كما سيأتي

الروم والفرس

عند ظهور الاسلام

الروم

تأسست رومية سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وتأسست معها الدولة الرومانية وظلت رومية كرسى تلك الدولة عشرة قرون ونصف قرن وقد فتحت العالم المعمور يومئذ كله . ففى سنة ٣٢١ للميلاد نقل كرسى الملك الى بيزانتيوم وانتقل اليها قسطنطين الكبير وسماها القسطنطينية وهو اسمها الى اليوم . وبعد وفاته سنة ٣٣٧ م اقتسم المملكة أولاده الثلاثة ثم أفضت الى واحد منهم توفي سنة ٣٦٠ م فخلفه يوليان ثم جوفيان سنة ٣٦٤ م ثم توفي هذا بعد بضعة أشهر فانتخب الرومان امبراطوراً اسمه فالنتيان . وبعد قليل نصب فالنتيان أخاه فالنس امبراطوراً على رومية . وتم انفصال المملكة الرومانية على أثر ذلك الى مملكتين احداهما شرقية عاصمتها القسطنطينية والاخرى غربية عاصمتها رومية . وكانت الاولى أسعدهما حظاً وأطول عمراً فأصبحت القسطنطينية مبعث العلم ومركز السلطنة ومرجع الدين

وكانت حدود المملكة الرومانية الشرقية في القرن الخامس للميلاد تنتهي في الغرب بالبحر الادرياتيكي وفى الشرق بضفاف دجلة . وتمتد حدودها الشمالية الى اعالى بلاد التر . وتنتهي فى الجنوب الى بلاد الحبشة . وأرقى عصور هذه المملكة بعد قسطنطين الكبير عصر يوستنيان (من سنة ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) تولاها ٣٧ سنة قضى الخمس الاولى منها بمحاربة الفرس الساسانية وانتهت الحرب بمعاهدة سموها « معاهدة الصلح الدائم » لكنها لم تدم . ومن حسن حظ هذا الامبراطور أنه مني بقائد من أشهر قواد العالم اسمه بليزاريوس فتح له ايطاليا ورفع أعلامه فوق أسوار رومية وفتح شمالى افريقا وغيرها . وكان عوناً له في سائر فتوحه وساعده الاقوى في توسيع نطاق مملكته

الفرس

والعداوة بين الفرس والروم (اليونان) قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد . وسببها التنازع على السيادة في العالم لانهما كانتا أعظم دول الارض في تلك العصور . فارادت كل منهما الاستئثار بالسلطة دون الاخرى . واتصلت تلك العداوة الى زمن الاسكندر الكبير ثم الرومان الى ايام الاسلام

وافضى عرش الفرس في أيام يوستنيان المذكور الى كسرى أنوشروان المشهور



القائد بليزاريوس يقود جنوده في احدي المعارك ضد الفرس

بالعادل . فلم تعجبه مصالحة الروم فحمل عليهم بخيله ورجله . ففتح سوريا واحرق انطاكية ونهب آسيا الصغرى . فبعث يوستنيان اليه بليزاريوس فحاربه ورده على اعقابه ثم عاد وعادوا وتوالت الحروب بين الدولتين نحو عشرين سنة (سنة ٥٤١ ـ ٥٦١ م) وقد مل الملكان وشاخا فتوافقا على صلح قضى فيه على يوستنيان بجزية سنوية مقدارها ٣٠٠٠٠ دينار . وظلت حدود المملكتين كما كانت قبل الحرب

وللامبراطور يوستنيان ذكر مجيد في تاريخ المملكة الشرقية لما اكتسبت في عصره من النفوذ وما أتاه من الاعمال التي أحيت ذكره مدى الدهر بما سنه من القوانين والشرائع التى كانت اساساً لما وضع بعدها الى اليوم . وقد أدخل صناعة الحرير الى اوربا وبنى الكنائس والمعاقل والقصور . واشهر ما يذكر به كنيسة ايا صوفيا التي جعلها العثمانيون عند فتح القسطنطينية جامعاً لايزال معروفاً بهذا الاسم الى اليوم

ولكن الدول المطلقة انما يكون حظها من السعادة أو الشقاء كما يكون ملكها . فان



كنيسة ايا صوفيا التى بناها يوستنيان وهي الآن جامع

كان عظيما عظمت أو كان حقيراً حقرت . فلما توفي يوستنيان خلفه اناس لايليقون بالملك فلم تعد تعرف السعادة بعده ـ خلفه ابن أخيه يوستين الثانى ثم طيباريوس ثم الامبراطور موريس (موريقوس) وقد ضعف أمر الدولة . فاراد هذا الامبراطور ان يقويها بفتح الشرق فناصب الفرس وحاربهم سبع سنين وقد توفي كسرى انوشروان

سنة ٥٧٩ م وخلفه ابنه هرمز الرابع وكان عاتياً فثار عليه رعاياه فاشتغل باخماد ثورتهم والروم يوغلون فى بلاده من العراق . والتركمان يسطون عليها من الشمال والشرق حتى كادت تذهب فريسة الفاتحين ـ لولم يقيض لها الله قائداً شهيراً يعرف بهرام فحارب العدوين وأنقذ البلاد منهما . فمال الفرس اليـه فانزلوا هرمز وسملوا عينيه وملكوا عليهم ابنه كسرى برويز . فلم يقبل بهرام به وأذله ففر برويز الى القسطنطينية واستنجد الامبراطور موريس فانجده بجيش تغلب به على بهرام واعاد الملك لنفسه فعرف برويز ذلك الفضل لموريس وما زال على ولاء الروم الى وفاة موريس

أما هذا فقد مات مقتولا سنة ٦٠٢ م وخلفه الامبراطور فوقاس وكان فوقاس جاهلا فأبغضته الرعية والتمسوا من ينقذهم منه . وكان من جملة ولاة الامور يومئذ وال على أفريقية اسمه هراكليوس (هرقل) فاستنجده أهل القسطنطينية . فأنفذ اليهم عمارة بحرية . فقتل فوقاس وتربع في دست الامبراطورية مكانه سنة ٦١٠ وفي أيامه ظهر الاسلام

بين الروم والفرس

فرأى برويز بابا لمناوأة الروم فادعى انه يريد الانتقام من قتلة صديقه موريس فزحف بجنده على سوريا سنة ٦١٤ م واليهود انصاره فيها ففتحها وفتح مصر واستولى على انطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن أخرى من سوريا وفلسطين . ثم أباح لجنده نهب اورشليم فنهبوها وأحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا

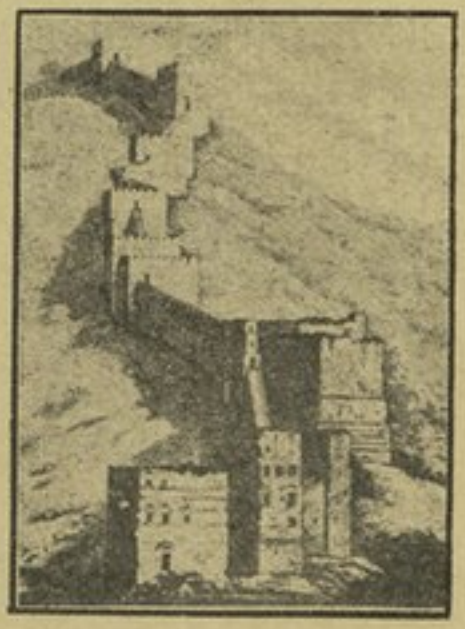

أسوار انطاكية

خزائنها وحملوا بطريركها والصليب الحقيقي الى بلادهم وواصلوا القتل والنهب في سوريا سنة ٦١٦ م فكان عدد الذين قتلوا من المسيحيين ٩٠٠٠٠ نفس وأرسلوا جنداً آخر الى آسيا الصغرى ففتحوها والنصر رفيقهم حيثما حلوا حتى كادوا يطأون شواطىء البوسفور



هرقل ملك الروم وحاشيته

كل ذلك والامبراطور هرقل معتزل في قصره وقد انغمس في اللهو والقصف والترف لايبالي بما يهدد مملكته . وكأنه لما تحقق وقوع الخطر نفض غبار الخمول عن عاتقه وخرج للدفاع . ولم يكن عنده مال ينفقه في التجنيد فاقترض أموال الكنائس على أن يعيدها بعد الحرب مع رباها . وحشد جنده وركب البحر الى كليكيا في آسيا الصغرى واحتل ايسوس فلقيه الفرس هناك فحاربهم وغلبهم سنة ٦٢٢ م وفي هذه السنة هاجر المسلمون من مكة الى المدينة

قضى هرقل في محاربة الفرس ثلاث سنين متوالية حتى اوغل في بلادهم واضطر برويز ان يسحب جنده للدفاع عن قلب مملكته

أما هرقل فانه حاربه مرة اخرى سنة ٦٢٧ م فاجهز على قواته وانكسر الفرس انكساراً عظيما . وبلغت جنود الروم نينوى عاصمة الاشوريين القديمة وهي اول مرة وطىء الروم تلك المدينة . وكان برويز قد أصبح شيخاً طاعناً في السن فاوصى بالملك

لابنه مردز . وكان له ابن آخر اسمه شيرويه حسد اخاه وعمد إلى الكيد به وبأبيه فاستعان ببعض الناس حتى قبض على من بقى من اولاد برويز وهم ثمانية عشر ولداً فقتلهم جميعاً بين يدى ابيه وزج اباه في السجن حتى مات

وبموت كسرى برويز انقضى مجد الدولة الساسانية ولم يعش ابنه شيرويه بعده الا ثمانية اشهر فأصبحت حكومة الفرس فوضى وادعى الملك تسعة ملوك في أثناء اربع سنوات . فساد الفساد وتمكن الاختلال فيها فجاءها المسلمون وهى فى تلك الحال



كسرى برويز ملك الفرس ذاهب للصيد (١)

ناهيك بما كان يهدد الروم فى اوربا من هجمات برابرة القوط . وكان هؤلاء فى اوائل الاسلام قد استولوا على غربى هنكاريا (المجر) . وزد على ذلك ان الهونيين كانوا في اثناء ذلك يهددون مملكة الروم من جهة الشرق

الانقسامات الدينية

ولم يكن الاختلال في الروم والفرس مقصوراً على الوجهة السياسية والادارية ولكنه كان يتناول الاحوال الاجتماعية والدينية بما تفاقم فيها من الانقسامات المذهبية

(١) Browne, Lit. Hist. of Persia, (frontis piece)

مما هو مشهور. فقد كان الروم حوالى القرن السادس للميلاد في منتهى التضعضع لتعدد الفرق وتشعب المذاهب وخصوصاً في مايتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيئة والمشيئتين. واكثر اختلافهم على الالفاظ والجوهر واحد

فكان الامبراطور واهل دولته يقولون ان للمسيح طبيعتين ومشيئتين وأمارعيته في مصر والشام فكان اكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة .وفى زمن هرقل سعى البطريرك اثناسيوس بطريرك اليعاقبة في منبج في التوفيق بين الطائفتين فخاطب الامبراطور في ذلك وذهب مذهباً متوسطاً بين القولين وهو أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة. فوافقه الامبراطور واستمهله ريثما يخابر البطريرك القسطنطيني بيروس وهو سوري الاصل . وكان اثناسيوس قد اتفق معه على ذلك قبل مخاطبة الامبراطور . فنشر الامبراطور بهذا المعتقد منشوراً قبل به اكثر الاساقفة الشرقيين الا صفرونيوس البطريرك الاورشليمى وبعض الاساقفة . وفي مقدمتهم اسقف عمان وسائر أهل الكنيسة الملكية . فشق ذلك على الامبراطور فعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا بمنشوره وفيهم جانب عظيم من الروم . فأصبح الانقسام مزدوجاً : الامبراطور والبطريرك القسطنطيني والاسكندري والانطاكي حزب يقول بطبيعتين ومشيئتين ، واليعاقبة ومنهم الاقباط وأهل حوران وسائر اهل داخلية سوريا ومصر حزب آخر . والنساطرة وهم اهل العراق والجزيرة حزب آخر . فضلا عن طوائف أخرى غير هذه منهم الخياليون يقولون ان المسيح لم يصلب حقيقة وانما صلب رجل آخر مكانه . والاكيفاليون القائلون بعدم الخضوع للرؤساء وهم يشبهون الخوارج . ثم ان اليعاقبة أيضاً كانوا اقساماً مما يطول شرحه

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد فى السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين حتى آل ذلك أحيانا الى خروج امم بأسرها من حوزة الروم الى الفرس . كما حصل بالارمن فانهم لما حرم المجمع القسطنطيني بدعة الطبيعة الواحدة جعل الامبراطور يشدد النكير على متبعيها والارمن منهم فافضت بهم الحال الى تسليم بلادهم الى الفرس . وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص فقد كانوا عوناً له في فتحها للسبب عينه

التباغض بين الروم واليهود

غير ما كان من التباغض القوي بين اليهود والروم بنوع خاص لما اقتضاه تعصب تلك الايام . وقد بلغ هذا التباغض حده في أيام هرقل فثار اليهود في انطاكية فقتلوا

بطريركها ومثلوا بجثته تمثيلا قبيحاً . فارسل اليهم هرقل فقتل منهم جمعاً غفيراً . وثاروا في صور عاصمة فينيقية وقتلوا واليها . وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلسطين على ان يدخلوا مدينة صور ليلا ويقتلوا النصارى . فاطلع مطران صور على المكيدة فاخبر الوالي بها فنبه الوالي الحامية والبوابين والحراس ان يكونوا تلك الليلة على حذر . ولما جن الليل هجم اليهود من خارج الصور فردهم الجند على أعقابهم فرجع اليهود الى الاديرة والكنائس بجوار المدينة فهدموها وسلبوا آنيتها . وفعلوا مثل ذلك فيما جاورها من القرى . فعاقبتهم الحكومة فقتلت كل يهود صور

وحدث مثل ذلك في قيسارية فلسطين فارسل الملك أخاه ثاودورس فقتل من كان فيها من اليهود . فاشتد غيظهم على المملكة في كل انحائها . وزاد الروم خوفاً من اليهود وحذراً منهم ان بعض أهل التنجيم انبأوا الملك ان رجلا من اهل الختان سيأخذ المملكة منه . ويقول العرب ان المراد بأهل الختان المسلمون . ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية في الروم انهم اشتروا من الفرس ثمانين الفاً من اسرى النصارى وذبحوهم

ولم يكن التباغض محصوراً بين اليهود والروم لكنه كان بينهم وبين النصارى على الاجمال . وكانت حكومات النصارى اذا سنت قانوناً خصصت بنوداً منه بشأن اليهود لمعاملتهم بالاحتقار . كما فعل القوط حكام اسبانيا نحو زمن الفتوح الاسلامية فقد سموا اليهود اعداء الحكومة القوطية . وكانت المجالس الملية في تلك المملكة قد قررت الغاء الديانة الاسرائيلية فامرت الحكومة بمنع اليهود من الاحتفال باعيادهم . واجبرتهم على النصرانية وضيقت عليهم تضييقاً شديداً حتى اضطروا للتظاهر بالنصرانية وقلوبهم مازالت يهودية تكاد تنفجر حقداً وكظماً على ما نالهم من صنوف العذاب . ولم يكن القوط يجهلون تكتمهم ولذلك لم يكونوا يعاملون المتنصرين منهم معاملة المسيحيين الاصليين . بل حرموهم من كل الحقوق المدنية وحظروا عليهم اقتناء العبيد وتمادوا في اذلالهم حتى منعوهم من القراءة . فهل نستغرب بعد ذلك اذا كان اليهود عوناً للعرب المسلمين على حكامهم المسيحيين . . ؟

حالة الفرس الداخلية

أما الفرس فقد كانت هيئتهم الاجتماعية في غاية الانحطاط قبل الاسلام بمدة طويلة لانشقاق عصاهم بتشعب المذاهب عن مانى ومزدك . ومن غريب دعوى هذا الاخير ان الهه بعثه ليأمر بشيوع النساء والاموال بين الناس على السواء لانهم اخوة أولاد أب واحد . وتبع هذا المذهب قباذ احد ملوكهم فجاء بعده من نقضه وقام غيره

وتشعبت الآراء هناك وفسدت الاخلاق . وفيما كان الروم والفرس على ماذكرناه من الانحلال كان العرب في ابان نهضتهم وقد اجتمعت كلمتهم واشتدازرهم بمن كان يهاجر اليهم من رجال الروم والفرس انفسهم فراراً من تغالب الاحزاب او ضعف الحكام

انتشار الاسلام

يبدأ تاريخ الاسلام بالهجرة فقد هاجر المسلمون من مكة الى المدينة فراراً مما كان القرشيون يسومونهم اياه من الخسف والاهانة وهم قليلون لا يقوون على دفعهم ورأوا من أهل المدينة مؤازرة ونصرة بما أظهروه من البيعة المعروفة ببيعة العقبة . فأمرهم النبي بالهجرة الى المدينة فلاقاه أصحابه هناك بالترحاب وأنزلوه وأنزلوا الذين هاجروا معه على الرحب والسعة

التعاهد بين الانصار والمهاجرين

وأول عمل باشره بعد نزوله هناك المعاهدة بين أصحابه المسلمين (المهاجرين والانصار) وبين اليهود من أهل يثرب على الاتحاد والتكاتف فى الدفاع عن المصالح العامة. وكتب بين الفريقين كتابا يعترفون فيه انهم أمة واحدة. وقد أورد ابن هشام نص ذلك الكتاب (١) ثم خصص المهاجرين من قريش والانصار من يثرب بعهود أخرى سموها المؤاخاة فآخى بين أصحابه المهاجرين والانصار بعهد وثيق . هذا هو الحجر الاول من أساس الدولة الاسلامية والمسلمون يومئذ بضع عشرات. وفرضت الزكاة والصيام وأقيمت الحدود وفروض الحلال والحرام وغير ذلك من دعائم الاسلام. ثم انضم إلى المسلمين بعض وجهاء المدينة فتأيد الاسلام بهم كما تأيد من قبل بحمزة ابن عبد المطلب وعمر بن الخطاب

الغزوات

فلما فرغوا من ذلك فكروا في ما بينهم وبين أهل مكة من العداء . فعمدوا الى مقاتلتهم لنصرة الاسلام فحدثت الغزوات المشهورة وهى أول الحروب الاسلامية. بدأت بالغزو والقتال على عادة العرب في جاهليتهم وانتهت بفتح المدن والممالك . وأشهر الغزوات وأهمها غزوة بدر الكبرى لان فوز المسلمين فيها قوى عزائمهم ونشطهم على موالاة الغزو

(١) سيرة ابن هشام ١٧٨ ج ١

غزوة بدر الكبرى

بدر آبار بين مكة والمدينة تنزل عندها القوافل التجارية المسافرة بين مكة والشام وكان القرشيون أهل تجارة تسير قوافلهم الى الشام تحمل اليها البضائع كما تقدم. فعلم المسلمون في السنة الثانية للهجرة ان قافلة من القرشيين أهل مكة قادمة من الشام ومعها الاموال يحفرها ثلاثون رجلا يرأسهم ابوسفيان بن حرب كبير اهل مكة يومئذ. فانتدب النبي أصحابه لغزو القافلة وأخذ أموالها . فبلغ أبا سفيان ذلك فاستنجد اهل مكة مع رسول انفذه اليهم فجاءه منهم ٩٥٠ رجلا فيهم مئة فارس . وخرج المسلمون وهم ٣١٣ رجلا منهم ٧٠ من المهاجرين والباقون من الانصار . ولم يكن معهم الا فرسان وسبعون جملا . وبلغهم بعد خروجهم من المدينة ان قافلة قريش قاربت آبار بدر . فسبقهم المسلمون الى المكان وبنوا للنبي عريشاً جلس فيه ومعه أبو بكر وتهيأ اصحابه للحرب

ثم رأوا قريشاً مقبلين وهم نحو ثلاثة أمثالهم وفيهم نخبة رجال مكة الذين قاوموا الاسلام وأهانوا النبي وفي جملتهم أبو جهل بن هشام. وعلم النبي ان هذه الواقعة حد الفصلين ـ اما ان ينتصر المسلمون ويتأيد الاسلام اذا غلبوهم . واما ان تعود العائدة عليهم اذا غلبوا. فلما رأى القرشيين قادمين في مثل هذا العدد نظر الى اصحابه فاذا هم قليلون فقال « اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد في الارض »

وباشروا القتال بالمبارزة على جاري العادة ثم قتل أبو جهل فجاءوا برأسه الى النبي فسجد وشكر الله . ودارت رحى الحرب فكان النصر للمسلمين وقد قتل منهم أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار. وقتل من القرشيين سبعون رجلا وفيهم من أشراف كل بطون قريش وخصوصاً بني أمية وبني مخزوم وبني أسد . وأسر منهم سبعون رجلا فيهم عقبة بن ابى معيط فامر بقتله لما كان من أذاه النبي بمكة . وكان اكثر المسلمين جهاداً في تلك الواقعة علي بن أبي طالب ابن عم النبي وحمزة بن عبد المطلب عمه . وفر من بقي من القرشيين وفيهم ابو سفيان بن حرب رئيسهم وعمرو بن العاص الذي صار من اكبر قواد الاسلام فيما بعد. ساروا يطلبون مكة وغادروا الاموال والامتعة فاستولى المسلمون عليها وتنازعوا في تفريقها ففرقها النبي عليهم بالسواء ولم يأخذ لنفسه شيئاً . ثم بعث القرشيون يفتدون أسراهم فاجتمع من ذلك مال كثير . وقد عاد أهل مكة مخذولين فانكسرت شوكتهم وعظم أمر المسلمين. ومما زادهم تأييداً ان أبا لهب المشهور بمقاومة الاسلام لم يخرج يوم بدر من مكة لكنه أرسل من يحارب عنه على جاري عادتهم في من يتخلف عن الحرب . فلما

أخبروه بفشل القرشيين اشتد به الحزن حتى مات بعد بضعة أيام . ولواقعة بدر شأن عظيم في تاريخ الاسلام لانها كانت فاتحة الانتصارات الاخرى

واقعة أحد

ثم ان القرشيين عادوا بعد هذه الكسرة فاجتمعوا في السنة التالية وقائدهم ابوسفيان وعددهم ثلاثة آلاف فيهم ٧٠٠ دارع و ٢٠٠ فرس وتهيأوا للاخذ بثأر قتلاهم في بدر . وساروا لمهاجمة المدينة ومعهم النساء يضربن الدفوف ويندبن قتلى بدر ويحرضن الناس على مقاتلة المسلمين . وكان في جملة رجال الحملة خالد بن الوليد الذي اشتهر بين قواد المسلمين بعد ذلك . فلما أقبلوا على المدينة تشاور النبي وأصحابه فكان رأيه البقاء في المدينة للمدافعة . ورأى مثل ذلك أيضاً رجل من الصحابة اسمه عبد الله بن أبيّ بن سلول . ولكن اكثر الصحابة أشاروا بالخروج عليهم . فأطاع النبي الاكثرية وخرج في الف منهم حتى توسطوا بين المدينة وجبل أحد ـ وباسم هذا الجبل سميت هذه الواقعة (غزوة أحد) وكان ابن أبيّ هذا قد غضب لان النبي خالف رأيه وأطاع الآخرين . فلما توسطوا الطريق تقهقر هو وثلث الرجال وأشاع القرشيون في الجند ان محمداً قتل . ففشل المسلمون ولم يظفروا في هذه الواقعة وقتل منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي . وكان قتله سبباً في زيادة الفشل كما كان اسلامه مؤيداً للاسلام . وبلغت جملة قتلى المسلمين سبعين رجلا وأصيب النبي نفسه بضربة شجت رأسه ودخل بعض حلق المغفر (الدرع) فى الشجة فسال الدم . ومثل القرشيون بقتلى المسلمين تمثيلا شنيعاً فقطعوا الآذان والانوف حتى ان هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان (وأم معاوية) شقت بطن حمزة وأخرجت كبده ولاكتها فلم تستطع أن تبتلعها فلفظتها

وكانت هذه الواقعة أشد ما أصاب المسلمين الى ذلك الحين ـ لكنهم كانوا قد ذاقوا لذة النصر فنسبوا هذا الفشل الى خيانة عبد الله بن أبيّ المتقدم ذكره وعادوا الى مواصلة الغزو حتى كانت واقعة الخندق

واقعة الخندق

وذلك ان قبائل العرب لما رأوا انتصار القرشيين في أحد تحزبوا لأهل مكة وانضموا اليهم وفيهم قريش وغطفان وسائر قبائل العرب وبنو النضير من اليهود . وكان المسلمون قد أجلوهم عن أماكنهم كما سيأتي فحرضوا قريشاً على الحرب . وحملوا على المدينة في بضعة عشر الفاً ونحو اربعمائة فرس والف بعير وهم الاحزاب وبهم

تعرف الواقعة أيضاً . وكان المسلمون لا يزيد عددهم على ثلاثة آلاف فاضطربوا وخافوا وقد تعلموا من الواقعة الماضية ان لا يخرجوا من المدينة

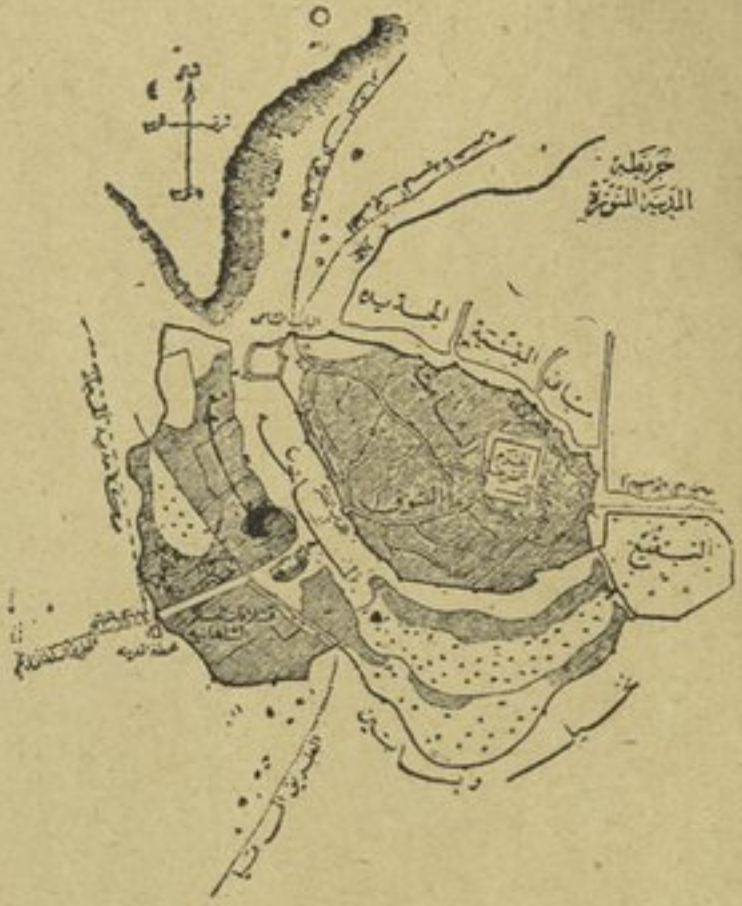

خريطة للمدينة كما هي الآن ـ نقلا عن الرحلة الحجازية

وكان في جملة الصحابة يومئذ رجل من فارس له خبرة بفنون الحرب اسمه سلمان الفارسي فأشار على النبي بحفر الخندق . وكان العرب لا يعرفون ذلك من قبل . فقال له سلمان « كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا فان ذلك من مكايد الحرب » فاستحسن النبى ذلك وأمر بالحفر . وكان هو نفسه يشتغل معهم بحمل التراب ولم يكن عندهم العدد اللازمة فاستعاروا بعضها من بني قريظة . فاحتفروا الخندق حول المدينة فى بضعة عشر يوماً

وأقامت الاحزاب حول المدينة وحاصروها والخندق يمنعهم من مهاجمتها . فقضوا بضعة وعشرين يوماً لا يقاتلون الا بالمراماة بالنبال والحصى . وقد هالهم أمر الخندق وعلموا أنها مكيدة جديدة . على أن بعضهم حاول الوثوب بفرسه من فوق الخندق فسقط فيه واندقت عنقه فزاد الرعب في قلوب الاحزاب . فلما طال بهم

الانتظار عمدوا الى البراز . فخرج أحدهم وطلب البراز فخرج اليه علي بن أبي طالب فقلبه علي . واتفق على أثر ذلك سقوط الامطار وهبوب الرياح فأثرت في خيام الاحزاب وكفأت قدورهم وأهل المدينة فى منازلهم فلما أثرت فيها الانواء . فتشاءم أولئك وعادوا على أعقابهم فزال عن المسلمين عار أحد بهذه الهزيمة

الفتوح

كل ما تقدم من الحروب لا شيء من الفتح فيه وانما هو غزو ومقاتلة . وأما الفتوح الاسلامية فأولها فتح أرض بني النضير وهم يهود حدث حادث دعا الى مطالبتهم بالجلاء عن بلادهم فطلب النبي أن يجلوا عنها فحاصرهم ستة أيام « سنة ٤ هـ » فطلبوا

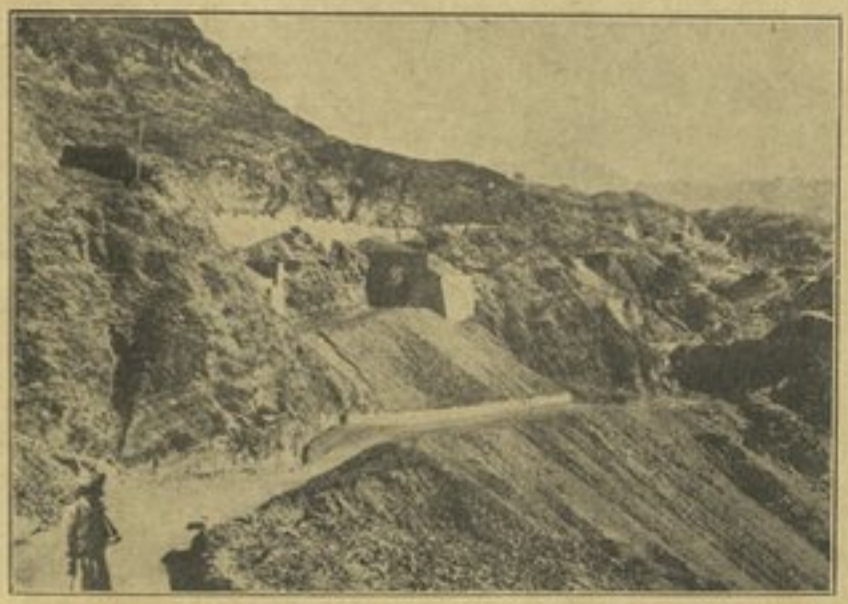

حصن خيبر

اليه أن يخلي سبيلهم على أن يحملوا معهم ماحملت الابل من أموالهم الا السلاح فأجابهم الى ذلك فخرجوا وظل ما بقي من أموالهم فيئاً للنبي خاصة يعطي منه من يشاء . وكذلك حصل في قريظة وخيبر وكان لخيبر حصون كثيرة فتحوها تباعاً

اما القرشيون بعد واقعة الخندق فقد هان عليهم مهادنة المسلمين فعقدوا معهم صلحاً في نحو السنة السادسة للهجرة مفاده « ان من شاء من أهل المدينة ان يقدم مكة للحج او العمرة او أن يجتاز بها الى اليمن او الطائف فهو آمن . ومن قدم من اهل مكة او من معهم من اهل الشام والمشرق ومر بالمدينة فهو آمن »

واقعة مؤتة

فتفرغ المسلمون لنشر الدعوة الاسلامية . وكان لفشل الاحزاب مع كثرة عددهم تأثير شديد على قبائل العرب وعظم الاسلام في نفوسهم . فجعلوا يفدون الى المدينة لقبول الدعوة من تلقاء أنفسهم . وفي جملة الوافدين رجلان لهما شأن عظيم في تاريخ الاسلام هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وكلاهما من أشهر القواد . فاعتز المسلمون بهم واتسعت آمالهم . فأرسل النبي في السنة التالية رسله الى ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام . في جملتها كتاب الى المقوقس والى مصر وبعث جنداً

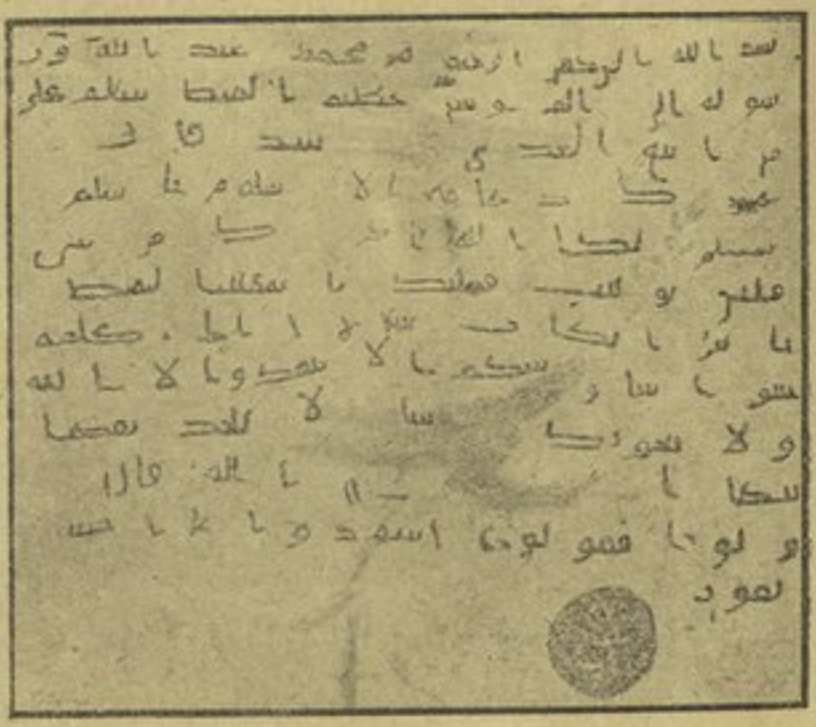

كتاب النبي الى المقوقس عثر عليه بعض الفرنسيين
سنة ١٢٧٥ هـ في كتب ابتاعها من بعض الاعيان (١)

لمحاربة الروم في الشام فحاربوهم في قرية من قرى البلقاء في حدود الشام مما يلي حوران اسمها مؤتة . وتلك أول حروبهم مع الروم ـ والعرب لم يجربوا الجنود المنظمة بعد . فلم يفلحوا فعادوا الى المدينة وقد قتل منهم بضعة من خيرة الصحابة فيهم جعفر ابن أبي طالب أخو علي

فتح مكة

وحدثت في أثناء ذلك حادثة أفضت الى نقض الصلح بين المسلمين وقريش .

(١) تفصيل ذلك في الهلال صفحة ١٠٣ و ١٦٠ سنة ١٣

فرأى أبو سفيان أنهم لم يعودوا يقوون على مناوأة المسلمين . فجاء بنفسه الى المدينة لتجديد العهد . وأدرك المسلمون ضعف عدوهم فلم يغفلوا عن هذه الفرصة فلما سألهم عن الصلح لم يجيبوه جواباً صريحاً عن قبولهم بها [1] فلما عاد الى مكة تجهزوا على عجل لكي يباغتوها قبل أن يتأهب أهلها للدفاع . فساروا حتى أقبلوا عليها وهم عشرة آلاف وفيهم المهاجرون والانصار وقبائل من العرب المحالفة . وكان ابو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا من مكة يتجسسون فلقيهم العباس بن عبد المطلب عم النبي . فسأله أبو سفيان عما هنالك فأخبره العباس بقوة جندهم واعتزاز أمرهم . فقال أبو سفيان « لقد أصبح أمر ابن أخيك عظيما » فأشار عليه العباس أن يستأمن . فلم ير لنفسه خيراً من ذلك فجاء معه الى معسكر المسلمين . فأكرم النبي وفادته ومنع الصحابة من أذيته لانهم كانوا يتوون الايقاع به . وزاد في تعظيمه حتى جعل كل من يدخل بيته من أهل مكة يوم الفتح آمناً مثل من يدخل المسجد

فعاد ابوسفيان وأخبر أهل مكة بما كان فاستضعفوه وخذلوه وشتموه . حتى ان امرأته هند بنت عتبة أخذت بشاربيه وقالت « اقتلوا الحميت الدسم الاحمس قبحه الله من طليعة قوم » فلم يبال

ثم دخل المسلمون مكة وفتحوها وسار النبي تواً الى الكعبة فكسر الاصنام التي كانت في المسجد حولها وفي جوفها ونزع ما كان على جدرانها من صور الملائكة وغيرها . وكان ذلك آخر عهد جزيرة العرب بالوثنية . وتحولت الكعبة من ذلك الحين الى مسجد يعبد فيه الله . وأسلم أهل مكة كافة وفيهم ابوسفيان وأولاده وفى جملتهم معاوية [2] بن أبي سفيان مؤسس دولة بنى أمية

المؤلفة قلوبهم وغزو الطائف

وسمى النبي أشراف مكة الذين اسلموا بعد الفتح « المؤلفة » أو « المؤلفة قلوبهم » اشارة الى تأليف قلوبهم لتتألف بهم قلوب اقوامهم تعزيزاً للاسلام . وفي السيرة الحلبية أن المؤلفة قلوبهم ثلاثة أصناف . صنف تألفهم النبي ليسلموا مثل صفوان بن أمية . وصنف تألفهم لدفع شرهم . وكان يتألفهم جميعاً بالعطاء فيميزهم به عن سائر الصحابة كما سترى . وفي ذلك من حسن السياسة والحلم وسعة الصدر ما فيه

وبعد فتح مكة بعث النبي سراياه الى ما حولها يدعو الناس الى الاسلام . ثم

(١) أبو الفداء ١٩٨ ج ١ (٢) السيرة الحلبية ٨٠ ج ٣

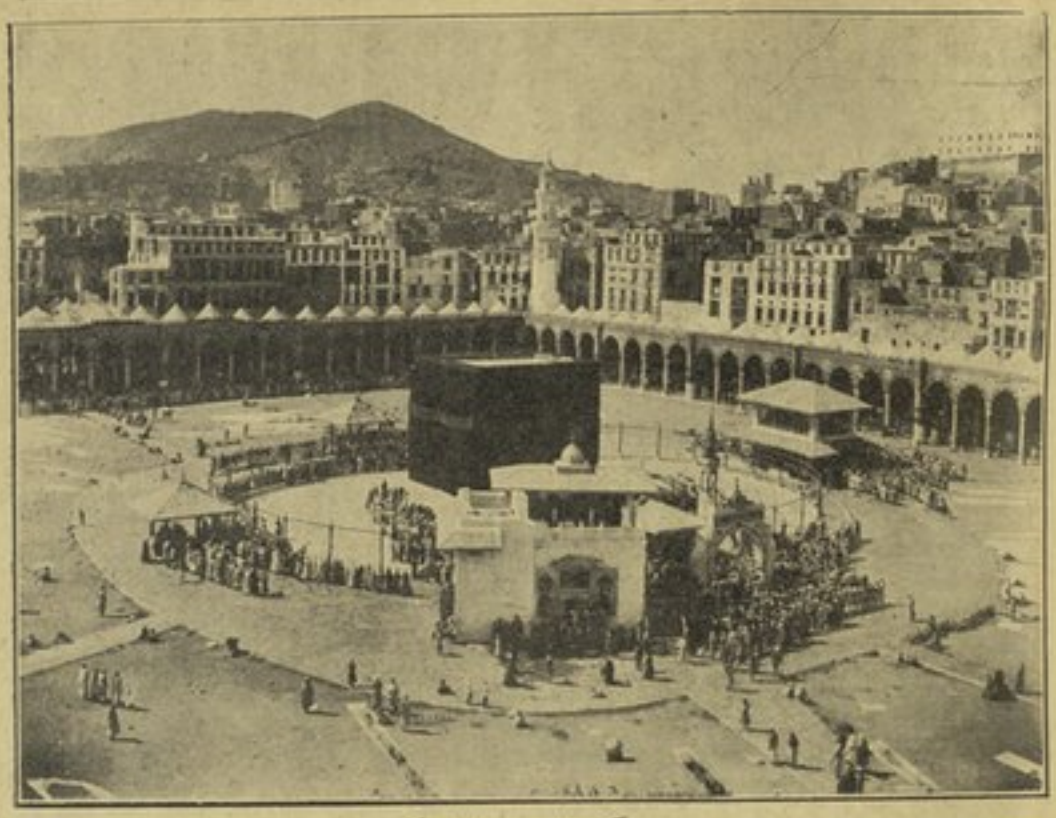

مسجد مكة وفي وسطه الكعبة

غزا حنين والطائف . وشتان بين مجيئه الى الطائف الآن ومجيئه في أول دعوته . لقد جاءهم يومئذ مستنصراً وجاءهم الآن فاتحاً فغلبهم وغنم غنائم بلغ مقدارها ٢٤٠٠٠ من الابل و ٤٠٠٠٠ من الغنم و ٤٠٠٠ أوقية من الفضة . فلما عمد الى تفريقها في أصحابه بدأ بالمؤلفة قلوبهم فأعطى أبا سيفان مائة بعير وأعطى ابنه معاوية مائة بعير وابنه يزيد مائة بعير وأعطاهم الفضة . فكان جملة ما أخذه أبوسفيان وأولاده ثلاثمائة بعير ومئة وعشرين أوقية من الفضة . فقال أبوسفيان « بأبي أنت وأمي يارسول الله لأنت كريم في الحرب وفي السلم »

عتب المهاجرين والانصار

وفعل النبي نحو ذلك في سائر الاشراف مثل الحارث بن هشام أخي أبي جهل المشهور وصفوان بن امية وغيرهما فشق ذلك على المهاجرين والانصار وهم دعامة الاسلام وأهل السابقة فكيف يتركون وتفرق الغنائم في من لم يسلموا الا مكرهين بعد أن غلبوا على مدينتهم ؟ فتشاكى الصحابة في ما بينهم وقالوا « كيف يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا لا تزال تقطر من دمائهم » فبلغ ذلك النبي فجمعهم وسألهم فاعترفوا له بما قالوا فصوب قولهم ولكنه قال لهم « اني لاعطي رجالا حديثي عهد

بالكفر أتألفهم ليحسن اسلامهم ويسلم غيرهم تبعاً لهم وأما انتم فوكلتكم الى اسلامكم الثابت الذى لا يتزلزل - ألا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا انتم برسول الله الى رحالكم ؟ . . . » وقال مثل ذلك للمهاجرين فارتضوا

ثم عادوا الى المدينة في نحو السنة التاسعة للهجرة وقد اعتز جانبهم وذاع أمر سلطانهم في كل جزيرة العرب فجعل الناس يفدون على المدينة يدخلون فى الاسلام

محاولة فتح الشام

فلما اعتز المسلمون ودانت لهم جزيرة العرب كلها تقريباً عادوا الى توسيع دائرة الفتح فأمر النبي سنة ٩ هـ بالتجهز لاعادة الكرة على الروم فجهزوا جنداً عدده ثلاثون الفاً فيهم عشرة آلاف فارس . وتلك اكبر حملة استطاعها المسلمون الى ذلك الحين بذلوا فيها كل مافي وسعهم من المال والرجال . ولكنهم لقوا فى الطريق شدة عظيمة من العطش فنزلوا قرية بين المدينة والشام اسمها تبوك وهم يظنون الروم يجتمعون اليها ومعهم عرب لخم وجذام . فجاءهم صاحب ايلة (وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام في رأس خليج العقبة) فصالحهم على الجزية . وفي اثناء هذه الحملة سطا خالد بن الوليد على صاحب دومة الجندل بين المدينة ودمشق على سبع مراحل من هذه وهو عربى نصرانى من كندة . فأخذه خالد وقتل أخاه واخذ منه قباء من ديباج مخوصاً بالذهب وارسله الى المسلمين . فلما رأوه تعجبوا منه لانه اول عهدهم بمثل هذه الملابس ثم عادوا الى المدينة ولم يفتحوا شيئاً من بلاد الروم

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة توفي صاحب الشريعة الاسلامية والاسلام لا يزال حديثاً فسعى الذين حط الاسلام من نفوذهم او وقف في سبيل أغراضهم فارتدت معظم قبائل العرب عنه . الا أهل المدينة ومكة والطائف واصبح الاسلام في خطر شديد لو لم يتداركه أبو بكر

الخلفاء الراشدون

الخلاف بين المهاجرين والانصار

كان النبي في أثناء حياته أمير المسلمين وقائدهم في الحرب وامامهم في الصلاة وقاضيهم في سائر الاحوال . فلما مات ولم يخلف ذكراً ولا أوصى بالخلافة لاحد - وأما قوله لعلى المتقدم ذكره صفحة ٢٣ انه وصيه فالائمة مختلفون فيه - فاختلفوا عند

موته فى من يخلفه . وأولى الناس بخلافته أصحابه وهم المهاجرون والانصار . فقال المهاجرون نحن أحق بالخلافة لاننا أهل النبي وأصحابه وقد تركنا أهلنا وبلدنا وهاجرنا معه . وقال الانصار بل نحن أحق بذلك لاننا آويناه ونصرناه . واشتد الجدال بينهما حتى كاد يفضى الى النزاع . فذكرهم أبو بكر بحديث كان النبي قد قاله على مسمع منهم وهو « قريش ولاة هذا الامر » فأذعنوا وتراجع الانصار

ولكن الخطر مازال يهدد الاسلام من اختلاف المهاجرين على من يختارونه لذلك المنصب العظيم . فاحس عمر بن الخطاب رجل المسلمين بذلك وخاف الفشل لان الاسلام قام بالاتحاد فبادر الى أبي بكر فبايعه والناس ينظرون . وهم انما كانوا يخافونه اذا طلب الخلافة لنفسه لشدة بطشه وقوته . فلما رأوه سبقهم الى مبايعة أبي بكر بايعوا معه وانفض المشكل

خلافة ابي بكر

أما مبايعتهم أبا بكر دون سائر المهاجرين وفيهم العباس عم النبي وعلى بن أبي طالب ابن عمه وغيرهما من بني هاشم أهل بيته ففيه نظر . والظاهر من أقوال عمر وغيره فى مواقف مختلفة انهم رأوا بني هاشم قد اعتزوا بالنبوة لان النبى منهم فلم يستحسنوا أن يضيفوا اليها الخلافة . ولعلهم فعلوا ذلك اقتداء بالنبي نفسه لان عمه العباس طلب اليه مرة ان يوليه عملا فأبى . وصرح بذلك بنوهاشم أنفسهم وفي مقدمتهم الحسن بن على لما تنازل عن الخلافة لمعاوية فقال « أبى الله ان يجمع النبوة والخلافة فينا »

ومما ساعد على اختيار ابي بكر دون سائر المهاجرين من غير بني هاشم - مثل عمر وعثمان وطلحة والزبير - انهم اعتبروا السبق في الاسلام لان أبا بكر اسبق رجالهم اليه جميعاً . وهناك سبب آخر ذو شأن عند العرب من عهد جاهليتهم وهو السن ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والسيادة معاً . وكانوا اذا تساوت المناقب فى من يترشحون للامارة فضلوا كبيرهم سناً مع ملاحظة المقام الادبى - كذلك فعلت قريش فى حرب الفجار الثاني فانها جمعت بطونها وعلى كل بطن رئيس ورأسوا عليهم جميعاً حرب بن أمية . قال ابن الاثير: وولوه عليهم جميعاً «لمكانه من عبد مناف سناً ومنزلة» وقد جمع أبو بكر الامتياز بالسن والوجاهة على سائر قريش . وفوق كل ذلك ان النبى لما مرض أنابه للصلاة فى المسلمين وهي من حقوق الامامة . فضلا عما امتاز به من العلم وصدق العزيمة وقوة التدبير وعلو الهمة وغير ذلك من المناقب

وأول خطبة قالها أبو بكر بعد المبايعة تمثل حقيقة الاسلام وتبين السر الذي ساعد على سرعة انتشاره وتأييد سلطانه وهي « أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فاعينوني وان أسأت فقوموني . الصدق أمانة والكذب خيانة والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه . والضعيف فيكم قوي عندى حتى آخذ الحق له ان شاء الله تعالى . لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم »

الردة

تسلم أبو بكر زمام الخلافة والاسلام في غاية الاضطراب بسبب الردة التي أشرنا اليها . ومن أسبابها أن بعض القبائل دانت للاسلام ولم يتمكن الاسلام من عقولهم وقلوبهم . فلما مات النبي تبادر الى أذهانهم أن الدعوة الى النبوة أمرهين وظنوا أنفسهم



بقايا ايوان كسري في المدائن

يستعينون على تأييد دعواهم بقبائلهم وهى اكثر رجالا من قريش فكيف يستطيع هؤلاء السيادة على جزيرة العرب كلها وهم قليلون ؟ فادعى النبوة غير واحد وفيهم طليحة الاسدي من بني أسد وسجاح من تميم ومسيلمة من بني حنيفة في اليمامة وغيرهم واستعان كل منهم بقبيلته وأنصارها . فدعا ذلك الى اضطراب الاحوال في سائر القبائل فمنهم من رفض الاسلام وتابع أولئك الدعاة ومنهم من اكتفى بالامتناع عن اداء

الزكاة . والزكاة من دعائم الاسلام الاولية ولها شأن المال في الدولة والمال ضروري لقيام الدول في كل زمان ومكان . وبعض العرب امتنعوا عن الزكاة لأنهم عدوها من قبيل الاتاوة التى كانوا يدفعونها في جاهليتهم

واشتد أمر الردة واستفحل المرتدون حتى حمل بعضهم على المدينة نفسها وهي عاصمة المسلمين . فهاجموها وكادوا يأخذونها لو لم يدافعهم أبو بكر دفاعاً جميلا . وقد تصرف في محاربة المرتدين تصرف الرجل الحكيم الحازم وبين يديه نخبة القواد وأهل الحزم . فعقد لهم الالوية للقتال وبلغ عدد ما عقده منها أحد عشر لواء عقدت لأحد عشر قائداً في جملتهم خالد بن الوليد وعكرمة بن ابى جهل وعمرو بن العاص



صورة تمثل الخليفة عمر بن الخطاب عند قدومه الي بيت المقدس على جمله وقد خرج الناس لاستقباله واستعطافه وهم يظهرون الذل والخضوع وقائد بعيره ينهاهم عن ذلك

فلم تمض على ذلك سنتان حتى استتب الامر لابي بكر وعاد الناس الى ما كانوا عليه وسكنت الاحوال . فحول التفاته الى الشام والعراق اقتداء بما أراده النبي فوجه اليهما الجنود فجرت واقعة اليرموك الشهيرة سنة ١٣ هـ وكانت سبباً فى فتح الشام واشتد ازر المسلمين بها كما اشتد ازرهم بواقعة بدر الكبرى

خلافة عمر

وتوفي ابو بكر في تلك السنة وقد أوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب وليس هو أكبر سائر المهاجرين سناً لكن الصحابة لم يكونوا مخيرين فى خلافته لأن أبا بكر

أوصى له بها . وكان عمر رجلا حازماً عادلا شديداً في الحق . وفي أيامه تم فتح الشام والعراق وأهم وقائعها واقعة القادسية سنة ١٤ هـ وهي من أشهر الوقائع الرئيسية التى فاز فيها المسلمون . وفي أيامه فتح بيت المقدس واشترط أهلها ان يأتى عمر بنفسه لعقد الصلح على يده وفتحت المدائن عاصمة الفرس سنة ١٦ هـ ثم أوغلت جنود المسلمين في فارس وفتحت الجزيرة وأرمينيا سنة ١٧ هـ وفتحوا مصر على يد عمرو بن العاص. ثم فتحوا طرابلس الغرب

وهو الذي دون الدواوين ووضع الاعطية كما سنفصله . وفي أيامه بنيت الكوفة والبصرة والفسطاط وبنى المسجد الحرام بمكة ووسع فيه فأضاف اليه ما كان يجاوره من الارض ابتاعها من أصحابها

وقتل الامام عمر سنة ٢٣ هـ وخلفه عثمان بن عفان ونظراً لكثرة الفتوح في أيامه نذكر الاسباب التى ساعدت عليها

الفتوح الاسلامية

في صدر الاسلام

للكتاب وأهل النقد بحث طويل وجدال عنيف في الاسباب التى ساعدت العرب على فتح بلاد الروم والفرس وقهر القياصرة والاكاسرة برجال يكاد لا يزيد عددهم على عدد حامية مدينة من مدن أولئك . مع ماكان عليه العرب يومئذ من سذاجة المعيشة وقلة الدربة في فنون الحرب وضيق ذات اليد وضعف العدة . والروم والفرس أعظم دول الارض يومئذ وعندها العدة والرجال والحصون والمعاقل . وزد على ذلك أن العرب فضلا عن قلتهم وسذاجة أحوالهم فقد جاءوا مهاجمين في بلاد لايعرفونها ولا نصير لهم فيها . وأغرب من ذلك كله انهم فتحوا معظم تينك المملكتين في مدة لا تتجاوز بضع عشرة سنة فكيف تأتى لهم ذلك ؟

أشهر أقوال أهل النقد فى هذا الشأن ان العرب لم يستطيعوا فتح تينك المملكتين



الا لما كان فيه الروم والفرس من التضعضع والضعف على اثر ما كان من الحروب بينهما قبيل الاسلام مما بيناه في فصل سابق . وعندنا ان ذلك التضعضع لم يكن وحده علة ذلك النصر . والا لكانت احدى الدولتين أولى بالاستيلاء على جارتها وعدوتها من أمة صغيرة قليلة العدد ضعيفة العدد غلبت الدولتين جميعاً . على اننا لا ننكر ما كان لتضعضع الروم والفرس من التأثير في تسهيل الفتح ولكنه لم يكن هو علته . وهناك أسباب أخرى سيأتى بيانها

ما الذى جرأ العرب على الفتح

لنبحث أولا في الاسباب التى جرأت العرب على مهاجمة تينك المملكتين وهم أهل بادية مابرحوا من أجيال متطاولة ينظرون الى الروم والفرس نظر الاحترام والتهيب يضربون الامثال بضخامة ملكهما ويخافون اسميهما فكيف تتجرأ شرذمة منهم على مناوأتهما ببضعة آلاف ليس على أبدانهم الا غليظ الكساء واكثر طعامهم الذرة والشعير وعدتهم الرماح مشدودة بعصب والسيوف معلقة بخرق . ولماذا لم يفعلوا ذلك قبل الاسلام ؟ والجواب على ذلك ان العرب أصبحوا بعد الاسلام غير ما كانوا عليه قبله ـ كانوا قبائل مشتتة متباغضة فأصبحوا أمة واحدة بقلب رجل واحد . وهذا وحده لا يكفي لاقدامهم على هذا الامر العظيم . وانما ساعدهم على ذلك اعتقادهم صدق الدعوة التي دعوا اليها ـ اعتقادهم انهم انما يفتحون الدنيا في سبيل الدين وان الله يدعوهم الى نشر الاسلام في الارض وان من مات منهم مات شهيداً وما في العالم الآتى خير وأبقى . هذا الاعتقاد هو الذي جرأ العرب على ركوب هذا المركب الخشن . غير ما ذاقوه من حلاوة النصر في غزواتهم وسراياهم فى ايام النبي والانسان اذا خدمه التوفيق في تجارة هان عليه المخاطرة بكل ماله في سبيل تلك التجارة

١ ـ الاتحاد بالاسلام

اما الاتحاد بالاسلام فانه ظاهر في كل اعمالهم يشهد بذلك ما قدمناه من امر المعاهدة والمؤاخاة في اول سنة للهجرة . ويؤيده ان الاسلام عنوان التوحيد كما يتضح من مراجعة القرآن والحديث . ولا تكاد تخلو خطبة من خطب الخلفاء او الامراء في صدر الاسلام من الاشارة الى تلك الوحدة وتذكير المسلمين بما كان عليه آباؤهم في الجاهلية من التفرق والتشتت وما يدعوهم اليه الاسلام من نزع العصبية وتوحيد الكلمة . وقد زاد متانة تلك الوحدة اجتماعهم خمس مرات في اليوم للصلاة خلف الامام او من يقوم مقامه . وفي ذلك من توطيد عرى الاتحاد والاجماع على الطاعة

ما لا يخفى . ذكر البلاذرى أن ابا سفيان لما جاء المسلمين قبل الفتح وهو لم يسلم بعد رآهم قائمين للصلاة اذا ركع النبي ركعوا واذا سجد سجدوا فقال « تالله ما رأيت كاليوم طواعية قوم جاءوا من ههنا وههنا ولا فارس الكرام والروم ذات القرون »

٢ ـ اعتقادهم صدق الدعوة

وأما اعتقاد العرب صدق الدعوة وانهم كانوا يعملون لآخرتهم لا لدنياهم فظاهر من أقوالهم وأعمالهم فى أثناء الفتح . كقول المغيرة لما قال له رستم القائد الفارسي فى أثناء واقعة القادسية « انكم تموتون فى ما تطلبون » فقال المغيرة « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ويظهر من بقي منا على من بقى منكم » وكقول عبادة ابن الصامت للمقوقس صاحب مصر . لما خوفه بجموع الروم وانهم لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حصن بابل فقال عبادة :

« يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك . أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم فأنا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن



حصن بابل الذي فتحه عمرو بن العاص

به . وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم . لان ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته . وما شيء أقر لاعيننا ولا أحب لنا من ذلك . وانتا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين اما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة أن ظفرتم بنا ـ ولانها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا فى كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ». وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده . وليس لاحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل منا ربه أهله وولده وانما همنا ما أمامنا . وأما قولك انتا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لانفسنا أكثر مما نحن عليه . . »

وأمثال ذلك كثير في تاريخ الاسلام حتى لقد كان المسلم يقاتل أباه وأخاه اذا

كانا مشركين ولا يبالى - بل هو يعتقد أنه يفعل خيراً . ويؤيد ذلك ما جاء في تواريخ الاديان الاخرى فان الانسان لا يستهلك في أمر ويعرض حياته للخطر من أجله إلا اذا كان من قبيل الدين . وفي أحاديث الشهداء عند النصارى وسائر الاديان الاخرى ما يكفي

٣ - خصب البلاد المفتوحة

وقد زاد العرب رغبة في حرب الشام والعراق ومصر ما علموه من خصب تلك الارضين وكثرة خيراتها وبلادهم قاحلة لا تفى بمطامعهم بعد تلك النهضة الدينية . وكانت بعض القبائل التابعة للاسلام تحارب لمجرد الكسب من الاسلام والغنائم - يستدل على ذلك مما أظهروه بعد غزوة حنين والطائف . فقد كانت الاموال كثيرة والغنائم غزيرة كما تقدم فلما فرغوا من الحرب ورد السبايا - قال ابن هشام « ركب (النبي) واتبعه الناس يقولون يا رسول الله أقسم علينا فيأنا من الابل والغنم ، حتى ألجأوه الى شجرة فاختطفت عنه رداءه فقال : « ردوا على ردائي أيها الناس فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جباناً ولا كذوباً »

ما الذى ساعدهم على الفتح

ذلك ما جرأ العرب على الفتح أما ما ساعدهم عليه فهاك تفصيله

١ - نشاطهم وخفة أحمالهم

لانهم أهل بادية تعودوا خشونة العيش فأصبحوا لا يبالون بالجوع ولا العطش اذا سافر أحدهم الى حرب لا يحمل معه شيئاً يثقل كاهله أو يشغل بعيره . وقد لايحملون طعاماً وانما يقتاتون بما يكسبونه بالغزو فى أثناء الطريق

وللابل فضل كبير في تغلب العرب لأنها كانت تقوم عندهم مقام المركبات والخيول والماشية عند الروم . فالعربى يركب ناقته ويحمل عليها أثقاله ويغتذي من لبنها ويستريح في ظلها . وهي تقنات بالعشب في الصحراء ولو يابساً وتصبر على الجوع وتحتمل الظمأ أياماً . وأما الرومى أو الفارسي فلا يستطيع الانتقال الى الحرب الا بالاحمال والاثقال من المؤونة والذخيرة مالا يقوى على حمله الا المركبات والمركبات تحتاج في جرها الى دواب والدواب تحتاج الى طعام ومياه . ويذكرنا ذلك بما شاهدناه في حرب الانكليز وعرب السودان في أثناء الحملة النيلية التى انفذوها سنة

١٨٨٤ الانقاذ غردون باشا من الخرطوم . فقد كان الانكليزى لا يستطيع الانتقال الا ومعه الاحمال من البقسماط واللحوم المطبوخة والسكر والشاى والبن والشمع وقناطس الماء وأحمال الخيم والامتعة وأطعمة الخيل وغير ذلك مما يحتاج الى الدواب الكثيرة . فكان رجال حملة المتمة ١٤٠٠ وجمالها أربعة آلاف ومعها الجمالة والخدم وهى عبء ثقيل على كاهل الحملة . وأما السودانى فقد كان في غنى عن كل ذلك بجراب فيه شيء من الذرة الناشفة يتأبطه ويمشي

٢ ـ اعتقادهم بالقضاء والقدر

وان الانسان لا يموت الا اذا جاء أجله فاذا أتت ساعته مات ولو كان على فراشه واذا تأخرت فلا يصاب بسوء ولو كان تحت مراهف السيوف . وكان هذا الاعتقاد متمكناً فيهم وهو علة معظم ما كان يبدو من بسالتهم فى وقائعهم المشهورة . وفي تاريخ الفتح شواهد كثيرة على ذلك

٣ ـ مهارتهم في ركوب الخيل ورمى النبال

فقد كانوا أمهر من الروم والفرس فيهما . وخيل العرب أنجب من خيول أولئك وكانت اكثر وقائعهم بالمبارزة بين الافراد على جاري العادة في تلك الاعصر . فيختارون فارساً من كل جند فيتبارزان فمن غلب كان أصحابه الغالبين . وكان العرب يغلبون في المبارزة على الاكثر . وكثيراً ما كان نصرهم متوقفاً على غلب في مبارزة أو رمى بنبلة صائبة إذا أصابت رئيس الجند أحبطت رجاله . وسيأتى تفصيل ذلك في كلامنا عن السلاح

٤ ـ رجال صدر الاسلام

اختص صدر الاسلام برجال توفرت فيهم شروط النصر وقد امتاز ذلك العصر بنبوغ الرجال العظام كما امتاز عصر نابليون الكبير بقواد لم تلد فرنسا مثلهم . وقد نبغ قواد نابوليون على اثر الثورة الفرنساوية كما نبغ قوادالصدر الاول للاسلام على أثر واقعة الفيل التى سطا بها الاحباش على الكعبة وحركت ساكن العرب فأظهرت قواهم بالضغط والاحتكاك كما تقدم . فكأن الله قدر للعرب النصر فاختصهم بقواد من نخبة رجال العالم في الحرب والسياسة والدهاء والحكمة . كخالد بن الوليد وخالد بن سعيد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص ويزيد بن ابى سفيان وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب ممن تغلب فيهم البسالة وقيادة الجند ومثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه من

أهل الدهاء والسياسة . وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب من أهل الحزم والتقوى وصدق العزيمة

فنبوغ هؤلاء الرجال وأمثالهم في أوائل الاسلام كان من اكبر العوامل في سرعة نجاحه . وكان المسلمون يعلمون ذلك حتى ان النبي نفسه قال في أول ظهور الدعوة « اللهم أيد الاسلام بأبي جهل بن هشام » ولما أسلم حمزة وعمر بن الخطاب قال « قد تأيد الاسلام بحمزة وعمر » . وأمثال أبي بكر وعمر وعلي وابن العاص ومعاوية وخالد لو ظهروا اليوم لكانوا من عظماء الناس الذين يتمثل العالم المتمدن بعظمتهم كما يتمثل الافرنج ببونابرت وكروميل وبسمارك وغلادسون وغيرهم . غير من ظهر من رجال الاسلام في عصر الامويين والعباسيين

٥ ـ الصبر والمطاولة

أصبح العرب بعد فشلهم في واقعة مؤتة وقد عرفوا قوة الروم وخبروا كثرتهم وعلموا أن قتالهم غير قتال أهل البادية الذين كانوا يغزونهم ببلاد العرب . فلما تحققوا ذلك جعلوا عمدتهم في حروبهم الصبر والمطاولة . والصبر هين عليهم لاكتفائهم بالشيء اليسير من الطعام واللباس كما تقدم . واذا قل زادهم عمدوا الى الغزو واقتانوا بما تصل اليه أيديهم من الماشية او الحنطة او غيرها

وكانت حروبهم في اول خروجهم الى الشام والعراق اشبه بالغزو منها بالفتح بل تلك كانت قاعدتهم في اكثر فتوحهم . كانوا يرسلون جماعة منهم لغزو البلد الذى يريدون فتحه ـ وقد لا يكون قصدهم الفتح في بادىء الرأي ـ فيحومون حول البلد يغزون ويهبون حتى تناح لهم فرصة للفتح فيغتنمونها . كذلك فعلوا في كثير من فتوحهم في صدر الاسلام وبعده . فان موسى بن نصير انما أرسل طارقاً الى سواحل اسبانيا سنة ٩٢ هـ غازياً لا فاتحاً . فاتفقت له اسباب ساعدته على الفتح تشبه الاسباب التى ساعدت العرب على فتح الشام فدخل طارق الاندلس . فلما بلغ موسى ذلك استغربه وشق عليه أن لا يكون هو الفاتح فبعث يستوثقه ـ الى آخر ما كان بينهما . هكذا كان شأنهم قبل ذلك في فتح افريقية وما يليها

٦ ـ نجدة العرب

كان الاسلام في أول امره نهضة عربية والمسلمون هم العرب حتى أصبح اللفظان مترادفين في كثير من الاحوال . وكان العرب أقرب الامم للدخول في الاسلام لما

اختصهم به دون غيرهم من الافتخار . وتمكن ذلك فى الاذهان خصوصاً لما أمر عمر باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب

والمسلمون لم يهاجموا مدن الشام والعراق رأساً . ولكنهم قضوا زمناً طويلا يغزون ضواحيهما مما يلى البادية وسكان تلك البادية عرب مثلهم وفيهم الغساسنة في بصرى وغيرها من حوران على حدود الشام . والمناذرة بنو لخم في الحيرة على حدود العراق وكان الغساسنة عمال الروم في الشام وبنو لخم عمال الفرس فى العراق . ولم يكن هؤلاء العرب يحبون الروم ولا الفرس وانما كانوا يخضعون لهم قسراً او طمعاً بالغنائم اذا



خريطة مشارف الشام والعراق

حاربوا معهم . وخصوصاً بنو لخم فقد كان بينهم وبين الفرس ضغائن على اثر مقتل النعمان بن المنذر الملقب ابا قابوس . فان كسرى برويز قتله وحصل بسبب قتله واقعة شهيرة بين الفرس والعرب في مكان يقال له « ذو قار » وبه تعرف الواقعة انهزم بها الفرس شر هزيمة وهي أعظم واقعة انتصف فيها العرب من العجم . ومن غريب الاتفاق انها حدثت في السنة التى جرت فيها واقعة بدر الكبرى . والعرب فازوا فى كلتيهما

وظلت الضغائن بين المناذرة والفرس حتى جاءهم المسلمون وعرض عليهم خالد ابن الوليد الاسلام او الجزية أو السيف فاختاروا الجزية وصالحوه على مال يدفعونه كل عام . ووقع نحو ذلك فى بصرى وغيرها من بلاد العرب والنصارى فى ضواحي الشام . وفي غيرها من بلاد العرب في حدود البادية بين العراق والشام كعين التمر وصندوداء وفيها قوم من كندة واياد . وقراقر وهو ماء لبني كلب . وغيرهم من القبائل التى حاربها خالد في اثناء قدومه من العراق الى الشام . فكانت العرب اقرب

سائر الامم الى نجدة الاسلام للاسباب التى قدمناها . ولاسباب أخرى تختص بكل قبيلة على حدة . كحقد عرب اليمين على الفرس منذ فتحوا بلادهم وحكموهم قبل الاسلام ثم تقلص ظلهم عنهم وانحسر الى البحرين . وكانت ربيعة تقيم في الجزيرة ببلاد الفرس وكانوا عوناً للعرب المسلمين على الفرس نكاية في هؤلاء

وكثيراً ماكان هؤلاء العرب وغيرهم من أهل الشام الاصليين يضافرون المسلمين على الروم فراراً من أداء الجزية . كما فعل الجراجمة في جبل اللكام . فان حبيب بن مسلمة الفهرى غزاهم فبادروا بطلب الامان فصولحوا على ان يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية . . . ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم من أهل القرى فى هذا الصلح فسموا الروادیف

٧ ــ خط الرجعة

ثم ان العرب كانت قاعدتهم فى حروبهم هناك المحافظة على خط الرجوع . فلا يقاتلون الفرس أو الروم إلا وهم في حوطة . وكان حفظ ذلك الخط هيناً عليهم لانهم كانوا يجعلون الصحراء وراءهم وهى ملجأهم . فاذا اندحروا لا يستطيع الروم او الفرس اللحاق بهم اليها ولا يهمهم ذلك اللحاق . ومتى عاد الروم الى مساكنهم عاد العرب عليهم . وهكذا حتى يقلقوا راحتهم ويضعفوهم بالمطاولة والصبر ولو كانوا اقل عدداً منهم . وشأنهم في ذلك مثل شأن البوير مع دولة الانكليز لما حاربوها سنة ١٩٠٢ كانوا نفراً قليلين فأقلقوا راحة الجيوش الانكليزية بضع سنوات . وهؤلاء اكثر عدداً وعدة وعندهم الحصون والمعاقل . ولكن البوير انما أتعبوهم بالمطاولة والسطو حيناً بعد حين ثم الرجوع الى مكامنهم بين الجبال حيث لا يستطيع الانكليز الذهاب اليها إلا تحت الخطر الشديد

وكانت هذه القاعدة مرعية عند العرب يحرضون بعضهم بعضاً عليها . ومن هذا القبيل قول المثنى بن حارثة الشيباني أحد قواد العرب لما علم بقدوم المسلمين لمحاربة الفرس فى العراق فبعث اليهم يقول «قاتلوا الفرس على حدود أرضهم على ادنى حجر من أرض العرب ولا تقاتلوهم بعقر دارهم . فان يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم . وان كانت الاخرى رجعوا إلى فيئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم الى ان يرد الله الكرة عليهم »

ويؤيد ذلك رغبة الخليفة عمر فى بقاء المواصلة بين مركز الخلافة في المدينة وبين

سائر أطراف المملكة الاسلامية بحيث لا يكون بينه وبين سائر المسلمين ماء . فقد كتب الى قواده في الاطراف بعد فتح فارس ومصر - وكان سعد بن أبي وقاص مقيما في مدائن كسرى وعمرو بن العاص في الاسكندرية - « لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت » فتحول سعد الى الكوفة وتحول عمرو الى الفسطاط وأقاما بجندهما في مضارب الخيام . ثم صارت تلك المضارب مدناً بعد ذلك

٨ - واقعة اليرموك وواقعة القادسية

تلك كانت القاعدة في حروب العرب بالشام والعراق . ثم جرت واقعة اليرموك الشهيرة سنة ١٣ هـ بدأت في حياة ابي بكر . واليرموك واد بناحية الشام بجوار بصرى يسيل فيه الماء حتى يصب قرب بحيرة طبرية واسمه اليوناني (Hieromax) عربه العرب « يرموك » وعلى ضفاف ذلك الماء حصلت تلك الواقعة الهائلة وهي ذات شأن عظيم في فتوح الشام لان فوز المسلمين فيها نشطهم على مواصلة الفتح وأضعف عزائم الروم

واذا تأملت في تفاصيلها رأيت سبب الفوز فيها سداد رأى عمرو بن العاص وشجاعة خالد بن الوليد . وذلك ان الروم لما رأوا ما كان من مناوأة العرب لهم في ضواحي الشام ومطاولتهم جمعوا قواتهم وعزموا على الفتك بهم دفعة واحدة . وكان المسلمون متفرقين في ضواحي الشام والعراق . فتكاتبوا بشأن ذلك فقال عمرو بن العاص « ان الرأي عندي امثلنا الاجتماع فانا اذا اجتمعنا لا نغلب من قلة وان تفرقنا لا تقوم كل فرقة بمن استقبلها لكثرة عدونا » فكتبوا الى أبي بكر بذلك فأجاب مثل جواب عمرو . فاجتمع جند المسلمين من العراق والشام فلاقاهم الروم في اليرموك وعددهم على قول ابن الاثير ٢٤٠٠٠٠ والمسلمون ٥٠٠٠٠ بقيادة خالد بن الوليد فخطب خالد فيهم خطاباً حرضهم فيه على الثبات وجعل الجند كراديس على كل كردوس قائد ولم تكن الحرب بالكراديس معروفة عند العرب كما سترى . والظاهر ان خالداً عبى الجند تلك التعبئة لمقاومة الروم بمثل نظامهم

وشعر خالد بتهيب المسلمين وخوفهم من كثرة الروم وسمع أحدهم يقول « ما اكثر الروم وأقل المسلمين » فقال له « ما أقل الروم وأكثر المسلمين انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان » وهم في القتال جاءهم الخبر بموت ابي بكر فكتموه وصبروا صبر الرجال لعلمهم ان الفشل في تلك الواقعة يذهب بكل أعمالهم . فقاتلوا قتالا شديداً حتى ان النساء كن يقاتلن بالعصي . فانتصر المسلمون وكان هذا النصر

مقدمة سائر ما نالوه في الشام . وكذلك واقعة القادسية في العراق فقد كانت فاتحة صرعهم على الفرس . وقد صبروا في هذه الواقعة صبراً جميلا وطال أمرها كثيراً

٩ — نقمة الرعايا على حكامهم

قد علمت ما كان من انقسام الروم والفرس فيما بينهم وانحطاط الهيئة الاجتماعية فيهم . فضلا عما كان من الشحناء بين الرعية أهل البلاد الاصليين وحكامهم وخصوصاً في مصر والشام . فان المصريين الاصليين وهم الاقباط كانوا قد عانوا سلطة الاجانب أجيالا متطاولة (الفرس فاليونان فالرومان) وهان عليهم الانتقال من سلطان الى سلطان فراراً من الظلم أو الضغط . وكذلك أهل الشام وهم أخلاط من الآراميين والسريان والانباط واليهود وغيرهم . وكان حظهم من ذلك مثل حظ جيرانهم المصريين وقد يئسوا من الاستقلال مثلهم . فلا يهمهم اذا كان حاكمهم رومياً أو عربياً وانما يهمهم ان يكون لهم راحة تحت سلطانه . وربما فضلوا العرب لانهم أقرب اليهم لغة ونسباً وأخلاقاً . وزد على ذلك ان المرء من طبعه يرجو النفع من البعيد أكثر من القريب . ويتوسم الخير في القادم المجهول اكثر مما في الحاصل المعلوم . وعلى الخصوص اذا كان الفرق بينهما ظاهراً مثل ظهوره بين الروم والعرب . فالروم كانوا يومئذ في دور انحطاطهم وقد فسدت أحكامهم وآدابهم والعرب في دور نهوضهم وفي ابان نهضتهم وقد جعلوا العدل والمساواة وجهتهم . فضلا عما كان بين أهل هذين القطرين وبين حكامهم الروم من الانقسامات الدينية التي قدمناها حتى هان عليهم الرضوخ لاية دولة كانت وان يكونوا عوناً لها على حكامهم

١٠ — اليهود

كان الروم مع انقسامهم الى طوائف وأحزاب قد أجمعوا على اضطهاد اليهود كما تقدم . ولما جاء المسلمون لفتح الشام كانت البغضاء قد بلغت معظمها وبود اليهود ان يخسروا أموالهم — مع رغبتهم في الاموال — في سبيل الانتقام من الروم . وفي الواقع كثيراً ما كانوا عوناً للعرب عليهم وكانوا يدلونهم على عورات المدن ويدخلونهم اليها . كذلك فعلوا بقيسارية بعد ان حاصرها المسلمون سبع سنين ولم يقووا عليها لقوة جندها ومناعة حصونها . فكان يحرس أسوارها كل ليلة ١٠٠٠٠٠ جندي وكان قائد المسلمين هناك يومئذ معاوية بن أبي سفيان . فجاء يهودي من أهلها اسمه يوسف دلهم على طريق من سرب فيه الماء على شرط أن يؤمنوه وأهله فدخل المسلمون المدينة وفتحوها

وقس على ذلك مدناً أخرى سلمها اليهود نكاية في الروم حكامهم وخصوصاً في الاندلس للاسباب التى قدمناها

١١ ـ عدل المسلمين ورفقهم وزهدهم

كان لتلك المناقب تأثير عظيم في من يدخل سلطان المسلمين من رعايا الروم أو الفرس . وتلك كانت الوصية الاولى التى يتزودونها اذا خرجوا للفتح . واليك وصية أبي بكر لاسامة يوم خروجه بالمسلمين الى الشام قال « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لله . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له »

وفي حكاية بناء الفسطاط ورفق عمرو بن العاص باليمام الذي كان معششاً في فسطاطه ما يدل على رغبتهم في الرفق

١٢ ـ التسوية بين الناس

ومن هـذا القبيل التسوية بين طبقات الناس رفيعهم ووضيعهم ومن أوضح الادلة على ذلك ما كان من امر جبلة بن الايهم ملك غسان لما أسلم في زمن عمر بن الخطاب وجاء المدينة بخيله ورجله . وقد فرح عمر باسلامه وخرج اهل المدينة للنظر الى موكبه وفيه الخيول المعقودة أذنابها وفي أعناقها سلاسل الذهب . وعلى رأس جبلة تاج مرصع بالجوهر . على ان ذلك لم يمنع عمر من اقامة الحد عليه لما وطىء أحد بني فزارة ازاره وهو يطوف بالكعبة فرفع جبلة يده وهشم أنف الفزارى . فاشتكاه الفزاري الى عمر فبعث الى جبلة فأتاه فقال له « ما هذا؟ » قال « نعم يا امير المؤمنين انه تعمد حل ازاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف » فقال عمر « قد أقررت على نفسك فاما أن ترضى الرجل واما أن أقيده منك فآمره بهشم انفك كما فعلت به » فقال « وكيف ذلك يا امير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك » فقال « الاسلام جمعك واياه فلست تفضله الا بالتقى والعافية » فلم ير جبلة مخرجاً من حكم عمر الا بالفرار . فهرب الى القسطنطينية ولم يرجع الى بلاد العرب

ومثلها حكاية القبطى الذي ضربه ابن عمرو بن العاص وذهب الى عمر بن الخطاب في المدينة فاستعاذ به . فبعث عمر الى عمرو فاستقدمه وابنه فلما جاء أعطى الخليفة الى القبطي سوطاً وأمره أن يضرب ابن عمرو فضربه وأراد أن يضرب أباه

عمراً فقال عمرو « انما ابني الذي ضربه » فقال له « يا عمرو منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً »

ولا يخفى ما كان لهذه المناقب من التأثير في تعجيل الفتح لأن اهل الشام والعراق ومصر كانوا يشكون استبداد حكامهم فيهم واحتقارهم إياهم فلما علموا بعدل المسلمين ورفقهم مالوا اليهم

١٣ ـ استبقاء الناس على احوالهم

كان العرب اذا فتحوا بلداً أقروا اهله على ما كانوا عليه من قبل لا يتعرضون لهم في شيء من دينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم المدنية او القضائية أو سائر احوالهم . كذلك فعلوا بمصر لما فتحها عمرو بن العاص فانه جعل امور الاقباط لانفسهم يحكم في مصالحهم قضاة منهم . وفعلوا مثل ذلك في معظم ما فتحوه من البلاد

فكان فتحهم في بادىء الرأي كالاحتلال العسكري في هذه الايام . وكان ما يأخذونه من الجزية ثمناً لحمايتهم . وكان الروم قد تعودوا أداء مثل هذا المال للعرب المقيمين في حدود الشام من الغساسنة وغيرهم يبتاعون به نصرتهم على الفرس كما كان الفرس يؤدون المال الى عرب العراق لينصروهم على الروم. ولا تزال الدول الكبرى تعطي مثل هذا المال الى القبائل المجاورة . والدولة العلية تفعل ذلك . ويسمون هذا العطاء اليوم « خوة » . وأما العرب فقد اشترطوا مع دفع المال الخضوع لهم عملا بنص الآية « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » وكانوا مع ذلك يتعهدون بحماية الذين يدفعون الجزية . والغالب أن يراد بها حماية اهل البلاد الاصليين من حكامهم الروم . لانهم كانوا يريدون الخروج من طاعتهم وهم يخافون سطوتهم

وترى ذلك واضحاً في كلام عبادة بن الصامت للمقوقس حاكم مصر ولسائر القبط لما دعاهم الى الاسلام فقد قال لهم « وان أبيتم الا الجزية فأدوها الينا عن يد وأنتم صاغرون . وان نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام ابداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم ونعرض لكم في شيء من ارضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا . . . الخ » . ومثله كتاب خالد بن الوليد الى ابن نسطونا في العراق وغيره من كتب العهود لاهل الذمة وهي كثيرة . ويؤيد ذلك ان المسلمين لما دعوا الى الاجتماع في اليرموك وكانت حمص في ذمتهم ردوا الى اهلها ما كانوا اخذوه منهم من الجزية وقالوا « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على امركم » فقال اهل حمص « لولايتكم

وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والضيم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم». وكثيراً ما كانوا يعفون غير المسلمين من الجزية اذا تعهدوا بالقتال معهم. وأكثر ما يكون ذلك مع العرب النصارى. ولكنه وقع مع غير العرب كالجراجمة وغيرهم

فلم يكن استيلاء المسلمين ثقيلا على الناس بل كان الاهالى كثيرا ما يفضلونهم على حكامهم الاصليين. والجزية التي كانوا يتكلفون دفعها الى المسلمين اقل كثيرا من مجموع الضرائب التى كانوا يؤدونها الى الروم او الفرس

الخلاصة

وجملة القول ان المسلمين لم يجرئهم على الفتح ويساعدهم عليه الا الدين وشدة الاعتقاد بالنصر مع ما كان من مهارتهم فى الفروسية ورمي النبال وقوة أبدانهم ونشاطهم من عيشة البداوة مع المطاولة في الحرب ونبوغ افراد منهم في الرأي والشجاعة فضلا عن عددهم ورفقهم واختلال أحوال الروم والفرس. فلم تمض بضع عشرة سنة حتى فتحوا الشام وفلسطين ومصر والعراق وفارس في زمن عمر بن الخطاب. وتواصل الفتح في ايام عثمان بن عفان ومن بعده

عود الى الخلفاء الراشدين

الفتنة

وفي زمن عثمان حدثت الفتنة ثم تمكنت بمقتله سنة ٣٥ هـ فغيرت طور التاريخ الاسلامى. وسببها ان عمر لما طعنه ابو لؤلؤة سنة ٢٣ هـ وأحس بدنو الاجل همه امر المسلمين بعده. فعمد الى طريقة لانتخاب من يتولاهم بعده بالاكثرية فسمى نفرا من الصحابة فيهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب وأوصاهم ان يجتمعوا فى بيت عائشة زوج النبي ويختاروا واحدا منهم يتولى الخلافة بعده. فاختاروا عثمان بن عفان وهو من بنى أمية وأكبرهم سناً

وكان بنو أمية أوفر بطون قريش عدداً وقوة لكن اكثرهم لم يدخلوا فى الاسلام الا بعد فتح مكة وبعد ان اسلم ابو سفيان زعيمهم. فلم يكن لهم جهاد في الغزوات التى قامت عليها دعائم الدولة الاسلامية. فلما تولى ابو بكر لم يولهم الاعمال. وربما كان السبب في ذلك انه لم يكن يثق بصدق اسلامهم لحداثة عهدهم فيه أولانهم

أسلموا مضطرين . فطالبوه بذلك فقال لهم « ادركوا اخوانكم في الجهاد » وأنفذهم لحروب الردة . ثم بعثهم عمر لحروب الشام . وهم مع ذلك يرون انهم أولى بطون قريش بالسلطة لانهم أعز من بني هاشم جانباً واكثر عددا وكانت القيادة في الحروب اليهم كما رأيت في كلامنا عن مناصب الجاهلية . وزاد نفوذهم بعد موت أبي طالب عم النبي . وبين الهاشميين والامويين منافسة متصلة بزمن الجاهلية

فلما تولى عثمان بن عفان اعتزوا به . وكان رجلا صالحاً لكنه كان يؤثر أقرباءه فجعل يوليهم الاعمال في الامصار ويعهد اليهم بمصالح الدولة . فشق ذلك على الصحابة الذين كانت الاعمال اليهم من قبل : وحدثت اسباب اخرى يطول شرحها آلت الى نقمة اهل الامصار على عثمان . فجاءوا المدينة وفيهم اهل مصر والكوفة وأهل البصرة وطلبوا اليه ان يخلع نفسه . فأبى فقتلوه وهو يقرأ القرآن فتلطخ قميصه بالدم . ومهما يكن في عملهم هذا من خرق حرمة الخلافة فانه دليل صريح على ما كان العرب فيه من الانفة والحرية الشخصية وعلو الهمة

على وطلحة والزبير

فلما قتل عثمان اختلفوا في من يخلفه من كبار الصحابة . وكان غرض اهل مصر فى علي بن أبي طالب وغرض اهل البصرة في طلحة بن عبيد الله وغرض اهل الكوفة في الزبير بن العوام ـ وهم أطمع الصحابة في الخلافة . وكان اكثر مسلمي الشام من بني أمية وهم يريدونها لعثمان او من يخلفه منهم . وأما اهل المدينة فكانوا يريدونها لعلي بن أبي طالب جرياً على عادتهم في نصرة بيت النبي منذ هاجر النبي اليهم . وانضم الى اهل المدينة فى نصرة علي ربيعة واليمن وغيرهما . فكان دعاة علي اكثر عددا من سائر الاحزاب لكنهم كانوا لفيفاً من قبائل شتى وأكثرهم من المدينة . وبين اهل مكة والمدينة منافسة قديمة تمكنت بعد الاسلام لما رأيته من نصرة اهل المدينة للمسلمين بعد الهجرة حتى تأيد امرهم بهم وعادوا ففتحوا مكة . وصارت المدينة عاصمة المسلمين وتحولت اليها التجارة والنفوذ وضعف أمر مكة. فلما بايع اهل المدينة علياً بايعه ايضاً طلحة والزبير مكرهين وخرجا الى مكة . فنصرهما اهلها نكاية في اهل المدينة . ثم شخصا الى العراق للاعتزاز بأحزابهما هناك فتبعهما علي بجنده . فجرت بين الجيشين واقعة الجمل الشهيرة بجوار البصرة فقتل فيها طلحة والزبير وخلصت الخلافة لعلي . فنقل عاصمة المسلمين من المدينة الى الكوفة وقد اخطأ في تخليه عن احزابه بالمدينة واعتماده على اهل العراق

على ومعاوية

وظن علي ان الجو قد خلا له . وما درى ان في الشام رجلا عظيما يطلب البيعه لنفسه - نعني معاوية بن أبي سفيان . وقد رأيت ان أبا سفيان وأولاده لم يدخلوا في الاسلام إلا بعد ان يئسوا من الفوز . فلما قتل عثمان كان معاوية بالشام وحوله نخبة الرجال من قريش وكلهم يستهلكون في سبيل نصرته لما ذكرناه من كثرة بني أمية وقوتهم من أيام الجاهلية . وقد شق عليهم في اول الاسلام ان تكون النبوة في بني هاشم فتقموا عليهم . ولما خرج بنو هاشم من مكة بالهجرة خلا الجو في مكة لبني أمية وصارت الرياسة اليهم في أثناء محاربتهم المسلمين في وقائعهم المشهورة في بدر وغيرها ورئيسهم في كل ذلك ابو سفيان والد معاوية . ولما تولى ابو بكر وأرسلهم للجهاد تولى ولاية الشام منهم يزيد بن أبي سفيان ثم مات فخلفه أخوه معاوية في زمن عمر فلما تولى عثمان اقره عليها ومعظم جنده من قريش . فاتصلت رياسة بني أمية - وخصوصاً بيت أبي سفيان - على قريش في الاسلام كما كانت قبله . واستقل بنو هاشم بأمر النبوة ونبذوا الدنيا

التحكيم

فلما قتل عثمان رأى معاوية سبيلا لالتماس الخلافة فعرض قميص عثمان الملطخ بالدم في مسجد دمشق ودعا الناس للمطالبة بثأره لانه من رهطه واتهم علياً واصحابه بقتله . ثم رأى الحرب منتشبة في العراق بين علي وطلحة والزبير فظن هذين يكفيانه مؤونة الحرب . فلما قتلا وفاز علي عمد معاوية للمطالبة بدم عثمان واستنجد رجالا من دهاة العرب فيهم عمرو بن العاص وكان عثمان قد عزله عن مصر فاستدناه معاوية ووعده بولاية مصر اذا هو فاز . فحارب معه في واقعة صفين الشهيرة سنة ٣٧ هـ وكادت رجال علي تظفر بمعاوية واصحابه فيها فاستنبط ابن العاص حيلة أخرجت الخلافة من اهل البيت الى بني أمية

وذلك انه امر رجال معاوية برفع المصاحف على أسنة الرماح اشارة الى طلب الهدنة للمخابرة . فانخدع اصحاب علي بذلك فألحوا عليه ان يوقف القتال ففعل . وبعد المخابرة توافقوا على التحكيم . فاختار كل من الفريقين رجلا وعمرو أحد الرجلين عن معاوية . فاختار اصحاب علي أبا موسى الاشعري وشتان بين الرجلين في الدهاء والذكاء . ورضي الفريقان بما يحكم به هذان وعينوا يوماً لسماع الحكم . فاحتال عمرو على أبي موسى حيلة غلب بها على عقله : أظهر انه يريد خلع علي ومعاوية معاً ليختار المسلمون واحداً سواهما . فقبل ابو موسى بذلك لكن عمراً كلفه ان يتكلم قبله لانه

أرفع منه منزلة واكبر سناً . فانخدع ابو موسى فوقف وقال « أيها الناس انا قد نظرنا في امر هذه الامة فلم نر اصلح لامرها ولا ألم لشعثها من امر أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو ان نخلع علياً ومعاوية ويولى الناس امرهم من احبوا . واني قد خلعت علياً فاستقبلوا امركم وولوا من رأيتموه اهلا »

ثم وقف عمرو وقال « ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولى عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فلما سمع الناس ذلك أيقنوا انها حيلة قد عملت . ولو انها آلت الى خلافة معاوية فقط لهان امرها ولكنها أوجبت انقسام رجال علي عليه . لان بعضهم لاموه على قبول التحكيم وخرجوا من حكمه وهم الخوارج . فأصبح على بين عدوين والخوارج أشدهما خطراً عليه لانه قتل بطعنة من احدهم في السنة ٤٠ للهجرة في مسجد الكوفة

فبايع اهل الكوفة ابنه الحسن ومعاوية لا يزال يطالب بالخلافة لنفسه . فرأى الحسن انه لا يقوى على حربه فتنازل له عنها حقناً للدماء . فبويع معاوية في الشام وانتقل كرسي الخلافة من الكوفة الى دمشق . وكان ذلك آخر العهد بدولة الخلفاء الراشدين

أحوال الخلفاء الراشدين

ترى مما تقدم ان دولة الخلفاء الراشدين تأسست على التقوى وشيدت بالعدل . وخلفاؤها في أبسط أحوال العيش . وكانت الخلافة على عهدهم أشبه بالرتب الدينية منها بمصالح الدولة . وكان احدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ (الكرباس القطن الابيض) وفي رجليه نعلان من ليف وحمائل سيفه ليف ويمشي في الاسواق كبعض الرعية . واذا كلم أدنى الناس سمع منه أغلظ من كلامه . وكانوا يعدون هذا من قبيل الدين ويحكمون الناس بالتقوى والعدل والقدوة الحسنة

وكان طعامهم أدنى أطعمة فقرائهم . وهم لم يتقللوا منه لفقر أو عجز ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة للفقراء من رعيتهم . فقد كان لعلى بن أبي طالب ارتفاع طائل من املاكه يخرجه جميعه على الفقراء

ولم يكونوا يعبأون بالمال . وكان ذلك شأن سائر الصحابة في أيامهم . ولعل السبب في ذلك قربهم من عهد النبوة ولا تزال رهبتها آخذة بمجامع قلوبهم . فلما بعد عهدها زالت تلك الرهبة من قلوبهم فعكفوا على مطالب الدنيا . ويظهر ان ذلك بدأ فيهم في

أواخر عهد الراشدين . فقد ذكر المسعودي انه «في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال . فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة الف دينار والف الف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة الف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار . وخلف الف فرس والف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق الف دينار كل يوم ومن ناحية السراة اكثر من ذلك . وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف الف فرس وله الف بعير وعشرة آلاف من الغنم . وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته اربعة وثمانين الفاً . وخلف زيد ابن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة الف دينار . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى ايضاً بمصر والكوفة والاسكندرية. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج. وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على اعلاها شرافات . وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن وخلف يعلى بن منبه خمسين الف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة الف درهم » اه

وكانت مدة حكمهم نحو ثلاثين سنة اتسعت فيها الفتوح الاسلامية حتى وطئت خيل العرب ما بين افريقية في الغرب الى اقاصى خراسان في الشرق وعبرت النهر الى سمرقند

دولة بني أمية

بينا في اواخر كلامنا عن الخلفاء الراشدين كيف انتقلت الخلافة الى بني امية وأولهم معاوية بن أبي سفيان . وتمتاز الخلافة في عهد بني أمية بأنها سلطنة دنيوية يحكمها خليفتها بالدهاء والسياسة . ويستدني الناس بالارهاب ويؤيد سلطانه ببذل الاموال . والسبب في ذلك أن مؤسس هذه الدولة لم يستطع تأييدها لولا ما في الشام من الخير الكثير والاموال الطائلة . فلما خلصت له الخلافة عمد الى التوسعة على الناس ببذل الاموال . وكان يبذلها خصوصاً لبني هاشم تخفيفاً لما في أنفسهم من النقمة عليه لاستخراجه الخلافة من أيديهم ، وكان اذا وفد احدهم عليه بالغ في اكرامه وارضائه وقضاء حوائجه. وكثيراً ما كانوا وهم في حضرته يذكرون حقهم بالخلافة ويعرضون باختلاسه اياها . وهو يغضي عن ذلك ويقطع ألسنتهم بالمال والحلم مما هو مأثور عنه

واقتبس معاوية من الروم اسباب البذخ ودواعي الترف وقلدهم في أبهة الملك . فأقام الحرس يحملون الحراب بين يديه اذا مشى أو قام للصلاة وبنى لنفسه قصراً نصب فيه السرير وأوقف الحاجب ببابه . وبنى مقصورة في المسجد اذا جاء للصلاة صلى فيها . ولعله اتخذ هذه الوسائل خوفاً من أن يغتاله احد كما اغتالوا علياً وكادوا يغتالونه هو . وقلد الروم بلبس الخز والديباج . وهو الذي وضع البريد على مثال ما كان عند الفرس والروم وديوان الخاتم ـ مما سيأتي تفصيله

ومما استحدثه معاوية في الاسلام انه جعل الخلافة ارثية في نسله بعد أن كانت انتخابية . وهو أول من استطاع ذلك من المسلمين فبايع لابنه يزيد وحمل الناس على بيعته بولاية العهد ـ ولا عبرة في بيعة الحسن بعد أبيه علي . فان الناس بايعوه من عند أنفسهم ولم يوص له أبوه بالخلافة

الخلافة وبنو أمية

ولا بد من النظر في الاسباب التي أعانت معاوية على اخراج الخلافة من أهل بيت النبي وحصرها في قبيلته . وهو وكل الذين بايعوه يعتقدون أن أهل البيت أحق بها منه . والاسباب عديدة ذكرنا بعضها في ماتقدم . ومنها أيضاً ان معاوية استخدم في شد أزره رجالا هم أشهر دهاة الاسلام استدناهم اليه بالاطماع . منهم عمرو بن العاص فقد أطمعه بمصر فساعد على مبايعته كما قد رأيت . ومنهم زياد بن أبيه وهو رجل لا يعرف أبوه ولكنه ذو دهاء وسياسة فانتحل معاوية حكاية استلحقه بها بنسبه وزعم أنه أخوه من أبيه أبي سفيان وسماه زياد بن أبي سفيان . فكان زياد هذا من أكبر أعوان معاوية وله فضل كبير في تأييد هذه الدولة في العراق وغيره . وابنه عبيد الله بن زياد هو الذي قتل الحسين بن علي قتلته المشهورة على يده . ومازال آل زياد يعدون من قريش حتى رد نسبهم الخليفة المهدي (سنة ١٩٥ هـ) الى رجل اسمه عبيد الرومي من ثقيف . وممن استخدمهم معاوية في تأييد خلافته المغيرة بن شعبة وهو الذي شجعه على مبايعة ابنه يزيد بالخلافة وحصر الخلافة في نسله وساعده أيضاً في استدناء زياد بن أبيه

والمؤرخون يعدون هؤلاء الاربعة أعظم دهاة العرب . ومن ذلك قول أحدهم « ما رأيت أثقل حلماً ولا أطول اناة من معاوية . ولا رأيت أغلب للرجال ولا ابذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص . ولا أشبه سراً بعلانية من زياد . ولو

كان المغيرة فى مدينة لها ثمانية ابواب لا يخرج من باب منهـا الا بالمكر لخرج من ابوابها كلها »

ومما ساعد معاوية على الفوز أن علياً لم يكن يرى الاحتيال فى الملك ولا يعرف الدهاء في السياسة ـ يدلك على ذلك ما فرط منه من هذا القبيل لما بويع بعد مقتل عثمان . فجاءه المغيرة يومئذ وأشار عليه باستبقاء معاوية وسائر العمال كما كانوا في زمن عثمان حتى يستتب له الامر وتجتمع على بيعته القلوب وتتفق الكلمه ثم يفعل بعد ذلك ما شاء وهو رأي رجل حازم . فعده علي من قبيل المداهنة في الدين فلم يعمل به . ونصحه أيضاً مثل هذه النصيحة ابن عمه عبد الله بن عباس فأبى . فقال له ابن عباس «يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأى في الحرب أما سمعت رسول الله (ص) يقول الحرب خدعة » فلم يقتنع (١) . أما المغيرة فلما رأى ضياع نصيحته معه عمد الى مسايرته وعاد اليه في الغداة وحسن له ما رآه . ولو عمل علي برأي المغيرة وابن عباس لما نقم هؤلاء عليه ولا خرج المغيرة ولا غيره من أحزابه ولا كانت واقعة الجمل . وربما لم يصل الامر الى بني أمية

بذل المال

وهناك عامل ذو تأثير عظيم استخدمه معاوية وسائر بني أمية فى تأييد سلطانهم نعني « المال » فقد كانوا يصطنعون به الاحزاب ويستدنون به الاعداء . فيبذلونه للشعراء والوافدين ففازوا به على علي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده . على حين ان هؤلاء كانوا يعدون استخدام المال في هذا السبيل رذيلة يجلون أنفسهم عنها . ويعتقدون ان الحق وحده يكفي لتأييد دعوتهم . وقد صح زعمهم هذا في أوائل الاسلام والناس في دهشة النبوة قبل ان غلبت عليهم أهواؤهم . فلا نظن أهل الكوفة نكثوا بيعة الحسين الا بالمال حتى آل الامر الى قتله فكأنهم قتلوه بالمال . وهم لم يقتلوا عبد الله بن الزبير الا بالمال . ولو بذل عبد الله هذا المال مثلهم لكانت الخلافة في نسله ـ وليس في بني أمية ، ولكنه استنكف ان يعطى الناس من اموال الكعبة فأضر بنفسه وقد صرح بذلك خصمه عبد الملك فقال وهو على فراش الموت « ما أعلم أحداً أقوى على هذا الامر (الخلافة) مني . ان ابن الزبير طويل الصلاة كثير الصيام لكنه لبخله لا يصلح للسياسة»

وكان أخوه مصعب بن الزبير مع ذلك ينفق الاموال الطائلة على نفسه وأهله . حتى انه بذل مليون درهم في زواج سكينة بنت الحسين . وكان الجند في ضيق يطلبون

(١) ابن الاثير ٩٧ ج ٢

مالا ولا يعطى لهم . فكتب عبد الله بن همام الى عبد الله بن الزبير يقول :

بلغ أمير المؤمنين رسالة من ناصح لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف الف كامل وتبيت سادات الجنود جياعا
لو لابي حفص أقول مقالتي وأبث ما أبثثكم لارتاعا

وقد كان عبد الملك من اكثر بني امية بذلا للمال في سبيل تأييد سلطانه فان عامله الحجاج بن يوسف لما حاصر الكعبة وفيها ابن الزبير أمر رجاله ان يرموا الكعبة بالمنجنيق فتهيبوا . فجاء بكرسي وجلس عليه وقال « يا اهل الشام قاتلوا على اعطيات عبد الملك » ففعلوا

وكثيراً ما كان عبد الملك يرد أذى الاحزاب عنه بالمال ينثره على الناس فيشتغلون به عنه . ومن ذلك ما فعله مع رجال عمرو بن سعيد بن الاشدق لما طمع بالشام دونه وخاف عبد الملك على نفسه فأمنه واحتال في استحضاره الى ديوانه وقتله غدراً ثم علم اصحابه بمقتله فتجمهروا حول المجلس وخاف عبد الملك العاقبة فامر رجلا ان يرمي رأس عمرو الى الناس وأخذ ابنه عبد العزيز المال في البدر وجعل يلقيها اليهم . فلما رأى الناس الرأس والاموال اشتغلوا بالاموال وتفرقوا

وكان للمال تأثير اعظم من ذلك في ايام العباسيين فان سلطانهم كان يقوى او يضعف بنسبة ما يبذله الخليفة من الاموال للجند . وخصوصاً لما استبد الاتراك في امور الدولة فكانوا يبيعون نصرتهم بالمال . وكانوا اذا تولى خليفة طالبوه بحق البيعة وقد يفرضون عليه رزق سنة او غير سنة

الدهاء والحزم

ومن الاسباب التي أيدت سلطان بني امية انهم كانوا يعولون في تأييده على الدهاء والسياسة والحزم ولو كان فيها خرق لحرمة الدين او اهانة لاهله . فانهم قتلوا ابن بنت النبي وضربوا الكعبة بالمنجنيق ولعنوا ابن عم النبي وصهره على المنابر وقتلوا من لم يلعنه . وسنعود الى تفصيل ذلك في مكان آخر

خلفاء بني امية

قلنا ان معاوية جعل الخلافة وراثية في نسله لكنها لم تتعد اولاده ولم يخلفه منهم الا يزيد الذى بويع بولاية العهد في حياته . ولم يحكم الا بضع سنين ارتكب في اثنائها أموراً كباراً في جملتها مقتل الحسين بن علي . ولما مات يزيد اختلف الناس على البيعة

وكان له ابن اسمه معاوية (الثاني) ولوه وهو لا يرى الخلافة حقا لهم . ومات بعد قليل فبايع بنو أمية شيخاً أموياً من غير بيت معاوية اسمه مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ـ تولى الخلافة بضعة أشهر ومات ثم انحصرت الخلافة في نسله وكل خلفاء بنى أمية بعده من ولده أشهرهم عبد الملك بن مروان المتقدم ذكره تولاها من سنة ٦٥ ـ ٨٦ هـ

عبد الملك بن مروان وابنه الوليد

ولعبد الملك ذكر حسن في تاريخ التمدن الاسلامي لانه عمم اللغة العربية في دواوين الممالك الاسلامية . وكانت لا تزال الى أيامه تكتب بلغات أهلها ويتولاها أناس من الوطنيين : فالديوان المصري كان يكتب بالقبطية ويتولى أعماله جماعة من قبط مصر . والشامي يكتب باليونانية وأموره بأيدي أناس من نصارى الشام . والعراقي بالفارسية ويكتبه بعض اهل العراق . فأمر عبد الملك ان تكون كلها بالعربية وسلم مقاليدها الى المسلمين . ولا يخفى ما كان لهذا العمل من التأثير العظيم في تأييد الدولة الاسلامية لانه جعل اللسان العربي لساناً عاماً في سائر أنحاء المملكة فأصبح اهلها بتوالي الاجيال وقد نسوا جنسياتهم وصاروا يعدون انفسهم عرباً . وساعد على ذلك ان العربية هي لغة الدين ايضاً (١)

ومن اعمال عبد الملك انه ضرب النقود الذهبية بالعربية ونقل الطراز من الرومية الى العربية وسيأتي تفصيل ذلك . وكان عامل عبد الملك على العراق الحجاج ابن يوسف المشهور بدهائه وعلظته . وكان نصيراً له على تأييد دولته فحارب عبدالله ابن الزبير وكان هذا يدعو الناس الى بيعته دون بني أمية فحصره الحجاج في مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق ثم قتله واستخلص الخلافة لعبد الملك

قال ابن الاثير « وهو (عبد الملك) اول من غدر في الاسلام وأول من نهى عن الامر بالمعروف فانه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير : ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه » (٢)

ومنهم الوليد بن عبد الملك (سنة ٨٦ ـ ٩٦) وفي أيامه فتحت الاندلس وامتدت فتوحاته من جهة تركستان وبعض جزائر البحر المتوسط . واتسعت حال بنى أمية في بناء القصور واتخاذ المصانع والضياع

عمر بن عبد العزيز

ومن أشهر خلفاء بني امية عمر بن عبد العزيز بن مروان (حكم سنة ٩٩ ـ

(١) ابن خلدون ٢٠٣ ج ١ والمقريزي ٩٨ ج ١
(٢) ابن الاثير ٢٥١ ج ٤ والفخري ١١٠

١٠١ هـ) وكان أقربهم جميعاً الى سيرة الخلفاء الراشدين . ولعله كان كذلك لقرابته من عمر بن الخطاب لانه ابن حفيدته . فلما تولى الخلافة جعل جده عمر قدوته بالزهد والعدل . وكان بنو أمية منذ جاهروا بطلب الخلافة فرضوا لعن علي على المنبر فرأى عمر ان ذلك لا يوافق روح الاسلام فأمر بابطاله [1] فلم تقع اعماله هذه موقعاً حسناً لدى بني أمية وخصوصا لانه منعهم من اقتناء الاملاك . وكان عمر بن الخطاب قد نهاهم عن ذلك فلم يسمعوا فأعاده هو فخافوا اذا طال حكمه أن يخرج الخلافة منهم فعجلوا به

يزيد بن عبد الملك

وخلفه ابن عمه يزيد بن عبد الملك وكان من اهل اللهو والطرب فشغل عن مصالح الدولة بجاريتين اسم احداهما سلامة والاخرى حبابة . وتسلطت حبابة على عقله وقلبه فأصبحت المملكة طوع ارادتها تولى من شاءت وتعزل من شاءت وهو لا يعرف من أمور الدنيا شيئاً . فلامه أخوه مسلمة وقال له « توليت هذا الامر بعد عمر بن عبد العزيز وعدله فتشاغلت بهذه الجارية عن النظر في الامور والوفود ببابك وأصحاب الظلامات يصيحون وأنت غافل عنهم » فتأثر لقوله وقال « صدقت » وهم بترك الشراب ولم يجتمع بحبابة أياماً . فاشتاقت هي له فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواريها « إن خرج امير المؤمنين للصلاة فاعلميني » فلما أراد الخروج أعلمتها فتلقته والعود في يدها وغنت

ألا لا تلمه اليوم ان يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا

فغطى يزيد وجهه وقال « مه لا تفعلي » ثم غنت :

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وان لام فيه ذو الشنان وفندا

فلم يتمالك ان عدل اليها وقال « صدقت والله . . قبح الله من لامني فيك . . يا غلام مر مسلمة أن يصلي بالناس » وأقام معها يشرب وتغنيه وعاد الى ما كان عليه [2]

وما زال يزيد في ذلك حتى مات بعد موتها حزناً عليها . وخبر موتهما انه نزل بيبت رأس بالشام ومعه حبابة وقال في نفسه «زعموا انه لا تصفو عيشة لاحد يوماً الى الليل الا كدرها شيء عليه وسأجرب ذلك » ثم قال لمن معه « اذا كان غد فلا تخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب » وخلا هو وحبابة وأتيا بما يأكلان ويشربان . فأكلت حبابة رمانة فشرقت بحبة منها فماتت

(١) ابن الاثير ٢٠ ج ٥ وابو الفداء ٢١٢ ج ١ والمسعودي ١٢٠ ج ٢

(٢) ابن الاثير ٥٧ ج ٥ وابو الفداء ٢١٤ ج ٢ والمسعودي ١٢٥ ج ٢

فأقام يزيد ثلاثة أيام لا يدفنها حتى تغيرت وانتنت وهو يشمها ويرشفها ولم يتركها حتى عابه أهله وعاتبوه فاذن بدفنها . ولم يعش بعدها الاخمسة عشر يوماً فمات ودفن الى جنبها سنة ١٠٥ هـ

هشام وغيره

وتولى الخلافة بعده أخوه هشام (من سنة ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) وكان غزير العقل لكنه كان بخيلا ـ والبخل في دولة تأسست بالكرم مضر

وخلفه الوليد بن يزيد وكان قبل الخلافة منهمكا في اللهو والشرب والغناء مثل أبيه وله اشعار فيها. فلما افضت الخلافة اليه زاد انهماكا في اللذات واستهتاراً بالمعاصي . وزاد على ذلك انه أغضب أهله وأساء اليهم فهجموا عليه مع أعيان رعيته فقتلوه وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك

وكان يزيد هذا عاقداً النية على اصلاح الاحوال ولكن الامر كان قد استفحل واضطرب حبل بني امية وبدأت الدعوة العباسية

وفي أيام خلفه مروان بن محمد بن مروان خرجت الخلافة من أيديهم سنة ١٣٢ هـ رغم ما كان عليه مروان هذا من الرغبة في استبقائها والهمة في سبيل الدفاع عنها . لكنه جاء متأخراً وقد قضي عليها بالزوال

بنو العباس

الدعوة العباسية

قلنا في عرض كلامنا عن خلافة أبي بكر ان المسلمين لم يشاءوا أن يجمعوا فى بني هاشم النبوة والخلافة فبايعوا غيرهم من قريش . وأما بنو هاشم فكانوا يعدون ذلك عدولا عن الحق وانهم أولى الناس بذلك الامر وجعلوا يسعون في سبيله . والهاشميون المطالبون بالخلافة اصناف : منهم العلويون من اعقاب علي بن أبي طالب وهم فئتان احداهما تدعو لنسل فاطمة الزهراء والاخرى تدعو لمحمد بن الحنفية (ابن علي من غير فاطمة) . ومنهم العباسيون سلالة العباس عم النبي . وكان كل من هؤلاء يدعو الناس الى نفسه فيبايعونهم سراً ولا يستطيعون الظهور . فلما ظهر ضعف بني امية واضطرابهم هان على الناس الخروج من طاعتهم وخصوصاً لانهم لم يخضعوا للامويين الا طمعاً أو خوفاً واكثرهم يعتقدون ان بني هاشم أولى بالخلافة

ووفق العباسيون يومئذ الى رجل فارسي من أهل خراسان ذي بطش وبسالة اسمه أبو مسلم الخراساني فأنفذوه في طلب البيعة لهم في خراسان لبعدها عن مركز الخلافة الاموية فوفق الى ذلك توفيقاً عجيباً . فحارب وجاهد حتى ادنى الخلافة من بني العباس وسلم ازمتها الى السفاح أول خلفائهم سنة ١٣٢ هـ ولابي مسلم فضل في تأسيس الدولة العباسية اعظم من فضل عمرو بن العاص فى خلافة معاوية . لان عمراً نصر معاوية برأيه وأما أبو مسلم فانه نصر العباسيين بسيفه وقومه

الدولة العباسية

مهما قيل في دولة بنى أمية فهى تمتاز عن دولة بنى العباس بأنها عربية حقيقية . لان عمالها وقضاتها وسائر رجالها كانوا عرباً ـ الا بعض الكتبة والاطباء ونحوهم . وأما بنو العباس فقد غلب في دولتهم العنصر الفارسي لان الفرس هم الذين سلموا اليهم مقاليد الاحكام كما رأيت فاتخذوا منهم الوزراء وهم أول من اتخذ الوزراء ـ اقتبسوا هذا المنصب من الفرس كما سيأتى

اول خلفائهم ابو العباس السفاح وكان له عدة اخوة واعمام استخدمهم في تأييد سلطانه . وكان مقر السفاح في الانبار على الفرات غربى بغداد ومازال فيها حتى مات ولم يحكم الا بضع سنين

المنصور وخلفاؤه

خلفه اخوه ابوجعفر المنصور سنة ١٣٦ — ١٥٧ هـ وهو من اعظم رجال الاسلام دهاء وسياسة وشجاعة ، بنى مدينة قرب الكوفة سماها الهاشمية ثم اتفق له فيها حرب مع جماعة يقال لهم الراوندية فكرهها لذلك ولقربها من الكوفة وكان يخاف أهل الكوفة لانهم قتلوا علياً والحسين ، فخرج منها وبنى مدينة بغداد وهي اشهر عواصم المسلمين ، ثم رأى ان بقاء ابي مسلم يجعل مركزه فى خطر لانه اقدر الناس على اخراج الملك من ايدى العباسيين كما سلمه اليهم فقتله غيلة . وعذره في ذلك انه كان عقبة في سبيله فأزالها ، كما فعل محمد على باشا بالامراء المماليك وكما فعل السلطان محمود الثاني بالانكشارية بعد ذلك بأحد عشر قرناً . وايام المنصور كلها حروب وفتوح

وخلفه ابنه محمد الهادي فهارون الرشيد ثم ابنا الرشيد الامين فالمأمون ، وفي ايام الرشيد والمأمون بلغت الدولة العباسية ابان مجدها ومعظم سلطانها وزهت فيها العلوم والمعارف وترجمت الكتب وتفجرت ينابيع الثروة مما سنأتي على تفصيله في اماكنه

قتل المنصور ابا مسلم الخراسانى خوفا من طمعه بالسلطة وهو فارسي ، لكنه

استخدم في بلاطه رجالا من الفرس ، وفعل خلفاؤه مثله وقدموهم في مصالحهم ومنها الوزارة وهي ارفع مناصب الدولة عندهم ، فآل ذلك الى استفحال امرهم في ايام الرشيد وهم البرامكة ، فلما رآهم الرشيد يستبدون بمصالح الدولة دونه نكب بهم كما هو مشهور

المعتصم والاتراك

وخلف المأمون المعتصم بالله سنة ٢١٨ هـ فاكثر من استخدام الاتراك ، وكان صبيان الاتراك يحملون الى بلاط الخلفاء في أوائل الدولة العباسية هدايا من عمال الامصار في تركستان ، وكان الخلفاء ينتقون احسنهم خلقاً وأقواهم بنية لاستخدامهم في قصورهم وكانوا يسمونهم المماليك ، وكانوا يدخلون في الاسلام ويتعلمون ويتثقفون فظهرت مواهبهم فولاهم الخلفاء كثيراً من مناصب الدولة ، وأخذوا يرتقون بحسب اقتدارهم حتى اتصلوا الى أعلى مناصب الامارة والجند . فأصبحت مقاليد السلطة تتنازعها قوتان متوازنتان الترك والفرس وسنعود الى تفصيل ذلك

واصطنع المعتصم قوما من أهل الجوف بمصر (الشرقية والدقهلية) واستخدمهم في جنده وسماهم المغاربة . وجمع خلقا من سمرقند واشروسنة وفرغانة سماهم الفراغنة فكانوا من أصحابه وحاشيته . فضلا عما كان عنده من الجند العربي . واصطنع غيره بعده أناساً آخرين من أمم اخرى فتعددت العناصر وكثرت الايدي الاجنبية المعترضة فآل ذلك الى ضعف الخلفاء واستبداد العمال في الولايات واستقلالهم

تفرع الدولة العباسية

وجعلت سلطة الخلفاء تتقلص حتى وسعها السواد بين الفرات ودجلة . ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد . واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الراضي بالله في الربع الاول من القرن الرابع للهجرة

الولايات	حكامها
البصرة	في يد ابن رائق
خوزستان	« البريدى
فارس	« عماد الدين بن بويه
كرمان	« أبي علي محمد بن الياس
الري واصفهان والجبل	« ركن الدولة بن بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضر وربيعة	« بني حمدان
مصر والشام	« الاخشيد

الولايات	حكامها
خراسان وما وراء النهر	« السامانية
طبرستان وجرجان	« الديلم
البحرين واليمامة	« القرامطة

استبداد الجند والخدم

ومما زاد الامر استفحالا ان الخدم والاجناد أصبحوا مطلقي الايدى في قصور الخلفاء يستبدون في أعمالها ويسومون الخلفاء اصناف الاهانة وأنواع العذاب . كما فعل جند المغاربة والاتراك فى المعتز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعوه لانه قصر في عطائهم . فانهم دخلوا حجرته وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه فى الشمس . فكان يرفع رجلا ويضع الاخرى لشدة الحر . وبقى بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن ابي الشوارب القاضي وجماعة فأشهدوهم على خلعه ثم سلموه الى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم أدخلوه سرداباً وجصصوه عليه فمات (١) .ومع كل ما لحق الخلفاءمن الذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للاتراك ولا لغيرهم من عرب قريش ان ينزعوا الخلافة من أعناق بني العباس

فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفتها سنة ٦٥٦ هـ ففر من بقي من أهله الى مصر والتجأوا الى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة الى ان فتح السلطان سليم العثمانى مصر سنة ٩٢٣ هـ فأخذ الخلافة منهم . وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعاً نيفاً وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق أولهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون في مصر

الدولة الاموية في الاندلس

أول من دخل بلاد الاندلس من المسلمين طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢ هـ فى عهد الدولة الاموية بالشام . فافتتحاها وتولاها الامراء باسم الخلفاء الامويين . فلما افضت الخلافة الى بنى العباس واعمل أبو العباس السفاح السيف في بنى أمية قتلهم جميعاً الا شاباً اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك

(١) ابن الاثير ٧٧ ج ٧

نجا وفر الى بلاد المغرب واجتاز البحر الى الاندلس . وكان عليها أمير اسمه عبد الرحمن ابن يوسف الفهرى فامتلكها منه وخطب فيها للسفاح زمنا قصيراً (١) ثم عزله العباسيون فقطع الدعوة عنهم ودعا لنفسه سنة ١٣٨ هـ واقام فى قرطبة عاصمة الاندلس في ذلك الحين . وخلفه حكام كثيرون كانوا يلقبون انفسهم بالامراء الى آخر القرن الثالث . فتولاها عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر فسمى نفسه خليفة سنة ٣١٧ هـ وهو أعظم خلفاء بني أمية في الاندلس . حارب الافرنج مراراً وردهم على أعقابهم . فلما مات خلفه بضعة عشر خليفة ليس فيهم من يعدل به



أبو عبد الله آخر ملوك الاندلس كما صوره الاسبان

وفي أوائل القرن الخامس انقسمت الاندلس الى ممالك يتولاها رؤساء أو امراء اشهرهم الحمودية في مالقة من سنة ٤٠٨ ـ ٤٤٩ هـ والعبادية في اشبيلية من سنة ٤١٤ ـ ٤٨٤ هـ . والزيرية في غرناطة من سنة ٤٠٣ ـ ٤٨٣ والجهورية في قرطبة من سنة ٤٢٢ ـ ٤٦١ هـ وذو النونية فى طليطلة من سنة ٤٢٧ ـ ٤٧٨ هـ والعامرية فى بلنسية من ٤١٢ ـ ٤٧٨ هـ والهودية في سراقوسة من سنة ٤١٠ ـ ٥٣٦ هـ وملوك دانية من ٤٠٨ ـ ٤٦٨ هـ ويعرف هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف . وتنازعوا وتغالبوا فيما بينهم وحاربهم الافرنج لانهم طمعوا بهم على أثر ذلك الانقسام

(١) ابن الاثير ٢٣٥ ج ٥

وضاق العبابدة ذرعاً في حرب الفونس دى ليون فاستنجدوا ملوك المرابطين من المغرب سنة ٤٧٩ هـ ثم عاد المرابطون بعد بضع سنين وفتحوا الاندلس كلها وجعلوها ايالة تابعة لمملكتهم في المغرب . ولما صارت المغرب الى الموحدين صارت اليهم أيضاً الاندلس سنة ٥٤٠

ونشأت في أثناء ذلك ممالك صغيرة في بلنسية ومرسية أهمها الدولة النصرية في غرناطة أصحاب الحمراء حكموا من سنة ٦٢٩-٨٩٧ هـ وزهت الاندلس في أيامهم وظهر فيها الشعراء والادباء نحو ما كانت عليه في أيام عبد الرحمن الناصر . لكن الاسبان ما زالوا يهاجمون المسلمين ويناوشونهم وهم يدافعونهم الى اواخر القرن التاسع للهجرة فهاجمها فرديناند وايزابلا سنة ١٤٩٢ (٨٩٧ هـ) ففر ملكها أبو عبد الله وهو محمد الحادي عشر من تلك الدولة . فانقضت بفراره دولة المسلمين في الاندلس

وللاندلس شأن عظيم في التاريخ الاسلامي فقد نبغ فيها العلماء والشعراء وانشئت فيها المداس والمكاتب وشيدت الابنية والقصور وسنأتي على كل شيء في مواضعه

الدولة الفاطمية

نشأت هذه الدولة في بلاد المغرب . وهي تنتسب الى فاطمة بنت النبي بواسطة



باب النصر من ابواب القاهرة

جعفر الصادق . وأول من ظهر بالدعوة منهم عبيد الله المهدى في أواخر القرن الثالث للهجرة . ولذلك فهي تسمى أيضاً العبيدية . وقد أعانهم في نيل الخلافة رجل اسمه ابو عبد الله الشيعي نحو ما فعل ابو مسلم مع العباسيين . فلما استتب لهم الامر قتلوه كما فعل المنصور بأبي مسلم . وامتد سلطانهم في اواسط القرن الرابع الى مصر على يد القائد جوهر . وكانت مصر في حوزة العباسيين ففتحها جوهر وبنى فيها مدينة القاهرة نحو سنة ٣٦٠ هـ ولا تزال الى اليوم . وسموها القاهرة المعزية نسبة الى المعز لدين الله أول من جاء مصر من الخلفاء الفاطميين . وتناوبها خلفاؤه بعده حتى أصابهم



قلعة القاهرة

ما أصاب الدولة العباسية في بغداد من اصطناع الاعاجم الاكراد والاتراك وغيرهم فأفضى أمرها سنة ٥٦٧ هـ الى السلطان صلاح الدين الايوبي الشهير . وللدولة الفاطمية آثار عظيمة لا تزال ظاهرة فى مصر ومنها مدينة القاهرة نفسها والجامع الازهر . وتولاها بعد صلاح الدين ابناؤه واخوته . ومن آثار صلاح الدين قلعة القاهرة . وجاء بعدهم السلاطين المماليك حتى فتحها السلطان سليم العثمانى سنة ٩٢٣ هـ

سائر الدول الاسلامية

في انحاء العالم

ولو أردنا ذكر الدول الاسلامية التى نشأت في العالم لطال بنا الكلام فنكتفى بجدول نبين فيه أسماء الدول الاسلامية وعواصمها وعدد ملوك كل منها وسنى ولايتهم واليك هو :

جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام الى سنة ١٩١٤

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها . هـ	سنة انقضائها هجرية
الخلفاء الراشدون	مكة	٤	١١	٤٠
الدولة الاموية بالشام	دمشق	١٤	٤١	١٣٢
العباسية	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
الاموية بالاندلس	قرطبة (الاندلس)	١٩	١٣٨	٤٢٢
الحمودية	مالقة »	٩	٤٠٧	٤٤٩
»	الجزيرة »	٢	٤٣١	٤٥٠
العبادية	اشبيلية »	٣	٤١٤	٤٨٤
الزيرية	غرناطة »	٥	٤٠٣	٤٨٣
الجمهورية	قرطبة »	٣	٤٢٢	٤٦١
ذوالنونية	طليطلة »	٣	٤٢٧	٤٧٨
العامرية	بلنسية »	٧	٤١٢	٤٧٨
التوجيبية	سرقوسة »	٩	٤١٠	٥٣٦
ملوك دانية	دانية »	٢	٤٠٨	٤٦٨
النصرية	غرناطة »	٢١	٦٢٩	٨٩٧
الادارسة	مراكش (افريقيا)	١٠	١٧٢	٣٧٥
الاغالبة	تونس وغيرها »	١١	١٨٤	٢٩٦
الزيرية	» »	٨	٣٦٢	٥٤٣
بنو حماد	جزائر الغرب »	٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش وغيرها »	٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمالى افريقيا »	١٣	٥٢٤	٦٦٧
بنو حفص	تونس »	٢٢	٦٢٥	٩٤١
بنو زيان	جزائر الغرب »	١٠	٦٣٣	٧٩٦
بنو مرين	مراكش »	٣٥	٥٩١	٩٧٥
الشرفاء	مراكش »	٢٨	٩٥١	لاتزال
الطولونية	القطائع (مصر)	٥	٢٥٤	٢٩٢
الاخشيدية	الفسطاط (مصر)	٥	٣٢٣	٣٥٨

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها . هـ	سنة انقضائها هجرية
الفاطمية	القيروان والقاهرة مصر	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الايوبية (١)	القاهرة (مصر)	٩	٥٦٤	٦٤٨
المماليك البحرية	» »	٢٧	٦٤٨	٧٩٢
» الشراكسة	» »	٢٣	٧٨٤	٩٩٢
العائلة الخديوية	» »	٧	١٢٢٠	لا تزال
الزيادية	زبيد (اليمن)	٩	٢٠٤	٤٠٩
اليعفورية	صنعاء الخ »	٩	٢٤٧	٣٤٥
النجاحية	زبيد »	٨	٤١٢	٥٥٣
الصليحية	صنعاء »	٣	٤٢٩	٤٩٥
الهمدانية	» »	٨	٤٩٢	٥٦٩
المهدية	زبيد »	٣	٥٥٤	٥٦٩
الزريعية	عدن »	٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	اليمن »	١٧	٦٢٦	٨٥٨
الطاهرية	» »	٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة الزيدية	صعدة »	١٧	٢٨٠	٧٠٠
أئمة صنعاء	صنعاء »		١٠٠٠	لا تزال
الحمدانية	الموصل الخ (سوريا)	٩	٣١٧	٣٩٤
المرداسية	حلب »	٧	٤١٤	٤٧٢
العقيلية	الموصل وغيرها »	٧	٣٨٦	٤٨٩
المروانية	ديار بكر »	٥	٣٨٠	٤٨٩
المزيدية	الحلة »	٨	٤٠٣	٥٤٥
الدلفية	كردستان (فارس)	٥	٢١٠	٢٨٥
الساجية	اذربيجان »	٤	٢٦٦	٣١٨
العلوية (الزيدية)	طبرستان »	٤	٢٥٠	٣١٦
الطاهرية	خراسان »	٥	٢٠٥	٢٥٩

(١) لهذه الدولة فروع كثيرة حكمت مدات متفاوتة في دمشق وحلب وبين النهرين وحماة وحمص وبلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطانا

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هجرية
الصفارية	فارس (فارس)	٣	٢٥٤	٢٩٠
السامانية	تركستان وفارس	١٠	٢٦١	٣٨٩
خانات ايلاك	تركستان	٢٤	٣٢٠	٥٦٠
الزيارية	جرجان	٦	٣١٦	٤٣٤
الحسنوية	كردستان	٣	٣٤٨	٤٠٦
بنو بويه	العراق وغيرها	٢٠	٣٢٠	٤٤٧
الكاكويية	كردستان	٢	٣٩٨	٤٤٣
السلاجقة وفروعهم	جنوبي آسيا	٥١	٤٢٩	٧٠٠
الدانشمندية	سيواس وغيرها	٥	٤٩٠	٥٦٠
الاتابكة البوريون	دمشق	٦	٤٩٧	٥٤٩
« الزنجيون	سوريا وبين النهرين	٢٠	٥٢١	٦٤٨
« البكتجينيون	اربلا وغيرها	٣	٥٣٩	٦٣٠
الارتقية	ديار بكر	٢٥	٤٩٥	٧١٢
شاهات ارمنية	أرمينية	٨	٤٩٣	٦٠٤
اتابكة اذربيجان	اذربيجان	٥	٥٣١	٦٢٢
السلغرية	فارس	٩	٥٤٣	٦٨٦
الهزارسبية	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٨	٦١٩	٧٠٣
آل عثمان	الاستانة العلية وغيرها	٣٥	٦٩٩	لاتزال
خانات المغول	زنقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٤٣
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٠
خانات العشائر الذهبية	قاراخيتاى	٤٠	٦٢١	٩٠٧
« القرم	القرم	٤٦	٨٢٣	١١٩٧
« جاغتاي	تركستان	٢٦	٦٢٤	٧٦٠
الجيلاريون	العراق وغيره	٦	٧٣٦	٨١٤
المظفريون	فارس وكردستان	٦	٧١٣	٧٩٥

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هجرية
السر بداريون	خراسان	١٢	٧٣٧	٧٨٣
الكرتيون	هراة	٨	٦٤٣	٧٩١
القراقيونليون	اذربيجان وغيرها	٥	٧٨٠	٨٧٤
اق قيونليون	»	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات العجم	ايران وغيرها	٣١	٩٠٧	لاتزال
التيموريون	تركستان والتتر	١١	٧٧١	٩٠٦
الشيبانيون	»	١٩	٩٠٦	١٠٠٧
المنجيون	»	٦	١٢٠٠	١٢٨٤
خانات خيوا	»	٣٥	٩٢١	١٢٨٩
» خوقند	»	١٧	١١١٢	١٢٩٣
الجانيون	استراخان	١١	١٠٠٧	١٢٠٠
الغزنويون	افغانستان وبنجاب	٢٢	٣٥١	٥٨٣
الغوريون	» وهندستان	٢٠	٥٤٣	٦١٢
سلاطين دهلى	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٦٢
ملوك البنغال وحكامها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
» جانبور الشرقيون	جانبور »	٠٦	٧٩٦	٩٠٥
» مالوا	مالوا »	٧	٨٠٤	٩٣٧
» كجرات	كجرات »	١٤	٧٩٩	٩٨٠
» خانديش	خانديش »	١٢	٨٠١	١٠٠٨
البهمنية	الدكن »	١٨	٧٤٨	٩٣٣
الشاهات العمادية	برار »	٥	٨٩٠	٩٨٠
» النظامية	احمد نجر »	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
» بريد	بيدر »	٧	٨٩٧	١٠١٨
» العادلية	بيجابور »	٨	٨٩٥	١٠٩٧
» القطبية	كولكندا »	٧	٩١٨	١٠٩٨
امبراطورو المغول	هندستان »	٢٦	٩٣٢	١٢٧٥
امراء افغانستان	افغانستان	١٥	١١٦٠	لاتزال

وخلاصة ذلك ان الدول الاسلامية التي ظهرت من أول الاسلام الى الآن نيف ومئة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والاتابكة والاخشيدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم . من العرب والفرس والاتراك والشراكسة والاكراد والهنود والتتر والمغول والافغان وغيرهم . ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقيروان وقرطبة والاستانة وصنعاء وعمان ودهلي وغيرها

هذه مقدمات تاريخية في كيفية تأسيس الدولة الاسلامية وانشاء التمدن الاسلامي تمهيداً لما سيأتي من تاريخ ذلك التمدن

وقد رأيت انهم أنشأوا دولا كثيرة تمدنت في عصور مختلفة . ولما كانت الدولة العباسية أشهرها جميعاً وأسبقها إلى المدنية فسنجعل ما يأتي من وصف التمدن خاصاً بها على الاكثر

المملكة الاسلامية

سعتها وأعمالها

تأسست المملكة الاسلامية في المدينة في السنة الاولى للهجرة والمسلمون قليلون وكل ارض خارج أسوار المدينة غير أرضهم وكل رجل من غير الصحابة عدو لهم . وحدود تلك المملكة محصورة بيثرب وبعض ضواحيها . وكانت دار الامارة والقضاء يومئذ المسجد أو بيت النبي أو بيوت الصحابة . وما زال ذلك شأنها الى السنة الرابعة للهجرة فاضافوا اليها أرض بني النضير . وفي السنة التالية أرض خيبر ثم فدك فوادي القرى فتيماء ثم فتحوا مكة فالطائف فتبالة فجرش ثم شمالا الى تبوك وايلة وجنوباً الى نجران فاليمن فعمان فالبحرين فاليمامة

ولما توفي النبي سنة ١٠ للهجرة كانت سطوة الاسلام قد أظلت كل جزيرة العرب . وشاهد النبي مملكته تمتد من تبوك وايلة شمالا الى شواطىء اليمن جنوباً ومن خليج العجم شرقاً الى بحر القلزم غرباً

سعتها في زمن الراشدين

فلما تولى أبو بكر وفرغ من الردة بعث الجند لفتح الشام والعراق . وأتم فتحهما عمر بن الخطاب وفتح مصر وكانت أكثر الفتوح على يده . وخلفه عثمان ففتح بلاداً

أخرى وشغل المسلمون عن الفتوح بعد مقتله بالفتنة التي شبت بينهم . حتى اذا انقضى عصر الخلفاء الراشدين وضع معاوية يده على أزمة الخلافة ورايات المسلمين تخفق على الشام ومصر والنوبة وافريقية والعراق وفارس وارمينية وأذربيجان وجرجان وطبرستان والاهواز وغيرها

وكان الخليفة يقيم في المدينة (أو الكوفة) ويرسل عماله الى الاعمال (الولايات) واكبر اعمال المملكة الاسلامية يومئذ الشام وتحتها اجناد حمص وقنسرين والاردن وفلسطين والثغور . ثم العراق وأعظم أعماله السواد وهو مابين دجلة والفرات وعاصمته الكوفة على الفرات . وما عدا السواد البصرة وقرقيسية والرى واصفهان ونهاوند واذربيجان وحلوان وهمدان وغيرها . وفي بلاد العرب مكة والطائف والبحرين وعمان وصنعاء . وفي قارة افريقيا ومصر ومايتبعها من افريقية في بلاد المغرب والنوبة في أعالى وادى النيل . وكان الخلفاء يرسلون عمالهم الى هذه الاعمال رأساً من المدينة (أو الكوفة) الا الشام فقد كان عاملها يقيم في دمشق وهو يولى عمالا على مانحتها من الاجناد . وكذلك مصر كان عاملها في الغالب يرسل العمال من تحت امرته الى افريقية والنوبة

وكان عامل الشام في ايام عمر بن الخطاب الى آخر عصر الخلفاء الراشدين معاوية ابن ابى سفيان . ثم صار خليفة ونقل مركز الخلافة الى دمشق كما تقدم . وتخلفت جزيرة العرب كلها عن بيعته وظلت على بيعة على ثم أولاده . وبعد مقتل الحسين ظلت هذه الجزيرة في عهد ابن الزبير حتى قتله الحجاج في أيام عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ فانضمت الى مملكة بني أمية

سعتها في أيام بني أمية

وفي أيام بني أمية زادت المملكة الاسلامية اتساعاً ففتحوا الاندلس وسائر المغرب غرباً . وأوغل بنو أمية في أوربا من وراء اسبانيا فقطعوا جبال البيرينيه ودخلوا فرنسا وأوغلوا فيها الى نهر الرون سنة ١١٤ هـ . فارتعد الافرنج لذلك وخافوا أن يصيبهم ما أصاب اسبانيا . فتكاتفوا لدفعهم بكل جهدهم فحصلت بين الفريقين وقائع دموية في مكان قرب تورس دامت بضعة ايام والحرب سجال . ولم يذكر العرب من اخبار هذه الوقائع الا اشارات مختصرة . وأما الافرنج فانهم فصلوها مع مايقتضيه المقام من اعجابهم بالعرب وبسالتهم . وكان ذلك بقيادة شارل مارتل القائد الفرنساوى الشهير جد الامبراطور شارلمان . فذكروا حروباً هائلة جرت بين شارل هذا وبين العرب

سنة ٧٣٢ م انتهت بتقهقر العرب الى اسبانيا وقتل قائدهم عبد الرحمن

وقد ورد في تاريخ ابن الاثير ان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أمير الاندلس خرج غازياً سنة ١١٤ هـ (وهي تقابل سنة ٧٣٢ م تقريباً) ببلاد الافرنج فقتل هو ومن معه شهداء . فالارجح ان هذه هي الحملة التى حاربها شارل مارتل المذكور



شال مارتل يحارب العرب بين تورس وبواتيه بفرنسا

ومما يستدعى الاعتبار والتأمل ان العرب لو فازوا في هذه الواقعة لانتشر الاسلام في فرنسا ثم فى سائر اوربا ـ لان الفرنساويين كانوا أقوى أمم الافرنج على مدافعة العرب يومئذ . ولانتشرت اللغة العربية في تلك القارة كما انتشرت في قارتي آسيا وافريقيا وسائر العالم الاسلامي

وامتدت فتوح الامويين في بلاد فارس فخراسان وما وراءها الى حدود الهند وهاك أقسام المملكة الاسلامية في زمن بنى أمية :

أعمال المملكة الاسلامية في زمن بنى أمية

١ الشام وتقسم الى اربعة اجناد	٤ ارمينية	٨ مصر
٢ الكوفة	٥ مكة	٩ اليمن
٣ البصرة وتشمل فارس وسجستان والبحرين وعمان	٦ المدينة	١٠ خراسان
	٧ افريقية	

اعمالها في زمن العباسيين

ولما أفضت الخلافة الى بني العباس ترتبت الولايات على هذه الصورة :

١ الكوفة والسواد
٢ البصرة ومهرجان قباد الى كوردجلة وما وراءها جنوباً الى البحرين فعمان
٣ الحجاز واليمامة
٤ اليمن
٥ الاهواز (خوزستان وسوزيانا)
٦ فارس
٧ خراسان
٨ الموصل
٩ الجزيرة (بين النهرين وارمينية واذربيجان)
١٠ الشام
١١ مصر وافريقية
١٢ السند في حدود الهند
١٣ الاندلس

واتسع نطاق المملكة الاسلامية على عهد العباسيين حتى صارت الى اوسع ما بلغت اليه في زمن الاسلام حتى الآن . ولا عبرة في خروج بعض الاعمال من سيطرة العباسيين كالاندلس لما تولاها بنو أمية واستقلال بعض الدول الثانوية كالطاهرية والسامانية والاغالبة والطولونية ونحوهم فقد كان هؤلاء كلهم يخطبون للخليفة العباسي (الا الاندلس) ومهما اختلفت الدول فالمملكة اسلامية وحكامها مسلمون

وقد بلغت حدود هذه المملكة من الشمال الى اعالى تركستان فى اسيا وجبال البيرينيه في شمالى اسبانيا . ومن الجنوب الى بحر العرب والاوقيانوس الهندى وصحراء افريقيا ومن الشرق الى بلاد السند والبنجاب من بلاد الهند . ومن الغرب الاوقيانوس الاتلانتيكى وتزيد مساحتها على ضعفى مساحة اوربا

ولبيان عظمة تلك المملكة الواسعة نأتي على اسماء اعمالها ثم نبين مقدارها :

السواد	همذان	طبرستان	طريق الفرات
الاهواز	ماسبذان	تكريت	قنسرين والعواصم
فارس	مهرجان قذق	شهر زور	حمص
كرمان	الايغارين	الصامغان	دمشق
مكران	قم وقاشان	الموصل	الاردن
اصبهان	اذربيجان	ديار ربيعة	فلسطين
سجستان	الرى	ارزن وميافارقين	مصر
خراسان	قزوين	طوران	الحرمين

حلوان	زنجان	ارمينية	اليمن
الكوفة	قومس	آمد	اليمامة والبحرين
البصرة	جرجان	ديار مضر	عمان

هذه اعمال المملكة الاسلامية العباسية ما عدا مملكة بني أمية في الاندلس. وكانت معاصرة لها وقد فتحت صقلية ومالطة وغيرهما من جزر البحر المتوسط. وكان لكل عمل من هذه الاعمال وال أو عامل يوليه الخليفة أو وزيره أو نائبه كما سنرى فبلغ عدد هذه الاعمال ـ أو الولايات في اصطلاح هذه الايام ـ ٤٤ ولاية لكل منها بيت مال وديوان خراج وقاض أو اكثر. وسكانها هم معظم أمم العالم المتمدن في ذلك الحين وفيهم العرب والفرس والاتراك والاكراد والمغول والتتر والافغان والهنود والارمن والسريان والكلدان والروم والقوط والقبط والنوبة والبربر وغيرهم. وكانوا يتكلمون العربية والفارسية والبهلوية والهندية والرومية والسريانية والتركية والكردية والارمنية والقبطية والبربرية وغيرها. فمنهم من أصبحت اللغة العربية لغتهم وضاعت لغاتهم الاصلية كأهل الشام ومصر والمغرب والعراق. ومنهم من اختلطت العربية بلغاتهم الاصلية كأهل فارس وتركستان والهند والافغان وغيرها. ولا تزال كثير من أمم آسيا وافريقيا تكتب لغاتها بالحروف العربية الى الآن أثراً لذلك التمدن العظيم

احصاؤها

ويحسن بنا في هذا المقام النظر في احصاء هذه المملكة في تلك الايام. ولكن ذلك غير مستطاع لان العرب قلما اهتموا بتعداد سكان ممالكهم. وانما ننظر في احصاء سكان هذه الاعمال اليوم فنأتي بما يقابلها واسم الدولة التي هي تابعة لها وعدد سكانها ثم نقابل بين احوالها سنة ١٩١٤ واحوالها في تلك الايام. وهذا هو احصاؤها.

اسماء البلاد	الدولة التابعة لها	عدد سكانها
ايران كلها	مستقلة	٩٥٠٠٠٠٠٠
افغانستان	مستقلة	٤٥٠٠٠٠٠٠
السند وبلوجستان	انكلترا	٣٥٠٠٠٠٠٠
تركستان	روسيا	٦٠٠٠٠٠٠٠
قوقاسيا	روسيا	١١٠٠٠٠٠٠٠
ارمينية وكردستان	تركيا	٢٥٠٠٠٠٠٠

اسماء البلاد	الدولة التابعة لها	عدد سكانها
العراق والجزيرة	تركيا	٢ ٥٠٠ ٠٠٠
سوريا وفلسطين	تركيا	٣ ٧٦٥ ٠٠٠
جزيرة العرب	تركيا	٥ ٠٠٠ ٠٠٠
القطر المصرى	تركيا	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٢ ٠٠٠ ٠٠٠ ؟
طرابلس الغرب	ايطاليا	١ ٠٠٠ ٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	٥ ٢٣١ ٠٠٠
تونس	فرنسا	١ ٥٠٠ ٠٠٠
مراكش	مستقلة	٥ ٠٠٠ ٠٠٠
اسبانيا	مستقلة	٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠
قبرص	انكلترا	٢٦٠ ٠٠٠
كريد	تركيا	٣١٠ ٠٠٠
		٩٥ ٢٧٦ ٠٠٠

مقدار العمارة

هذا هو تعداد سكان تلك البلاد لغاية سنة ١٩١٤ ولكن كثيراً من المدن الاسلامية أصبح خراباً الآن بالنظر لما كان عليه فى عهد الدولة الاسلامية وخصوصاً العراق أو السواد . وعلى الاخص بغداد والبصرة والكوفة وسائر مدن العراق . فقد وصف الاصطخري مدينة البصرة وصفاً يمثل ما كانت عليه أرض العراق من العمارة في ذلك العصر قال :

البصرة

« البصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم وإنما مصرها العرب . . . وليس فيها مياه الا انهاراً . وذكر بعض اهل الاخبار ان أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبى بردة فزادت على مائة الف نهر وعشرين الف نهر تجرى فيها الزوارق . وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الانهار في أيام بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الانهار صغاراً تجري في كلها زوارق صغار ولكل نهر اسم ينسب به الى صاحبه الذي احتفره أو الى الناحية التي يصب فيها .

فجوزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها »

فاعتبر المسافة التي تحفر فيها ١٢٠٠٠٠٠ نهر أو ترعة لم يمكن أن يكون سكانها وهذا مستغرب عند أهل هذا الزمان لكنه يدل على كل حال على عمران تلك الارض

بغداد

وناهيك ببغداد مدينة الخليفة ودارالسلام فقد ذكر الاصطخري أيضاً في وصفها كما شاهدها في أيامه في القرن الرابع للهجرة قال : « وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جسدار واحد حتى تتصل من نهر بين الى شط دجلة ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعاً على دجلة الى الشماسية نحو خمسة اميال وتحاذى الشماسية في الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلا على دجلة الى آخر الكرخ » الخ

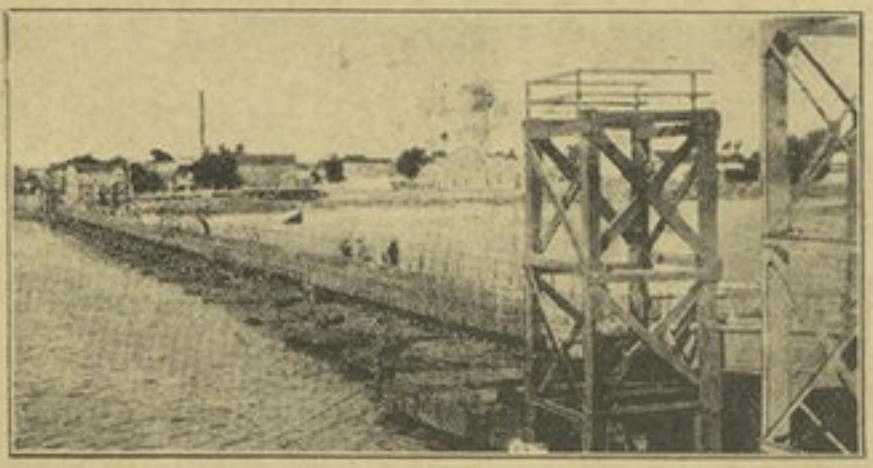

بغداد وجسرها ممتد فوق دجلة على السفن

ثم قال : « وبين بغداد والكوفة (أو بين دجلة والفرات) سواد مشتبك غير مميز تخترق اليه انهار من الفرات » ثم عدد الانهر التى تمتد من الفرات الى دجلة

فأين هذه العمارة مما عليه بغداد اليوم فان احصاء ولاية البصرة كلها الآن ٢٠٠٠٠٠ نفس . وتعداد ولاية بغداد ٨٥٠٠٠٠ ونظن احصاء الولايتين جميعاً أقل كثيراً مما كانت تحويه مدينة بغداد وحدها

وقس على ذلك مدينة دمشق وغيرها من المدن التى ضعف امرها اليوم . وهناك مدن أخرى كانت يومئذ فى ابان مجدها فأصبحت الآن اسماً بلا مسمى مثل الفسطاط في مصر والكوفة في العراق والقيروان في افريقية وبصرى في حوران وغيرها مما لا محل للكلام فيه هنا

مصر

وأما مصر فيؤخذ من كلام مؤرخي العرب انها لما فتحها المسلمون كان عدد الذكور فيها ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك « ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ » ثمانية آلاف الف (٨٠٠٠٠٠٠٠) منهم في الاسكندرية وحدها ٣٠٠٠٠٠٠ فاذا أضفنا الى ذلك عدد الاناث والاطفال والشيوخ زادت جملته على ٣٠٠٠٠٠٠٠ وهو نحو ثلاثة اضعاف سكانها اليوم

وقد يطعن في صحة هذه الرواية ولكن يستدل من مجمل اقوالهم في مصر انها كانت في رغد ورخاء وكان عمرانها بالغاً حد النهاية

وذكر ياقوت في معجم البلدان « ان المقوقس قد تضمن مصر من هرقل بتسعة عشرة ألف ألف دينار وكان يجبيها عشرين الف ألف دينار وجعلها عمرو بن العاص عشرة آلاف ألف دينار أول عام . وفي العام الثاني اثني عشر الف الف دينار ولما وليها في أيام معاوية جباها تسعة آلاف الف دينار . وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أربعة عشر الف الف دينار »(١) وقد أجمع المؤرخون المحدثون تقريباً على تقدير سكانها في تلك الايام بنحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس

قال المقريزي : « ان هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٧ هـ) أمر عبيد الله بن الحبحاب عامله على خراج مصر أن يمسحها . فمسحها بنفسه فوجد مساحة ارضها الزراعية مما يركبه النيل ٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان »(٢) مع ان مساحة الارض الزراعية في وادي النيل (١٩١٤) مع ما تبذله الحكومة من العناية في اخصابها وتعميرها لم تتجاوز ستة ملايين فدان كثيراً . ومساحة وادى النيل كلها أي الوجه البحري والصعيد على جانبي النيل لا تزيد على هذا القدر الا قليلا . فيستحيل أن تكون مساحتها في أوائل الاسلام خمسة أضعاف ذلك

ولكن يظهر ان العرب زرعوا ما يجاور هذا الوادي من الشرق نحو البحر ومن الغرب الى وادى النطرون . لان مساحة مصر بما فيها من الواحات في صحراء ليبيا والارض بين النيل والبحر الاحمر وبينه وبين بحر الروم الى العريش تزيد على ٤٠٠٠٠٠ ميل مربع وذلك يساوى نحو ١٨٧ مليون فدان . فلا غرابة إذ ذاك أن يكون العامر منها ٣٠ مليون فدان . وأن يكون سكانها ٢٠ مليون نفس

ويؤيد ذلك ان مؤرخي العرب كانوا يقدرون مساحة مصر نحو ما تقدم تقريباً .

(١) معجم البلدان ٢٥٢ ج ٤ (٢) المقريزى ٩٩ ج ١

قال المقريزي : « وآخر ما اعتبر حال أرض مصر فوجد مدة حرثها ستين يوماً ومساحة أرضها ١٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان يزرع منها في مباشرة ابن المدبر (في أواسط القرن الثالث للهجرة) ٢٤٠٠٠٠٠٠ فدان . وانه لا يتم خراجها حتى يكون فيها ٤٨٠٠٠٠ حراث يلزمون العمل بها دائماً . . » الخ (١)

واعتبر نحو هذا العمران أيضاً في مدن الاسلام الكبرى في الاندلس مثل قرطبة وغرناطة وطليطلة . وفي العراق والشام بلاد لا تحصى كانت فى تلك الايام مدناً كبرى وأصبحت الآن قرى حقيرة

فاذا اعتبرنا كل ما تقدم لا نستبعد أن يكون احصاء المملكة الاسلامية في ابان عمرانها نحو ٢٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس الى ٣٠٠ مليون وهو نحو تعداد سكان اوربا كلها الآن . وسنعود الى ذلك في كلامنا عن ثروة المملكة

(١) المقريزي ١٠٠ ج ١

مناصب
الدولة الاسلامية

انتهينا من الكلام في نشوء الدولة الاسلامية وتكونها فنتقدم الى الكلام في مناصبها أو دواوينها أو دوائر حكوماتها وتاريخ كل منها. ونقدم الكلام في كيفية نموها وتفرعها الى تلك المناصب

نمو الدولة الاسلامية

نشأت الدولة الاسلامية فى المدينة في السنة الاولى للهجرة والمسلمون يومئذ الصحابة لايزيد عددهم على بضع عشرات بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الانصار فجعلوا اساسها المساواة والمؤاخاة والتعاون . فقد ذكرنا ان النبي آخى بين المسلمين ومكن المؤاخاة بأن جعل اموالهم واحدة ومصالحهم واحدة كما يستدل من قوله : « من ترك كلا (١) فالينا ومن ترك مالا فلورثته » وقد كان ذلك الاشتراك في المصالح داعياً الى زيادة الاتحاد واعمال الدولة يومئذ محصورة في النبي وتشمل السياسة والادارة والدين . ففرضت الصلاة والزكاة وغيرها من الفروض التى تعد من قبيل الدين. ولا نبحث فيها الا من حيث دخلها في تأسيس الدولة

أما الصلاة في الجماعة ففائدتها في الدنيا الاتحاد والطاعة للامام. وأما الزكاة فانها قوام الدولة وأساس مصالحها . فهى أصل بيت المال الذى نعبر عنه بنظارة المالية

ولا يخفى ان للدول نظامات مختلفة وفيها الملكي والجمهوري والمطلق والمقيد ولكل دولة قوانين تختلف عما للاخرى مما لا يحصره وصف . ولكنها ترجع كلها الى أمرين أساسيين تشترك فيهما جميعها وهما « المال والجند» . وما من دولة مهما كان نوع نظامها الا وفيها الجندية والمالية اذ لاقوام لها بدونهما وربما كانت الحاجة اليهما في أوائل الدولة اشد مما بعدها .والمسلمون هم الجند واتحادهم بالصلاة والركوع والمؤاخاة هو نظام الجند والزكاة عبارة عن المال اللازم لبقاء الجند ـ فأساس الدولة الاسلامية هذه الآية « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين »

(١) الكل (بفتح الكاف) اليتيم . . والعيال والثقل والذى لا ولد له ولا والد والضعيف

الزكاة

والزكاة توطد عرى الاتحاد وهو أساس الاسلام . بأن يؤخذ من أغنياء المسلمين مما يزيد من أموالهم ويعطى الفقراء منهم ـ فيؤخذ زكاة ويعطى صدقة . ويمثل ذلك جلياً قول النبي لمعاذ لما بعثه الى اليمن اذ قال له : « انك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم الى شهادة ان لا إله الا الله وان محمداً رسول الله . فان هم أطاعوا لذلك فاعلمهم ان الله فرض عليكم خمس صلوات في اليوم والليلة . فان هم أطاعوا لذلك فاعلمهم ان الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم . فان هم أطاعوا لذلك فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب »

وفى فرض الزكاة على الاغنياء واعطائها للفقراء حكمة عالية . لانها تسترضى الفقراء وهم الجمهور الاكبر وخصوصاً في عصور الجاهلية أيام الاستبداد والاستئثار . فجاء الاسلام لنصرة الضعيف والمساواة بينه وبين القوي . ولذلك كان الناقمون على النبي من كبار القوم الذين ساءهم أن يشاركوا فقراءهم بأموالهم وأن يكونوا إخوة لهم

وبعد واقعة بدر الكبري سنة ٢ هـ حدثت الغنائم والجزية كما سيأتى . فأصبحت أعمال الدولة في عهد النبي وعهد أبى بكر منحصرة في الزكاة تجمع من أغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم . والغنائم المكتسبة بالغزو وتقسم في المحاربين . وما فرضوه على من دخل في ذمتهم من اليهود والنصارى في بلاد العرب من الجزية ونحوها . ويتولى ذلك كله النبي أو خليفته . وكانت الاموال التى ترد عليهم تفرق فيهم على السواء الصغير والكبير الحر والعبد الذكر والانثى . واذا كانت من الغنائم أخذوا نصيبهم منها على ما يأتى . واذا جاء المدينة مال من بعض البلاد أحضر الى المسجد وفرق على ما يراه النبي أو الخليفة بلا قيد ولا ضبط ولا يبقى منه باق

الديوان

ولما فتحت البلاد في زمن عمر بن الخطاب واختلط العرب بالروم والفرس واتسع سلطان المسلمين وكثرت وارداتهم وتعددت مصادر الفيء اضطروا الى ضبط ذلك وتقييده وتعيين ما يدخل وما يخرج منه . فرأى عمر ان يضبط الوارد في الدفاتر فيدفع منه رواتب معينة في العام الى كل على قدر استحقاقه . والذى يبقى من الاموال يحفظ للانتفاع به عند الحاجة . فشرع بذلك في السنة العشرين للهجرة (وقالوا ١٥) وهو ما يعبر عنه بالديوان اقتداء بما كان عند الفرس والروم

ونظر عمر في من حوله من المسلمين فاذا هم طبقات ودرجات باعتبار تأثيرهم في انشاء هذه الدولة وتوسيع سلطانها . فرأى ان يجعل عطاء كل واحد منهم على قدر

خدمته . ولكنه اعتبر ايضاً القرابة من النبي فميز أهله بشيء خاص كما سنفصله . واستناب عنه في تدوين ذلك كاتباً يتولى ضبطه

ولما تكاثرت موارد المال الى المدينة انشأ عمر خزانة أو داراً سماها « بيت المال » وهو أول من فعل ذلك من الخلفاء . وان كنا نرى ذكر بيت المال في عهد ابي بكر فما هو الا من قبيل القياس لان أبا بكر لم يكن يفضل عنده مال يحفظه في خزانة أو بيت

فانقضت دولة الخلفاء الراشدين (سنة ٤٠ هـ) واصحاب المناصب فيها : (١) الخليفة (٢) عماله في الامصار (٣) كاتب يكتب له الكتب ويتولى أمر الديوان (٤) خادم خصوصي كانوا يسمونه الحاجب [1] (٥) خازن يتولى بيت المال (٦) قاض يقضي في الخصومات

فلما افضت الخلافة الى بني أمية وأصبح الامر ملكا سياسياً وكثرت مخالطة المسلمين للاعاجم جمات تلك الدوائر تتفرع وتتوسع عملا بناموس الارتقاء العام وأضافوا اليها مناصب اقتبسوها من الروم والفرس . وقضى عليهم الترف وأبهة الملك أن يتخذوا الخدم والحشم والحاشية والحجاب والحراس . فحدث في عهد بني أمية الحرس وديوان الخاتم والبريد وديوان الخراج مما سيأتي بيانه

ولما آل الامر الى بني العباس زادت عوامل الاختلاط وزاد ميل الخلفاء الى الترف والرخاء فاستنابوا من يقوم مقامهم في مباشرة الاعمال فاستحدثوا منصب الوزارة والحسبة وغيرها وتفرعت المناصب الاولى وتشعبت على مقتضيات الاحوال ثم أحدثت كل دولة من دول الاسلام مناصب اقتضتها احوالها فاختلفت في بغداد عما في قرطبة وفيهما عما في القاهرة مما لا محل لتفصيله

تشعب المناصب

كان الخليفة في عهد سذاجة الدولة هو الذي يراقب أعمال الدواوين بنفسه وكان عماله لا يزالون من أهل الزهد والتقوى لا يحتاجون الى من يراقب أعمالهم أو يستطلع خفاياهم . ولم يكن للخليفة أموال خاصة ولا ضياع تحتاج الى كتاب أو حساب. وكان اذا كتب الى أحد عماله كتاباً ختمه بخاتمه بيده وربما كتب الكتاب بيده . فلما اتسع سلطانهم وتبدلت وجهة الخلافة من الدين الى السياسة ومال الخلفاء الى التقاعد وتقليد القياصرة والاكاسرة استخدموا من يقوم بتلك الاعمال . فاقاموا

(١) الدميري ٢١٠ ج ٢ (نقلا عن المهذب)

من يباشر امور الدولة عنهم وهم الوزراء . ومن يراقب تصرف العمال في الامصار وهو صاحب ديوان البريد . ومن يتولى ختم الرسائل وتقييدها وهم اصحاب ديوان التوقيع أو الخاتم . ومن يتولى النظر في ضياعهم واملاكهم وهم عمال ديوان الضياع. ومن ينظر في حسابات حاشيتهم وخدامهم وهم عمال ديوان الخاص . واقتضت حضارتهم أن يضربوا النقود ويتخذوا الطراز فانشأوا دار الضرب وديوان الطراز . ودواوين أخرى بعضها لعرض الرسائل وبعضها لغير ذلك مثل ديوان الترتيب وديوان العزيز ـ وهذا كان يشبه الباب العالى

وكان الكاتب في عهد الخلفاء الراشدين هو الذى يتولى الديوان على ما وضعه عمر فيدون ما يرد من اموال الخراج والجزية وغيرهما . وما ينفق على الجند والعمال والقضاة وغيرهم ويتولى مكاتبة العمال . فلما اتسعت اعمال الدولة تشعب ذلك الديوان الى ما يختص بحسابات الخراج والجزية وهو ديوان الخراج . والى ما يختص بالنفقة على الجند وغيرهم وهو ديوان الزمام والنفقة . والى ما يتعلق بغير ذلك مثل ديوان الاقطاع وديوان المعادن . والى ما يختص بتدوين اسماء الجند وطبقاتهم ورواتبهم وهو ديوان الجند . وتفرع من ديوان الجند ديوان الاساطيل وديوان الثغور وغيرهما . وأفردوا لمراسلات العمال وغيرهم ديواناً خاصا هو ديوان الرسائل أو الانشاء

وكان بيت المال مخزناً عاماً لكل أموال المسلمين فتفرع في أيام الامويين والعباسيين الى عدة فروع بعضها لاموال الصدقات وبعضها لاموال المظالم وبعضها لاموال الورثة وبعضها لغير ذلك . وعلى هذا النمط تشعبت المناصب الاخرى فتفرع من القضاء ديوان المظالم والحسبة والشرطة ونحو ذلك مما لا يمكن حصره

وشأننا في هذا المقام النظر فى نشأة الدواوين الاساسية وتاريخها وسائر أحوالها. ولا يتجلى ذلك الا اذا نظرنا في اصولها وكيف تكونت وتفرعت والاحوال التى دعت الى ذلك . فنبدأ بالخلافة وتوابعها وملحقاتها فولاية الاقليم فالوزارة . ثم نفرد لكل من الجند والمال وغيرهما باباً خاصاً

الخلافة

ماهيتها وشروطها وحقوقها

ماهيتها

الخلافة ضرب من الملك خاص بالاسلام لم يكن في سواه من قبل . وهي من قبيل السلطة الملكية المطلقة. ولكنها تمتاز عن سلطة القياصرة والامبراطورين والاكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية فتحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها . وأما تلك فتنحصر في حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية

وقد يظهر الفرق بين السلطتين كبيراً ومرجعهما الى مبدأ واحد . لان الذي يتأتى له أن يتولى أمور الناس ويحكم فيهم حكماً مطلقاً اما أن يسير بهم على قانون مفروض أو على مقتضى أمياله وأغراضه . واكثر ملوك العالم المتمدن يحكمون رعاياهم بقوانين سياسية وضعها عقلاء الامة وأكابر الدولة فيحملون الكافة على أحكامها — كذلك كان الفرس والروم قبل الاسلام وهذا هو شأن الملوك المطلقين في اوربا اليوم. وأما الخلافة فانها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها امته ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن النبي صاحب تلك الشريعة . ومن هذا القبيل اشتمال الخلافة على الامامة وقد سموا الخليفة اماماً تشبيهاً بامام الصلاة في اتباعه والاقتداء به

شروط الخلافة

للخلافة أربعة شروط يشترط توفرها في الخليفة . وهي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس . واختلفوا في شرط خامس هو النسب القرشي أي أن لا يقوم خليفة الا من قبيلة قريش ، فامتنع حينئذ ان يتولى امور المسلمين أعجمي باسم الخليفة. وأصل هذا الشرط حديث احتجت به قريش لما طلب الانصار الخلافة لهم كما تقدم في الكلام على بيعة أبي بكر. وكان هذا الشرط مرعياً كل الرعاية في سائر أحوال الدول الاسلامية والخلافة لم يتطلبها غير القرشيين قط . ومع كل ما اتاب الخلفاء في أواخر الدولة العباسية من الضعف واستبداد الامراء فيهم حتى جردوهم من كل قوة دنيوية وأنشأوا الدول دونهم ولقبوا أنفسهم بالسلاطين — ومع كل ذلك لم يخطر لاحد منهم أن يدعي الخلافة أو ان ينصب نفسه خليفة

هذه دول بني بويه والسلاجقة والغزنوية والطاهرية والايوبية وغيرهم قد استقلوا

في الاحكام وفيهم من غلب على الخلفاء ولكنهم لم يسموا انفسهم غير سلاطين . بل كانوا يتزلفون الى الخلفاء ليثبتوهم في الحكم . وكذلك فعل صلاح الدين الايوبي في مصر فانه تناول أزمة الملك في مصر من آخر خليفة فاطمى ـ وليس من يطالبه أو ينافسه على السلطة ويده مقاليد البلاد . فلما أراد الاستقلال بالملك دعا على المنابر للخليفة العباسي ولم يسم نفسه خليفة بل اكتفى بلقب السلطان . وأول من تولى الخلافة الاسلامية من غير قريش السلطان سليم الفاتح العثماني سنة ٩٢٢ هـ . وحجة الائمة الحنفية في صحة خلافة بني عثمان ان الخليفة يتولى الخلافة بخمسة حقوق وهي : ـ

حقوق الخليفة عند الحنفية

١ حق السيف : ومعنى ذلك ان طالب الخلافة يجب أن يقوم بدعوته أنصار لا يقوى عليهم مناظر آخر على وجه الارض . وقد كان ذلك شأن السلطان سليم يوم التمس الخلافة بعد فتح مصر

٢ حق الانتخاب : أى مصادقة أهل العقد وهو مجلس من الائمة والعلماء . وحجتهم في ذلك ان هذا المجلس كان في أول عهد الاسلام بالمدينة . ثم نقل الى دمشق ثم الى بغداد ونقل من بغداد الى القاهرة . فيجوز أيضاً نقله من القاهرة الى القسطنطينية . فلما فتح السلطان سليم مصر حمل معه جماعة من علماء الازهر وأضاف اليهم عدة من علماء الاتراك والف من الفئتين مجلساً صادق على انتخابه وسلموه السيف. ولا تزال العادة جارية في تقليد الخلفاء العثمانيين السيف من أيدى العلماء الى اليوم وهم يفعلون ذلك الآن في جامع أيوب بضواحى الاستانة

٣ الوصاية : وهي وصاية الخليفة لمن يخلفه بعد موته . والمتوكل آخر الخلفاء العباسيين بمصر يوم فتحها السلطان سليم وقد أوصى بالخلافة له

٤ حماية الحرمين : والسلاطين العثمانيون ما برحوا منذ تولوا الخلافة وهم حماة الحرمين ـ الا سبع سنوات تولاها فيها أئمة صنعاء في القرن العاشر وسبع سنوات أخرى تولاها فيها الوهابيون

٥ الاحتفاظ بالامانات : وهي المخلفات النبوية المحفوظة في الاستانة . وهم يقولون ان الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد فحملها الخلفاء العباسيون معهم الى القاهرة . وما زالت فيها حتى نقلها السلطان سليم الى القسطنطينية وهي محفوظة الى الآن في صندوق من الفضة في غرفة بالسراى القديمة (طوبقبو) سيأتي ذكرها

مبايعة الخلفاء

نوع المبايعة

وكانت الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين شورى - وما هي شورى - كان للخليفة ان يسمي من يخلفه ممن يرى فيهم الكفاءة . كما فعل أبو بكر في تسمية عمر ولكنه لم يسمه الا بعد ان شاور أصحابه فيه . واذا خاف ان يدعو ذلك إلى القيل والقال عين جماعة يختارون من بينهم خليفة كما فعل عمر . ولم يخطر لاحد منهم ان يجعلها إرثا في نسله . حتى ان عمر لما سمى الشورى لانتخاب من يخلفه منهم سمى ابنه عبد الله في جملتهم ولكنه نهى عن انتخابه . فاختاروا عثمان بن عفان وهذا قتل ولم يوص فاختار الناس علياً بلا شورى . فشق ذلك على كثيرين من كبار الصحابة لانهم كانوا وقت مقتل عثمان متفرقين في الامصار لم يشهدوا بيعة علي . فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس وتركوا الامر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه . ثم كان ما كان من أمر الفتنة المشهورة

فلما قتل علي أرادت شيعته حصر الخلافة في نسله باعتبار أنهم بضعة من النبي فسألوه وهو على فراش الموت : «أنبايع الحسن ؟» فقال: «لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر» أما هم فبايعوا ابنه الحسن وهذا تنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان فصارت في بني أمية

فطريقة الخلفاء الراشدين في انتخاب الخلفاء من أفضل مابلغ اليه جهد المتمدنين حتى الآن وهي جامعة بين الجمهورية والملكية والشورى . أما الجمهورية فلان الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين . وهي شورية لان الانتخاب يكون بالشورى . وهي مطلقة لان الخليفة اذا قبض على أزمة الملك كان مطلق التصرف . فاذا أضفت الى ذلك شروطها الاربعة التي ذكرناها كانت أفضل أنواع الحكومات على الاطلاق . لان الحاكم المطلق اذا كان عادلا مع علم وكفاية وسلامة الحواس لم يكن أقدر منه على ترقية شؤون المملكة وتوسيع نطاقها والتوفيق بين رعاياه. غير ما في طريقتهم هذه من أدلة التقوى والزهد في الدنيا . كما يتضح ذلك من مراجعة سير الخلفاء الراشدين

فلما أفضى الامر الى بني أمية واختلطوا بالروم في الشام واطلعوا على طرق الحكومات عندهم وفي جملتها توالي الملك في الاعقاب رأى معاوية أن يجعله كذلك في

نسله . ولكنه تهيب لعلمه بما فيه من مخالفة سنة الراشدين فاستشار بعض خاصته فشجعه المغيرة بن شعبة

وقد زاده تشجيعاً ما خافه من افتراق الكلمة اذا ترك الامر بعده فوضى فيتطلبه بنو هاشم ولا يرضى بنو امية تسليمه الى سواهم فيؤول ذلك الى الفتنة بعد ذهاب دهشة النبوة وتغلب طبيعة الملك ورجوع الناس الى العصبية . فتجنباً للفتنة بايع ابنه يزيد . وخوفا من الافتتان عليه بعد موت معاوية طلب له البيعة في حياته . وتربص ليرى مايبدو من الناس فلم ير شراً . وجرى على ذلك خلفاؤه بعده ـ الا عمر بن عبدالعزيز ـ فانه أراد الرجوع الى طريقة الخلفاء الراشدين . ولكنه لم يوفق الى ذلك لتغلب العامة عليه فلم تطل مدته فعادوا الى طريقة معاوية

وأراد مثل ذلك ايضاً المأمون في الدولة العباسية فعهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق من نسل الامام علي وسماه « الرضى » فعظم ذلك على بني العباس ونقضوا بيعة المأمون وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدى . ولو لم يبادر المأمون الى ملافاة الامر لخرجت الخلافة من يده . فعاد الى الخلافة بالارث وجرى عليها العباسيون والفاطميون وغيرهم من خلفاء المسلمين

البيعة

البيعة هي العهد على الطاعة فاذا بايع الرجل أميراً كأنه عاهده وسلم اليه النظر في أمر نفسه لا ينازعه في شيء من ذلك وانه يطيعه فيما كلفه به من الامر على المنشط والمكره . وكان العرب اذا بايعوا أميراً جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد بما يشبه فعل البائع والمشترى فسمى « بيعة » مصدر باع . وصارت البيعة مصافحة الايدى وهو مدلولها بعرف اللغة أيضاً . وأقدم بيعة في الاسلام بيعة العقبة . ومنها ايمان البيعة التى كان الخلفاء يستحلفونها على العهد ويستوعبون الايمان كلها

وكانت العادة اذا هموا بمبايعة خليفة بايعه أولا كبار الدولة ثم من يليهم من أصحاب المناصب . وفي الدولة العباسية كان أول من يبايع الخليفة الجند والقواد وقضاة بغداد . وكان كاتب الجيش هو الذى يتولى استحلافهم على الغالب ويدعوهم باسمائهم ويقف الوزير أو من يقوم مقامه فيعمم الخليفة بيده ويلبسه البردة . ومتى تمت المبايعة يعرضون على الخليفة القاباً فيختار لقباً منها . وهذه الالقاب حادثة في الاسلام وكانت فى اوائل الدولة العباسية بسيطة كالامين والمأمون والرشيد . فلما كانت أيام المعتصم

اضاف اسم الجلالة الى لقبه فسموه « المعتصم بالله » وصارت تلك عادة في من خلفه من بني العباس

فاذا بويع في داره جاءوه بموكب الخلافة وهي أفراس مسرجة ولكل دابة سائس بالالبسة الفاخرة فيركب الخليفة وحوله الفرسان من كبار الدولة ويمشي بين يديه رجل بالحربة ويصف الجنود في الطريق صفين يسير الموكب بينهما الى دار الخليفة وهي دار العامة في بغداد . ثم يرد عليه وفود المهنئين من الامصار على مقتضى الاحوال

يمين البيعة

يختلف نص يمين البيعة باختلاف الدول والاحوال وان كان مرجعها واحداً . فلما بايع الانصار النبي بالعقبة قالوا « يا رسول الله انا براء من ذمامك حتى تصير الى دارنا . فاذا وصلت فانك في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا » . وهناك نص آخر بويع بالعقبة يعرف ببيعة النساء وهي « بايعنا بأن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل اولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين ايدينا وارجلنا ولا نعصيه في معروف »

ويمين بيعة بنى العباس منذ طلبها لهم ابو مسلم الخراساني هى « ابايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى الى بيت الله الحرام على انلا تسألوا رزقاً ولا طعماً حتى يبتدئكم به ولاتكم »

وقد اختلفوا في نص يمين البيعة وفي كيفية الاحتفال بالمبايعة باختلاف الدول ولكن الجوهر واحد . وهو تبادل العهود بين الخليفة ورعيته بالسير على ما يقتضيه الكتاب والسنة ونحو ذلك . وكان شأنهم في المبايعة الاختصار كما تكون الدول في أبسط أحوالها . وكانت البيعة تتلى شفاهاً ثم صارت تكتب وتحفظ . وكانت كلمات قليلة فصارت سطوراً عديدة بما أدخلوه فيها من الحشو والاطناب لما اقتضاه استغراق القوم في الترف من الميل الى التفخيم والتبجيل والتطويل شأن الدول في أيام بذخها

وقد تغيرت صورتها فبعد أن كان الرجل يخاطب الخليفة بالبيعة أصبح أحد الوزراء ممن يأخذون البيعة للخلفاء يخاطبون المبايع ويشترطون عليه الشروط كما فعل ابو مسلم . وهذا نص بيعة الخلفاء العباسيين فى أواسط دولتهم وفى نشرها ما يغنى عن الاسهاب :

« تبايع عبد الله الامام أمير المؤمنين بيعة طوع وايثار ورضى واختيار واعتقاد

واضمار واعلان واسرار واخلاص من طويتك وصدق من نيتك وانشراح من صدرك وصحة من عزيمتك طائعاً غير مكره ومنقاداً غير مجبر مقراً بفضلها مذعناً بحقها ومعترفا ببركتها ومعتداً بحسن عائدتها وعالماً بما فيها وفي توكيدها من صلاح الكافة واجتماع كلمة العامة والخاصة ولم الشعث وأمن العواقب وسكون الدهماء وعز الاولياء وقمع الاعداء ـ على ان فلاناً عبد الله وخليفته المفترض عليك طاعته الواجب على الامة امامته وولايته اللازم لهم القيام بحقه والوفاء بعهده لا تشك فيه ولا ترتاب به ولا تداهن بأمره ولا تميل. وانك ولى أوليائه وعدو أعدائه من خاص وعام وقريب وبعيد وحاضر وغائب متمسك في بيعته بوفاء العهود وذمة العقد، سريرتك مثل علانيتك وضميرك فيه وفق ظاهرك على ان اعطاءك هـذه البيعة من نفسك وتوكيدك اياها في عنقك لفلان أمير المؤمنين عن سلامة من قلبك واستقامة من عزمك واستمرار من هواك ورأيك في أن لا تتأول عليه فيها ولا تسعى في نقض شيء منها ولا تقعد عن نصره في الرخاء والشدة ولا تدع النصح له في كل حال راهنة أو حادثة حتى تلقى الله موفياً بها مؤدياً للامانة فيها اذ كان الذين يبايعون ولاة الامر خلفاء الله في الارض انما يبايعون الله ويد الله فوق أيديهم. فمن نكث فانما ينكث على نفسه. عليك بهذه البيعة التى طوقتها عنقك وبسطت لها يدك وأعطيت فيها صفقتك وما شرط عليك فيهـا من وفاء وموالاة ونصح ومشايعة وطاعة وموافقة واجتهاد ومبالغة عهد الله ان عهده كان مسئولا. وما أخذ الله على أنبيائه ورسله عليهم السلام وعلى من أخذ من عباده من مؤكدات مواثيقه ومحكمات عهوده وعلى أن تتمسك بها فلا تبدل وتستقيم فلا تميل وان نكثت هذه البيعة. ومتى بدلت شرطاً من شروطها أو عفيت رسماً من رسومها أو غيرت حكما من أحكامها معلناً أو مسراً أو محتالا أو متأولا أو زغت عن السبيل التى يسلكها من لا يحقر الامامة ويستحل الغدر والخيانة ولا يستجيز حل العقود وختل العهود ـ فكل ما تملكه من عين أو ورق أو آنية أو عقار أو سائمة أو زرع أو غير ذلك من صنوف الاملاك المعتقدة والاموال المدخرة صدقة على المساكين يحرم عليك أن ترجع شيئاً من ذلك الى مالك بحيلة من الحيل على وجه من الوجوه وسبب من الاسباب أو مخرج من مخارج الايمان. وكل ما تستفيده في بقية عمرك من مال يقل خطره أو يجل قلبك فصدقة في سبيل الله الى أن تتوفاك منيتك ويأتيك أجلك. وكل مملوك لك اليوم من ذكر أو أنثى وتملكه الى آخر أيامك أحرار سائبون لوجه الله. ونساؤك يوم يلزمك الحنث ومن تتزوج بعده في مدة بقائك طوالق ثلاثاً طلاق الحرج والسنة لا مبتوتة ولا رجعة. وعليك المشي الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة حافياً راجلا

لا يرضى الله منك الا بالوفاء بها ولا يقبل الله لك صرفاولا عدلا .وخذلك يوم تحتاج اليه وبرأك من حوله وقوته والجأك الى حولك وقوتك . والله عز وجل بذلك شهيد وكفى بالله شهيداً » (١) . وبلغت المبايعةالتى كتبت للحاكم بأمرالله العباسى في أواسط القرن الثامن للهجرة بمصر مايملأ أربع صفحات من هذا الكتاب . ونشر السيوطى في حسن المحاضرة مبايعة أحد الخلفاء العباسيين بمصر في سبع صفحات كبار (٢)

بيعة ولى العهد

ذكرنا فى كلامنا على الخلافة بعد أن صارت إرثية ان الخلفاء كانوا يبايعون لاولادهم بولاية العهد او لغيرهم من ذوى قرابتهم .وكانوا يحتفلون بذلك مثل احتفالهم بمبايعة الخلفاء . وكثيراً ماكانوا يعرضون عزمهم في ذلك على أهل الرأى كما فعل المنصور لما أراد البيعة لابنه المهدى وكان جعفر يعترض عليه في ذلك فأمر المنصور باحضار الناس وقامت الخطباء فتكلموا وقامت الشعراء فاكثرت فى وصف المهدى فرجح بذلك بيعة المهدى

وكانوا اذا رأوا غير واحد من اولادهم او اخوتهم اهلا للخلافة بايعوا لاحدهم وشرطوا أن يخلفه فلان او فلان كما فعل يزيد بن عبد الملك لما أراد أن يبايع بولاية العهد وكان ابنه لا يزال صغيراً فبايع اخاه هشاماً على أن يخلفه ابنه الوليد بن يزيد وكثيراً ماكانوا يغيرون في شروط المبايعة بعد حين اذا رأوا لزوما لذلك . وقد يبايع الخليفة بولاية العهد لاحد اولاده ويذكر من يخلفه ويخيره في استخلافه كما فعل الرشيد لما كتب بولاية العهد لابنه المأمون ومن بعده للقاسم وجعل أمره للمأمون ان شاء أقره وان شاء خلعه

والعهد كتاب يكتبه الخليفة أو من يكتب له ويختمه بخاتمه وخواتم أهل بيته ويدفعه الى ولى العهد أو من يتولى أمره فيحفظه الى حين الحاجة . وقد يحفظه في مكان أمين في خزانة أو مسجد . أو في الكعبة كما فعل الرشيد بالكتابين اللذين كتبهما لاولاده بولاية العهد أحدهما للامين والآخر للمأمون وبعد هذا للقاسم

ويدعى لولى العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة فيقولون بعدالدعاء للخليفة «اللهم وبلغه الامل في ولده فلان ولى عهده في المسلمين . اللهم وال من والاه من العباد

(١) Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, 1853 نقلا عن تذكرة ابن حمدون (٢) حسن المحاضرة للسيوطي ٧٠ ج ٧

وعاد من عاداه في الاقطار والبلاد وانصر من نصره بالحق والسداد واخذل من خذله بالغى والعناد . اللهم ثبت دولته وشعاره وانبذ الى من نابذ الحق وانصاره »

علامات الخلافة

علامات الخلافة ثلاث : البردة والخاتم والقضيب

البردة

أما البردة فهي بردة النبي وما زال النبي يلبسها حتى أعطاها الى كعب بن زهير ابن أبي سلمى الشاعر المشهور . وكان كعب قد هجا النبي وفر من وجه المسلمين . فلما فتح المسلمون مكة كتب اليه أخوه بجير بن زهير « ان رسول الله (ص) قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وان من بقي من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه فان كانت في نفسك حاجة فطر الى رسول الله (ص) فانه لا يقتل أحداً جاءه تائباً » فلم ير كعب مفرجاً الا رجوعه وتوبته فجاء المدينة وسلم نفسه الى النبي ومدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها

« بانت سعاد فقلبي اليوم متبول »

فأكرمه النبي وأراد بعض الصحابة قتله فمنعهم وبالغ في اكرامه فخلع عليه بردته. فظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان في أثناء خلافته بأربعين الف درهم (١٦٠٠ جنيه) وتوارثها الخلفاء الامويون والعباسيون . وذكر ابو الفداء انها انتقلت من العباسيين الى التتر . لكنها الآن في جملة المخلفات النبوية في السراى القديمة في الاستانة . ولعل أبا الفداء وهم بما علمه من غزو التتر بغداد وفرار العباسيين الى مصر فظن البردة كانت في جملة ما انتهبوه من قصر الخليفة . والظاهر ان العباسيين حملوا البردة معهم الى مصر فأخذها السلطان سليم مع الخلافة

الخاتم

وأما الخاتم فقد اتخذه الخلفاء تشبهاً بالنبي . لانه لما أراد أن يكتب الى قيصر وكسرى يدعوهما الى الاسلام قيل له ان العجم لا يقبلون كتاباً الا ان يكون مختوما . فاتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه « محمد رسول الله » وانتقل هذا الخاتم الى أبي بكر ثم الى عمر ثم الى عثمان ووقع من يد عثمان في بئر اريس ولم يعثروا عليه بعد ذلك .

فاصطنع عثمان خاتماً مثله وكان كل من ولى الخلافة بعده يصطنع له خاتماً يختمون به الكتب في أسفل الكتابة وفي أعلاها بالطين أو المداد. ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمع بعد طيها . وأول من فعل ذلك معاوية تجنباً للتزوير لانه كتب مرة الى زياد ابن ابيه عامله بالكوفة أن يدفع لعمر بن الزبير مئة الف درهم وسلم الكتاب الى عمر ليحمله الى زياد فجعل عمر المائة مائتين فدفعهما زياد له . ولما رفع حسابه الى معاوية بان التزوير فأمر من ذلك الحين بحزم الكتب وختمها على طرفيها بعد طيها أو لفها

وذكر البلاذرى ان زياداً اول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم في أثناء ولاية العراق امتثالا لما كانت الفرس تفعله . وانه كان لملوك الفرس قبل الاسلام عدة خواتم يستخدم كل منها لغرض - خاتم للسر وخاتم للرسل وخاتم للسجلات والاقطاعات وخاتم للخراج وكان الذي يتولاها يسمى صاحب الزمام

وما زال ديوان الخاتم معدوداً من الدواوين الكبرى من أيام معاوية الى اواسط دولة بني العباس فاسقط لان مباشرة الاعمال تحولت الى الامراء والوزراء والسلاطين وغيرهم ولما أراد الرشيد أن يستوزر جعفر بن يحيي بدل الفضل أخيه قال لابيهما يحيي « يا أبت انى اردت ان احول الخاتم من يميني الى شمالى » فكنى بالخاتم عن الوزارة

وكان لخاتم الخلفاء عندهم مقام عظيم. اذا تناوله الوزير أو غيره ليختم به كتاباً وقف على رجليه تعظيما للخلافة . وكانوا اذا ختموا كتاباً دافوا الطين أو المداد وطبعوه على صفح القرطاس أو على جسم لين كالشمع حتى ترتسم صورة الختم عليه . وقد يكون ذلك فى آخر الكتاب أو في أوله بكلمات منتظمة من تحميد او تسبيح او اسم الخليفة او شيء يعنونه . ويكون ذلك اشارة الى صحة ذلك الكتاب ويكون الكتاب بدونه ملغى . ويسمون الختم أيضاً علامة

ولما نشأت السلطنات جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة وسموها الطغراء . وهى نقشة تكتب بقلم غليظ وفيها القاب الملك وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى فيها عن علامة السلطان بيده . وكانت الدولة السلجوقية تسمى ديوان الانشاء ديوان الطغراء

والطغراء سمي بها الحسين ابو اسماعيل الطغرائي صاحب لامية العجم المشهورة كان وزيراً للسلطان مسعود السلجوقى وكان خطه جميلا ويكتب تلك الطغراء بخط جميل فلقبوه بها ويقال انه اول من كتبها (قتل ٥١٥ هـ)

ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم أسماءهم ولكنهم كانوا ينقشون عليها عبارات

فيها مواعظ وحكم . فقد كان نقش خاتم أبي بكر « نعم القادر الله » وخاتم عمر « كفى بالموت واعظاً يا عمر » وخاتم عثمان « لتصبرن أو لتندمن » وخاتم على « الملك لله » وجرى على نحو ذلك خلفاء بني أمية وبنى العباس ولكل منهم فقرة خاصة نقشها على خاتمه . والغالب ان يكون بينها وبين اسمه مناسبة معنوية . فقد نقش خاتم المأمون « عبد الله يؤمن بالله مخلصاً » وختم الواثق « الله ثقة الواثق » وختم المتوكل « على الله توكلت » والمعتمد « اعتمادي على الله وهو حسبي » وقس على ذلك

ويعبرون عن علامات الخلافة اليوم بالمخلفات النبوية . وهى محفوظة في الاستانة في صندوق من الفضة في غرفة بقصر طوبقبو . وهي : البردة وسن من اسنان النبي وشعرات من شعره ونعاله وبقية من العلم النبوى واناءان من حديد يقال ان ابراهيم الخليل كان يشرب بهما من بئر زمزم وجبة الامام أبي حنيفة وذراع سيدنا يحيى . ويحتفلون بزيارة هذه المخلفات في ١٥ رمضان من كل سنة فيخرج جلالة السلطان بموكبه الى السراى المذكورة فيؤدى فروض الزيارة والتبرك بها ومعه كبار رجال الدولة وقد وصفنا هذه الغرفة فى السنة الثامنة عشرة من الهلال وهذا رسمها :

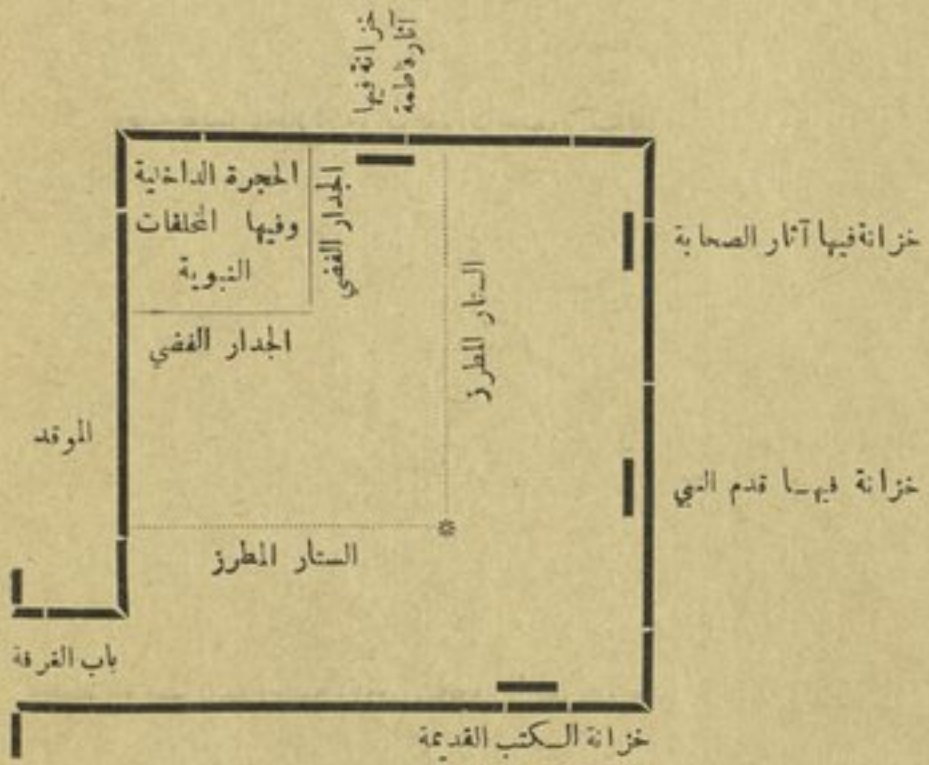

أما القضيب فهو ثالث علامات الخلافة وإذا تولى الخليفة جاؤوه بالبردة والخاتم والقضيب . وظل الامر على ذلك فى بني أمية وبني العباس

شارات الخلافة

وشارات الخلافة أيضاً ثلاث : الخطبة والسكة والطراز

الخطبة

هي الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة . وأصلها ان الخلفاء كانوا يتولون امامة الصلاة بأنفسهم فكانوا يختمون فروض الصلابالدعاء للنبي والرضى عن الصحابة . فلما فتحوا البلاد وبعثوا اليها العمال صار الولاة يتولون امامة الصلاة في ولايتهم فكانوا اذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء . وأول من فعل ذلك منهم عبد الله بن عباس لما تولى البصرة على عهد الامام علي . فانه وقف على منبر البصرة وقال « اللهم انصر علياً على الحق » (١) واتصل العمل على ذلك فيما بعد . وصار الدعاء للخليفة في بلاد علامة سلطانه عليها. ولما ضعف شأن الخلفاء في بغداد كان المتغلبون من السلاطين أو الامراء يشاركون الخلفاء بذلك فيذكرون اسماءهم بعدهم . ثم صار السلاطين يستقلون في الدعاء لانفسهم . ولا يزال الدعاء على المنابر للخلفاء الى اليوم

السكة او النقود

ومن شارات الخلافة ـ أو هي شارات الملك على الاطلاق ـ الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه اسم الخليفة أو السلطان ويقال لها السكة . وهي لازمة للدولة واليك خلاصة تاريخها :

نقود العرب قبل الاسلام

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر وهي الدراهم والدنانير . وكانت الدنانير على الاجمال نقوداً ذهبية والدراهم نقوداً فضية بما يقابل الجنيه والريال عندنا . وكانوا يعبرون عن الذهب بالعين وعن الفضة بالورق . وكان عندهم أيضاً نقود نحاسية منها الحبة والدانق ومرجع قيمة هذه النقود الى الوزن لان المراد بالدينار قطعة من الذهب وزنها مثقال عليه نقش الملك أو السلطان الذي ضربه . والمراد بالدرهم وزن درهم من الفضة . ويسمونه الوافي . ويقدرون الدينار اليوم بعشرة فرنكات . وكان الدينار عندهم عشرة دراهم وربما اختلفت قيمته الى ١٣ أو ١٥ درهماً او اكثر على حسب الاحوال . فكأن الدرهم يقابل الفرنك . وبعبارة أخرى ان درهماً من الفضة كان يساوى أربعة قروش مصرية تقريباً

(١) ابن خلدون ٢٢٥ ج ١

الدراهم

وقد ذكر صاحب الاحكام السلطانية ان الدراهم الفارسية كانت ثلاثة أوزان منها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً وهي الدراهم البغلية . ودرهم وزنه اثنا عشر قيراطاً ودرهم وزنه عشرة قراريط . وذكر غيره دراهم وزن الواحد منها ستة مثاقيل ويسمونها الدراهم السمرية الثقال . ودراهم وزنها خمسة مثاقيل وهي السمرية الخفاف وكلها فارسية

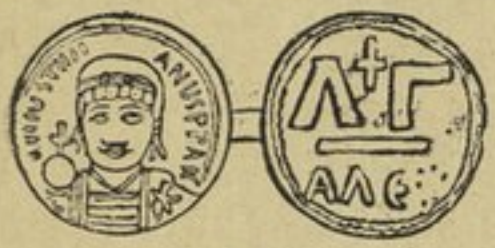

الدينار الروي

الدنانير

وكانت الدنانير عند العرب قبيل الاسلام صنفين دنانير هرقلية أو رومية ودنانير كسروية أو فارسية . وكذلك كانت الدراهم ولكن الغالب أن تكون معاملتهم بالدنانير الرومية والدراهم الفارسية . ولذلك كانت الهرقلية أعز عندهم وأرغب حتى ضربوا المثل بجمالها وزهوها



الدينار الفارسي

والدينار لفظ لاتيني والاصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوي عشرة آسات . والآس درهم من دراهم الروم . والدينار ضرب أولا لهذه الغاية وهو مشتق عندهم من (Deni) أي عشرة . وكان وزنه سبع الاوقية الرومانية أو جزء من مئة من الرطل (الليبرة) أي انهم كانوا يقسمون الليبرة من الفضة الى مئة دينار . ثم ضربوه من الذهب فصار عندهم ديناران الواحد من الفضة والآخر من الذهب . وعنهم أخذ الفرس فضربوا نقوداً مثلها وسموها باسمها

النقود الاسلامية

وما زال العرب يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية حتى ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد وأسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تمدنهم . فكان في جملة عوامله السكة . فضربوا الدراهم والدنانير أولا مشتركة بينهم وبين الروم والفرس



نقود خالد بن الوليد

منها قطعة ضربها خالد بن الوليد في طبرية فى السنة الخامسة عشرة للهجرة وهي على رسم الدنانير الرومية تماماً بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية (XAVED) وهذه الاحرف (Bou) ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالمانى ناقل هذا الرسم انها مقتطعة من « ابو سليمان » كنية خالد بن الوليد



نقود معاوية بن ابي سفيان

وهناك قطعة أخرى ضربت باسم معاوية ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس برسمه وشكله الا اسم معاوية عليه . وقد نقلنا رسمه عن الدكتور مولر المشار اليه أيضاً

وذكر الدميري ضرباً من النقود يقال لها البغلية قال ان رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية « نوش خور » أي كل هنيئاً

وذكر المرحوم جودت باشا انه رأى نقوداً ضربها الامراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين أقدمها ضرب سنة ٢٨ هـ في قصبة هرتك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفي « بسم الله ربي » ورأى نقداً مضروباً سنة ٣٨ هـ على دائرته هذه العبارة أيضاً . ونقداً ضرب سنة ٦١ هـ في يزد على دائرته « عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين » بخط بهلوي . وقال المقريزي :

« وأول من ضرب المعاملة في الاسلام عمر بن الخطاب فى سنة ثماني عشرة من الهجرة على نقش الكسروية وزاد فيها الحمد لله محمد رسول الله وفي بعضها لا إله إلا هو وعلى جزء منها اسمه عمرو. وعبد الله بن زبير ضرب بمكة دراهم مستديرة وهو أول من ضرب هذه الدراهم ونقش بدورها عبد الله وبأحد الوجهين محمد رسول الله وبالآخر أمر الله بالوفاء والعدل »

عبد الملك والنقود

على ان هذه المسكوكات لم تكن تعتبر رسمية في الدول الاسلامية بل كانت اكثر معاملاتهم بالنقود الرومية والفارسية . فاتفق في أيام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ ـ ٨٦ هـ) ان هذا الخليفة أراد تغيير الطراز من الرومية الى العربية كما سيجيء فشق

ذلك على ملك الروم فبعث اليه يهدده بأن ينقش على دنانيره شتم النبي فعظم هذا الامر على عبد الملك فجمع اليه كبار المسلمين واستشارهم فأشار عليه أحدهم بمحمد الباقر أحد الأئمة الاثنى عشر من الشيعة وكان يقيم في المدينة . فلم يشأ عبد الملك أن يستنجد احد أئمة بني هاشم وهم مناظروه فى الملك لكنه لم ير بداً من استقدامه فكتب الى عامله في المدينة أن « اشخص الى محمد بن على بن الحسين مكرماً ومتعه بمائة الف درهم لجهازه و ٣٠٠٠٠ لنفقته وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج من أصحابه » فلما قدم محمد الى دمشق استشاره عبد الملك في ما ينويه ملك الروم في الاساءة بالاسلام فقال محمد « لا يعظم هذا عليك . ادع هذه الساعة صناعاً فيضربون بين يديك سككا للدراهم والدنانير ونجعل النقش عليها صورة التوحيد وذكر رسول الله (ص) أحدهما في وجه الدرهم أو الدينار والآخر في الوجه الثانى ونجعل فى مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التى تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير وتعمد الى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الاصناف الثلاثة التى العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون أوزانها جميعاً أحداً وعشرين مثقالا فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل الى زيادة ولا نقصان فتضرب الدراهم على وزن عشرة مثاقيل والدنانير على وزن سبعة مثاقيل »

ففعل ذلك عبد الملك وبعث نقوده الي جميع بلدان الاسلام وتقدم الي الناس في التعامل بها وهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرها وان تبطل تلك وترد الى مواضع العمل حتى تعاد الى السكة الاسلامية

هذا ما قاله الدميرى ولكن ابن الاثير ينسب هذا الرأي الى خالد بن يزيد بن معاوية ، وغيره ينسبه الى غيره . وتسمى دنانير عبد الملك الدنانير الدمشقية . وأمر الحجاج عامله في العراق أن يضرب الدنانير على ١٥ قيراطاً من قراريط الدنانير ثم صار أمراء العراق يضربون النقود لبني أمية في الاكثر

نقش النقود

ونقش نقود بني أمية على أحد الوجهين فى الوسط « لا اله الا الله وحده لا شريك له » وحول ذلك « بسم الله ضرب هذا الدرهم في بلد كذا سنة كذا » وفي الوجه الآخر بالوسط « الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وحولها محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو

كره المشركون » وكانت هذه الكتابة تنقش على الدينار والدرهم على السواء

وأبطل المسلمون استخدام النقود الرومية والفارسية وغيرها من ذلك الحين. وأجود نقود بني أمية الهبيرية التي ضربها لهم عمر بن هبيرة والخالدية نسبة الى خالد بن عبد الله البجلي واليوسفية التي ضربها يوسف بن عمر وكلهم من عمال العراق لبني أمية . فلما أفضت الخلافة لبني العباس لم يكن المنصور يقبل في الخراج من نقود بني أمية سواها



نقود عبد الملك بن مروان

وللنقود الاسلامية تاريخ طويل لا محل له هنا. وفي كتابنا « تاريخ مصر الحديث » رسوم اكثر النقود الاسلامية وأسماء ضاربيها ، ولكننا نقول بالاجمال ان المسكوكات الاسلامية ضُربت في كل عواصم الاسلام وفي أشهر مدنها في العراق والشام والاندلس وخراسان وصقلية والهند وغيرها وهي تختلف رسماً وسعة ونصاً باختلاف الدول والعصور



نقود اسلامية صقلية

وكانت الكتابة على النقود تنقش بالحرف الكوفي ثم تحولت الى الحرف النسخي الاعتيادي سنة ٦٢١ هـ في أيام العزيز محمد بن صلاح الدين الايوبي بمصر

ويظهر انهم لم يكونوا يذكرون اسم البلد الذي ضربت النقود فيه الى أوائل القرن الثاني للهجرة . وكانوا اذا ذكروا تاريخ الضرب سبقوه بلفظ « السنة » ثم أبدلوها بلفظ « عام » وكثيراً ما كانوا يقولون شهور سنة كذا أو شهور عام كذا أو في أيام دولة فلان. وكان يكتب التاريخ أولا بالحروف على حساب الجمل ثم كتب بالارقام، وأقدم ما عثروا عليه مؤرخاً بالارقام سنة ٦١٤ هـ



نقود العزيز بن صلاح الدين

دار الضرب

وكانت دار الضرب ضرورية للدولة كما نراها ضرورية في هذه الايام اذ لا تخلو

دولة من دول الارض المتمدنة من دار تضرب فيها النقود . وكان ذلك شأن الدول الاسلامية فى كل أدوارها ولم تكن تخلو عاصمة أو قصبة من دار للضرب في بغداد والقاهرة ودمشق والبصرة وقرطبة وغيرها شيء كثير . وكان لدار الضرب ضريبة على ما يضرب فيها من النقود يسمونها ثمن الحطب وأجرة الضراب ومقدارذلك درهم عن كل مئة درهم أي واحد في المئة . وربما اختلفت هذه الضريبة باختلاف المدن . فكان للدولة من ذلك دخل حسن

وأما مقدار ما كانت الدولة تضربه من النقود فيختلف كثيراً ويتعذر تقديره لاختلاف أحوال السكة عندهم . فقد يمر على الدولة أعوام وهي تتعامل بنقود دولة أخرى ولا دار للضرب عندها . أو ربما كانت تضرب نقوداً في عاصمتها وتتعامل بنقود غيرها أيضاً مما لا يمكن ضبطه ولكننا نأتي بما اتصل بنا من هذا القبيل على سبيل المثال ـ فقد ورد في نفح الطيب ان مصلحة دار الضرب في الاندلس بلغ دخلها من ضرب الدراهم والدنانير على عهد بني مروان في القرن الرابع للهجرة ٢٠٠٠٠٠ دينار فى السنة وصرف الدينار ١٧ درهماً . فاذا اعتبرنا هذا الدخل باعتبار واحد في المئة عن المال المضروب بلغ مقدار ما كان يضرب في الاندلس وحدها من ممالك الاسلام ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار أو نحو عشرة ملايين جنيه وذلك نحو ضعفي ماتضربه دولة الانكليز اليوم وهي في إبان مجدها . فاذا أضيف اليها ماكان يضرب في القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية وفى بغداد عاصمة الدولة العباسية وفي غيرها من المدن الاسلامية يومئذ كان مبلغ ذلك شيئاً كثيراً

وكانت صناعة ضرب النقود في تلك العصور لا تزال في أبسط أحوالها وهي عبارة عن طابع من حديد تنقش فيه الكلمات التي يراد ضربها على النقود مقلوبة ثم يقسمون الذهب أو الفضة أجزاء بوزن الدنانير أو الدراهم ويضعون الطابع فوق تلك القطعة ويضربون عليها بمطرقة ثقيلة حتى تتأثر وتظهر الكتابة عليها . وكانت هذه الحديدة تسمى أولا « السكة » ثم نقل هذا المعنى الى أثرها في النقود وهي النقوش ثم نقل الى القيام على ذلك العمل والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علماً عليها. ويدخل في دار الضرب كثير من الوظائف وفيها عدد كبير من العمال من الوازن والضارب وصاحب العيار وغيرهم

الطراز

ومن شارات الخلافة أيضاً الطراز وهو قديم في الدول من عهد الفرس والروم.

وذلك أن يرسم الملوك والسلاطين أسماءهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الابريسم كأنها كتابة خطت في نسيج الثوب لحماً وسدى بخيط من الذهب أو بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ما يحكمه الصياغ بحيث تصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز للدلالة على أن لابسها من أهل الدولة من السلطان فما دونه كما هي الحال في لباس أجناد هذه الايام فترى على بعضهم شرائط القصب والازرار الصفراء ونحوها من علامات الرتب كرسوم النيجان والسيوف والنجوم ونحوها

وكان ملوك الفرس والروم يجعلون رسم ذلك الطراز بصور ملوكهم وأشكالهم أو صور أخرى تشير الى الملك . فلما استقر المسلمون على عرش الاكاسرة والقياصرة وعظمت دولتهم أحبوا الاقتداء بهم ولم يستحسنوا اتخاذ الصور لورود تحريمها في بعض النصوص الدينية فاعتاضوا بكتابة أسمائهم وكلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو الدعاء

الطراز العربي

وأول من نقل الطراز الى العربية من ملوك المسلمين عبد الملك بن مروان الاموي لان الخلفاء الراشدين ظلوا على سذاجة البداوة كما تقدم . فلما أفضت الخلافة الى بني أمية وخالطوا الروم ساروا على خطواتهم في اكثر شؤون دولتهم. وكان في جملة ذلك الطراز على أثوابهم وستور منازلهم وقراطيسهم (والقراطيس برد مصرية كانوا يحملون بها الآنية والثياب) فاتخذ المسلمون الطراز كما كان عند الروم والكتابة عليه بالرومية وظلوا على ذلك الى أيام عبدالملك بن مروان فجعله في العربية وبدأ بالقراطيس وكانت تنسج بمصر واكثر من في مصر لا يزال على النصرانية فكانوا يطرزونها بالرومية وطرازها « بسم الاب والابن والروح القدس » فظهر الاسلام وفتحت مصر والشام والطراز باق على ما كان عليه . وكيفية تنبه عبد الملك لذلك انه كان يوماً في مجلسه فمر به قرطاس فرأى عليه الطراز بالرومية فلاح له أن يستطلع فحواه فأمر أن يترجم بالعربية فلما وقف على الترجمة اكبر أمرها وقال « ما أغلظ هذا في أمر الدين والاسلام أن يكون طراز القراطيس وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل مصر تدور في الآفاق والبلاد وقد طرزت على هذه الصورة » ثم كتب الى أخيه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر بابطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وغير ذلك وأن يستبدلوا تلك العبارة بصورة التوحيد « لا إله إلا هو » ففعل وظل هذا طراز القراطيس في سائر أيام الدول الاسلامية ولم يغير شيء من

جوهره . وكتب عبد الملك الى عمال الآفاق جميعاً بابطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من يخالف ذلك بالضرب الوجيع والحبس الطويل

فلما حملت هذه القراطيس الى بلاد الروم وعلم الامبراطور بخبرها وعلم ترجمة ما فيها أنكره واستشاط غيظاً فكتب الى عبد الملك « ان عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطرازهم فان كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت وان كنت قد أصبت فقد أخطأوا فاختر احدى الحالتين » وبعث اليه بهدية يسترضيه بها للرجوع الى الطراز . فرد عبد الملك الهدية وأخبر الرسول أن لا رد عنده فأعاد اليه أضعافها وطلب الجواب . فلما لم يرد عليه جواباً غضب الامبراطور وبعث يهدد بنقش سب النبي على النقود فكان ذلك داعياً الى تنبه عبد الملك الى ضرب النقود الاسلامية الحقيقية كما تقدم

ذلك ما كان من أمر القراطيس والظاهر ان المسلمين تنبهوا للطراز على الاثواب من ذلك الحين . فجعلوا على ملابس أجنادهم ورجال دولتهم شارة الخلافة وهي اسم الخليفة أو لقبه أو نحو ذلك . وبقاء هذا الطراز على شارات الدولة وبنودها وكسائها يدل على بقاء سلطانها فاذا أراد أحد الولاة الخروج من طاعة الخليفة قطع الخطبة له وأسقط اسمه من الطراز . كما فعل المأمون لما بلغه وهو على خراسان ان أخاه الامين نكث بيعته

دور الطراز او الكسوة

وأنشأ الخلفاء للطراز دوراً في قصورهم تسمى دور الطراز لنسج أثوابهم وعليها تلك الشارة . وكان القائم على النظر فيها يسمى « صاحب الطراز » وهو ينظر في أمور الصباغ والآلة والحاكة فيها ويجري عليهم ارزاقهم ويشارف أعمالهم . وبلغت تلك الدور أفخم احوالها في ايام الدولتين الاموية والعباسية . وكانوا يقلدون أعمال هذه الدور لخاصة دولتهم وثقات مواليهم . وكذلك كانت الحال في دولة بني أمية بالاندلس وفي الدولة الفاطمية بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم

ومن هذا القبيل ما كان يسمى في الدولة الفاطمية بدار الكسوة وكان يفصل فيها جميع أنواع الثياب والبز وقيمة ما كان يخرج منها من الكسى ٦٠٠٠٠٠ دينار في العام وكانت خلعهم على الامراء الثياب الديبقى والعمائم بالطراز الذهب . وكانت قيمة طراز الذهب والعمامة خمسمائة دينار . وكانوا يفرقون الكسوات مرتين في العام مرة لتفريق كسوة الصيف ومرة لتفريق كسوة الشتاء الى جميع اهل الدولة من الخدم والحواشي من العمامة الى السراويل . وقدروا عدد القطع التي صدرت منها سنة ٥١٦ هـ

فبلغت ١٤٣٠٥ قطع . وفي المقريزي فصل خاص فى تعداد ضروب الالبسة التى كانت تفرق فى تلك الدار

وما زالت دور الطراز في الدول الاسلامية على نحو ماتقدم حتى ضاق نطاق تلك الدولة وضعف أمرها وتعددت فروعها فتعطلت هذه الوظيفة من أكثرها . ولكن الطراز نفسه لم يبطل في ملابسهم على انهم لم يعودوا يصنعونه في دورهم بل صاروا ينسجون ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير أو من الذهب الخالص ويسمونه المزركش ويرسم اسم السلطان أو الامير عليه . كذلك فعل السلاطين المماليك بمصر . ويشبهه في الدولة العثمانية رسم الطغراء العثمانية والشرائط المزركشة على ألبسة الضباط وغيرهم من رجال الدولة والعلامات الاخرى في الدول الاخرى

وأما الهلال في الدولة العثمانية فلم نقف على ما يقابله في دول الخلفاء سوى ما كان يؤخذ من ألوان الرايات عندهم واختصاص كل لون بدولة كما سيجيء . والظاهر أنهم كانوا يطرزون اسماء الخلفاء أو ألقابهم على راياتهم وأسلحتهم كما كانوا يضربونها على نقودهم



اسم السلطان بيبرس الثاني على سيفه

فقد ذكر ابن خلكان في ترجمة العزيز بالله الفاطمي ان مملكته اتسعت وفتحت له حمص وحماه وشيزر وحلب وخطب له المقلد بن المسيب صاحب الموصل بالموصل وضرب اسمه على السكة والبنود . وفي كلام أبي الفداء عن استيلاء بجكم على بغداد انه اتصل بخدمة ابن رايق وانتسب اليه حتى كتب على رايته « الرايقي » فالظاهر ان تطريز الاسم على الرايات والبنود بعد ان كان خاصاً بالخلفاء في أوائل الاسلام شاع في اواخر الدولة بين الامراء وكل ذي سلطان

وكانوا يعدون من قبيل شارات الملك أيضاً السرير والمنبر والنخت والكرسي وذكروا من شارات الخلافة الآلة وهي الالوية والرايات والموسيقى وسيأتي الكلام عليها في باب الجند

ولاية الاعمال

الولايات قبل الاسلام

يراد بالولاية الامارة على البلاد فيولى السلطان أو الملك من يقوم مقامه في حكومة الولايات وهي الاعمال في اصطلاحهم . وهـذا النوع من الحكومة قديم . وكانت الشام لما فتحها المسلمون واحـدة من ولايات الروم يسمونها ولاية الشرق وتقسم الى ١١ اقليما تحت كل اقليم عدة بلاد ولكل اقليم قصبة . وهاك اسماءها واسماء قصباتها وعدد المدن التابعة :

اسماء الاقاليم	عدد بلادها	اسم قصبتها
١ سوريا الاولى	٩	انطاكية
٢ » الثانية	٧	حماة
٣ » الثالثة	١٣	منبج
٤ فينيقية الاولى أو البحرية	١٢	صور
٥ فينيقية الثانية أو اللبنانية	١٣	دمشق
٦ العربية	حوران ١٤	بصرى
٧ الجزيرة أو بين النهرين	١٣	ديار بكر
٨ اسروانا	١٢	اورفا
٩ فلسطين الاولى	٦	قيسارية
١٠ » الثانية		بيسان
١١ » الثالثة		بطرا

وكان لكل اقليم حاكم أوعامل والغالب ان يكون بطريقاً والبطريق عند الروم غير البطريرك وانما هو لقب جماعة من شرفاء المملكة الرومانية نشأوا بنشوء مدينة رومية وكان لهم نفوذ عظيم في دولة الرومان. وكانوا بعد انقسام المملكة الرومانية قد انحط شأنهم ولم يعد لهم عمل في الحكومة . فلما امتدت تلك المملكة الى افريقية وسائر المشرق رأت الحكومة ان هذه الولايات البعيدة تحتاج الى من يتولاها ويكون له هيبة وسطوة فجعلوا يولونهم الحكومات فى تلك المستعمرات وفي جملتهـا الشام ومصر وما يليهما

فكان على كل اقليم من اقاليم الشام حاكم يقيم في قصبتها ومعه الجند في القلاع وكان على كل من هذه الاقاليم حاكم عام يقيم في انطاكية ولهذا الحاكم ان يولي ويعزل من يشاء من حكام الاقاليم . وهو يتولى جباية الخراج والانفاق على الجند وسائر اعمال

الولاية . وكانت مصر أيضاً على نحو هذا النظام من حيث الانقسام الى أقاليم وبلاد. وحاكمها العام كان يقيم فى الاسكندرية

وكانت العراق وبلاد فارس هكذا ايضاً . وربما كان ولاتها اكثر تقيداً من ولاة الشام ومصر لقرب دار الملك منهم

الولايات فى الاسلام

فلما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح كانوا اذا ارسلوا قائداً الى فتح بلد ولوه عليه قبل خروجه لفتحه او شرطوا عليه اذا فتحه فهو امير عليه . وكان ذلك شأنهم من أيام النبي فانه أرسل في السنة الثامنة للهجرة أبا زيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام وقال لهما « ان أجاب القوم الى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وأبو زيد على الصلاة وأخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن » وكان كذلك (١)

فلما تولى ابو بكر وبعث البعوث لفتح الشام كان اذا عقد لاحدهم لواء على بلد أو اقليم ولاه عليه قبل ذهابه لفتحه ـ هكذا فعل في أول بعث بعثه وهم ثلاثة فعقد لواء لعمرو بن العاص وأمره ان يسلك طريق ايلة عامداً الى فلسطين وعقد لواء آخر ليزيد بن أبي سفيان وأمره ان يسلك طريق تبوك الى دمشق وعقد لشرحبيل بن حسنة على أن يسير في طريق تبوك ايضاً الى الاردن . وولى كل واحد منهم البلد الذي هو سائر لفتحه وقال لهم « اذا كان بكم قتال فأميركم الذي تكونون في عمله »

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة ولى أبا عبيدة بن الجراح أمر الشام كله وأمرة الامراء فى الحرب والسلم . فأشبه عمله هذا ما كانت عليه الشام قبل فتحها وهي أن يكون على كل اقليم عامل وعلى عمال الاقاليم وال عام كما رأيت . ولكن حاكم الروم العام كان يقيم فى انطاكية فاختار المسلمون دمشق بدلا منها لبعدها عن البحر وقربها من بلاد العرب عملا برغبة عمر بن الخطاب ان لا يقيم المسلمون في مكان يحول بينه وبينهم ماء كما تقدم

الاحتلال العسكري

وكانت ولاية الاعمال في بادىء الرأي أشبه بالاحتلال العسكري منه بالتملك . وكان العمال أو الولاة عبارة عن قواد الجند المقيم بضواحي البلاد المفتوحة بما يعبرون عنه بالرابطة او الحامية . وكانت الجنود الاسلامية منقسمة الى قوات تقيم فى محطات

(١) البلاذري ٧٦ (طبعة ليدن)

عسكرية بأماكن اقرب الى طريق الصحراء منها الى السواحل للاسباب التى قدمناه

فكانت عساكر الشام اربعة اجناد تقيم في دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وقوات العراق كانت تقيم في الكوفة والبصرة . وقوات مصر فى الفسطاط وضواحي الاسكندرية . ولم يكونوا يسكنون القرى ولا المدن ولا يختلطون بالاهلين . وقد منعهم الخليفة عمر بن الخطاب من اتخاذ الزرع وشدد عليهم في ذلك فكانوا يقيمون في معسكراتهم الى زمن الربيع فيسرحون خيولهم بالمرعى في القرى يسوقها الاتباع ومعهم طوائف من السادات . وكانوا كثيري العناية بتربية خيولهم واسمانها . ومن أقوال عمرو بن العاص لجنده في مصر « لا أعلمن ما انى رجلا قد اسمن جسمه واهزل فرسه واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك »

انتشار الاسلام في البلاد المفتوحة

وكان عمرو بن العاص اذا جاء الربيع كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم الى حيث احبوا فتتفرق العرب في القرى على حسب راياتهم وقبائلهم وخصوصاً فى منوف وسمنود واهناس وطحا . فكانت قرى مصر كلها في جميع الاقاليم مملوءة بالقبط والروم . ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المئة الاولى من تاريخ الهجرة . ثم تضاعف في أواسط المئة الثانية . ولم يقووا الا في المئة الثالثة ـ يؤيد ذلك ان المسلمين لم ينشئوا في القرى مساجد قبل ذلك الحين وان القبط كانوا اذا انتقضوا اتعبوا المسلمين ولا يهون على هؤلاء اخضاعهم . وما زالوا في ذلك حتى أوقع المأمون بهم سنة ٢١٦ هـ وجعل الاسلام ينتشر في القرى

وقس على ذلك حال الاندلس لما فتحها المسلمون سنة ٩٢ هـ فانهم اقروا أهلها على ما كانوا عليه اداريا وسياسياً ودينياً وتركوا لهم أعمال الحكومة وادارة شؤونها وانما ابقوا لانفسهم الرئاسة العامة وقيادة الجند ـ هكذا كانت حال الاعمال الاسلامية في اوائل الاسلام الا ما قرب منها من مركز الخلافة كالشام في أيام بني أمية والعراق فى ايام بني العباس

فكان العمال في عهد الخلفاء الراشدين قواد الجند الذين افتتحوا تلك الاعمال وواجباتهم بالاكثر مراقبة سير الاحكام في البلاد التى افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج . وقد رأيت في غير هذا المكان ان اعمال الحكومة في البلاد المفتوحة في مصر والشام والعراق ظلت سائرة على ما كانت عليه قبل الفتح الى اواسط ايام بنى

أمية . وبدأت ولايات الاعمال تتحول الى حكومات محلية من أواخر دولة الراشدين حتى كانت أيام عبد الملك بن مروان فأتم السيطرة الاسلامية بنقل الدواوين الى رجال من المسلمين . ثم تنوعت الولايات وصارت درجات متفاوتة على ما اقتضاه الزمان والمكان ولكنها ترجع الى امارتين : امارة عامة وامارة خاصة . والامارة العامة ضربان امارة استكفاء وامارة استيلاء

الامارة العامة

١ ـ امارة الاستكفاء

فامارة الاستكفاء أو امارة التفويض هي التي كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الاكفاء فيفوض اليه امارة الاقليم على جميع أهله ويجعله عام النظر في كل اموره ويشتمل نظره فيه على سبعة امور : ١ تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير ارزاقهم (الا اذا كان الخليفة قدرها) ٢ النظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام ٣ جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما ٤ حماية الدين والدفاع عن الحريم ٥ اقامة حدود الشرع ٦ الامامة في الصلوات ٧ تسيير الحج . واذا كان الاقليم المشار اليه متاخماً لعدو ترتب على العامل امر ثان هو جهاد ذلك العدو وقسمة الغنائم في المقاتلة واخذ خمسها لاهل الخمس كما هو مفصل في باب الجند والمال

وكان اكبر ولايات الاسلام على هذه الصورة . وخصوصاً لما بعد منها عن مركز الخلافة كالعراق في بني امية ومصر والشام في بني العباس وخراسان في كليهما

عمال الاستكفاء في زمن بني امية

ومن عمال الاستكفاء في ايام بني امية في العراق زياد بن أبيه وابنه عبيد الله وبشر بن مروان والحجاج بن يوسف ويزيد بن المهلب ومسلمة بن عبد الملك وعمر ابن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري ويوسف بن عمر الثقفي وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عمر بن هبيرة . وكانت تسمى امارة كل منهم « امارة العراقين » لاشتمالها على الكوفة والبصرة

فكان كل أمير من هؤلاء يتصرف في امارته تصرف الملوك المستقلين بالكيفية التي قدمناها . فيعين العمال على البلاد تحت امارته وسائر عمال حكومته . ويجبي الاموال فينفق منها على جنده وفي ما تقتضيه العمارة من اصلاح الجسور واحتفار الترع ونحو ذلك ويرسل ما يبقى عنده الى بيت المال في الشام

وكانت الحال نحو ذلك في مصر فقد كان عاملها من عمال الاستكفاء من عهد عمرو بن العاص فما بعده . وربما كان عامل مصر اكثر استقلالا من سواه وخصوصاً عمرو بن العاص لما تولاها المرة الاخيرة بأمر معاوية بعد ان نصره على علي . وربما فعل معاوية مثل ذلك بزياد بن أبيه لما ولاه خراسان وبالمغيرة بن شعبة لما ولاه الكوفة رغبة منه في اطماع هؤلاء الدهاة كما تقدم

عمال الاستكفاء في أيام بني العباس

ولما أفضت الخلافة الى بني العباس ساروا على نحو هذه الخطة لكنهم قلما كانوا يجعلون امر العراق مفوضاً للعمال لقربه من مركز الخلافة . على انهم كانوا يفوضون العمال في الاقاليم البعيدة كالشام ومصر وخراسان وسائر ما وراء العراق نحو الشرق الى اقصى بلاد الترك وما وراء النهر . ولما تمكن البرامكة من الدولة وغلب نفوذهم فيها ولى الرشيد احدهم جعفر بن يحيى الغرب كله من الانبار الى افريقيا وقلد اخاه الفضل بن يحيى الشرق كله من شروان الى اقصى بلاد الترك سنة ١٧٦ هـ فأقام جعفر بمصر وارسل العمال بامره الى الشام وافريقيا وغيرهما . واما الفضل فانه سار الى عمله حتى وصل الى خراسان فأصلح وبدل واستخلف عمالا وعاد الى العراق

وكثيراً ما كان الخلفاء يفوضون الى بعض خاصتهم عملا من الاعمال فيرسل هذا من يقوم مقامه في ذلك العمل ويبقى هو في بلاد الخليفة . واكثر ما كان يقع ذلك في الدولة العباسية

وكانت امارة الاستكفاء هذه من جملة الاسباب التي ساعدت على تشعب المملكة العباسية الى دول مستقلة . لان الوالي كان يقيم في ولايته كأنه ملك مستقل الا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج الى الخليفة والخطبة له وضرب النقود باسمه وأموراً أخرى لا تضغط على ارادته . فاذا كان الوالي ذا دهاء وآنس من الخليفة ضعفاً جمع أهل الاقليم على ولائه واستقل بعمله اما استقلالا تاماً واما على مال معين يبعث به الى الخليفة ببغداد . او على شروط أخرى . وعلى نحو هذا النمط استقل الاغالبة في افريقية وابن طاهر في خراسان وابن طولون في مصر ولكن تلك الاقاليم ما زالت تعد امارات عباسية ويعبرون عنها بامارة الاستكفاء

٢ ــ امارة الاستيلاء

ويراد بامارة الاستيلاء ان يعقد الخليفة لامير على اقليم اضطراراً بعد أن يستولي الامير على ذلك الاقليم بالقوة . فكان الخليفة يثبته في امارته ويفوض اليه تدبير سياسته فيكون الامير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير والخليفة باذنه منفذاً لاحكام

الدين . ولهذه الامارة شروط تفرض على الامير في مقابل ذلك وهي : ١ حفظ منصب الامامة في خلافة النبوة وتدبير أمور الملة ٢ ظهور الطاعة الدينية ٣ اجتماع الكلمة على الالفة والتناصر ليكون للمسلمين يد على سواهم ٤ ان تكون عقود الولايات الدينية جائزة والاحكام فيها نافذة ٥ أن يكون استيفاء الاموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها ٦ ان تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمة على مستحق ٧ ان يهتم الامير في حفظ الدين . ولامير الاستيلاء ان يستخدم الوزراء وغيرهم . ومن هذه الامارات ما انتهت اليه الدولة العباسية من التشعب وظهور الدول الصغرى فيها كالدولة الحمدانية والبهويهية والغزنوية والاخشيدية وغيرها . وكلها كانت امارات مستقلة تدعو للخليفة على المنابر وتضرب السكة باسمه وترسل اليه المالا معيناً في السنة يتم الاتفاق عليه . وهو الذي يثبت امراءها ويكون الحكم متسلسلا في اعقابهم على نحو حال الخديوية المصرية بالنظر الى الدولة العثمانية

الامارة الخاصة

وأما الامارة الخاصة فهي ان يكون الامير فيها مقصوراً على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة . وليس له أن يتعرض للقضاء أو الاحكام أو لجباية الخراج أو الصدقات في شيء ـ حتى الامامة في الصلاة فربما كان القاضي أولى بها منه والخليفة يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي وهم يؤدون اعطيات الجند وغيرها مما يجمعونه . والامارات الخاصة كانت قليلة في ابان الدولة العباسية

رواتب العمال

أما رواتب العمال فقد قدرها عمر بن الخطاب بعد تدوين الدواوين وتعيين ارزاق الجند . واول ما فعل ذلك لما وجه عمار بن ياسر الى الكوفة وولاه صلاتها وجيوشها فجعل له ستمائة درهم في الشهر . وعين الرواتب لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه . فبعث عثمان بن حنيف على مساحة الارض وعبد الله بن مسعود على قضاء الكوفة وشريحاً على قضاء البصرة وأجرى على عثمان ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم . وجعل عطاءه خمسة آلاف درهم في السنة . وأجرى على عبد الله مائة درهم في الشهر وربع شاة في اليوم . وأجرى على شريح مائة درهم وعشرة اجربة في الشهر . فترى مما تقدم انه فضل عمار بن ياسر عليهم اجمعين لانه كان على الصلاة والجند وهي الامارة يومئذ . ولما

ولى عمر معاوية بن أبي سفيان على الشام جعل له الف درهم كل سنة. وكان عمر يشدد في محاسبة العمال فاذا رآهم ربحوا مالا من شيء قاسمهم وأخذ النصف لبيت المال

وأما بنو أمية فقد نال عمال الاقاليم في ايامهم امتيازات كثيرة منحهم اياها معاوية ترغيباً لهم في البقاء على ولائه . فولى زياد بن ابيه البصرة وخراسان وسجستان ووسع له بما يريد . وفعل نحو ذلك مع عمرو بن العاص بمصر

وجرى العباسيون على نحو ذلك . فلما ولى المأمون الفضل بن سهل على الشرق جعل له ٣٠٠٠٠٠٠ درهم فى السنة . وكانت رواتب العمال تختلف باختلاف نوع العمل وسعته وأهميته

الوزارة وما يتبعها

١ — الوزارة

الوزارة اسمى الرتب السلطانية وليست من محدثات الاسلام بل هي فارسية الاصل اتخذها المسلمون في عهد الدولة العباسية . اما إذا اريد بالوزارة استعانة الخليفة بمن يشد أزره او يعاونه في الحكم فهي تتصل بصدر الاسلام . لان النبي نفسه كان يشاور اصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ويخص أبا بكر بخصوصيات أخرى . حتى ان العرب الذين خالطوا الروم والفرس قبل الاسلام كانوا يسمون أبا بكر وزيره . وكذلك كان شأن عمر مع ابي بكر وشأن علي وعثمان مع عمر . ولكن لفظ الوزير لم يكن يعرف بين المسلمين في سذاجة الدولة

على ان بنى امية لما جعلوا الخلافة ملكا وأصبح معولهم في استبقاء ملكهم على السياسة والدهاء احتاجوا إلى من يستشيرونهم ويستعينونهم فى امور القبائل والعصائب واستئلافهم واصطناع الاحزاب منهم . فاستخدموا اناساً لنحو ذلك الغرض وهي الوزارة بمعناها ، ولكن يظهر انهم لم يكونوا يسمون صاحب هذه الرتبة الوزير ، فانقضت دولة بنى أمية والوزارة تشتمل النظر فى نحو ما تقدم

فلما افضت الخلافة الى بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد واضيف إلى الوزارة النظر في ديوان الحساب ثم النظر في المكاتبات لصون اسرار الخليفة . فأصبحت الوزارة شاملة لخطتي السيف والقلم

وأول وزراء بني العباس ابو سلمة حفص بن سليمان الهمداني وزير أبى العباس

السفاح وهو أول من سمي وزيراً في الاسلام ، قال ابن خلكان « ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت لا في دولة بني امية ولا في غيرها » وكان ابو سلمة يسمى وزير آل محمد كما يسمى ابو مسلم الخراساني امير آل محمد وكلاهما فارسيان ، والعباسيون اول من عول على الوزراء فسلموا اليهم امور الدولة واكثرهم من الفرس وأشهر وزرائهم البرامكة وقد استفحل امرهم في الدولة حتى اضطر الرشيد الى الفتك بهم في نكبتهم المشهورة

وتقلبت على الوزارة أحوال شتى في أيام بني العباس . ففي القرن الرابع للهجرة أضيف الى اسم الوزير لقب « صاحب » وأول من لقب به منهم أبو القاسم اسماعيل ابن أبي الحسن عباد بن العباس وكان أولا وزير مؤيد الدولة بن بويه وعرف بالصاحب وصار كل من تولى الوزارة بعده يسمى الصاحب

وأخذ نفوذ الوزارة في بني العباس يتقلص بتقلص نفوذ الخلفاء حتى استبد العمال في الاعمال وتفرعت المملكة العباسية فأصبحت الوزارة كالخلافة اسماً بلا مسمى فأسقطوها وأبدلوها بامرة الامراء

٢ — امير الامراء

هو لقب منحه الخلفاء العباسيون لامراء بعض الدول الاسلامية الصغرى التي ظهرت في القرن الرابع للهجرة وما بعده من بني حمدان وبني بويه . وقد يكون أمير الامراء ملكا أو مثل ملك . وأول من لقب به ابن رائق من بني حمدان وكان أمير البصرة وواسط ـ فجعله الراضي أمير الامراء سنة ٣٢٤ هـ وفوض اليه تدبير المملكة وأمر ان يخطب له على المنابر . وخلع عليه وأعطاه اللواء وكانوا يسمونه أيضاً ملك بغداد أو سلطان بغداد . وما زال هذا اللقب في بني بويه إلى سنة ٤٤٩ هـ فانتقل إلى السلاجقة الاتراك وأولهم طغرل بك ثم صار خلفه الب ارسلان من أعظم ملوك زمانه . وظل هذا اللقب في السلاجقة الى سنة ٥٤٧ هـ وسقط بسقوط دولتهم في بغداد وكان بنو بويه لما استفحل أمرهم يولون امير الامراء من عند انفسهم ولم يتركوا للخلفاء الا نائباً يسمى «رئيس الرؤساء» ثم عاد الخلفاء في أيام السلاجقة إلى تولية امير الامراء

ومن يتدبر تاريخ منصب الوزارة في الدولة العباسية يتبين له انها كانت من جملة اسباب انحلال هذه الدولة لأن الخلفاء سلموا مقاليد الحكومة الى وزرائها وتقاعدوا عن امور السياسة فأصبحوا بتوالي الاجيال عاجزين عنها

وأما الدول الاخرى فالدولة الفاطمية بمصر أول وزرائها يعقوب بن كلس وزير

العزيز بالله سنة ٣٦٣ هـ . والدولة الاموية في الاندلس كانت الوزارة فيها كما كانت في ايام امويى الشام ـ كانت مشتركة في جماعة يعينهم الخليفة للاعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فى دولة بنى العباس فيسميه الحاجب ثم سمي الوزير . وكانت هذه الرتبة عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة كما كان شأن البرامكة في بغداد

وزارة التفويض

كانت الوزارة وزارتين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ مثل امارة الاعمال . فوزارة التفويض ان يستوزر الخليفة رجلا يفوض اليه تدبير الامور برأيه وامضاءها على اجتهاده . فيتولى الوزير كل شيء يمضيه عن الخليفة إلا ثلاثة أشياء : ١ ولاية العهد فان للخليفة ان يعهد الى من يرى وليس ذلك للوزير ٢ للخليفة أن يعزل من قلده الوزير وليس للوزيران يعزل من قلده الخليفة٣ للخليفة ان يستعفى الامة من الامامة وليس ذلك للوزير

ومن وزراء التفويض آل برمك ويحيي بن اكثم وابن الفرات وغيرهم في الدولة العباسية . وأمير الجيوش في الدولة الفاطمية . وقد بلغ من تفويض بني العباس لوزرائهم انهم كثيراً ما كانوا يسلمون اليهم خاتم الخلافة يختمون به الكتب دونهم وفي حكاية الرشيد مع جعفر والفضل يوم أخذ الخاتم من جعفر وسلمه الى الفضل دليل على مقدار نفوذهم

وناهيك بحكاية جعفر بن يحيي البرمكي مع عبد الملك بن صالح دليلا على ذلك ـ كان جعفر في مجلس فدخل عبد الملك بن صالح (ابن عم الرشيد) عليه وهم فى الطرب فقال له جعفر « هل من حاجة تبلغها مقدرتي ومحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة على ماصنعت» قال « بلى ان في قلب أمير المؤمنين تغيراً علي فتسأله الرضى عنى» فقال جعفر « قد رضي عنك أمير المؤمنين » قال « وعلي عشرة آلاف دينار » فقال جعفر « هي حاضرة لك من مالي ولك من مال أمير المؤمنين مثلها » قال « وأريد أن أشد ظهر ابنى ابراهيم بمصاهرة أمير المؤمنين » قال « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية » قال « وأحب ان تحفق الولاية على رأسه » قال « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » ثم انصرف عبد الملك . وقد اقدم جعفر على ذلك كله من غير استئذان

وفي الغد دخل جعفر على الرشيد فقال له الرشيد « كيف يومك يا جعفر بالامس » ـ قال جعفر : فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك

ابن صالح وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً وقال «لله أبوك ماسألك» قلت «سألني رضاك عنه يا أمير المؤمنين» قال «بم أجبته» قلت «قد رضي عنك أمير المؤمنين» قال «قد رضيت عنه ثم ماذا» قلت «وذكر ان عليه عشرة آلاف دينار فأجبته قد قد قضاها عنك أمير المؤمنين» قال «وقد قضيتها عنه ثم ماذا» قلت «ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده ابراهيم بمصاهرة منه فقلت له قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية» قال «قد أجبته الى ذلك ثم ماذا» قلت «قال وأحب أن تخفق الالوية على رأسه فقلت قد ولاه أمير المؤمنين مصر» قال «قد وليته اياها» ثم أنجز له جميع ذلك من ساعته

وكثيراً ما كان الخلفاء يقلدون وزراءهم مع الوزارة منصباً آخر مهماً كما تقلد الفضل بن سهل رئاسة السيف مع الوزارة فسموه ذا الرئاستين

وزارة التنفيذ

أما وزارة التنفيذ فالنظر فيها مقصور على تنفيذ مايراه الخليفة فيكون الوزير واسطة بين الخليفة وبين الرعية فيمضي مايأمره الخليفة به من تقليد الولاة وتجهيز الجيوش ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم . خلافاً لوزير التفويض فانه يولي ويعزل كما يشاء ويقضي ويمضي بلاحد ولا قياس . ويجوز للخليفة ان يستوزر وزيري تنفيذ أحدهما للحرب مثلا والآخر للخراج ولكنه لا يستوزر الا وزيراً واحداً تفويضياً

راتب الوزير

أما راتب الوزير فقد كان يختلف باختلاف الاعصر واختلاف الاشخاص . ولكن الوزراء لم تكن نفقاتهم تقتصر على رواتبهم لان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لاخوتهم وأولادهم وحواشيهم وقد فرض المقتدر بالله العباسي لوزيره علي بن عيسى خمسة آلاف دينار في الشهر . واليك راتب الوزير في الدولة الفاطمية وما يلحقه من رواتب أهله وأتباعه

الوزير	راتبه في الشهر	٥٠٠٠ دينار
لكل واحد من أولاده واخوته	» »	من ٢٠٠ ـ ٣٠٠ »
لكل واحد من حواشيهم	» »	» ٣٠٠ ـ ٥٠٠ »

ما عدا الاقطاعات وما كان يدفع اليهم في المواسم من الهدايا وما يخلع عليهم من الخلع في الاعياد ونحوها . فربما بلغ راتب الوزير وتوابعه بما يلحقهم من الاقطاع

نحو ١٠٠٠٠٠ دينار في السنة . وسنعود الى الرواتب في الجزء الثاني من هذا الكتاب في الكلام عن مالية الدولة

السلطان

كان هذا المنصب في أوائل أمره لقباً لوزراء الدولة العباسية يلقبون به على سبيل التفخيم بأمر الخلفاء كما تقدم . وذكر ابن خلدون ان جعفر بن يحيى دعي سلطاناً . ويظهر من مجمل ما نقرأه في كتبهم انهم يطلقون لفظ السلطان على والي بغداد أو والي الشام ولعله رئيس الشرطة أو ما يشبه المحافظ اليوم . وقد يريدون بالسلطان الخليفة نفسه . وكل ذلك على سبيل المجاز . ولم تصر السلطنة رتبة رسمية الا في أيام محمود الغزنوي بن سبكتكين وهو أول سلطان في الاسلام . سمي به في أواخر القرن الرابع للهجرة بدلا من لقب أمير الامراء الذي ذكرناه . وكأنه ابتذل كما ابتذل اسم الوزير قبله فأبدلوه بلقب سلطان . وصار بعد ذلك لقباً لملوك الاتراك والاكراد والجراكسة وغيرهم من السلاجقة والايوبية والمماليك والعثمانيين . والوزارة لم يكن الارث شرطاً فيها فلما صارت الى السلطنة صار الارث شرطاً فيها والسلطان يعهد الى ولي عهده قبل موته

وذكر ابن خلكان في ترجمة الرازي الطبيب ان الملوك السامانية كانوا يسمون ملكهم « سلطان السلاطين » (١) ـ والملوك السامانية قبل الغزنوي فالظاهر ان هذا اللقب كان معروفا من قبل . فاذا صح ذلك كان لقب الغزنوي موروثاً عنهم . ولكننا رأينا لبعض الباحثين كلاماً في شأن هذا اللقب يرجح قولنا الاول . والا فربما كان ذلك اللقب عند السامانية قبل اعتناقهم الاسلام . فيكون محمود أول سلطان في الاسلام والله اعلم

وكان الخلفاء هم الذين يولون السلاطين وان كانت القوة في ايدي هؤلاء ولكنهم كانوا يعتبرون ذلك من وجهه الديني . وكانوا يحتفلون بتولية السلطان احتفالا شائقاً فيخلع الخليفة عليه سبع خلع ويلبسه طوقاً وتاجاً وسوارين ويعقد له اللواء ويقلده السيف ويخطب له

ومن امثلة ذلك احتفال الخليفة المستظهر بالله بتولية محمد بن ملكشاه في بغداد بحضور أخيه سنجر (٢) . فان الخليفة جلس لهما في قبة التاج على سدته وعلى كتفه بردة النبي وعلى رأسه العمامة وبين يديه القضيب وأفاض على محمد بالخلع وألبسه

(١) ابن خلكان ٧٨ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٤٧ ج ٢

الطوق والتاج والسوارين وعقد له اللواء بيده وقلده سيفين وأعطاه خمسة افراس بمراكبها وخطبوا له بالسلطنة في جامع بغداد

وكانوا يلقبون السلاطين يوم الاحتفال بتوليتهم ألقاباً تشير الى تأييد الخلافة بهم مثل ناصر الدولة وسيف الدولة وعضد الدولة ونحو ذلك

الجند وتوابعه

تاريخ الجند

أصل الجند ونظامه

كان الناس في أوائل أدوار تمدنهم قبائل جندها رجالها . اذا احتاجت الى قتال اجتمع الرجال من كل قبيلة بلا نظام ولا ترتيب . وينال كل واحد من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة بطشه . فلما تحضر الناس وتقاسموا الاعمال ونشأت الدول كان من أقدم المهن عندهم الكهانة والجندية

وأول دولة نظمت الجند الدولة المصرية الفرعونية . فقد جندت جيشاً من الزنوج والاحباش حوالى القرن العشرين قبل الميلاد أخضعت بهم سكان سواحل البحر الاحمر . ثم انتشر أمر التجنيد في الدول القديمة في اشور وبابل وفينيقية واليونان والرومان والاسلام

فالفراعنة اسبق الامم الى تنظيم الجند وكان نظامه عندهم الصفوف المتعاقبة المتراصة . وعلى انقاض ابنيتهم كثير من صور هذه الصفوف . والمشهور ان رعمسيس الثانى هو منظم الجند المصرى على النظام المعروف لانه كان يحب الحرب . وبلغ عدد جنده الى ٦٠٠٠٠٠ ماش و٢٤٠٠٠ فارس و٢٧٠٠٠ مركبة وعمارة بحرية . واقتبس البابليون والفرس هذا النظام مع بعض التعديل على مقتضيات الاحوال . وبه تغلب قورش وقمبيز في حروبهما مع اليونان وغيرهم

جند الروم

واما اليونان فانهم اقتبسوا نظام الجند المصرى ونوعوه فانشأوا الكتائب ويعبر عنها في لسانهم بهذا اللفظ Phalanx وهو أن تتراص الجنود صفوفاً متعاقبة . وكانت الكتيبة تتألف من ٤٠٠٠ رجل يصطف رجالها الواحد بجانب الآخر على بضعة اقدام في صفوف متعاقبة الواحد وراء الآخر . فجعلها فيليب المكدوني ضعفي ذلك ثم جعلها ابنه الاسكندر أربعة أضعافه وقارب مابين الرجال حتى كادت تتماس اكتافهم وتترابط تروسهم . واصطنع لهم رماحاً طول بعضها ٢٣ قدماً . وتكون رماح الصف الامامي قصيرة ورماح ما وراءه أطول فأطول حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة



كتيبة الاسكندر في اثناء المعركة وقد فتكت رماحها في الاعداء

أقدام نحو الامام كما ترى في الشكل . وكان فيليب قد نظم فرقة من الفرسان فاضاف ابنه اليها آلات الحرب وفي جملتها المنجنيق . وبهذا النظام تغلب الاسكندر على العالم في القرن الرابع قبل الميلاد

جند الرومان

فلما نشأت دولة الرومان اقتبست نظام الكتائب عن اليونان وادخلته في جندها. وكان الجيش الروماني في ابان الدولة مؤلفاً من فرق عدد رجال كل منها ٦٠٠٠ تتألف من ثلاث طبقات من الرجال : ١ الشبان ومنهم يتألف الصف الاول من الكتيبة في الحرب ٢ الكهول في الصف الثاني ٣ أهل الدربة والحنكة ويتألف منهم الصف الثالث . وكان يلحق كل فرقة عندهم كوكبة من الفرسان تتقلد السهام والمقاليع والمزاريق لمشاغلة الاعداء عن حرب المشاة

ثم قسم الرومان الفرق الى كراديس بلا تقييد بالصف . فجعلوا الفرقة عشرة كراديس والكردوس ثلاثة أقسام . وكل قسم فصيلتان عدد رجال كل منهما مئة رجل . وهذا النظام يخالف نظام الكتائب المتقدم ذكره بأن لا يتقيد الجند بصف واحد أو كتيبة واحدة . بل يكون عدة كتائب كل كتيبة منه كردوس . وظل نظام الجند الروماني في حروبه على هذه الصورة الى الفتح الاسلامي

ولما ظهر الاسلام كانت جنود الروم ١٢٠٠٠٠ يقود كل عشرة آلاف منها قائد يغلب ان يكون بطريقاً وتحت البطريق ضابطان يسمى كل منهما طومرخان . يتولى

قيادة ٥٠٠٠ وتحت الطومرخان خمسة طرنجارية Drungrii كر واحد يقود الف رجل . وتحته خمسة قوامس واحدهم قومس Comes يتولى قيادة ٢٠٠ جندى وتحت القومس قمطرخ Centuriones وتحته الدمرداخ . وهـذا تحته عشرة رجال . وترى في هذا النظام مشابهة كلية بنظام جند هذه الايام

وأما الفرس فقد كان جندهم أربع طبقات : الاولى طبقة القواد العظام ويسمى



قواد الروم وأجنادهم وآلاتهم وأسلحتهم

واحدهم سپهبذ تحته أربعـة قواد يسمى كل منهم اصفهبذ وتحت كل اصفهبذ أربعة مرازبة . وتحت كل مرزبان أربعة سالارية وتحت كل سالار عشرة أساورة (وهم الفرسان المفردة) وخمسة من الرجال المشاة ويسمونهم البيادة

جند العرب

أما العرب قبل الاسلام فقد كانوا أهل بداوة لا نظام للجند عندهم . وانما كانوا قبائل اذا أرادت احداهن حرباً جردت رجالها وفيهم الفرسان والمشاة ومعهم الاسلحة المعروفة في الجاهلية كالقوس والرمح والسيف ـ الا ما كان من نظام الجند في الدول العربية التي تمدنت قبل الاسلام كالتبابعة ملوك حمير والمناذرة ملوك الحيرة فقد ذكروا للمناذرة كتيبتين من الجند تسمى احداهما الدوسر والاخرى الشهباء .

وأما عرب الحجاز فقد كانوا قبل الاسلام على الفطرة البدوية كما قدمنا

فلما ظهر الاسلام انفرد المسلمون عن سائر العرب واتحدوا بجامعة الدين بدأ واحدة في محاربة أعدائهم فكانوا كلهم جنداً كبيرهم وصغيرهم . وأول جنود المسلمين المهاجرون فلما جاءوا المدينة اتحدوا بالانصار وصاروا جميعاً جنداً واحداً قائدهم النبي بنفسه ورابطتهم المعاهدة والمؤاخاة وعددهم يومئذ قليل جداً

جند العرب في دولة الراشدين

ثم جعلوا يزدادون بالفتح والغزو في أيام النبي وأبي بكر بمن انضم اليهم من قبائل العرب في الحجاز واليمن ونجد واليمامة كباراً وصغاراً بجمعهم جامعة الاسلام حتى تكاثروا فتكاثفوا وحملوا على الشام والعراق ومصر ففتحوا البلاد ومصروا الامصار وانقسموا الى اجناد يقيم بعضها في مصر وبعضها في الشام وبعضها في العراق في محطات خاصة بهم . وكان جند كل محطة ينقسم باعتبار القبائل والبطون . فكانت البصرة مثلا خمسة أقسام تسمى الاخماس يقيم في كل خمس منها قبيلة من قبائل المسلمين وهم : الازد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية (قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة) وكانوا يسمون أهل العالية والكوفة أهل المدينة . وكان على كل خمس أمير من أمراء تلك القبائل . وقس على ذلك سائر أجناد المسلمين في الكوفة والفسطاط مما مصره المسلمون أو في غيرهما من مدن العراق والشام ومصر فقد كان لهم في كل اقليم جند ينقسم على نحو هذه الكيفية

كل ذلك والمسلمون كلهم جند محارب لا يعمل أحد منهم عملا . وقد نهاهم عمر ابن الخطاب عن الزرع كأنه رآهم بعد ان فتحت لهم الأمصار ورأوا خصب الارض قد مالوا الى الرخاء والتقاعد عن الحرب فأمر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد ينقدمون الى الرعية ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم سائر فلا يزرعون . ولعله أراد بذلك ان لا يتوطنوا في بلد اذ ربما مست الحاجة الى تجنيدهم لنجدة اخوانهم في بلاد أخرى أو لحماية بعض الامصار فلا يثقل عليهم ذلك

تنظيم جند العرب

في ايام بني أمية

أما تنظيم الجند فئة خاصة دون سائر فئات المسلمين فقد بدأ في أيام عمر عند تدوين الدواوين كما سيأتي وتم في أيام بني أمية . ويظهر ان التجنيد الالزامي بدأ في أواسط هذه الدولة . وكان الناس من قبل يذهبون الى الحرب جهاداً في سبيل

الدين فيصيبون الغنائم والفيء فلما قامت الفتنة بعد مقتل عثمان (سنة ٣٥ هـ) اشتغلوا بالحرب فيما بينهم مدة وكل طائفة تندفع الى ذلك دفاعاً عن رأيها واعتقادها بأنها تدرأ عن الحق . فلما أفضى الامر الى بني أمية وصار المسلمون دولة واحدة وضعفت قوة الاحزاب بتغلب العنصر الاموى لم يعد الناس يرون ما يدفعهم الى الحرب طوعاً فجعلوا يتقاعدون فاضطر الخلفاء الى التجنيد بالالزام

ولعل أول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف على عهد عبد الملك بن مروان . وكانت الدولة الاموية قد بلغت ذروة مجدها وكثر المسلمون ومالوا الى العمل في الارض وأطلق لهم السراح . وكانوا قد هموا بالتقاعد عن الحرب في أيام معاوية فغلبهم بدهائه وعطائه . فلما تولى ابنه يزيد ثم معاوية الثانى ثم مروان بن الحكم ولم يكن فيهم من يملك القلوب أو الاعناق تجرأ الجند على التقاعد . فتولى عبد الملك الخلافة والجند على ما تقدم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله . فشكا ذلك الى روح بن زنباع صاحب شرطته فقال له « يا أمير المؤمنين ان في شرطتى رجلا لو قلده امير المؤمنين عسكره لارحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف » فأطاعه عبد الملك وقلد الحجاج امر العسكر

وكان الحجاج شديداً عاتياً فلم يعد أحد يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع . فوقف الحجاج عليهم يوماً وقد رحل الناس وهم على طعام . فقال لهم « ما منعكم ان ترحلوا برحيل امير المؤمنين ؟ » فقالوا له « انزل يا ابن اللخناء فكل معنا » فقال « هيهات ذهب ما هنالك » ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر وأمر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت بالنار . فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكياً فقال له « مالك ؟ » فقال « يا أمير المؤمنين الحجاج بن يوسف الذى كان في عديد شرطتى ضرب عبيدى وأحرق فساطيطي » قال « على به » فلما دخل عليه قال « ما حملك على ما فعلت ؟ » قال « ما أنا فعلته يا امير المؤمنين » قال « ومن فعله ؟ » قال « انت والله فعلته إنما يدى يدك وسوطى سوطك وما على امير المؤمنين الا ان يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمني له » فاخلف الخليفة لروح بن زنباع ماذهب له وتقدم الحجاج في منزلته وكان ذلك اول ما عرف من كفايته

فيشبه أن يكون ذلك أول تاريخ التجنيد الالزامى . ثم صار التجنيد سنة واصبح الجند الاسلامى فئتين المرتزقة والمتطوعة وكلاهما عرب يرجعون في انسابهم اما الى قحطان وهم اليمنية او الى عدنان وهم المضرية وفيهم جماعة من الموالى او العبيد

جند الاعاجم في الاسلام

١ - في الدولة العباسية

فلما تولى بنو العباس واحتاجوا الى موازرة الاعاجم في تأييد سلطانهم دخل في جند العرب جماعات منهم . واول من دخل في الجند الاسلامي منهم آل خراسان لانهم هم الذين نصروا العباسيين في دعوتهم وسلموا اليهم أزمة الخلافة بقيادة أبي مسلم الخراساني فكانت فرق الجند في ايام المنصور ثلاثاً اليمنية والمضرية والخراسانية . ثم اضيف اليها فرقة رابعة هي فرقة الحرس الخاص اتخذها الخلفاء خوفاً مما كانوا ينصبونه لهم من الحبائل أو يقيمونه عليهم من الثورات . ومن غريب هذه الاعمال ان الامر الذي اراد الخلفاء ان يحفظوا سلطانهم به كان علة خروج ذلك السلطان من ايديهم

ولما افضت الخلافة الى المعتصم بالله (سنة ٢١٨ هـ) كانت العناصر الاجنبية قد تمكنت من الدولة وزاد الخلفاء خوفاً على أنفسهم . فخاف المعتصم من جنده على نفسه فاصطنع قوماً من الحوف بمصر (الشرقية والدقهلية) استخدمهم في حاشيته وسماهم المغاربة لان مصر غربي بغداد - ولعل فيهم بعض أهل المغرب، وجمع خلقاً من أشروسنة وسمرقند وفرغانة ابتاعهم من أسواق بغداد تدريجاً وجند منهم جنداً سماه جند الفراغنة ثم سموا الاتراك . وقد كانوا أشد خطراً على الدولة العباسية من سائر فرق الجند وآل الامر بهم الى الاستبداد في أهل الدولة واحتقار الجند العربي الاصلي واساءة سائر أهل بغداد . حتى كثيراً ما كانوا يركبون الدواب في شوارع بغداد ويركضونها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي . فتأذى الناس وشكوا أمرهم الى المعتصم فلم ير سبيلا الى ملافاة ذلك الا باخراج جنده من بغداد فبنى لهم سامرا (سنة ٢٢١ هـ) وأقام معهم فيها

وكانت خلافة المعتصم بدء نفور العرب من خلفائهم وشكواهم منهم . وكانوا يعبرون بالجند يومئذ عن الاتراك وغيرهم من الاعاجم ، وبالحربية عن جند العرب وكلهم مشاة . ثم المتطوعة وهم الذين يقدمون على الحرب من تلقاء أنفسهم ويغلب أن يكون المتطوعة في الحروب خارج حدود المملكة الاسلامية . وكان من فرق الجند عند الخلفاء النشابون الذين يرمون النشاب والنفاطون الذين يرمون النفط لاحراق حصون الاعداء والمنجنيقيون رماة المنجنيق وهم مثل طبجية هذه الايام . والعيارون وهم رماة الحجارة من المخالى . وكان للجند أطباء وصيادلة يرافقونه في الحرب والسلم كما تفعل الدول المتمدنة اليوم

ثم نشأت فرق أخرى من جند الاتراك وجعلوا يتنازعون النفوذ في الدولة . وكان في جملة تلك الفرق فرقة الشاكرية ظهرت في أيام المهتدي واستفحل أمرها في أيام المستعين بالله . ونشأ في أثناء ذلك ضرب من الحرس الخاص في قصور الخلفاء يسمونهم الغلمان الحجرية . وكان في دولة الفواطم بمصر فرقة منهم . وتحول قسم كبير من جند المشاة العرب الى فرقة عرفت بالرجال المصافية . ثم تشكلت فرقة عرفت بالفرقة



جند من المسلمين بأعلامهم وأبواقهم في القرن الثامن للهجرة نقلا عن مخطوط قديم

الساجية نسبة الى ابن الساج أحد عمال المقتدر بالله . وهناك فرق أخرى من الاتراك وغيرهم نقرأ أسماءهم عرضاً في تاريخ الدولة العباسية كالبلالية والسعدية وغيرهما . وكانت كل فرقة تستعمل نفوذها في الدولة على ما يبلغ اليه جهدها . وكثيراً ما كانت تقوم الفتن فيما بينها او بينها وبين حرس الخلفاء حتى آل الامر الى خروج الاحكام من العرب على الاجمال ونسى امر قريش والعرب كما سيأتي . وصارت الاحكام الى الاتراك ونحوهم فنشأت منهم الدول المشهورة . وتقلبت نظم الجند بعد قيام دول الاتراك الكبرى على احوال شتى . نذكر منها نظامهم في زمن السلاطين المماليك بمصر ثم العثمانيين

٢ ـ جند السلاطين المماليك بمصر

كان جند المماليك أخلاطاً من الاتراك والجركس والروم والاكراد . واكثرهم

من المماليك المبتاعين وهم طبقات أعلاها الامراء ومن يليهم الى الجندي البسيط . وأما الامراء فهم كالضباط في هذه الايام ومنهم من له إمرة مائة فارس او اكثر الى الف فارس . وهؤلاء من الامراء يسمون اكابر النواب . وتحتهم امراء الطبلخانات ولكل منهم إمرة اربعين فارساً الى السبعين . ولا تكون الطبلخانة لاقل من ٤٠ فارساً يليهم أمراء العشرات من عشرة الى اربعين . ثم جند الحلقة وهؤلاء لكل اربعين منهم مقدم ليس له حكم عليهم إلا اذا خرج العسكر وكانت قيادتهم اليه وكانت رواتبهم تعطى بالاقطاع كما سيجيء



خوذة أحد السلاطين المماليك بمصر

وكان لهم في الجند مناصب تتفاوت رفعة ونفوذاً أهمها امير السلاح وصاحبها يتولى حمل السلاح للسلطان . والدوادار لتبليغ الرسائل عن السلطان وهو من أمراء المئين . والحاجب يقف بين الامراء والاجناد . وأمير جاندار كالمتسلم للباب ومن أراد السلطان قتله كان على يده . والاستاذ دار يتولى أمر بيوت السلطان ونفقاتها . ونقيب الجيش لاحضار من يطلب السلطان باحضارهم . والوالى وهو صاحب الشرطة [1] وقد تولدت هذه المناصب في دولة المماليك بالتدريج حسب الاحوال . ومن اكثر السلاطين عملا في ذلك السلطان ركن الدين بيبرس البندقداري فانه من كبار المؤسسين لهذه الدولة

(١) السيوطي ١١٢ ج ٢

ولهم في تدريب ذلك الجند طرق خاصة بهم يبدأون به منذ دخول المملوك في ملك السلطان . اذا قدم تاجر عرض مملوكاً على السلطان يشتريه ويجعله في طبقته ويسلمه الى الطواشي برسم الكتابة . فأول ما يبدأ تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكانت كل طائفة لها فقيه يأتيها كل يوم ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات والاذكار . وكان الرسم اذ ذاك ان لا تجلب النجار الا المماليك الصغار . فاذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً



محمد على باشا مبيد المماليك

من الفقه وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار الى سن البلوغ أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج اليه . واذا ركبوا الى لعب الرمح أو رمى النشاب لا يجسر جندي ولا امير ان يحدثهم او يدنو منهم . فينقل عند ذلك الى الخدمة وينتقل في اطوارها رتبة بعد رتبة الى ان يصير من الامراء . فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه . واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل

ولما فتح السلطان سليم مصر سنة ٩٢٣ ضعف امر المماليك لكنهم مازالوا محافظين على جنديتهم يتوارثون تقاليدها اجيالا . حتى تولى المغفور له محمد علي باشا ففتك

بالمماليك في قلعة القاهرة سنة ١٨١١ وأباح قتلهم حيثما وجدوا . فلم ينج من امرائهم إلا مملوك اسمه امين بك وثب بجواده من أمام باب القلعة في أثناء المذبحة فقتل جواده ونجا هو وانقرض المماليك وجندهم من ذلك الحين (١) وكان جند محمد علي من الالبانيين ثم اتخذ الجند النظامى

٣ ـ الجند العثماني ـ الانكشارية

وللجند العثماني تاريخ طويل يبدأ منذ تأسيس الدولة العثمانية وقد بني على نظام جند السلاجقة . ثم نشأ جند الانكشارية المشهور أنشأه قره خليل أحد كبار رجال الدولة العثمانية في زمن السلطان أورخان . وقد نظر في تنظيمه الى خلوه من عصبية تبعثه على التمرد (٢) وكان العثمانيون يومئذ يفتحون البلاد واكثر اهلها مسيحيون فيدخل في حوزتهم جماعة من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم وأصبحوا لا نصير لهم ولا مرجع لآمالهم ، فارتأى ان يربي أولئك الغلمان تربية اسلامية ويدربهم على الفنون الحربية ويجعلهم جنداً دائماً لا يخشى منه التمرد . لانه لا يعرف عصبية غير الدولة ولا عملا غير الجندية ولا ديناً غير الاسلام فجندهم وسار بهم الى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسية ليدعو لهم فدعا لهم وسماهم « يكي جرى » أي الجند الجديد

ولم يكن قره خليل هذا اول من جند غلمان النصارى كما يظن اكثر مؤرخي الاتراك . فان الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر فعل ذلك قبل تأسيس الدولة العثمانية وهو متوجه الى دمشق سنة ٥٦٥ هـ لملاقاة عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس فنزل بلداً اسمه قارا بين دمشق وحمص فأمر بنهب أهلها النصارى وقتل كبارهم لانهم كانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم سراً للصليبيين وأخذ صبيانهم مماليك رباهم بين الاتراك في الديار المصرية فنشأوا على الاسلام وتجندوا في الجيش التركي

على ان قره خليل جعل شروطاً للانكشارية لم يسبق لها مثيل . فقسمهم الى وجاقات واحدها وجاق . والوجاق يقسم الى أورط احداها أورطة . ولكل أورطة عدد تعرف به ولبعضها أسماء خاصة . ويختلف عدد الجند في كل أورطة حسب الاعصر من ١٠٠ الى ٥٠٠ ويختلف عدد الاورط في الوجاق وعدد الوجاقات بمقتضى ذلك . واكبر ضباط الوجاق أو قائدها الاكبر يسمى « آغا » تحته سكبان باشي تحته غيره فغيره على هذه الصورة :

(١) تاريخ مصر الحديث ج ٢ (٢) راجع تاريخ الانكشارية في الهلال ٥٨ : سنة ١٧

الاغا	قائد الوجاق ويقابل اللواء في هذه الايام
سكبان باشي	ينوب عن الاغا في الاستانة ويقابل القائمقام اليوم
قول كخيا او كخيابك	نائب الاغا أو السكبان باشي
سمسونجى باشي	قائد أورطة عمرو ٧١
زغرجي باشي	قائد الاورطة عمرو ٦٤
محضر اغا	ينوب عن الانكشارية عند الصدر الاعظم
خصكي	ينوب عن الاغا في القيادة على الحدود
باشجاويش	قائد الاورطة الخامسة
كخيا يرى	ينوب عن الوجاق لدى الآغا
الافندي	الكاتب

ولكل أورطة ضباط يقتسمون قيادتها وادارة شؤونها على هذه الصورة :

١ ـ الجوربجي	رئيس الاورطة يشبه الكولونيل
٢ ـ أوده باشي	نائب الجوربجي في المناورات العسكرية وغيرها
٣ ـ وكيل الخرج	يتولى أمر الطعام والشراب
٤ ـ بيرقدار	يتولى الاعلام والبيارق
٥ ـ باش اسكي	يتولى قيادة القراقولات
٦ ـ اشجي	الطاهي

قوانين الانكشارية

قد رأيت ان جند الانكشارية تشكل في زمن السلطان أورخان ، لكن الفضل الاكبر في تنظيمه وترتيبه للسلطان مراد الاول (تولى سنة ٧٦١ هـ) وهذه خلاصة قوانينهم :

١ ـ الطاعة المطلقة لقوادهم وضباطهم أو من ينوب عنهم

٢ ـ الاتحاد بين سائر الفرق كأنها فرقة واحدة وتكون مساكنها متقاربة

٣ ـ التجافى عن كل ما لا يليق بالجندي الباسل من الاسراف أو الانغماس ويكون معولهم على البساطة في كل شيء

٤ ـ الاخلاص في الانتماء الى الحاج بكطاش من حيث الطريقة مع القيام بفروض الاسلام

٥ ـ لا يقبل في سلك الانكشارية إلا الذين يشبون من غلمان الاسرى على التربية الخاصة بين الغلمان الاعاجم الآتي ذكرهم



ابراهيم باشا في ثوبه العسكري عند أول تشكيل الجند النظامي

٦ ـ ان الحكم عليهم بالاعدام ينفذ بشكل خاص
٧ ـ يكون الترقي في المراتب على حسب الاقدمية
٨ ـ لا يجوز أن يوبخ الانكشارية ولا يعاقبهم غير ضباطهم
٩ ـ اذا عجز أحدهم عن العمل يحال على المعاش
١٠ ـ لا يجوز لهم إرسال لحاهم
١١ ـ « « أن يتزوجوا
١٢ ـ « « الابتعاد عن ثكناتهم
١٣ ـ « « أن يتعاطوا عملا غير الجندية
١٤ ـ يقضون أوقاتهم بالرياضة البدنية والتمرين بالحركات العسكرية

فاذا تدبرت هذه القوانين هان عليك تصور الاعمال العظيمة التي أتاها هذا الجند في مصلحة الدولة العثمانية من الفتوح العظام . وقد يتبادر الى الذهن لاول وهلة ترفع الناس عن الانتظام في هذا الجند لانه مجموع لقطاء لا يعرف لاحد منهم أب

ولا أم . لكنك تفهم من البند الخامس من قوانينهم انهم كانوا يحظرون على غير اللقيط أو المملوك الانتظام في جندهم وكان السلاطين يتوخون تعظيم هذا الامر في عيونهم

وما زال جند الانكشارية معول الدولة العثمانية في حروبها حتى صار عقبة في سبيل أعمالها لتمكنه من النفوذ . وقاسى السلاطين منه عذاباً شديداً الى أن فتك به السلطان محمود الثاني في أوائل القرن الماضي وتم تشكيل الجند النظامي

ديوان الجند

تأسس ديوان الجند في المدينة أسسه عمر بن الخطاب ودون فيه أسماء الرجال وفرض أعطياتهم . ولم يكن هذا الديوان يومئذ يعرف بديوان الجند لكنه كان يسمى « الديوان » فقط . وكان يشمل أسماء المسلمين من المهاجرين والانصار ومن تابعهم ومقدار أعطياتهم تبعاً للنسب النبوي والسابقة في الاسلام . وكان لكل مسلم راتب يتناوله لنفسه ورواتب لاهله وأولاده . فكأنه ديوان المسلمين باعتبار ان المسلمين كانوا كلهم جنداً في ذلك الحين . وظل العطاء باعتبار النسب والسابقة حتى انقرض اهل السوابق وصار الجند فئة من المسلمين قائمة بنفسها فترتب الجند باعتبار الشجاعة والبلاء في الحرب

وكان عندهم لاختيار الجند من بين الناس شروط . منها ان من أراد الانتظام في الجندية يقدم طلباً الى صاحب ديوان الجند وهو ينظر في أهليته لها ولا يكون أهلا لذلك إلا اذا كان حراً بالغاً مسلماً سليما مقداماً . فاذا استوفى هذه الشروط قبل ودون اسمه في دفتر الجيش مع نسبه وقده ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به عن غيره لئلا تتفق الاسماء

طبقات الجنود

أما ترتيب الجنود في الديوان فظلوا يراعون فيه ما وضعه عمر من السابقة والنسب فيترتب الجند أولا باعتبار القبائل والاجناس حتى تتميز كل قبيلة من غيرها وكل جنس من غيره. فلا يخلو الجند من أن يكونوا عرباً أو عجماً . فان كانوا عرباً تترتب قبائلهم على حسب القربى من النبي فيبدأ بالترتيب بأصل النسب النبوى ، ثم بما يتفرع عنه . فالعرب مثلا عدنان وقحطان فيقدمون عدنان على قحطان لان النبوة فيهم . وعدنان يجمع ربيعة ومضر فتقدم مضر على ربيعة لان النبوة فيهم . ومضر تجمع

قريشاً وغير قريش فتقدم قريش لان النبوة فيهم . وقريش تجمع بنى هاشم وبني أمية وغيرهم فيقدم بنو هاشم لان النبوة فيهم . فكان بنو هاشم قطب الترتيب ثم من يليهم من اقرب الانساب كما تقدم . وان كانوا عجماً لا يجتمعون على نسب فكانوا يجمعونهم على الجنس كالترك والهند او على البلد كالخراسانيين والفراغنة والمغاربة . ثم اذا كان لهؤلاء الاعاجم سابقة ترتبوا عليها فى الديوان وإلا فيترتبون بالقرب من ولى الامر . فان تساووا في ذلك ترتبوا بالسبق الى طاعته . وكان لديوان الجند فروع بعضها للمراسلة وبعضها للعطاء وبعضها للنفقات أو لغير ذلك مما يختلف باختلاف الاحوال والازمان

أعطيات الجند

في دولة الراشدين

ويراد باعطيات الجند رواتبهم التي يستولون عليها في اوقات معينة من العام . وكانت تلك الاعطيات في ايام النبي غير محدودة فتتبع ما يقع في ايديهم من الغنائم او الفيء . فكان يفرد خمسه للنبي ويفرق الاربعة الاخماس الباقية في الصحابة على السواء بلا تميز في السابقة او النسب . وجرى على ذلك ابو بكر . فلما تولى عمر ووضع الديوان ميز الناس في العطاء باعتبار النسب والسابقة فرتبهم طبقات وقد ميز راتب كل منهم باعتبار نسبه من النبي او سابقته في الاسلام او غير ذلك على ما تراه في هذه الجريدة وهي عبارة عن رواتب الجند السنوية فى صدر الاسلام :

	درهم
لكل من المهاجرين والانصار الذين شهدوا واقعة بدر الكبرى	٥٠٠٠
« « « « « لم يشهدوا بدراً	٤٠٠٠
« « أزواج النبي	١٢٠٠٠
العباس عم النبي	١٢٠٠٠
الحسن والحسين	٥٠٠٠
عبد الله بن عمر بن الخطاب بن الخليفة	٣٠٠٠
كل من ابناء المهاجرين والانصار	٢٠٠٠
كل واحد من اهل مكة	٨٠٠
« « « سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم	٣٠٠ـ٥٠٠
لكل من نساء المهاجرين والانصار	٢٠٠ـ٦٠٠

تلك هي اعطيات المسلمين او رواتب الجند على عهد عمر مع اختلاف طفيف ببعض الروايات (١) فاذا اعتبرت مقادير هذه الرواتب وقابلتها برواتب هذه الايام رأيت الفرق عظيما . فاذا قدرنا الدرهم بفرنك وهي قيمته على وجه التقريب كان راتب اعظم رجال الاسلام لا يزيد على خمسة آلاف فرنك أي نحو مئتي جنيه في السنة . واذا اعتبرنا المسلمين كلهم جنداً كان المهاجرون والانصار ضباط ذلك الجند ومنهم عمر نفسه . وأما الانفار فهم الذين عبرنا عنهم « بسائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم » . ورواتب هؤلاء أقل كثيراً من رواتب أولئك . فانها تختلف من ثلثمائة الى خمسمائة درهم باختلاف بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ومقدار فضلها في الاسلام . وبناء عليه تكون رواتب ضباط الجند الاسلامي على عهد عمر من اربعة آلاف الى خمسة آلاف درهم في العام. ورواتب العساكر من ثلثمائة الى خمسمائة درهم . غير ما كان يدفع لنسائهم وأولادهم . وما فرض لهم من الحنطة وهو جريبان لكل واحد في الشهر . والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ويراد به ما ينبت في تلك المساحة . وخلاصة ذلك ان رواتب صغار الجند في أوائل الاسلام كانت تزيد على رواتب انفار اجناد هذه الايام وبعكس ذلك رواتب ضباطهم

أعطيات الجند في الدولة الاموية

وظلت أعطيات الجند على هذا القدر في ايام الراشدين . فلما طمع بنو أمية بالملك واحتاج معاوية الى استنجاد العرب كان في جملة ما استخدمه في سبيل استنجادهم المال . فزاد أعطيات الجند وكان جنده ستين الفاً ينفق عليه ستين مليون درهم في العام . فيلحق كل رجل الف درهم وذلك اكثر من ضعف ما فرضه عمر

وكان في مقدمة القبائل التي أخذت بيده وحاربت عنه وأيدت دعوته قبائل اليمن وهي انما فعلت ذلك رغبة في العطاء لان الرغبة في الحرب لمجرد الجهاد كانت قد خمدت بذهاب عصر الراشدين وانقضاء دهشة النبوة . فجعل معاوية اليمنية فرقة قائمة بنفسها وعدتهم الفا فارس وفرض لهم عطاء مضاعفاً . وجعلهم جنداً مستقلا لا يختلطون بسواهم وكان يستشير أمراءهم ويقربهم . فاستفحل امر اليمنية حتى عرضوا بذكر فضلهم على دولة بني أمية وانهم لو شاءوا لاخرجوا المضرية من الشام (وفيهم بنو أمية) فقدم معاوية على اختصاصهم بذلك الامتياز وقرب منه القيسية وأعطاهم مثل عطائهم وصار يغزو البحر باليمنية والبر بالقيسية . فشق ذلك على اليمنية لان القيسية من مضر فعاتبوه فجمع بين القبيلتين وأغزاهم معاً

(١) المقريزي ٩٢ ج ١ والاحكام السلطانية ١٨٩

ولم يكن معاوية يعتمد على المال في استرضاء الجند فقط بل كان يستخدمه في اصطناع الاحزاب وتخفيف ويلات المتعصبين عليه . فكان كثيراً ما يأمر عماله بزيادة أعطيات أناس يعرف انهم على غرض علي . وكان عماله لا ينفذون أوامره لقصور ادراكهم عن غرضه . ومن هذا القبيل ان اهل الكوفة كانوا من أشد الناس تعصباً لعلي فأمر معاوية عامله عليها النعمان بن بشير أن يزيد في أعطيات أهلها عشرة دنانير فأبى النعمان أن ينفذها لهم فلم ينفعه ذلك

وظل هذا شأن العطاء أيام يزيد ومروان وعبد الملك . وكان عبد الملك يبالغ في الانفاق تأييداً لاحزابه في مقاومة دعاة الخلافة في أيامه . فان الحجاج سير الجند الى رتبيل باذن عبد الملك وكان عددهم أربعين ألفاً أنفق عليهم مليوني درهم سوى أعطياتهم فضلا عما اعطاه لكبارهم . ولما تولى الوليد بن يزيد زاد العطاء عشرة دراهم يوم خلافته ولعله فعل ذلك إرضاء للجند لما كان هو فيه من الاعوجاج والاسراف . وفي أواخر دولة بني أمية قلت الرواتب حتى صارت في آخرها خمسمائة درهم

أعطيات الجند في الدولة العباسية

فلما آلت الخلافة الى بني العباس جعل السفاح رزق الجندي ثمانين درهماً في الشهر (٩٦٠ درهماً في السنة) فكأنه أرجعه الى ما كان عليه في أوائل بني أمية . وكان للفارس ضعفا هذا الراتب لينفق نصفه على فرسه . ويظهر ان الرواتب لم ترتق بارتقاء الدولة العباسية بل هي أخذت بالتناقص فصارت في أيام المأمون عشرين درهماً في الشهر للماشي وأربعين للراكب . فكان جيش عيسى بن محمد بن أبي خالد عام ٢٠١ هـ ١٢٥ الف فارس فأعطى الفارس اربعين درهماً والراجل عشرين . وزد على ذلك ان قيمة الذهب كانت قد ارتفعت عما كانت عليه في أوائل الاسلام وكان الدينار في أيام عمر يساوى عشرة دراهم فأصبح في ايام المأمون يساوي ١٥ درهماً

فرأيت مما تقدم ان الرواتب زادت في دولة بني أمية عما كانت عليه في ايام الراشدين ثم نقصت في أيام بني العباس . والسبب في ذلك ان بني أمية زادوها ترغيباً لقبائل العرب في خدمتهم لتأييد سلطانهم كما تقدم . وأما في أيام بني العباس فكان العرب قد انتشروا في أنحاء البلاد واختلطوا بالاعاجم . وعمل العباسيون على الاستكثار من هؤلاء لانهم ساعدوهم على انشاء دولتهم . فأصبحت الدولة العباسية مخيرة في استخدام من شاءت من الفئتين في جندها . وكان الاعاجم يرضون بالراتب القليل . ومع ذلك فهو أضعاف ما كان يدفعه الروم لاجنادهم اذا صح ما نقله ابن

خرداذبه . فقد ذكر ان راتب الجندي عندهم كان يختلف من ١٨ الى ١٢ ديناراً في السنة وكانوا لا يستولون على رواتبهم إلا كل ثلاث سنوات أو أربع . وأما رواتب جند العرب فقد كانت تدفع في أوقاتها . إلا فى أواخر الدولة العباسية فقد كانت تتأخر وتتراكم ويفوز بالخلافة من يتمكن من ارضاء الجند شأن الدول في دور انحطاطها

عطاء الجند في الدولة التركية

وما زال العطاء يدفع نقداً الى ايام الدولة السلجوقية فصار يعطى اقطاعاً. وأول من فعل ذلك نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق (توفي سنة ٤٨٥ هـ) وكان رجلا عظيما وزر للدولة السلجوقية وأدخل فيها اصلاحات جمة . وهو أول من أنشأ المدارس في بغداد وله فيها المدرسة التى تعرف باسمه (المدرسة النظامية) وكان وزيراً لالب ارسلان ثم لابنه ملك شاه المشهور . فصار امر الدولة كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد . فأقام على ذلك عشرين سنة وكان عاقلا حسن القصد ورأى الدولة السلجوقية قد اتسع نطاقها فأحب أن يحفظها بالاقطاع فحولها الى اقطاعات سلمها الى الجند لاعتقاده ان تسليم الارض الى المقطعين يضمن عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها . بخلاف ما اذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد فان الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد . ففعل نظام الملك ذلك وعمرت المملكة وكثرت الغلات واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك والسلاطين الى أوائل القرن الماضي

واختلفت غلات الامراء من اقطاعاتهم . فقد بلغت غلة اقطاع بعض اكابر أمراء المئين في دولة المماليك نحو ٢٠٠٠٠٠٠ ويليهم من غلتهم نصف ذلك أو ربعه . وأما أمراء العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار الى ما دون ذلك . أما جند الخليفة فمنهم من يبلغ اقطاعه ١٥٠٠ دينار وما دون ذلك الى ٢٥٠ دينارا (١) وسيأتي الكلام في الاقطاع

عدد الجند

قلنا ان المسلمين كانوا في صدر الاسلام كلهم جنداً فعددهم يومئذ هو عدد الجند الاسلامى . فالجند كانوا فى السنة الاولى للهجرة لا يزيد على بضع عشرات يقيمون في المدينة ثم ازدادوا بمن اعتنق الاسلام من قبائل العرب . وفي حديث أخرجه البخارى ان النبي قال « اكتبوا لى من تلفظ بالاسلام فكتبنا له الفاً وخمسمائة »

وفي غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة - وهي آخر الغزوات - بلغ عدد

(١) السيوطى ٢١٠ ج ٢

المسلمين ثلاثين الفاً ومعهم عشرة آلاف فرس . فذلك عدد جند العرب في أواخر ايام النبي ثم تزايد عددهم في ايام أبي بكر وعمر حتى زادوا على مئة وخمسين الفاً . وتضاعف ذلك العدد في أواخر ايام الراشدين

وفى أوائل بني أمية بلغ عدد من في البصرة والكوفة من الرجال فقط ١٤٠٠٠٠ منهم ٨٠ الفاً فى البصرة و ٦٠ الفاً في الكوفة ومعهم من العيال ٢٠٠٠٠٠ بين نساء وأولاد . وكان في مصر اربعون الفاً ما عدا العيال . وكان جند الشام نحو ذلك — غير من في فارس وغيرها

الاحصاء في الاسلام

وكان للخلفاء في صدر الاسلام عناية في احصاء المسلمين اقتداء بما فعله النبي . فجعلوا على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول « هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل ؟ » فيقال « ولد لفلان غلام ولفلان جارية » فيكتب أسماءهم ويقال « نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله » ويسميه وعياله . فاذا فرغ من ذلك عاد الى الديوان وأثبت الاسماء فيه

وكانوا يجددون التدوين (الاحصاء) كل مدة في كل ولاية على حدة . وأول تدوين فى مصر مثلا دونه عمرو بن العاص ثم دون عبد العزيز بن مروان (تولى امارة مصر من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ) ثم دون قرة بن شريك (سنة ٩٠ — ٩٦ هـ) ثم بشر بن صفوان (سنة ١٠١ هـ) وآخر احصاء أحصوا به العرب في الامصار على ما تقدم كان في خلافة هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ — ١٢٧ هـ) ولكن تلك الاحصاءات لم تصل الينا فقد ضاعت فى جملة ما ضاع من آثار بنى أمية

فلما تولاها بنو العباس أهملوا امر العرب وبذلوا عنايتهم فى اصطناع الاعاجم من الفرس والترك وغيرهما كما قدمنا . حتى اذا بويع المعتصم بالله سنة ٢١٨ هـ بعث الى عماله في الامصار أن يسقطوا من في دواوينهم من العرب ويقطعوا العطاء عنهم . فشق ذلك على العرب وثاروا ولكنهم لم ينالوا وطرا . فانقضت دولة العرب من ذلك الحين وصار جند الدولة العجم والموالى . ولذلك لما مات المعتصم وتولى بعده الواثق كان دعبل الخزاعي الشاعر المشهور في الصميرة فلما جاءه نعى المعتصم وقيام الواثق أنشد هذين البيتين :

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء اذا اهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له احد وآخر قام لم يفرح به احد

وأما عدد الجند في أثناء دولة بنى امية وبنى العباس فما لا يتيسر الوقوف عليه

لكننا نستدل من عدد ما كانوا يجندونه الى الحرب انه كان كثيراً . فلما حمل يزيد ابن المهلب على جرجان وطبرستان جرد اليهما ١٢٠ ٠٠٠ من الجند المرتزقة سوى الموالى والمتطوعة . وحمل الرشيد على هرقلة بجند عدده ١٣٥ ٠٠٠ من المرتزقة ما عدا الاتباع والمتطوعة . وكان جند محمد بن طغج مؤسس الدولة الاخشيدية بمصر (سنة ٣٢٣ ـ ٣٣٤ هـ) ٤٠٠ ٠٠٠ جندى وثمانية آلاف مملوك يحرسه منهم الفان كل ليلة على التناوب . وروى ابن خلدون ان المعتصم نازل عمورية فى جند عدده ٩٠٠ ٠٠٠ ولا غرابة في ذلك اذا اعتبرنا عدد الحامية في الثغور الدانية والقاصية شرقا وغرباً . فضلا عن المصطنعين والموالى والخاصة . فقد احصيت خاصة المأمون من بني العباس وحدهم فبلغوا ٣٣ الفاً

رتب الجند وأصنافهم

لم يكن للعرب في الجاهلية جند فلم تكن له عندهم رتب . ولكنهم كانوا يولون على القبيلة الامير . فاذا احتاج الامير الى من ينوب عنه على فصيلة ارسلها الى غزو أونحوه ولى رجلا كانوا يسمونه المنكب وتحت المنكب العريف والمنكب يكون على خمسة عرفاء والعريف يكون على نفير أو نفر

وظل العرب في اوائل الاسلام على نحو ما كانوا عليه في الجاهلية فقسموا الجند الى عرفاء تحت كل عريف عشرة رجال وسلموا القيادة الى أناس من أهل السابقة وكذلك كان نظامهم في اثناء الفتوح . ثم جعلت العرفاء اسباعاً وجعلوا مائة عريف بعضهم على ثلاثين او اربعين رجلا وبعضهم على عشرين على حسب طبقات الجند من حيث السابقة ونحوها . وكان على العرفاء امراء يقال لهم امراء الاسباع يتولون تفريق العطاء في العرفاء والعرفاء يفرقونه في الجند

وقلما حدث تغيير في رتب الجند في أيام بني امية . اما في الدولة العباسية فكانت رتب الجند ان على كل عشرة رجال « عريفاً » وعلى كل خميس « خليفة » وعلى كل مائة « قائد » ثم تنوع الترتيب فصار العريف على عشرة وعلى كل عشرة عرفاء (أو مائة نفر) « نقيب » وعلى كل عشرة نقباء (او ١٠٠٠ رجل) « قائد » وعلى كل عشرة قواد (أو ١٠ ٠٠٠ رجل) « امير » . ولا يخلو الامر من وقوع التبديل في هذا النظام بالنظر الى الدول

ولا بد من ان يكون لكل رتبة علامة تميزها عن سواها كما يتميز الضباط اليوم بعضهم عن بعض وعن العساكر . لكننا لم نعثر على شيء صريح بهذا الشأن . وقد تقدم لنا كلام بهذا الموضوع في بحثنا عن الطراز . ومن هذا القبيل ما كانوا يسمون به

الخيل لتمتاز خيول الدولة عن سواها وكان لكل دولة سمة خاصة . وسمة خيل بني أمية لفظ (عدة) كانوا يطبعونها على الخيول كيا بالنار . كما كان العرب يفعلون بابلهم في عصور جاهليتهم . فقد كان عندهم لكل قبيلة ميسم يميز ابلها عن ابل غيرها ووسم الدواب شائع في الدول المتمدنة اليوم

استعراض الجند

استعراض الجند قديم في الدول المتمدنة قبل الاسلام . كان الاسكندر يعرض جنده بنفسه ويتفقدهم ويتفقد سلاحهم وخيولهم . ولما ظهر الاسلام كان الفرس يعرضون جنودهم في مواقيت معينة من السنة . وكان رسمهم في ذلك أن يمر الفارس الذي هو في الطبقة الاولى على حصانه ومعه الغلام والدرع والمغفر والكفوف الزرد والرانات والنجافيف للخيل ويسمى بركستوان والترس والرمح والسيف والدبوس والسكين الكبيرة والحبل والمخالى والسكك الحديد والمقاود وكبة خيوط ومخصف ومقص ومطرقة وكاز ومسل وابر وخيوط وزناد وطرطور ولباد وقوسان موتوران ووتران زائدان خوف الانقطاع وجعبتان للنشاب احداهما معه والاخرى مع غلامه

ولما تمدن العرب وجندوا الجنود اتخذوا هذه العادة على نحو ما كانت عند الفرس لكن يظهر انهم كانوا يستعرضون رجالهم قبل تمصير الامصار وتجنيد الجنود. فان النبي نفسه كان يستعرض اصحابه . وقد جاء في السير انه استعرضهم يوم بدر الكبرى (سنة ٢ هـ) فجعلهم صفوفاً وأخذ يعدل صفوفهم وفي يده سهم بلا ريش فمر برجل اسمه سواد كان مستئثلا من الصف فطعنه النبي في بطنه وقال له « استو يا سواد ابن غزية » وبعد ان عدل الصفوف عاد الى العريش الذي كانوا نصبوه له هناك (١)

وكان الخلفاء الراشدون يعرضون الجند على نحو ذلك ثم بنو أمية . وكان الحجاج اذا عرض الجند يسأل عن رجل رجل من هو وما هي قبيلته وعن حاله وسلاحه

وكان الاستعراض في الدولة العباسية أقرب الى عادة الفرس لان العباسيين اقتبسوه منهم . فكان الخليفة أو وزيره يجلس لعرض الجند وربما جلس الخليفة وعليه الدرع والخوذة كأنه في استعداد للحرب فينادي المنادي باسماء القواد فيمرون أولا. فيتفقد افراسهم وعدتهم فاذا رأى كل شيء حسناً تاماً صرف لهم ارزاقهم - وهي جائزة يمنحونها يوم العرض . وقد يستنكف القائد الكبير ان ينتفع بتلك الجائزة فيهبها لبعض اتباعه

ومن أمثلة ذلك ما كان يفعله عمرو بن الليث على عهد الخليفة المعتمد (سنة

(١) السيرة الحلبية ١٧٩ ج ٢

٢٧١ هـ) فانه نال حظوة لدى الخليفة وتمكن من قوانين المملكة وتولى النظر في الجند وكان ينفق لهم مرة كل ثلاثة اشهر ويحضر بنفسه على ذلك . وكان عارض الجيش يقعد والاموال بين يديه والجند كلهم حاضرون وينادى المنادى اولا باسم عمرو بن الليث فتقدم دابته الى العارض بجميع آلة الفارس فيفتقدها ويأمرون بوزن ثلثمائة درهم باسم عمرو فتحمل اليه في صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول « الحمد لله الذى وفقني لطاعة امير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق » ثم يضعها في خفه فتكون لمن ينزع خفه ثم يدعى بعد ذلك باصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامه ولدوابهم الفره ويطالبون بجميع ما يحتاج اليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها فمن اخل باحضار شيء منها حرموه رزقه . فاعترض يوماً فارس كانت له دابة في غاية الهزال فقال له عمرو « يا هذا تأخذ مالنا تنفقه على امرأتك فتسمنها وتهزل دابتك التى عليها تحارب وبها تجد الارزاق . امض فليس لك عندى شيء »

فقال له الجندي « جعلت لك الفداء لو اعترضت امرأتى لاستسمنت دابتي »

فضحك عمرو وأمر باعطائه وقال « استبدل بدابتك »

مساكن الجند

كان المسلمون في صدر الاسلام (وهم الجند) اذا فتحوا بلداً جعلوا مساكنهم في بعض ضواحيه . وكانوا لا يقيمون فى مكان بينه وبين المدينة بحر أو نهر عملا بوصية عمر بن الخطاب كما تقدم . ولذلك لم يقم جند مصر في الاسكندرية عاصمة الديار المصرية . بل أقاموا في الخيام قرب حصن بابل في بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط . ولم يقم جند العراق في المدائن عاصمة كسرى بل اقاموا على ضفاف الفرات مما يلى بادية الشام في البصرة والكوفة . وفعل ذلك غيرهم في سائر الاقاليم التى فتحت في صدر الاسلام فأقاموا في ضواحي البلاد المفتوحة لمجرد حمايتها كما قدمنا في كلامنا عن ولاية الاعمال . ولكنهم كانوا ينتقلون للحرب يومئذ بنسائهم وأولادهم فاذا فتحوا بلداً أقاموا فيه جميعاً . فأصبحت تلك المعسكرات بتوالى الاجيال مدناً عامرة

ولما تمدن العرب صاروا يذهبون الى الحرب بلا نسائهم . لكنهم ظلوا على انشاء المعسكرات خارج المدن . وكثيراً ما كانت هذه المعسكرات تتحول الى مدن بتوالى الاجيال كما حصل فى الفسطاط والكوفة والبصرة ـ كانت الفسطاط مضرب خيام حول فسطاط عمرو بن العاص ثم عمرت وصارت مدينة سميت الفسطاط . وبعد عمرانها بقرن وبعض القرن لما قام العباسيون للمطالبة بالخلافة فر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ولجأ الى مصر فتعقبه العباسيون بقيادة صالح بن على وعسكروا

بضواحي الفسطاط وسموا مقامهم « العسكر » أي المعسكر . ثم بنى الناس هناك وصار المكان مدينة مثل الفسطاط اسمها العسكر

وبعد ذلك بقرن وبعض القرن سنة ٢٥٧ هـ تولى مصر احمد بن طولون وأكثر من الجند والحاشية والآلات فضاقت الفسطاط دونه فأنشأ معسكراً بجوار جبل المقطم وبنى لنفسه فيه قصراً وميداناً وتقدم الى غلمانه وأتباعه ان يبنوا فبنوا حتى اتصل البناء بالفسطاط وصار المكان مدينة سميت القطائع . وفعل مثل ذلك جوهر قائد الفاطميين لما جاء لفتح مصر بعد قرن وبعض القرن سنة ٣٦٥ هـ فانه أنزل جنده بسفح المقطم خارج القطائع والفسطاط . ولما فتح البلاد أنشأ فى ذلك المعسكر مدينة القاهرة الباقية الى الآن . ويقال نحو ذلك في سائر المدن الاسلامية فان المنصور انما بنى بغداد حصناً له ولجنده وكذلك فعل ابنه المهدى ببناء العسكر خارجها

وقس عليه غيره من المعسكرات الاسلامية فانهم كانوا ينشئونها خارج المدن بعيداً عن بيوت الناس . ولذلك لما أنزل الحجاج جنده في بيوت اهل الكوفة بعد واقعة الجماجم نقم عليه اهلها وعدوا ذلك عتوا منه . وخصوصاً لان الامراء الذين جاءوا بعده كانوا كثيرا ما يعملون عمله

اللواء او الراية

تاريخ الالوية

اللواء والراية شيء واحد وربما كان اللواء أصغر من الراية . أو ان الراية تسمى لواء اذا عقدت للحرب وهي الاعلام أو البنود أو البيارق في اصطلاح هذه الايام . والراية قديمة في التاريخ اتخذها المصريون القدماء ومن عاصرهم أو أخذعنهم . وكانت شائعة في العرب الجاهلية قبيل الاسلام وكان لكل قبيلة راية تجتمع تحتها

وللراية شأن كبير فى الحرب لان الناس انما يؤتون من قبل راياتهم اذا زالت زالوا . وقد رأيت في كلامنا عن حكومة الجاهلية ـ انه كان فى جملة مناصب قريش منصب اللواء ويسمونه « العقاب » باسم رايتهم يومئذ . وكانوا اذا خرجوا الى حرب أخرجوا الراية . فاذا اجتمع رأيهم على أحد سلموه اياها وإلا فانهم يسلمونها الى صاحبها وكان مرة من بني أمية ومرة من بني عبد الدار . ولعلهم سموا رايتهم « العقاب » اقتباساً من الروم لان العقاب او النسر شارة الرومان يرسمونها على اعلامهم وينقشونها على أبنيتهم فاقتبسها العرب منهم

وفي السيرة الحلبية ان المسلمين فى غزوة بدر الكبرى كانت لهم ثلاث رايات

احداها بيضاء دفعها النبي الى مصعب بن عمير والاخريان سوداوان احداهما حملها على ابن أبي طالب ويقال لها العقاب صنعت من مرط لعائشة (والمرط كساء من صوف أو خز تضعه المرأة على رأسها أو تأتزر به) والاخرى مع رجل من الانصار . وان أبا سفيان كان يحمل راية الرؤساء في تلك الواقعة واسمها ايضاً راية العقاب . فالظاهر ان العقاب كان اسماً لصنف من الرايات فقلدوا الروم بها وليس اسم واحدة منها

ولما جاء الاسلام وانتشر العرب في أنحاء الشام وفارس ومصر وتعددت دولهم وقبائلهم كثرت ضروب الالوية عندهم وتنوعت أشكالها وتعددت ألوانها وأطالوها وسموها بأسماء مختلفة . عقد ابو مسلم الخراساني عند قيامه بالدعوة العباسية لواء بعث به اليه ابراهيم الامام يدعى « الظل » على رمح طوله اربعة عشر ذراعاً . وعقد راية كان قد بعث بها اليه اسمها « السحاب » على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً ارهاباً للناس . ولما عقد المتوكل البيعة لبنيه سنة ٢٣٥ هـ عقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما اسود وهو لواء العهد والآخر ابيض وهو لواء العمل . ولما ولى المأمون الفضل بن سهل على المشرق كله وسلم اليه رئاسة الحرب والقلم وسماه ذا الرئاستين عقد له لواء على سنان ذي شعبتين . وجملة القول ان اشكال الالوية تعددت بتوالى الازمان وتفاخر الخلفاء والسلاطين بتعدادها . فقد بلغ عدد رايات العزيز بالله الفاطمى لما خرج الى فتح الشام ٥٠٠ راية و ٥٠٠ بوق . وربما نقشوا على الرايات اسماء الخلفاء او السلاطين او الامراء الذين يتولون قيادة الجند كما كتب ابن بحكم على رايته « الراثق » نسبة الى ابن راثق

ألوان الرايات

لا نعرف ما كانت ألوان الرايات فى الجاهلية سوى راية العقاب فقد تقدم انها كانت سوداء وكذلك كانت راية النبي . وذكر صاحب « آثار الاول » انه كانت له ايضاً ألوية بيضاء . اما الرايات الاسلامية فقد كانت ألوانها تختلف باختلاف الدول فكانت أعلام بني أمية حمراء . وكل من دعا الى الدولة العلوية فعلمه أبيض . ومن دعا الى بني العباس فعلمه أسود والسواد شعار العباسيين على الاطلاق اتخذوه حزناً على شهدائهم من بنى هاشم ونعياً على بني أمية في قتلهم ولهذا سموا المسودة . ولما افترق الهاشميون وخرج الطالبيون على العباسيين فى كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضاء وسموا المبيضة والظاهر ان شعار دعاة بني هاشم من الشيعة كان الخضرة لان المأمون لما بايع لعلى بن موسى بولاية العهد أمر جنده بطرح السواد ولبس الثياب الخضر . حتى اذا رجع عن البيعة عاد الى السواد

وأما ملوك البربر في المغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا في راياتهم بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة . وفي دير بظاهر مدينة برغوس في الاندلس راية من الحرير الاحمر المطرز بالنقوش الجميلة وعليها كتابات كثيرة وآيات قرآنية . وقد نشرها غستاف لابون في كتابه تاريخ تمدن العرب وسماها راية الموحدين . لكن صديقنا المأسوف عليه روحي بك الخالدي بعث الينا بنسخة



راية الموحدين أو باب خيمة المنصور

من صورة هذه الراية سنة ١٩٠٧ وقال فى جملة وصفها « وأظن هذه الراية كانت باباً لخيمة المنصور لانها أشبه بباب الخيمة منها بالراية »

وأما دول الاتراك في المشرق فكانوا يتخذون راية واحدة للسلطان في رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر وهي شعار السلطان عندهم . ثم تعددت الرايات ويسمونها سناجق واحدها سنجق وهي الراية في لسانهم والراية العثمانية حمراء عليها صورة الهلال . واختلفوا في أصل هذه الشارة بين ان يكون الاتراك اقتبسوها من الروم بعد فتح القسطنطينية أو انهم جاءوا بها من بلادهم في تركستان

عقد اللواء

كان الخلفاء في صدر الاسلام اذا وجهوا جيشاً الى حرب عقدوا له الالوية وسلموها الى الامراء لكل امير راية قبيلته ويدعون لهم بالنصر ويوصونهم بالصبر

والجلاد . وكان عمر بن الخطاب اذا عقد لواء يقول وهو يعقده « بسم الله وبالله وعلى عون الله . امضوا بتأييد الله وما النصر إلا من عند الله ولزوم الحق والصبر فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله . ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور . ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند شن الغارات »

وكان لكل خليفة أسلوب في الدعاء والوصاية والمرجع واحد فيها كلها . وكانوا يعقدون الالوية ايضاً للعمال اذا ولوهم الامصار وخصوصاً في أوائل الاسلام لان العامل هو قائد الجند . وكانوا يعقدونها على حساب النجوم فيختارون أحد الاقترانات على زعمهم . وكان العباسيون اذا عقدوا لواء لقائد جند أو صاحب ثغر يخرج الى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو من داره في موكب من أصحاب الرايات والطبول حتى لا يميز بين موكب العامل وموكب الخليفة إلا بكثرة الالوية وقلتها أو بما اختص به الخليفة من الالوان لراياته

وكان للدولة الفاطمية بمصر دار يقال لها « خزانة البنود » كانوا يختزنون فيها الاعلام والرايات والدرق . وكانوا ينفقون عليها ٨٠ ٠٠٠ دينار كل سنة ظلوا على ذلك قرناً كاملا . وكل ما صنع من الاعلام بقى مترا كما فيها وفيه الاسلحة بأنواعها . والسروج واللجم وفيها المفضض والمذهب . ثم احترقت الخزانة فاحترق كل ما كان فيها من هذه الامتعة والآلات ما يقدر بثمانية ملايين دينار . ولم يستطيعوا اخراج غير القليل منها وفى جملة ذلك لواء كانوا يسمونه « لواء الحمد »

الموسيقى

واتخاذ الموسيقى في الجند قديم . والاصل فى اتخاذه إثارة حاسات الجند في أثنا الحرب او شغل اذهانهم عن الافتكار بالاخطار التى يتوقعونها . ومن هذا القبيل الغنة أو النشيد أمام الجند فانه من قبيل الموسيقى . وكان العرب في جاهليتهم لا يعرفون من هذه الآلات غير الطبل . وكان المسلمون في صدر الاسلام يتجافون عن اتخاذ الابواق والطبول تنزهاً عن غلظة الملك ورفضاً لاحواله . فلما انقلبت الخلافة ملكا وتبجحوا في زهرة الدنيا ولابسهم الموالى من الفرس والروم أهل الدول السالفة وأروهم ما كان أولئك يتحلون به من مذاهب البذخ والترف كان في جملة ما اقتبسوه منهم الموسيقى . وأذنوا لعالمهم في اتخاذها تنويهاً بالملك وأهله ثم جعلوا يستكثرون منها . وهي مفصورة على الطبل والبوق وربما كان فى الجند مئات من الابواق والطبول

السلاح

أشهر أسلحة العرب في جاهليتهم السيف والرمح والقوس والترس . وكانت لهم عناية كبرى في استخدامها لانهم كانوا يحمون بها أعراضهم ويستجلبون بها معاشهم وخصوصاً القوس

القوس

كان لهم بالقوس مهارة عظمى لحدة أبصارهم من سكن البادية ولانهم أحوج اليها من سائر الاسلحة . فقد كانوا يستخدمونها فى صيد الغزلان فضلا عن الحرب والطعان . وبلغ من مهارتهم في النزع بالقوس ما يكاد يفوق طور التصديق حتى لو أراد أحدهم أن يرمى إحدى عينى غزال دون العين الاخرى لرماها . ولذلك سموا مهرة الرمي « رماة الحدق ». وكان أحدهم يعلق ضباً بشجرة ثم يرميه بالنبال فيصيب أي عضو شاء من أعضائه حتى يرمي فقرانه فقرة فقرة فلا يخطىء واحدة منها (١)

فلما جاء الاسلام كانت مهارتهم هذه من جملة ما ساعدهم على غلبة الروم . لان هؤلاء لم يكونوا يحسنون رميها وقد بينا ذلك في كلامنا عن الفتوح الاسلامية . ولم يكن قواد المسلمين يجهلون فضل النبال في نصرتهم فكانوا يحرضون رجالهم على اتقان الرمي بها . وكان النبى يقول « اركبوا وارموا وان ترموا أحب الى من أن تركبوا » ومن أقواله « كل لهو المؤمن فى ثلاث تأديبه فرسه ورميه عن كبد قوسه وملاعبته امرأته فانه حق . ان الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب والرامي في سبيل الله » ومن أقواله وهو قائم على المنبر « أعدوا ما استطعتم من قوة . ألا ان القوة الرمي . ألا ان القوة الرمي . ألا ان القوة الرمى »

وكان الخلفاء والقواد بعد النبي يستحثون رجالهم على اتقان الرماية كما يحرضونهم على العناية بخيولهم . لان العرب أهل فروسية وخيول العرب مشهورة بخفتها وسرعتها وسهولة قيادها . وكان القواد يوصون رجالهم أن يعتنوا بأفراسهم مثل عنايتهم بنسائهم وقد تقدم لنا كلام في ذلك

وتفنن المسلمون بالرمي في العصور الوسطى حتى اصطنعوا من الاقواس آلات مركبة ولعلهم أخذوا بعضها عن الفرس كالمجراة التي استنبطها العجم لما حاربوا التتر . وهي عبارة عن أنبوب من حديد أو خشب فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً كما تقذف الرصاصة بالبندقية اليوم وتكون الاسهم قصيرة . واصطنعوا لرمي

(١) العقد الفريد ٥٢ ج ١

السهام ضروباً من المجانيق توضع في الواحد منها عدة سهام وترمى عنها بالاقواس

السيف

وكان العرب يعدون السيوف أشرف الاسلحة . وكانوا يستجلبونها من الخارج وأشهرها السيوف اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية وتعرف كلها بالسيوف العتيقة . وكان لكل منها شكل مخصوص أو علامة يمتاز بها فاليمانية العتق مثلا التي صنعت في الجاهلية كانت تمتاز بثقبين في سنبل السيلان (والسيلان أصل مقبض السيف) وثقب السنبل من احدى وجهتيه أوسع من الوجهة الاخرى أو الوجهتان متساويتان ووسطه أضيق . وكان من السيوف اليمانية سيوف يقال لها المحفورة وشطبها شبيه بالانهار وقد حفر بمبرد مدور . ومنها ذات حفر مربع ومنها ذات شطب . وقلما تسلم اليمانية من العروق . وقد تنقش عليها تماثيل أو يكتب عليها أو يصور عليها صورة

غير أن هذه السيوف اكثر قطعها في اللين فاذا صادفت الحديد أو اليابس تقصفت . وكانت أسياف الروم أمتن منها لانهم كانوا يجيدون سقايتها حتى تبري الحديد . ولذلك كان العرب اذا أصابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره وأطروه . وقد اشتهر في أوائل الاسلام سيف ذي الفقار لعلي بن أبي طالب وسيف الصمصامة لعمرو بن معدى كرب وغيرهما . ولعلهما في الاصل من اسياف الروم . ولذي الفقار شأن كبير في تاريخ الاسلام توارثه آل أبي طالب ثم أخذه المهدي العباسي ثم صار الى الهادي فالرشيد . ويقال انه سمي ذا الفقار لانه كان به ثماني عشرة فقرة . وفي المتحف البريطاني أمثلة من السيف الهندي والسيف الدمشقي شاهدناها في رحلتنا الى لندن سنة ١٩١٢

الرماح

اكثر ما يكون استخدام الرمح على الخيل . ولكنهم لم يكونوا يأمنون له خوف انكساره . ومن وصاياهم في استخدام الرمح في الحرب قول صاحب آثار الدول في طرائق حركات الرمح وتصرفاته قال « واللعب به في الميادين وبين يدي الملوك غير التحرك به في الحروب : منها المواجهة وهي أن تحمل على مبارزك وقد أخذت الرمح تحت ابطك وجعلته بين أذني فرسك وتقصده مستوياً حتى تقرب منه فان رأيته قد طرح رمحه يمنة فاطرح رمحك يسرة وان طرحه يسرة فاطرح رمحك يمنة . واجتهد أن تبدأ بالحمل عليه وأنت مسدد وتحول الرمح يمنة أو يسرة كي تدهشه فلا يدري

من أين تجيئه فاذا دنوت منه دخلت عليه من الخلل الذي لا يكون رمحه فيه . واذا أردت أن تبتدىء بالخروج فخذ أسفل الرمح بيدك اليمنى ورأسه الى الهواء وهو على عاتقك الايمن وتحمل على قوتك وأنت كذلك . وان شئت قربت منه حتى لا يدري من أي وجه يلقاك . . . وان خرجت الى فارسين وتفرقا فاحمل على الادنى واذا كانا قريبين فأر أحدهما انك تريد رفيقه واحمل عليه ولا تتم حملتك ثم اعدل الى الآخر واصدقه الحملة . وان حذقا ورأيتهما يفترقان عليك فتطرف ولا تتوسط واحمل على الادنى اليك . فان تساويا فادهش الاضعف واحمل على الاقوى فان تساووا وكانوا جماعة فامتد أمامهم حتى يتبعوك ثم كر على الادنى منك فاطعنه . وان دخلت مضيقاً فتلقاك فارس برمح فاياك والمصادمة بل انزل الى الارض واطعنه . وان كان خلفك فارس وقدامك فارس في مضيق فانزل وتحيل واقصد أقربهما اليك وتترس من الآخر بدابتك . الخ »



الترس الغرناطي

وكانت أسنة الرماح عندهم تختلف شكلا بين المشعب والعريض والرفيع والمستوى والمموج وغير ذلك

الترس

وكان الترس عند العرب على أصناف كل منها يصلح لشيء فمنها المسطح والمستطيل المحفر الوسط والمقبب . فالمقبب المنحني الاطراف . ولكل ترس فائدة فالمقبب المنحني الاطراف لا يتقى به الرمح لانه متى طعن ثبت الرمح فيه . وانما يتقى به النشاب والحجارة والسيف . والترس المستطيل يتقى به النشاب لان رأسه يستر رأس الفارس وطوله يقيه لانه ينظر باحدى عينيه من النخصير ولا يكشف رأسه والمسطح يتقى به الرمح . وقد يشترك رجلان في الطعان فيترس أحدهما للآخر

وتفنن المسلمون في اصطناع الاتراس ونقشوا عليها الآيات والحكم والاشعار وتميزت أتراس كل بلاد بشكل خاص ومنها الترس الدمشقي والترس العراقي والغرناطي وغيرها

الدرع



درع أبي عبد الله آخر ملوك الاندلس

الادراع كثيرة عند العرب ومنها الحديد والفولاذ والكتان . ويسمون درع الكتان « دلاص » ولم يكن يقتنى الادراع من العرب غالباً إلا الفرسان وهي من صنع الروم أوالفرس على الغالب وعندهم أدراع مشهورة بأسماء معينة مثل درع خالد بن جعفر فقد كانوا يسمونها ذات الازمة لانها كانت لها عرى تعلق اذا أراد لابسها أن يشمرها

وكانت الدرع مؤلفة من الجزء الذي يقي الصدر وهو الجوشن . والبيضة والخوذة والمغفر للرأس . ومنها أجزاء للساعدين والساقين والكفين

تلك كانت أسلحة العرب في أوائل الاسلام ثم أضافوا اليها شيئاً من أسلحة الاعاجم كالخنجر والطبر والفاس وغيرها . وتفننوا في صنعها تبعاً للزمان والمكان . فترى السيف الدمشقي يختلف عن السيف العراقي والدرع المصرية تختلف عن الدرع الاندلسية

آلات الحصار

لم يكن للعرب آلات للحصار لانهم لم يكونوا يحاصرون . وانما كانت منازلهم الخيام المطلوقة لايحميها سور ولا خندق . واول خندق بناه العرب خندق المدينة يوم حرب الاحزاب (سنة ٥ هـ) أشار به سلمان الفارسي كما قدمنا . فلما اختلطوا بالاعاجم كان في جملة ما اقتبسوه منهم آلات الحصار وأهمها المنجنيق والدبابة والكبش والنار اليونانية

المنجنيق

هو آلة قذافة استخدمها الفينيقيون قديماً . وعنهم أخذها اليونان والاسرائيليون وورد ذكرها غير مره في سفر المكابيين وانتشرت بواسطة اليونان في سائر دول الارض فاستخدمها الفرس وعنهم أخذها العرب بعد الاسلام

والمشهور ان العرب لم يستخدموا هـذه الآلة الا في أواسط القرن الاول للهجرة بعد مخالطتهم الروم والفرس . ولكننا رأينا فى السيرة الحلبية انهم استخدموها فى حصار الطائف أرشدهم اليها سلمان الفارسي فى جملة ما أرشدهم اليه من فنون الحرب الفارسية ويقال انه صنعه لهم بيده . وذكر صاحب هـذه السيرة أيضاً أن المسلمين لما فتحوا حصن الصعب فى خيبر وجدوا فيه منجنيقات ودبابات

والمنجنيق أصناف كثيرة منها الكبير والصغير ومنها ما يشد بلوالب وأقواس أو ما يدار شبه المقلاع . وهي تستخدم اما لرمي السهام أو الحجارة أو قدر النفط أو العقارب أو نحوها من آلات الاذى . فان كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص وان كانت من السوائل كالنفط ونحوه اتخذوا لها كفة كالكاس علقوها بسلاسل



منجنيق روماني لرمى السهام

وفى الشكل صورة منجنيق رومانى كانوا يرمون به السهام . فترى السهام مشكوكة فى القائمتين (ب و ج) ورءوسها متجهة نحو العدو . وترى الرجلين يديران البكرة (د) وهى تدير البكرة المسننة (ن) ويلف عليها حبل ممتد من طرف القائمة (ا) بالبكرة (س) والبكرتين (ف) بحيث تشد طرف القائمة (ا) نحو الوراء . وهى مصنوعة من قطع متصلة بجلد أو حديد حتى



ش ٥٧ : منجنيق لرمى الحجارة

تصير مرنة كالاقواس بحيث اذا أطلقت بعد شدها ارتدت على أطراف السهام بعنف فترسلها الى مسافة بعيدة

وفي الشكل الآخر صورة منجنيق لرمى الحجارة عبارة عن عمود في رأسه معلق شبه المقلاع يوضع فيه الحجر ويشد العمود بالامراس نحو الوراء وهو متصل من أسفله بقوس مرنة فاذا شد العمود جيداً ثم أطلق بغتة وقع على المسطح المائل بعنف وانطلق الحجر من المقلاع الى مسافة بعيدة . وهناك أشكال أخرى للمنجنيق تتدرج تحت هذين

فكانوا يستخدمون المنجنيق لهدم الحصون بالحجارة الضخمة . أولرمي الاعداء بالنبال . أو لاحراق أماكن العدو بالنفط ونحوه فيرسلون به نفطاً مولعاً بالنار يقذفونه بواسطة كفة من الزرد يجعلون بها الاوعية المملوءة بالنفط كالقدور ونحوها أو يرسلونها بمنجنيق رمى الحجارة أو غيرها

وكانت المجانيق تتفاوت فى أقدارها وكثيراً ماكانوا يسمون كلا منها باسم يدل على بعض أوصافه على نحو مايسمون السفن والمدافع الكبرى في هذه الايام . فقد كان عند الحجاج بن يوسف منجنيق اسمه « العروس » كان يمد به خمسمائة رجل أرسله محمد بن القاسم لمحاربة ملك الهند سنة ٨٩ هـ وهدم به صنماً من أصنامهم

الدبابة

هى آلة سائرة تتخذ من الخشب النخين المتلازز وتغلف باللبود أو الجلود المنقعة في الخل لدفع النار وتركب على عجل مستديرة وتحرك فتنجر . وقد يجعلونها برجاً من خشب بمثل هذا التدبير ويدفعها الرجال فتندفع على البكر ويصعد الرجال في اعلاها ويستعلون على السور وينزلون فوقه . وهى أقدم من المنجنيق استخدمها المصريون القدماء والاشوريون فاليونان فالرومان والفرس فالمسلمون . وهي عبارة عن قلعة سائرة على العجل يهجمون بها على الاسوار لمحاربة المحاصرين من أعلى السور

وقد يستخدمون الدبابة لهدم الاسوار فيسيرونها ويحتمون بجدرانها و يجعلون رأسها محدداً يصدمون به الاسوار حتى تهدم

الكبش

هو كالدبابة لكن رأسه في مقدمه مثل رأس الكبش ويتحصن الرجال فى داخله ويستخدمون الكبش لهدم الاسوار . والرأس المذكور متصل في داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجري

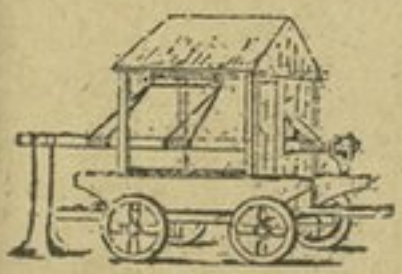

رأس الكبش

على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها فيتعاون الرجال من داخل الدبابة ووراثها على ضرب السور بها حتى يخرقوه

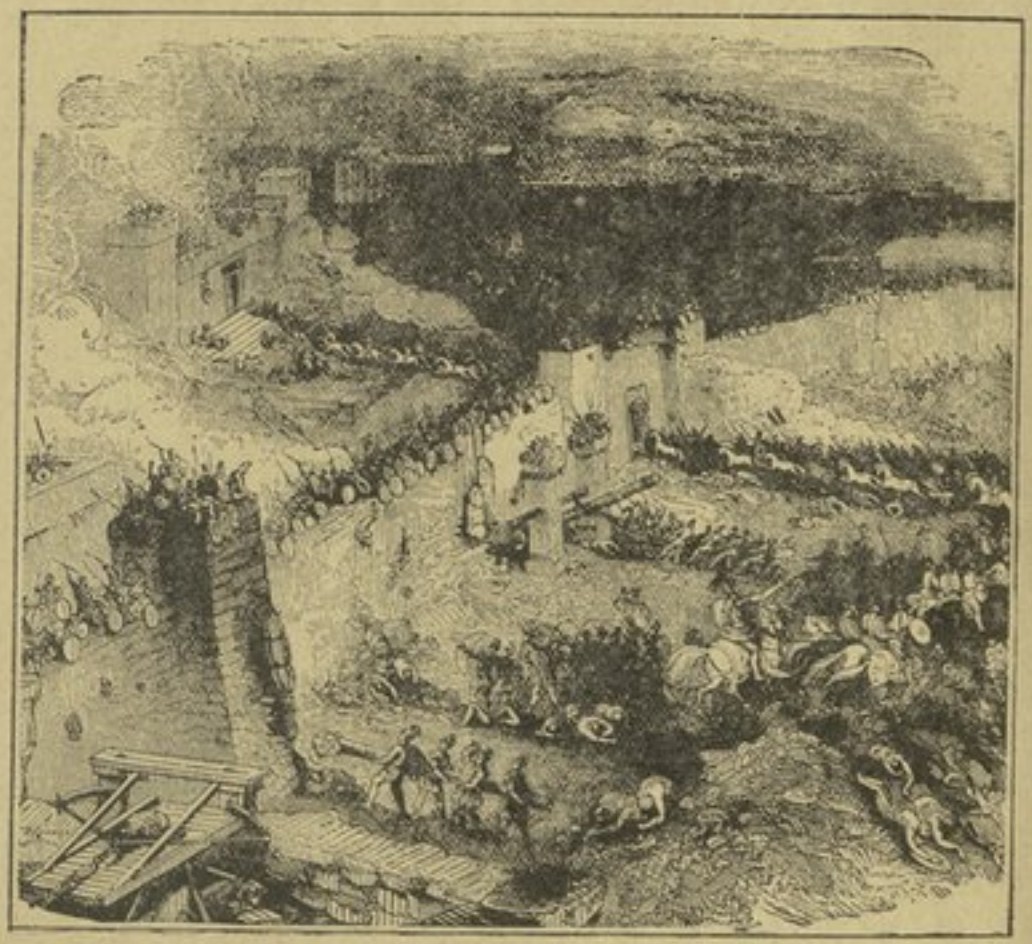

كبش روماني في فتح القدس

وفي الشكل صورة كبش روماني يهاجم أسوار البرطين وقد خاف البرطيون وأتوا بأعلامهم يلتمسون الامان ويسلمون

واستخدم المسلمون الدبابة والكبش في كثير من حروبهم لتسلق الاسوار وهدمها أو خرقها . وكانوا يجعلون في الجيش عدة دبابات اكثرها صغير الحجم تسع الواحدة بضعة رجال تتفرق حول الاسوار . واستخدم الخليفة المعتصم بالله الدبابات في فتح عمورية فعمل منها دبابات تسع كل واحدة عشرة رجال

وكيفية استخدام الدبابات في تسلق الاسوار انهم كانوا يركبون الدبابة ويدحرجونها الى السور . فان كان هناك خندق يمنعهم من الوصول اليه طرحوا الاخشاب على الخندق مثل الجسور . فاذا كان الخندق عريضاً طرحوا فيه الحطب والزرجون والتراب وغيره

مما يحملونه معهم في الدبابة لهـذه الغاية حتى يملىء الخندق . كل ذلك وأهل الدبابة يحمون الصناع بالجفان . فيجرون الدبابة الى السور وينقبونه ويدعمونه بالاخشاب ثم يخرقونه ويلتصقون بالسور . فاذا لم يدركوا سطحه صعدوا اليه بالسلالم ونزلوا منه الى المدينة اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا وإلا حاربوا



دبابة لدسائق الاسوار

وكان عندهم ضرب من الدبابات أو الابراج المسيرة على العجل في أعلاهامواقف للرجال اذا اقتربت من السور ولم تستطع خرقه ألقى أصحابها من أعلى الدبابة سلالم مشوا عليها الى داخل السور

النار اليونانية

ومما اقتبسه العرب من الروم النار اليونانية وهي في الاصل من اختراع المشارقة. فقد كان هؤلاء يستخدمون في حروبهم مزيجاً سريع الاشتعال لم يعرفه اهل أوربا إلا في القرن السابع عشر الميلاد . والمظنون انرجلا من أهل الشام اسمه كالينكوس نقله اليهم . وكان الروم يومئذ في إبان حاجتهم اليه ليردوا به هجمات العرب عن القسطنطينية وغيرها من مدنهم في أوربا وآسيا . وقد فازوا بغرضهم منه لان العرب حاصروا القسطنطينيةمراراً ولم يستطيعوا فتحها . وبالغ الروم في كتمان أسماء المواد التي يتألف منها ذلك المزيج . فظل سر هذه النار مكتوماً حتى اطلع عليه العرب فاذا

هي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والادهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة كانوا يشدونها الى مقدم السفينة . فيقذفون منها السائل مشتعلا أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان المتلوث بالنفط فيقع على السفن أو البيوت فيحرقها . والظاهر ان المقذوفات التى احترقت بها الكعبة في حصار الحصين بن نمير لعبد الله بن الزبير سنة ٦٤ هـ كانت من هذه النار



عرب يستخدمون النار اليونانية ـ نقلا عن مخطوط قديم

وفي المكتبة الاهلية بباريس مسودة خطية قديمة عليها صور رجال من العرب بعضهم على الخيول والبعض مشاة وفي أيديهم خرق مبسوسة بالنار اليونانية يرمون بها الاعداء وكانوا يسمون النار اليونانية « النفط القاذف »

اختراع البارود

وهناك اختراع ذو بال ينسب فضله الى الافرنج وهو للعرب ـ نعنى اختراع البارود . فالمشهور عند الافرنج ان مخترع البارود اسمه شوارتز سنة ١٣٢٠م(٧١٩هـ) ولكن راهباً انكليزياً اسمه روجر باكن من أهل القرن الثالث عشر للميلاد أشار الى مزيج من قبيل البارود كان شائعا في أيامه . والصحيح ان العرب أسبق الناس الى استخدام البارود واذا لم يكونوا اخترعوه فلا أقل من انهم أوصلوه الى ما عرف به في الاجيال الوسطى . فقد ذكر كوندي المستشرق الاسبانى المتوفي سنة ١٨٢٠ ان أهل مراكش استخدموا الاسلحة النارية في محاربتهم سرقوسة سنة ١١١٨ م

وزد على ذلك ان تواريخ العرب تشير الى استخدام هذه الاسلحة في القرن الثالث عشر للميلاد فى حرب المسلمين بالمغرب . ونرى ذلك صريحاً في كلام ابن خلدون عن قدوم أبي يوسف سلطان مراكش لفتح سجلماسة سنة ٧٦٢ هـ ١٢٧٣ م قال :

« ولما فتح السلطان ابو يوسف بلاد المغرب . . وجه عزمه الى افتتاح سجلماسة من أيدى بني عبد الواد المتغلبين عليها وادالة دعوته فيها من دعوتهم . فنهض اليها في العساكر والحشود في رجب من سنة اثنتين وسبعين . فنازلها وقد حشد اليها اهل المغرب أجمع من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزنة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة باريها . فأقام عليها حولا كريتاً يغاديها القتال ويراوحها الى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سوَرها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليها . فبادروا الى اقتحام البلد فدخلوه عنوة من تلك الفرجة »



اختراع العرب للاسلحة النارية

وفي هذا القول شاهد صريح على ان البارود كان معروفاً عند العرب وكانوا يستخدمونه في حروبهم قبل شوارتز بنحو نصف قرن

وفي مكتبة بطرسبرج مسودة عربية قديمة فيها صور رجلين من العرب يشتغلان في الاسلحة النارية أحدهما الى اليمين يحمل ما يشبه البندقية وفيها القنبلة والبارود داخلها وقد أدناها من لهيب أمامه حتى يولع البارود ويقذف القنبلة



ادوات النفط

وهناك أيضاً صورة فارس يحمل قناة ملفوفة بقماش ذات أهداب لتلت بالنفط ترمى على الاعداء حين الاقتضاء . وبجانبي الفارس رجلان ماشيان على بدنيهما وبدنه وبدن فرسه نسيج ذو أهداب يستخدم للنفط عند الحاجة

المدافع

هي أنابيب ترسل بها المقذوفات كما ترسل بالمنجنيق . لكنها في هذا ترسل بحركات ميكانيكية كالقاليع والاوتار ونحوها . وأما في المدافع فانها تقذف بالبارود

وأول من أتقن استخدام المدافع في الدول الاسلامية الدولة العثمانية . وبها استعانوا على فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وفي كثير من الفتوح والحروب . فأصبح الجند المحاصر لبلد ينصب حوله المدافع بدل المجانيق يفرقها مع جنده حول المكان المراد محاصرته . وكانوا في أول شيوع المدفع يستخدمون معها سائر آلات الحصار القديمة من الابراج والدبابات وغيرها . لان المدافع لم تكن فى أول أمرها تقذف قنابلها الى مسافات بعيدة . وكان المحاصرون من الجهة الاخرى يحيطون معسكراتهم أو قلاعهم بالاسوار العالية والخنادق العميقة على أشكال مختلفة ويجعلون السور مضاعفاً أو مثلثاً ينصبون عليه آلات الدفاع كالمدافع وغيرها

وكان المحاصرون يبنون على الاسوار أبراجاً يجمعون فيها الحامية للدفاع بآلات القذف المختلفة ويبذل المحاصرون جهدهم في أخذ تلك الابراج

تعبئة الجيوش

قلنا في كلامنا عن تاريخ الجند ان نظامه كان عند الامم المتمدنة الصفوف والكتائب وأما العرب في جاهليتهم فقد كانوا على غير نظام . وكانت حروبهم من النوع الذي يعبرون عنه بالكر والفر واسمه يدل عليه . وذلك انهم كانوا اذا هموا بالقتال كروا على عدوهم فاذا أحسوا بضعف فروا . ثم يعودون فيكرون وهكذا بلا نظام ولا قاعدة . فلما ظهر الاسلام كان في جملة أوامره ترتيب الناس صفوفاً في الحرب عملا بالآية « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وفي الحديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » وبناء على ذلك كانت حروب المسلمين في أيام النبي صفوفاً وهو ما يعبرون عنه بالزحف . فكانوا يسوون كما تسوى الصفوف للصلاة ويمشون بصفوفهم الى العدو قدماً واحدة

فحاربوا البدو بنظام لا يعرفونه وكان ذلك من جملة أسباب نصرتهم على قبائل العرب أهل الكر والفر . واعتبر ذلك في تراجم الفاتحين العظام كالاسكندر والسلطان سليم العثماني وبونابرت وغيرهم فانهم انما غلبوا العالم بنظام جديد أدخلوه في جنودهم أو بأسلحة جديدة تفردوا بها دون أعدائهم

وكان أهل الكر والفر يمنعون رجالهم عن الفرار بابلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم فيصفونها وراءهم فتكون فيئاً لهم ويسمونها « المجبوذة » وهي التي تثبت أقدامهم في الحرب . أما المسلمون فكانوا مع ثباتهم بالزحف يجعلون وراءهم الابل

والنساء والولدان والاحمال فيزيدهم ذلك استماتة في الحرب وصبراً على القتال

كان الجند في أيام النبي يترتب صفاً أو صفين تبعاً للكثرة والقلة . فلما تكاثر المسلمون في أيام الخلفاء الراشدين صاروا يجعلونه صفوفاً يرتبونها باعتبار أسلحتها والاحوال المحيطة بها . واليك وصية علي بن أبي طالب لجنده يوم واقعة صفين سنة ٣٧ هـ فانها تنطوي على خلاصة نظام الجند في الحرب أيام الراشدين قال :

« فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الاضراس فانه أنبى للسيوف عن الهام . والنووا على أطراف الرماح أصون للاسنة وغضوا الابصار فانه أربط للجأش وأسكن للقلوب . واخفتوا الاصوات فانه أطرد للفشل وأولى بالوقار . وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها الا بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر »

الكراديس

ثم تكاثر جند العرب واختلطوا بالاعاجم في أيام بني أمية فعمدوا الى « التعبئة » وهي ترتيب الكتائب كراديس كما بيناه في تاريخ الجند . وذلك ان الروم كانوا اذا انتشبت الحرب قسموا جنودهم الى أقسام يسمونها كراديس Koortis كورتيس في اليونانية ومعناها الكتلة أو الكتيبة . ويسمون كل كردوس كتيبة بصفوفها فيجعلون الملك أو القائد العام وحاشيته ورايته وشعاره كتيبة تقوم في الوسط ويسمونها القلب وأمامها كتيبة يغلب أن تكون من الفرسان وهي المقدمة . ويقيمون كتيبة أخرى عن يمين كتيبة الملك يسمونها الميمنة وأخرى الى يساره يسمونها الميسرة وكتيبة وراءه يسمونها ساقة الجيش على هذه الصورة :

المقدمة

الميمنة قلب الجيش الميسرة

الساقة

وترى التعبئة على هذه الكيفية خمسة أجزاء ومنها تسمية الجيش بالخميس . ويتقدم الخميس كوكبة من الفرسان يقال لها « الطليعة » لاجل الاستكشاف على مواقف العدو . فاذا ترتب الجيش على هذه الصورة زحف على العدو زحفاً وربما

جعلوا وراءهم مايثبتهم في زحفهم كما كان يفعل الفرس . فانهم كانوا يتخذون الفيلة في الحروب يحملون عليها ابراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويضعونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون فتقوى بها نفوسهم . وربما جعلوا ملجأهم الاسرة فينصبون للملك سريره في حومة الحرب وراء المقاتلة ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فيئاً للمقاتلة وملجأ لهم

وكثيراً ما كانت العجم تحارب بالكر والفر وتجعل مثل ذلك الملجأ وراء جندها مما لايقع تحت حصر . فاضطر العرب في كثير من وقائعهم مع الفرس والروم في صدر الاسلام أن يحاربوا بالكراديس كما فعل خالد بن الوليد في واقعة اليرموك سنة ١٣ هـ فهي تعبئة لم تعب العرب مثلها قبلها . فجعل جيشه ٣٦ كردوساً الى الاربعين وجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وأقام عليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان الخ . وكذلك فعل سعد بن أبي وقاص في القادسية سنة ١٤ هـ

ولكن يظهر انهم فعلوا ذلك اضطراراً لمحاربة الروم بمثل نظامهم . ولم يجعلوا التعبئة قاعدة حروبهم الا سنة ١٢٨ هـ على عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فانه أبطل الصفوف ونظم الكراديس فحارب بها الضحاك الخارجي ثم الحميري . ولما بطلت الصفوف تنوسى الزحف ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بمادخل الدولة من الترف ولم يعودوا يحملون نساءهم وأولادهم معهم الى الحرب

وهاك ماقاله عبد الحميد كاتب محمد بن مروان يوصي ولى عهد الخلافة بتعبئة الجيوش وهي صورة من صورها في زمن بني أمية قال .

« اذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصر . وكان من عسكرك مقترباً وقد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وحماة فتنته فتأهب أهبة المناجزة وأعد اعداد الحذر وكتب خيولك وعب جنودك . واياك والمسير الا مقدمة وميمنة وميسرة وساقة قد شهروا بالاسلحة ونشروا البنود والاعلام . وعرف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم قد اخذوا أهبة القتال واستعدوا للقاء ملحين الى مواقفهم عارفين بمواضعهم عن مسيرهم ومعسكرهم . وليكن ترجلهم وتنزلهم على راياتهم واعلامهم ومراكزهم . وعرف كل قائد وأصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة

والطليعة . لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ولا منهاونين بما أهبت بهم اليه حتى تكون عساكرهم في كل منهل تصل اليه ومسافة تختارها كأنه عسكر واحد في اجتماعها على العدة وأخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ونزولها على مراكزها ومعرفتها بمواضعها . ان أضلت دابة موضعها عرف أهل العسكر من أى المراكز هي ومن صاحبها وفي اى المحل حلوله منها فردت اليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها . فان تقدمك في ذلك واحكامك له اطراح عن جندك مؤونة الطلب وعناية المعرفة وابتغاء الضالة . ثم اجعل على ساقتك أوثق اهل عسكرك في نفسك صرامة ونفاذاً ورضاء فى العامة . وانصافاً من نفسه للرعية وأخذاً بالحق في المعدلة مستشعراً تقوى الله وطاعته آخذاً بهديك وادبك واقفاً عند أمرك ونهيك معتزماً على مناصحتك وتزيينك نظيراً لك فى الحال وشبيهاً بك في الشرف وعديلا في المواضع ومقارباً في الصيت . ثم اكشف معه الجمع وايده بالقوة وقوه بالظهر وأعنه بالاموال واغمره بالسلاح ومره بالعطف على ذوى الضعف من جندك . ومن زحفت به دابته واصابته نكبة من مرض او رجلة او آفة . من غير ان تأذن لاحد منهم في التنحى عن عسكره او التخلف بعد ترجله الا المجهود او المطروق بآفة . ثم تقدم اليه محذراً ومره زاجراً وانهه مغلظاً بالشدة على من مر به منصرفاً عن عسكرك من جندك بغير جوارك شاداً لهم أسراً وموقرهم حديداً ومعاقبهم موجعاً . او موجههم اليك فتنهكهم عقوبة وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة . . » الخ

على ان بعض دعاة الخلافة من أهل البيت اعتبروا العدول عن الصف الى الكراديس بدعة في الاسلام فظلوا على الزحف صفوفاً ولو أدى بهم الى الخطر . كما فعل ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن ابي طالب لما بعث المنصور عيسى بن موسى لمحاربته فالتقيا باخمرا على ١٦ فرسخاً من الكوفة . فأشار عليه بعض اصحابه ان يجعل جنده كراديس « لان الكراديس اثبت في الحرب فاذا انهزم كردوس ثبت كردوس اما الصف فاذا انهزم بعضه تداعى سائره » فقال ابراهيم وسائر من معه « لا نصف إلا صف اهل الاسلام » يعنى الآية « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً » الخ فدارت الدائرة على ابراهيم

وبعد رسوخ المسلمين في المدينة تفننوا في تعبية الجيوش بما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء بعد ترجمة كتبهم أو دراستها . وتعددت ضروب التعبية عندهم حتى صارت سبع تعبيات وان كانوا لا يستعملونها كلها ولكنهم أدخلوها في فنونهم

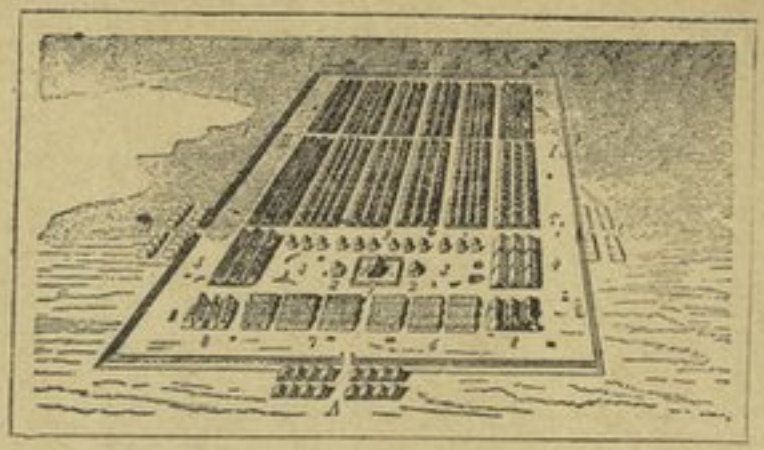

معسكر روماني

له اربعة ابواب A في مقدمه وR في مؤخره و C وD في الجانبين كل باب منها خاص بطبقة من الجند . وقد ترتبت الكتائب او الكراديس في ستة صفوف مزدوجة بينها طرق طولية . ويقطعها عرضاً شارع واحد . وأمام الكتائب خيم كبار القواد 1 و2 و3 والى جانبها 4 و5 خيم المتطوعين . وأمامها في أول المعسكرة 6 و7 جند المتطوعة وبعدها على الزاويتين 8 المساعدون من جند الاجانب

الحربية : التعبية الاولى ان ترتب الجيوش بشكل الهلال قالوا ان الفرس المتقدمين ذكروه . وهو نوعان الهلال المرسل أو الحادوهو البسيط مثل هلال السماء ﴿ والهلال المركب وهو أن يكون الى جانبي الهلال شبه هلالين كأنهما جناحان وهي التعبية الثانية . والتعبية الثالثة المربع المستطيل . والتعبية الرابعة الهلال المقلوب ﴿ . والخامسة ان ينظم الجيش في شكل المعين او المربع المنحرف . والسادسة المثلث . والسابعة الدائرة المزدوجة وهي دائرتان احداهما داخل الاخرى . وكانوا يعمدون الى هذا الضرب من التعبئة اذا كان جندهم قليلا وجند عدوهم كثير وهو يشبه آخر ما بلغ اليه المتمدنون من التفنن فى التعبية . نعني مربع بونابرت الذي دوخ به الممالك وهو عمدة الجنود المنظمة الى اليوم . فكان المسلمون اذا عبوا الجيش الى الحرب نظموه اما كراديس او مربعات او مثلثات او جعلوا بعضه كراديس وبعضه مربعاً او هلالياً او معيناً او مثلثاً على ما تقتضيه الاحوال

المعسكر

اما تنظيم المعسكر فلم يكن له علم خاص في اوائل الاسلام بل كان العرب يجرون فى نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا فى جاهليتهم . فيكون فسطاط الامير في الوسط وحوله فساطيط الامراء والخاصة . واذا كانت النساء والاولاد معهم جعلوهم وراء

المعسكر ولما أبطلوا حمل العيال معهم كما تقدم جعلوا يقلدون الروم والفرس في مضاربهم وتفننوا في ذلك على ماقتضته الاحوال . فلما تعددت فرق الجند وكثرت الحاشية والمماليك والخدمة صار المعسكر اشبه ببلد فيه الكتاب والفقهاء والاطباء والكحالون وأصحاب الطبول والاتباع وغيرهم فضلا عن اصناف الجند كما ترى في الصفحة التالية وهو ارقى مابلغ اليه نظام المعسكر فى الاسلام

مناداة الجند

كانوا في اوائل الاسلام اذا تهيأ الجيش للقتال نادى قواده « النفير النفير » وهي علامة الهجوم عندهم تقابل نداء قواد الجند الآن فى مصر « هجوم حاضر أل » ثم « هجوم » . واذا أرادوا ارجاعهم قالوا « الرجعة الرجعة » وهي مثل قولهم اليوم « جريه» .وكانوا اذا أرادوا ان يركب الفرسان للحرب نادوا « الخيل الخيل » ويقال لمثل ذلك في الجيش المصري « بين مايه حاضر أل » ثم « بين » . واذا ارادوا أن يترجلوا قالوا « الارض الارض » ومثلها في مصر « اين مايه حاضر أل » ثم «ابن »

ولما تمدن المسلمون وتعددت أجزاء جندهم وتنوعت حركاتهم جعلوا لكل حركة نداء خاصاً يدل لفظه على المراد به . وهذه اسماؤها ١ الميل ٢ الانقلاب ٣ الانفتال ٤ تسوية الانفتال ٥ استدارة صغرى ٦ استدارة كبرى ٧ تقاطر ٨ اقتران ٩ رجوع الى الاستقبال ١٠ استدارة مطلقة ١١ أضعاف ١٢ اتباع الميمنة ١٣ اتباع الميسرة ١٤ جيش منحرف ١٥ جيش مستقيم ١٦ جيش مورب ١٧ رض ١٨ تقدم ١٩ حشو ٢٠ رادفة ٢١ ترتيب بعد ترتيب

فكانوا اذا أراد قائد الجند ان يميل جنده الى جهة أو يتخذ شكلا خاصاً من هذه الاشكال أو حركة من هذه الحركات ناداه بكلمة من هذه الكلمات . وهم قد تدربوا على المراد من كل منها فيميلون كما يشاء على مثال الحركات العسكرية في جنود هذه الايام . ثم اختصروا ذلك كله في كلمتين هما « هو جوا » و «هو برا » واستعانوا على اتمام المراد بالاشارات . ولذلك كان على الجند أن يراعوا الرئيس بأعينهم حتى اذا مال الى جهة مالوا معه . وفسروا هذين اللفظين بان المراد بهوجوا أن تقبل الوجوه تجاه بعضها بعضاً وعكس ذلك هو برا

شعار الجند

كان للعرب فى جاهليتهم الفاظ يتعارفون بها فى أثناء الحرب يسمونها الشعار

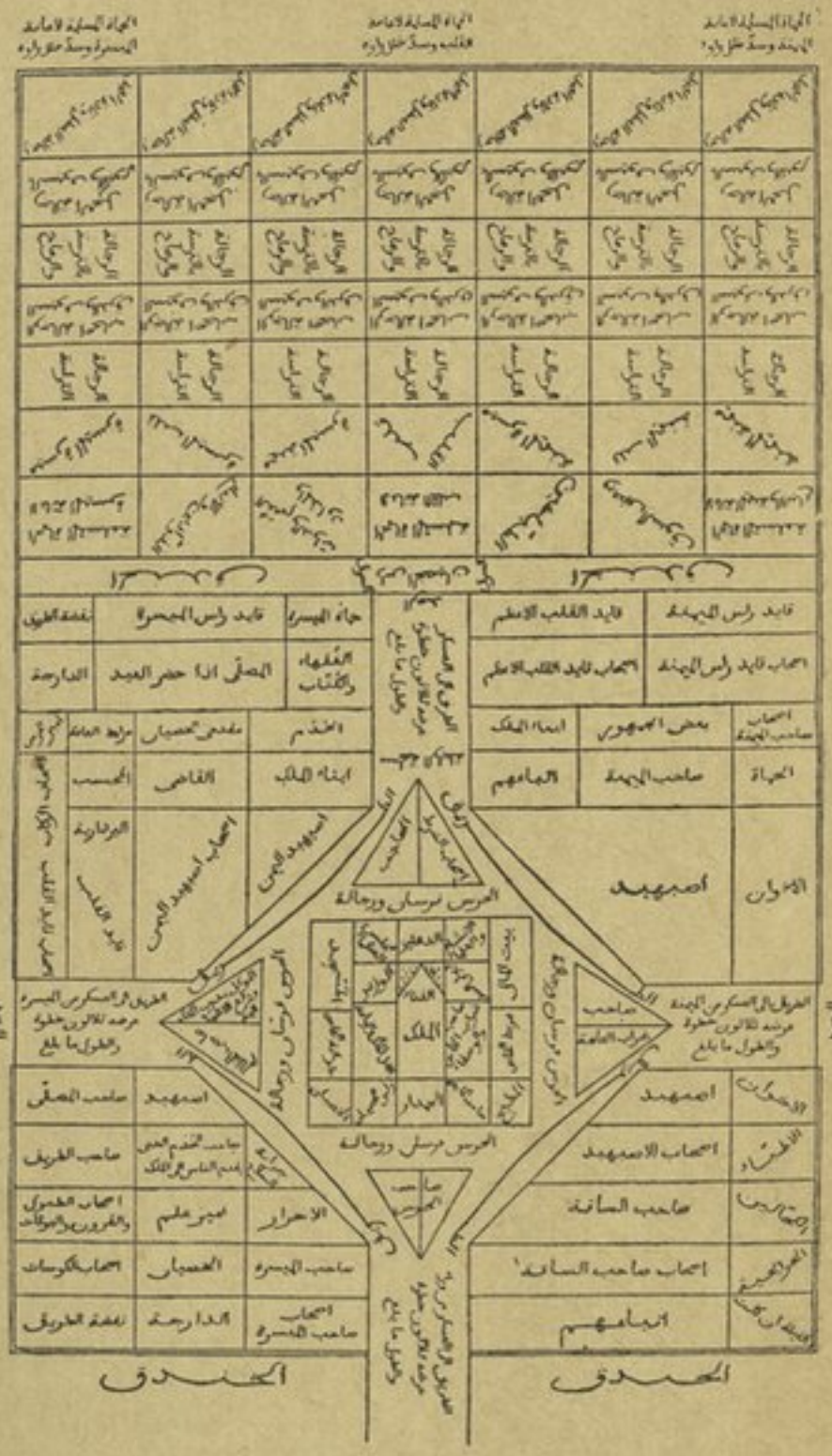

معسكر اسلامي كامل نحو القرن الثامن للهجرة في أرقى ما بلغ اليه نظام الجند عندهم

وليست هي الفاظاً معينة ولكنهم كانوا يصطلحون عليها على مقتضى الاحوال . كان شعار الاحزاب فى غزوة أحد « يا للعزي يا لهبل » وكان شعار تنوخ في الحيرة « ياآل عباد الله » وجعل النبي لكل من المهاجرين والانصار شعاراً فكان شعار المهاجرين « يابني عبد الرحمن » وشعار الاوس « يابني عبيد الله » وشعار الخزرج « يابني عبد الله » وسمي خيله « خيل الله » . وكان المسلمون بعد ذلك يجعلون لجنودهم شعاراً يتعارفون به على نحو ما تقدم

الثغور والعواصم

ويراد بها حدود المملكة الاسلامية براً وبحراً . فقد رأيت في ماتقدم ان العرب لما جاءوا لفتح الشام انما بدأوا ببرها من جهة حوران مما يلي الصحراء . لان قوات الروم كان معظمها في مدن السواحل . فجعلوا فتوحهم تمتد من البر نحو البحر ومن العرب وأهل البلاد الاصليين الى الروم . فبعد ان فتحوا دمشق ساروا نحو السواحل وفي مقدمتهم يزيد بن أبي سفيان وأخوه معاوية . وكان ذلك في أيام أبي عبيدة على دمشق . جاءوا بيروت وصيدا وجبيل ففتحوها فتحاً يسيراً ثم عاد الروم بعدئذ فاسترجعوها لان قواتهم في البحر كانت كبيرة . وما زالت في أيدى الروم حتى تولى الخليفة عثمان ومعاوية عامله على الشام ففتحوا طرابلس وغيرها . وكانت لمعاوية رغبة في غزو البحر وعثمان يخافه كما كان عمر يخافه من قبل . وما زال معاوية يلح على عثمان حتى أذن له فسلمت ثغور الشام عندئذ للمسلمين فجعل الناس ينتقلون اليها من كل ناحية فعمرت بهم

وكانت ثغور الشام في أيام الخلفاء الراشدين انطاكية وغيرها من السواحل التى سماها الرشيد عواصم . فكان المسلمون يغزون ما وراءها . وكان للروم بقية في بعض المسالح بين الاسكندرونة وطرسوس فلما تولى بنو أمية أتموا فتحها . وزادت عمراناً في أيام بني العباس وجعلوا فيها الحامية والسلاح لدفع غارات الروم لانهم كانوا لا ينفكون عن مناوأة العرب . فبنى العرب حصوناً هناك ورمموا الحصون التى كان الروم قد بنوها وجعلوا لاهلها عطاء كبيراً وامروهم بالغزو

وفعلوا نحو ذلك في حدود المملكة الاسلامية من جهة البر فاتخذوا مدناً حصينة جعلوها ثغوراً يقيمون فيها الجند والسلاح في قلاع لدفع العدو او لغزو بلاده

وبناء على ذلك فان تخوم المملكة الاسلامية بعضها من جهة البر والبعض الآخر يتصل اليه بالبر والبحر معاً

والحدود البحرية هي على الاطلاق ثغور الشام ومصر . فاذا عددنا الثغور الشامية من الشمال كان اولها طرسوس فأدنه فالمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس وارتفاعها أى دخلها نحو ١٠٠ ٠٠٠ دينار تنفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها من نفقات الحامية والترميم والمخائض والحصون وغير ذلك لا يرد منها شيء الى بيت المال بل قد ينفق عليها بيت المال ورواتب الجنود . وثغور مصر منها رفح والعريش ودمياط والاسكندرية

ويلى ثغور الشام من الشمال الثغور التى سموها الجزرية نسبة الى جزيرة العراق وأولها مرعش ثم الحدث ثم حصون متتابعة الى ثغر شميشاط ثم ملطية . وارتفاع هذه الثغور مع ملطية ٧٠ ٠٠٠ دينار يصرف منها في مصالحها ٤٠ ٠٠٠ ويبقى ٣٠٠٠٠ ويحتاج لنفقة الاولياء والصعاليك ١٧٠ ٠٠٠ دينار تضاف الى تلك البقية . فيكون المجموع مئتى الف دينار سوى نفقات المغازى . والثغور المذكورة هي الواسطة التى منها كانت تقع المغازى . وعواصم هذه الثغور دلوك ورعبان ومنبج . ناهيك بالثغور التى تحاذى بلاد الهند في الشرق مما يطول شرحه

الغزوات

فالثغور المذكورة هي حدود المملكة الاسلامية وهى التى عزلها هارون الرشيد سنة ١٧٠ هـ عن الجزيرة وقنسرين وسماها العواصم . وكان المسلمون يخرجون منها كل سنة للغزو في البحر والبر جهاداً في سبيل الاسلام . وكان الجهاد فرضاً على المسلمين يحرضهم الخلفاء عليه كما رأيت في قول ابي بكر يوم تولى الخلافة « لايدع أحد منكم الجهاد فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل » أما غزو البحر فقد كانت مراكبهم تجتمع في سواحل الشام ومصر حتى تلتقي في جزيرة قبرس وعددها ما بين ٨٠ ـ ١٠٠ مركب . ويسمى ما يجتمع منها هناك الاسطول وكان يتولى قيادة الاسطول صاحب مراكب الثغور الشامية . وكانت تبلغ النفقة على هذه المراكب اذا غزت مصر والشام مئة الف دينار

وكانت غزواتهم تعين باعتبار الفصول فمنها غزوة صيفية أو شتوية او ربيعية فكانت الربيعية تقع في العاشر من شهر ايار (مايو) أى بعد ان يكون المسلمون قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم فيقيمون في الغزوة ثلاثين يوماً أى الى العاشر من حزيران (يونيو) فكأنهم يجدون الكلأ حينئذ في بلاد الروم ممكناً فترتبع دوابهم ربيعاً ثانيا . ثم يقفلون فيقيمون ٢٥ يوماً أي الى ٥ تموز (يوليو) حتى تقوى الخيول

فيجتمعون لغزو الصائفة أى الصيف . ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوماً وكانوا في بعض السنين يغزون صائفتين يسمونهما الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى

اما في الشتاء فغزواتهم قليلة ولا يبعدون فيها اكثر من عشرين ليلة ويكون ذلك في آخر شباط (فبراير) فيقيم الغزاة الى اوائل اذار (مارس) ثم يرجعون ويربعون دوابهم

فترى مما تقدم ان الخلفاء لم يقتصروا على حفظ مملكتهم بل جعلوا غزو الممالك الملاصقة لها فرضاً واجباً عليهم وهو من قبيل الجهاد فى سبيل الله كما قدمنا . وكان من اكثر الخلفاء رغبة في ذلك بنو العباس . فانهم لما استتب لهم الامر ودانت لهم المملكة الاسلامية تحولوا الى الغزو فكانوا في أوائل دولتهم يرسلون بعض القواد لغزو الروم كل سنة كما يرسلون من يحج بالناس ثم صاروا يغزون بأنفسهم . فقد غزا المهدى سنة ١٦٣ هـ الروم بنفسه وسير ابنه الرشيد سنة ١٦٥ هـ لغزوهم ومعه ٩٣٠ ٩٥ رجلا فأوغلوا فى بلاد الروم حتى بلغوا خليج القسطنطينية بعد أن مروا بمسالح الروم في طريقهم فاسترضاهم صاحبها بمال مقداره ١٩٣٤٥٠ ديناراً و٠ ٨٠٠ ١٤٠ ٢١ درهم

فلما وصل الرشيد الى القسطنطينية خافه أهلها وكان على كرسى القسطنطينية الامبراطورة ايرينى فصالحته على فدية مقدارها سبعون الف دينار تدفعها له كل سنة وأن تقيم له الادلاء والاسواق في الطريق . وطول الهدنة ثلاث سنين وبلغ مقدار ما غنمه المسلمون في أثناء تلك الغزوة غير ماتقدم ٥٦٤٣ رأساً من السبي وعشرين الف رأس من الدواب ومئة الف رأس غنم وبقر . وقتلوا من الروم في تلك الغزوة وحدها ٥٤ الف نفس ما عدا الاسرى. ومن ذلك يتبين لك ما كان يزيد المسلمين رغبة في الغزو

الاساطيل

ركوب البحر

لم يركب العرب البحر قبل الاسلام الا ما كان من سفائن حمير وسبأ في أيام التبابعة لانهم كانوا أهل تجارة في البر والبحر . وأما عرب الحجاز فانهم كانوا يخافون البحر ولا يجسرون على ركوبه ـ وذلك شأن البدو الى هذا اليوم . فلما ظهر الاسلام وخفقت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر رأوا سفن الروم وشاهدوا حروبها فيها فناقت أنفسهم للغزو في البحر . وأول من ركب البحر منهم العلاء بن الحضرمى

وكان عاملا على البحرين في أيام عمر بن الخطاب فأحب ان يفتح سواحل فارس وبينه وبينها خليج فارس فعبر عليها في المراكب ولم يستأذن عمر ولم يفلح في غزوته

فشق ذلك على عمر فجعل قصاصه ان يكون تحت إمرة سعد بن ابي وقاص أمير الكوفة يومئذ وشدد عمر في منع المسلمين من ركوب البحر . وكان معاوية قد تولى جند دمشق والاردن وهو رجل المطامع البعيدة فراقه ركوب بحر الروم لغزو ما وراءه فبعث الى عمر يستأذنه فأبى . فألح عليه ورغبه في الكسب فكتب عمر الى عمرو بن العاص امير مصر يطلب اليه أن يصف له البحر فأجابه « يا أمير المؤمنين اني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير . ليس الا السماء والماء . ان ركد



أسطول عربي يحارب الروم وهم يرمونه بالنار اليونانية

أحزن القلوب وان ثار ازاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه دود على عود . ان مال غرق وان نجا برق » فلما جاءه الكتاب بعث الى معاوية يقول « والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً ابداً »

فلما كانت خلافة عثمان أطاع معاوية لشدة الحاحه ولكنه شرط عليه ان يجعل الغزو في البحر اختيارياً فمن اختار ركوبه حمله وأعانه . فركب معاوية في البحر الى قبرس سنة ٢٨ هـ فصالحه أهلها على ٧٢٠ ديناراً يدفعونها له كل سنة . وهى أول غزوة غزاها المسلمون في البحر . وراقهم النصر فازدادوا رغبة في غزوه فجعلوا ذلك في اوقات معينة من الصيف والشتاء كما تقدم

الاساطيل فى الاسلام

ولم يكن للعرب معرفة في الملاحة فاستخدموا أولا من كان في حوزتهم من الروم وفيهم أهل الصناعة والنواتية فأنشأوا لهم السفن والشواني وشحنوها بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لغزو ما وراء البحر . وسموا مجموع السفن اسطولا وهو لفظ يوناني (Stolos) عربوه . وجعلوا مقر أساطيلهم بحر الروم خاصة واشترك في ملاحة البحر منهم أهل الشام وافريقية والاندلس وانشأوا دور الصناعة (الترسانة) في تلك البلاد لبناء السفن واعداد معداتها . وأول دار للصناعة في الاسلام بنيت في تونس على عهد عبد الملك بن مروان فأمر عامله على افريقية حسان بن النعمان بذلك ففعل وأنشأ السفن وجهزها بالعدة والسلاح وبعث فيها المقاتلة لغزو صقلية (سيسيليا) فلم يتيسر لهم فتحها الا في أيام الاغالبة . ففتحها أسد بن الفرات على عهد زيادة الله ابن ابراهيم بن الاغلب . وفتح أيضاً قوصة . فازداد المسلمون رغبة في غزو البحر فبالغوا في انشاء الاساطيل فى افريقية والاندلس فبلغ عدد سفن أسطول الاندلس فى أيام عبد الرحمن الناصر في أواسط القرن الرابع للهجرة مئتى سفينة وكان أسطول افريقية نحو ذلك . وأشهر مرافيء الاندلس بجاية والمرية . وكانت دور الصناعة قد تعددت هناك . وكل دار تبنى اسطولا عليه قائد ورئيس فالقائد يدبر أمر سلاحه وحربه ومقاتله والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو بالمجاذيف . فاذا اجتمعت الاساطيل لغز أو غرض آخر عسكرت بمرفئها المعلوم وجعلوا النظر فيها كلها لامير واحد من أعلى طبقات المملكة

وأما مصر فقد انشئت فيها دور الصناعة في أواخر القرن الاول للهجرة كما سيأتى . وأول من أنشأ الاسطول فيها عنبسة بن اسحق أميرها من قبل الخليفة المتوكل على الله العباسى وسبب ذلك ان الروم نزلوا دمياط سنة ٢٣٨ هـ وملكوها وقتلوا وسبوا فعظم الامر على أمير مصر فأمر بانشاء الشوانى للاسطول وجعل للبحر غزاة مثل غزاة البر وجعل أرزاقهم من ارزاقهم . فاجتهد الناس في تعليم اولادهم الرماية وجميع انواع المحاربة وانتخب له القواد العارفين وشحنه بالرجال والسلاح وأرسله لغزو الروم في جملة أساطيل افريقية والاندلس والشام فكانت الحروب بين المسلمين والروم سجالا يأسر بعضهم بعضاً فاحتاج الخلفاء الى افتداء أسراهم بالمال فوضعوا ما يسمونه الفداء

الفداء

وأول من افتدى اسرى المسلمين بالمال هرون الرشيد العباسي سنة ١٨٩ هـ وكان الفداء قبله يقع بالمبادلة النفر بالنفر . وأشهر الافدية ١٣ وكلها فى أيام بنى العباس آخرها جرى فى ايام المطيع لله سنة ٣٣٥ هـ وبلغ عدد الذين افتداهم الخلفاء في هذه المدة نحو ٥٠٠٠٠٠ نفس . وكان الفداء يقع غالباً في اللامش من سواحل بحر الروم قريباً من طرسوس ويحضر الفداء جمهور من المسلمين والروم فيقضون في الافتداء بضعة عشر يوماً الى بضع عشرات . وشهد الفداء الاول نحو ٥٠٠٠٠٠٠ نفس من المسلمين بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة حتى ملأوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء وجاءت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزي ومعهم الاسرى وكان عدد الذي فودوا فيه ٣٧٠٠ نفس . وفي ذلك يقول مروان ابن أبي حفصة يخاطب الرشيد من أبيات :

وفكت بك الاسرى التي شيدت لها ... محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها ... وقالوا سجون المشركين قبورها

الاساطيل المصرية

ولما دخلت مصر في حوزة العبيديين (الفاطميين) ملوك افريقية بذلوا عنايتهم فى انشاء الاساطيل فى الاسكندرية ودمياط ومصر وبلغت الجنود البحرية فى ايامهم خمسة آلاف لهم الرواتب المعينة . منهم عشرة قواد راتب كل واحد منهم من ١٠ الى ٢٠ ديناراً ومنهم اقل من ذلك الى دينارين وهي اقلها . ولهم اقطاعات كانوا يسمونها أبواب الغزاة . وكانوا ينتخبون احد هؤلاء القواد رئيساً للاسطول فاذا ساروا الى الغزو كان هو آمرهم وناهيهم . ومع هذا الرئيس أمير كبير من امراء الدولة . وأما النفقة على غزاة الاساطيل فكان الخليفة يتولى تفريقها بنفسه بحضور الوزير مبالغة في اكرام رجال البحر ورفع منزلتهم. وبلغت المراكب في ايام المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر ٦٠٠ قطعة ثم نقصت بعده حتى أصبحت مئة قطعة

وكانوا يحتفلون في اخراج الاسطول الى الغزو احتفالا شائقاً يحضره الخليفة فيجلس في منظرة معدة له على ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة لوداع الاسطول . فيجيء القواد بالمراكب الى هناك وهي مزينة باسلحتها وبنودها وفيها المنجنيقات فيرمى بها فتحدر المراكب وتقلع وتفعل ما تفعله لو كانت في حرب وهو ما يعبرون عنه اليوم بالمناورة . ثم يحضر الرئيس والمقدم بين يدي الخليفة فيودعهما ويدعولهما ويعطي

المقدم ١٠٠ دينار والرئيس ٢٠ ديناراً . ويحتفلون مثل هذا الاحتفال عند عودتهم من الغزو . وفي ايام صلاح الدين أنشىء للاساطيل ديوان خاص سموه ديوان الاسطول وعينوا الاموال للنفقة عليه

فتوح المسلمين البحرية

وكان للاساطيل تأثير كبير في توسعة المملكة الاسلامية لانهم فتحوا بها أشهر جزر بحر الروم ومنها سردانية (سردينيا) وصقلية (سيسيليا) ومالطة وأقريطش « كريد » وقبرص وغيرها . وفتحوا كثيراً من شواطىء هذا البحر مما يلى أوربا وسارت اساطيلهم فيه جائية ذاهبة وعليها العساكر الاسلامية تجوز البحر من صقلية الى بر ايطاليا في الشمال فتوقع بملوك الافرنج وتتخن في ممالكهم . وخصوصاً فى ايام بني الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوى الفاطميين . فانحاز الافرنج باساطيلهم الى



محاصرة الصليبيين دمياط بحراً في أوائل القرن السابع للهجرة وقد أقام الدمياطيون برجاً في النيل وآخر على الشاطىء ووصلوا بينهما بسلسلة ضخمة من الحديد ليمنعوا سفن الافرنج من عبور النيل واشتدت الرياح وأطلق الافرنج الاشرعة لسفنهم والمسلمون يرمونهم بالنبال من أعلى البرج

الجانب الشمالى الشرقي من هذا البحر وملك المسلمون سائره بمراكبهم وأساطيلهم وصاروا سلاطين البحر كما كانوا سلاطين البر . وضعف امر الافرنج الى ان ادرك الدولة العبيدية بمصر والاموية بالاندلس الفشل وطرقها الاعتلال بحكم ناموس الاجتماع وأفاق الافرنج وعادوا الى استرجاع بلادهم . فاسترجعوها وسطوا على بلاد المسلمين نفسها وكان ما كان من الحروب الصليبية على ماهو مشهور

وكان المسلمون قد أهملوا امر الاساطيل وقل تجنيدهم لها وبطل ديوانها . وبعد ان كان جند البحر عندهم يلقبون بالمجاهدين في سبيل الله والغزاة في اعداء الله ويتبرك

بدعائهم الناس أصبح لفظ « اسطولى » بمصر لقب اهانة وصارت خدمة الاساطيل عاراً عندهم . وظل ذلك شأنهم حتى تولى الملك الظاهر بيبرس البندقداري سلطان المماليك الشهير فأعاد شأن الاساطيل . لكنها لم تعد الى ما كانت عليه في عز الاسلام . على انهم بذلوا جهداً كثيراً في دفع الصليبيين عن مصر وكان الصليبيون يأتون غالباً من جهة النيل . وكان المماليك يبنون على ضفتي النيل أبراجاً من الخشب يوصلون بينها بسلاسل الحديد لتمنع سفن الافرنج من المرور فى النيل



بربروسا أو خير الدين باشا

انحط شأن الاساطيل في مصر والشام وبقي فى الاندلس وافريقيا وبقيت دولة المغرب مختصة بها . وظل ذلك شأنهم الى اواخر دولتهم . وكان عدد اساطيلهم في العدوتين (أوربا وأفريقيا) على ماروواه ابن خلدون مئة اسطول . وفى أثناء ذلك نبغ أحمد الصقلي قائد أساطيل المغرب في القرن السادس للهجرة . وانتهت اساطيل المسلمين فى ايامه الى ما لم تبلغه قبله ولا بعده . ثم انحطت بانحطاط الدولة حتى انقضت بانقضاء الاسلام في الاندلس . ثم عاد الاسطول الاسلامى الى الظهور في عهد الدولة العثمانية واشتهر من قواده بربروسا خير الدين باشا في القرن التاسع للهجرة

دار الصناعة

يراد بدار الصناعة عندهم ما نعبر عنه اليوم بالترسانة أو الترسخانة وهما منقولتان

عن تلك . لان الافرنج لما فتحوا بلاد العرب كان في جملة ما اقتبسوه عنهم صناعة المراكب كما اقتبسها العرب من أسلافهم وسمي الاسبان دار الصناعة Darcinah وأخذتها عنهم سائر لغات أوربا فتقلبت بالنحت حتى صارت ارسنال Arsenal وأخذها العرب عن الاسبان Tarsanah بطريق التركية فظنوها تركية فعربوها ترس خانة أو ترسانة وهى اولى ان تسمى دار الصناعة . وقد يقال ذلك في تخلف لفظ « اميرال » Amiral الافرنجية عن « امير البحر » العربية

وكانت دور الصناعة فى بلاد الاسلام كثيرة في الاندلس وافريقيا وفي الشام ومصر واول دار بنيت بمصر لهذه الغاية أنشئت في جزيرة الروضة تجاه الفسطاط في القرن الاول للهجرة . ثم عنى احمد بن طولون في توسيعها وتحسينها . ثم نقلت الى الفسطاط في أيام الاخشيد في أول القرن الرابع للهجرة حتى لا يكون بينها وبين الفسطاط بحر . ثم أنشأ الفاطميون داراً للصناعه في المقس بقرب مدينتهم (القاهرة) وكانت تصنع في هذه الدور المراكب على أنواعها ومنها النيلية والحربية . فالنيلية كانوا ينشئونها لتمر في النيل من أعلى الصعيد الى مصاب النيل تحمل الغلال وغيرها . والحربية هى مراكب الحرب لحمل المقاتلة للجهاد وهى التى يقال لمجموعها الاسطول

اشكال السفن ومعداتها

وكانت المراكب الحربية انواعاً تتفاوت شكلا وجرماً وقوة . منها « الشونة » وهى مراكب كبيرة كانوا يقيمون فيها ابراجاً وقلاعاً للدفاع . و « الحراقة » كانوا يحملون فيها منجنيقات يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء ويسمون المنجنيق عرادة و « الطرادة » سفينة صغيرة سريعة الجري . و« العشاريات » مراكب يسار بها في النيل . وهناك سفن اخرى لاغراض اخرى مثل الشلندات والمسطحات وغيرها . وكانوا يبنون سفنهم على أمثلة سفن اليونان والرومان لانهم أخذوا هذه الصناعة عنهم وعدلوها

وكان من معدات السفن الحربية عندهم الزرد والخود والدرق والتراس والرماح والقصي والكلاليب والباسليقات وهى سلاسل في رءوسها رمانة حديد . والعرادات وكانوا يجعلون في أعلى السوارى صناديق مفتوحة من أعلاها يسمونها النوابيت يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق . فيرمون العدو بالاحجار وهم مستورون بالصناديق . وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط للاشعال . أو جرار النورة وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ يرمون بها في مراكب الاعداء فتعمى الرجال بغبارها وقد



سفينة عربية
نقلا عن نسخة مخطوطة قديمة من مقامات الحريري في مكتبة المستشرق شيفر

تلتهب عليهم اذا تبددت . أو يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب أو قدور الصابون اللين فانه يزلق أقدامهم . وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود او اللبود المبلوله بالخل او الماء والشب والنطرون لدفع أذى النفط . وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون او الخطمى المعجون بالخل فان هذه مواد تقاوم فعل النفط

وكان من احتياطاتهم في اثناء الحرب انهم اذا جن الليل لا يشعلون في مراكبهم ناراً ولا يتركون فيها ديكاً . واذا ارادوا المبالغة في الاختفاء سدلوا على المراكب قلوعاً زرقاً كيلا تظهر عن بعد

وكانوا يجعلون في مقادم المراكب اداة كالفأس يسمونها «اللجام» وهي حديدة طويلة محددة الرأس جداً وأسفلها جوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها « الاسطام » فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز من مقدم المركب فيحتالون في طعن المراكب به . فاذا أصاب جانب المركب بقوة خرقه حتى يخشى غرقه بما ينصب فيه من الماء فيطلب اصحابه الامان

واما الكلاليب ففائدتها انهم اذا دنوا من مركب العدو ألقوا الكلاليب عليه

فيوقفونه ثم يشدونه اليهم ويرمون عليه الالواح كالجسر ويدخلون اليه ويقاتلون . واذا كان العدو قوياً أبطل فعل الكلاليب بفأس ثقيلة من فولاذ يضربون به تلك الكلاليب فتتقطع

بيت المال

البحث في بيت المال يشمل النظر في كل ما يتعلق باموال الدولة من خراج وصدقة واعشار واخماس وجزية وغير ذلك ويسمى الديوان السامى . وهو اصل الدواوين ومرجعها عندهم ووظيفته ان يثبت في جرائده جميع اصول الاموال السلطانية على اصنافها من عين وغلال وفيء وغنائم واعشار واخماس . ويثبت ماتحصل من ذلك ويتخذ بيوتاً لاصناف الاموال ويجعل عليها دواوين وحرساً . فالاموال والقماش لها ديوان الخزانة ويجب ان يكون مباشروه قضاة المسلمين بأنفسهم بلا نواب عنهم ومعهم خزندارية امناء اكفاء من أقوى الناس ديانة . والغلال لهاديوان الاهراء يجب ان يكون مباشروه من اكبر العدول الدينيين الاعفاء . والاسلحة والذخائر لها ديوان خزائن السلاح يجب ان يكون مباشر هذه الجهة محتسب البلد لانه يعرف امور الاستعمالات واجر الصناع واسعار الآلات . وكل ما استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال . وكل حق وجب صرفه في مصالح المسلمين ثلاثة أقسام : الصدقة والغنيمة والفيء . ولكل منها احكام سيأتي بيانها . والاموال المستحقة على بيت المال ارزاق الجند واثمان الكراع والسلاح وغير ذلك مما ينفق في سبيل المصلحة العامة

الصدقة

الصدقة والزكاة لفظان مترادفان . وهى تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم وقد ذكرنا أصلها في ماتقدم . وللصدقة ديوان في مركز الخلافة له فروع في سائر الولايات والبلدان . ويستقل ولى الصدقة في كل بلد بالاستيلاء على اموال الصدقة من اغنياء ذلك البلد وتفريقها على فقرائه . ومصادر الزكاة اربعة : زكاة الماشية وزكاة الذهب والفضة وزكاة الاثمار وزكاة الزروع

١ـ زكاة الماشية

فزكاة الماشية تؤخذ على الابل والبقر والغنم ولها احكام وضعها النبي نفسه . يستدل على ذلك من كتاب كتبه ابوبكر الى أنس بن مالك لما وجهه الى البحرين

وهاك نصه «بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين . والتي أمر الله بها رسوله فمن سئلها من المسلمين على وجهها فليعطها ومن سئل فوقها فلا يعط : في اربع وعشرين من الابل فما دونها من الغنم من كل خمس شاة . اذا بلغت خمساً وعشرين الى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض انثى . فاذا بلغت ستاً وثلاثين الى خمس واربعين ففيها بنت لبون أنثى . فاذا بلغت ستاً واربعين الى ستين ففيها حقة طروقة الجمل. فاذا بلغت واحدة وستين الى خمسة وسبعين ففيها جذعة . فاذا بلغت ستاً وسبعين الى تسعين ففيها بنت لبون فاذا بلغت احدى وتسعين الى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل . فاذا زادت على عشرين ومائة ففي كل اربعين بنت لبون . وفي كل خمسين حقة . ومن لم يكن معه الا اربع من الابل فليس فيها صدقة الا ان يشاء ربها . فاذا بلغت خمساً من الابل ففيها شاة . وفي صدقة الغنم في سائمتها اذا كانت اربعين الى عشرين ومائة شاة . فاذا زادت على مائة الى مائتين شاتان . فاذا زادت على مائتين الى ثلثمائة ففيها ثلاث . فاذا زادت على ثلثمائة ففي كل مائة شاة . فاذا كانت سائمة الرجل ناقصة من اربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة الا ان يشاء ربها » وللفقهاء تفاصيل في ذلك لامحل لها هنا . واما الخيل والبغال والحمير فلا زكاة عليها

٢ـ زكاة الذهب والفضة

وزكاة الفضة ليس فيما دون ٢٠٠ درهم صدقة . وأما المائتان فعليها خمسة دراهم كل سنة وذلك على تعديل ٢ ½ في المئة أي ١ من ٤٠ وعلى هذا التعديل تؤخذ زكاة الذهب عن كل عشرين مثقالا منه نصف مثقال وليس على مادون العشرين مثقالا زكاة . واذا زادت على العشرين تضاعفت زكاتها على هذا القياس . ويعد من قبيل الفضة والذهب اموال التجارة ونحوها

٣ ـ زكاة الاثمار

وأما الأثمار فزكاتها تختلف باختلاف نوع سقايتها . فاذا كانت مما يسقى سيحاً أي ان الماء يأتيه من المطر او الانهر بلا تعب اوحمل فزكاتها العشر . واذا كانت مما يسقى بالتعب والرجال فنصف العشر . وفي كل حال لاتستحق الزكاة على الاثمار الا اذا بلغت خمسة اوسق فما فوق . والوسق ستون صاعاً والصاع خمسة ارطال وثلث بالعراقي . ويدخل فى حكم الاثمار النخل والكرم ونحوها

٤ ـ زكاة الزروع

وأما الزروع ويريدون بها الحبوب بانواعها كالحنطة والارز واللوبيا والحمص

وغيرها فلا تؤخذ عليها زكاة الا بعد ان تبلغ خمسة أوسق وحكمها فى الزكاة مثل حكم الاثمار

الجهات التى تصرف فيها الزكاة

وأما الجهات التي تصرف فيها أموال الزكاة فقد جاء ذكرها صريحاً فى القرآن وهو « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » . وبناء عليه كانوا يقسمون اموال الزكاة الى ثمانية أسهم يدفعون سهماً الى الفقراء وهم الذين لاشيء لهم . والثانى للمساكين وهم الذين لهم مالا يكفيهم وهم أرفق حالا من الفقراء . وكانوا يجعلون نصيب كل واحد من هؤلاء بالنظر الى حاله او ما يكفيه على مايتراءى لولى الصدقات بشرط ان لايزيد مايأخذه الواحد على ٢٠٠ درهم . لانه اذا اخذ أكثر من ذلك وجبت عليه الزكاة

ويظهر مما رواه القاضى ابويوسف فى كتاب الخراج عن عمر بن الخطاب فى هذا الموضوع ان لفظ « المساكين » يشمل فقراء أهل الذمة (النصاري واليهود) وأما « الفقراء » فيطلق على المسلمين فقط . والسهم الثالث يعطى للعاملين عليها وهم القائمون بجبايتها وتفريقها وفيهم الامين والمباشر والمتبوع والتابع فيأخذون أجورهم . فاذا زاد سهمهم على ما يستحق لهم رد الباقى على السهام الباقية . والسهم الرابع يفرق للمؤلفة قلوبهم وهم الذين كان النبي وخلفاؤه يتألفونهم لكف أذاهم عن المسلمين أو لرغبتهم في الاسلام أو لترغيب قومهم وعشائرهم فيه كما تقدم . واذا كان أحد المؤلفة قلوبهم غير مسلم لايدفع له من الزكاة بل يدفع له من الغنائم أو الفيء . والسهم الخامس ينفق في شراء العبيد وعتقهم . والسادس للغارمين وهم المدينون فيعطى لهم مايقضون به ديونهم . والسهم السابع في سبيل الله يعطى الغزاة وأهل الجهاد نفقة مايحتاجون اليه في حروبهم . والثامن لابناء السبيل وهم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم

ويمتاز عمال الصدقات عن سائر عمال المال الآخرين ان عامل الصدقة يجوز له ان يقسم ماجباه بغير اذن الا اذا نهي عن ذلك عمداً . بخلاف أموال الفيء او الغنيمة فان عمالها ليس لهم ان يتصرفوا بالمال الا بأمر الخليفة أو من يقوم مقامه من الولاة أو الوزراء

الغنيمة

الغنيمة مايكسبه المسلمون بالقتال وتشتمل على اربعة اقسام : أسرى وسبي وأرضين واموال . فالاسرى هم الرجال المقاتلون الذين يقعون في الاسر . ولهم في

الشريعة الاسلامية شروط واحكام اختلف الائمة في تحديدها مما لامحل له هنا . وفي جملتها قبول الفدية وهي مال يفتدى به الاسير . فالمال المأخوذ على هذه الصورة يضاف الى باقي الغنيمة . واما السبي فهم النساء والاطفال الذين يقعون في ايدى المسلمين فلا يجوز قتلهم وانما هم يفرقون في جملة الغنائم ويجوز قبول الفدية عنهم

والارض التى تؤخذ في الحرب اما ان تكون قد ملكت عنوة وأخرج أهلها منها قهراً أو ان يخرجوا منها خوفاً بلاحرب . اوان تدخل في حكم المسلمين صلحاً على شروط فهي من قبيل الفيء . وباختلاف هذه الاحوال وما يشترك بينها اختلفت أنواع الضرائب عليها كالخراج والعشور ونحوهما

الاموال

أما الاموال المنقولة فهى مايمكن نقله كالماشية والمال وهي تفرق في المقاتلة . وكانت تفرق في أول الاسلام بلا قاعدة فكان النبي يقسمها على مايراه . واول غنائمهم غنائم بدر في السنة الثانية للهجرة فتنازع المهاجرون والانصار في اقتسامها ففرقها النبي فيهم على السواء وهو كواحد منهم . ثم جاء الامر بالتخميس في الآية « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » وأول غنيمة خمست على هذه الصورة غنيمة غزوة بني قينقاع بتلك السنة فقسمت أموالها الى خمسة اقسام تفرقت اربعة منها في المقاتلة . والخمس الخامس وهو خمس النبي قسم الى خمسة اسهم . السهم الاول ينفقه على نفسه وأزواجه وفي مصالح المسلمين والثاني يفرق على ذوى القربى وهم بنو هاشم رهط النبي وبنو عبد المطلب بن عبد مناف خاصة ولاحق لاحد سواهم من قريش . والثالث لليتامى من ذوى الحاجات ويستوى فيه حكم الغلام والجارية . والرابع يفرق في المسلمين الذين لايجدون مايكفيهم . والسهم الخامس لابناء السبيل وهم المسافرون الذين لايجدون ماينفقون

ويعد من قبيل الاموال أيضاً الاسلاب وهي ثياب القتلى وأسلحتهم فهذه كانوا يفرقونها في القاتلين فيأخذ كل رجل أسلاب الذي قتله

الاراضى

وأما الاراضى التى كانت تقع في أيديهم عنوة اوصلحاً فقد اراد بعضهم في صدر الاسلام ان يجعلها غنيمة تقسم بين الفاتحين مثل قسمة اموال الغنيمة . فابى عمر بن الخطاب عليهم ذلك كما يتبين من كتاب كتبه الى سعد بن أبي وقاص بعد فتح العراق

ونصه « اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه ان الناس سألوك ان تقسم الارض بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم . فاذا أتاك كتابي هذا فانظر ما اجلب الناس عليك به من العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر . واترك الارضين والانهار بعالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء »

فاعترض عليه بعضهم بان الارض حق لهم لانهم فتحوها باسيافهم . فجادلهم وأقنعهم بأن يضع الخراج عليها والجزية على اهلها ويكون كلاهما فيئاً للمسلمين على ممر الاجيال . وبناء عليه وضع عمر الجزية والخراج على ارض العراق وغيرها من البلاد المفتوحة ودون ذلك في السجلات على مثال ما كان الفرس والروم يدونون وهو ما يعبرون عنه بتدوين الدواوين كما تقدم

الفيء

هو سائر مابقي من أموال بيت المال . وفي الشرع « الفيء كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال ولا بايجاف خيل ولا ركاب » ويدخل فيه الجزية والخراج والاعشار وغيرها . وكان للنبي خمس الفيء يقسم كما يقسم خمسه من الغنائم فاصبحت حصته بعد موته من الفيء أيضاً من حق بيت المال . وكانت الاربعة الاخماس الباقية من الفيء تقسم في صدر الاسلام على الجيش وهم المهاجرون والانصار يفرق فيهم على السواء حتى وضع عمر الديوان وقدر أرزاق الجند على ما ذكرناه فاصبح الفيء يوضع في بيت المال وينفق منه على الجند وغيرهم حقوقهم المعينة

وقد رأيت فيما تقدم ان أهل الصدقات هم غير أهل الفيء والغنيمة . فلا تصرف الصدقات في أهل الفيء ولا يصرف الفيء في أهل الصدقات . فان الفيء والغنيمة لاهل الحرب والمجاهدين في سبيل الاسلام . وأهل الصدقات ليسوا من المقاتلة ولا هجرة لهم . وكان اسم الهجرة يطلق في الصدر الاول على من هاجر من وطنه الى المدينة لطلب الاسلام . وكانت كل قبيلة أسلمت وهاجرت بأسرها تدعى « البررة » وكل قبيلة هاجر بعضها تدعى « الخيرة » . فكان المهاجرون برزة وخيرة . ثم سقط حكم الهجرة بعد الفتح وصار المسلمون مهاجرين وأعراباً . لان أهل الصدقة كانوا يسمون على عهد النبي أعراباً ويسمى أهل الفيء المهاجرين ومن ذلك قول الشاعر :

قد لفهـا الليـل بعصلبي أروع خراج من الذربى
مهاجر ليس باعرابي

وكان الخلفاء في صدر الاسلام يدققون في التمييز بينهما. فاذا أراد الخليفة أن يعطي طالباً لا يعطيه من مال الفيء إلا اذا كان العطاء عائداً الى مصلحة المسلمين العامة والا فانه يعطيه من مال الصدقة . ويروون عن عمر بن الخطاب غير حكاية تدل على شدة تمسكه بهذه القاعدة منها ان اعرابياً أتاه فقال :

يا عمر الخير جزيت الجنـة اكس بنيـاتي وامّهنّه
وكن لنا من الزمان جنة أقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر « ان لم أفعل يكون ماذا ؟ » قال :

اذن أبا حفص لأذهبنه

قال « واذا ذهبت يكون ماذا ؟ » فقال :

يكون عن حالى لتسألنه يوم يكون لا عطايا هنه
وموقف المسئول بينهنـه إما الى نار وإما جنه

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه وقال « يا علام اعطه قميصي هـذا لذلك اليوم لا لشعره . أنا والله لا أملك غيره » فجعل ما وصل به الاعرابي من ماله لا من مال المسلمين لان صلته لم تعد تقع على غيره فخرجت من المصالح العامة

وكان مما نقمه الناس على عثمان انه جعل الصلات من مال الفيء ولم ير الفرق بين الامرين . ولما مضى زمن الهجرة وصار الاسلام دولة جوزوا صرف كل واحد من المالين في كل واحد من الفريقين على حسب الاقتضاء . وازدادت موارد الفيء باتساع المملكة الاسلامية وتعددت أبوابها وصاروا يعبرون عن الفيء بجباية الاعمال وهو ما يجبى من أصناف الاموال كالجزية والخراج والصدقات وأعشار السفن وأخماس المعادن والمراعي وغلة دار الضرب والمراصد والضياع والمستغلات الخ . وقد تقدم الكلام في الصدقات وسنذكر أهم ما بقي من مصادر الفيء

الجزية

الجزية والخراج متشابهان بأنهما يؤخذان من غير المسلمين وهما من جملة أموال الفيء ويجبيان بأوقات معينة كل سنة . ولكنهما يختلفان بأن الجزية موضوعة على الرءوس وتسقط بالاسلام وأما الخراج فلا يسقط

تاريخ الجزية

والجزية ليست من محدثات الاسلام بل هي قديمة من أول عهد التمدن القديم . وقد وضعها يونان أثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين وفينيقية يومئذ من أعمال الفرس . فهان على سكان تلك السواحل دفع المال في مقابل حماية الرءوس . والرومان وضعوا الجزية على الامم التي أخضعوها وكانت اكثر كثيراً مما وضعه المسلمون بعدئذ . فان الرومان لما فتحوا غاليا (فرنسا) وضعوا على كل واحد من أهلها جزية يختلف مقدارها مابين ٩ جنيهات و ١٥ جنيهاً في السنة أو نحو سبعة أضعاف جزية المسلمين . ولم تكن الجزية كبيرة بهذا المقدار فى كل البلاد التى افتتحها الرومان . ولكنهم يعللون كبرها في غاليا ونحوها انها كانت تؤخذ من الاشراف عنهم وعن عبيدهم وخدامهم . وكان الفرس أيضاً يجبون الجزية من رعاياهم . ويؤيد ذلك ما أورده ابن الاثير في كلامه عما فعله كسرى انوشروان في الخراج والجند قال « وألزموا الناس الجزية ما خلا العظماء وأهل البيوتات والجند والمرازبة والكتاب ومن في خدمة الملك. كل انسان على قدره اثنى عشر درهماً وثمانية دراهم وستة دراهم وأربعة دراهم » فالظاهر ان العرب أخذوها عن الفرس لفظاً ومعنى فعربوا لفظها حتى صار (جزية) وعدلوا في كيفية جمعها كما رأيت . وقد رفعوها عن المسلمين كما فعل كسرى أيضاً لان المسلمين عندهم هم الجند والعظماء وأهل البيوتات الذين استثناهم كسرى من الجزية . وأهل اللغة يعدون لفظ الجزية مشتقاً من جزاه به وعليه كافأه

مقدار الجزية

أما الجزية في الاسلام فقد كان النبي يقدرها بحسب الاحوال وعلى مقتضى التراضى الذى كان يقع بين المسلمين وأعدائهم فلما صالح اهل نجران تراضوا على جزية مقدارها ٢٠٠٠ حلة في صفر و ١٠٠٠ فى رجب ثمن كل حلة أوقية والاوقية اربعون درهما . وصالح اهل اذرح على مائة دينار كل رجب . وصالح اهل مقنا على ربع أخشابهم وغزوهم وكراعهم ودروعهم وثمارهم . وصالح غيرهم من يهود جزيرة العرب على نحو ذلك

وما زالت الجزية بلا تعيين الى آخر أيام أبى بكر . فلما تولى عمر وكثرت الفتوح عين مقدارها فكتب الى أمراء الاجناد يأمرهم ان يضربوا الجزية على كل من

جرت عليه الموسى وأن يجعلوها على أهل الفضة كل رجل أربعين درهماً وعلى اهل الذهب أربعة دنانير . وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة وثلاثة أقساط زيتاً كل شهر لكل انسان في الشام والجزيرة

ثم تعدلت فتعينت باعتبار درجات الناس ومقدرتهم فوضعوا على الظاهر الغني ٤٨ درهماً تدفع أقساطاً ٤ دراهم في كل شهر . وعلى أوسط الحال ٢٤ درهماً كل شهر درهمان . وعلى الفقير ١٢ درهماً كل شهر درهم . ولا يؤخذ شيء من النساء والصبيان ولا من اهل العاهات ولا من الرهبان الذين لا يخالطون الناس . إلا البلاد التي عقدت شروط الجزية عليها باتفاق خاص كما عقد صلح مصر مع عمرو بن العاص على ان يدفع القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء . وعليهم إضافة من ينزل عليهم من المسلمين ثلاثة ايام وغير ذلك

وكثيراً ما كانوا يقدرون الجزية باعتبار ما يبقى في ايدي الناس من دخلهم بعد نفقاتهم كما وقع لاهل الجزيرة بالعراق فقد كان الذي فتحها عين جزيتها ديناراً على كل رأس فلما تولى عبد الملك بن مروان استقل ذلك فبعث الى عامله هناك فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم . وحسب ما يكسب العامل سنته كلها وطرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته وطرح أيام الاعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك اربعة دنانير لكل واحد فألزمهم دفعها وجعل الناس طبقة واحدة

والجزية تضرب كما قلنا على غير المسلمين فمن أسلم سقطت عنه . إلا في أيام عبد الملك بن مروان فان الحجاج وضعها على من أسلم من أهل الذمة . وخاطب عبد الملك أخاه عبد العزيز عامله على مصر يومئذ ان يضعها على من أسلم . فشاور عبد العزيز بن حجيرة أحد خاصته فأعظم الامر وقال « أعيذك بالله ان تكون أول من سن ذلك بمصر فوالله ان اهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضعها على من أسلم منهم » فتركهم فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقي الشهير ابطل ذلك من العراق ولم توضع الجزية على مسلم بعد ذلك

وتقبل الجزية من غير المسلمين أياً كانوا إلا اذا كانوا من العرب عبدة الاوثان او من المرتدين . فهؤلاء لا يقبل منهم إلا الاسلام او السيف . اما النصارى واليهود والمجوس وعبدة الاوثان من العجم فيقبل منهم الاسلام او الجزية او السيف

والقصد من ذلك توحيد أمة العرب . فأباد النبي الوثنية من جزيرة العرب بحياته . ولما تولى عمر أخرج من كان باقياً فيها من النصارى واليهود . وقد قلنا ان الجزية لا توضع إلا على من بلغ الحلم من الاصحاء ومعنى ذلك انها بدل من القتل أو القتال أى ان دافعها لا يقتل ولا يدعى الى القتال . ويشبهها من هذا القبيل ما كان يدفعه نصارى المملكة العثمانية من الضريبة المعروفة بالعسكرية قبل اعلان الدستور . وكانت تدفع في مقابل إعفاء النصارى من الجندية

الخراج

تاريخه

الخراج مايوضع من الضرائب على الارض أو محصولاتها وهو أقدم أنواع الضرائب . والاصل في وضعه ان الناس كانوا يعتبرون الارض ملكا للسلطان أو الملك وهذا الاعتقاد قديم جداً . وفي التوراة أقوال صريحة في كيفية دخول الارض في ملك الفراعنة وردت في حكاية المجاعة الشهيرة في الفصل السابع والاربعين من سفر التكوين لما جاع المصريون في اثناء القحط فباعوا يوسف كل ما اقتنوه من فضة وذهب وماشية ولم يبق لهم الا الارض فباعوه اياها بالخبز

وهكذا كان شأن الارض في كل الممالك القديمة . فالارض للملك والاهالى انما يتمتعون بريعها . وللحكومة حصة من ذلك الريع وهو الخراج . ومن عادات التتر أن الانسان يستأثر بملك الماشية وأما الارض فانكروا حق تملكها على الافراد . وكان الجرمان القدماء لا يعترفون بملك الارض الا لحكامهم أو رؤسائهم . فكان رئيس القبيلة يوزع أراضيها على أفرادها . وفي السنة التالية توزع عليهم بالتناوب بحيث ان القطعة الواحدة لا يستغلها الرجل الواحد سنتين متواليتين . ومثل هذه العادة لاتزال الى اليوم شائعة في بعض شعوب الصقالبة

وعلى هذا المبدأ كان الرومان يضعون الضرائب على أراضى مملكتهم . وفي جملتها مصر والشام وغيرهما مما فتحه المسلمون من بلادهم . وكان لهم في كل ولاية ديوان خاص بالخراج تدون فيه أعماله ودخله وخرجه وله كتاب وجباة وعمال من أهل البلاد أو من الحكام . وكان نحو ذلك حال الفرس فى العراق وفارس لان الفرس اقتبسوا كثيراً من قوانين اليونان والرومان

ديوان الخراج

فلما ظهر المسلمون وفتحوا الشام ومصر والعراق وغيرها أقروا الدواوين على ماكانت عليه من قبل ولم يغيروا فيها شيئاً . وظل كتاب الدواوين من أهل البلاد أنفسهم من النصارى والمجوس كما كانوا في عهد الدول السابقة . فكان عمال ديوان الخراج في مصر الاقباط ويكتبون ديوانهم بالقبطية . وعمال ديوان الشام الروم وكانوا يكتبونه بالرومية وديوان العراق يكتبه الفرس بالفارسية . والعرب يراقبون أعمال الدواوين ويستولون على جبايتها كانهم لم يريدوا بفتح البلاد امتلاكها لرغبتهم يومئذ في الدين عن الدنيا . فلما صار الامر الى بني أمية وانتقل المسلمون من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة . وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتابة والحساب غيروا الدواوين الى لسانهم وسلموا أمورها الى رجال من المسلمين . وأول من فعل ذلك منهم عبد الملك بن مروان (نحو سنة ٨١ هـ) فصارت الدواوين عربية من ذلك الحين . وربما كان عبد الملك البادىء بذلك التغيير ثم أتمه من جاء بعده لان ديوان مصر ثم نقله الى العربية على عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ

وأما الحجاز فقد كان ديوانه في المدينة على ماوضعه عمر بن الخطاب كما ذكرناه في محله . وهو أشبه أن يكون ديوان الجند أوديوان الاعمال والجايات لانه دون فيه أسماء الصحابة وعين اعطياتهم وطبقاتهم وضبط مايرد على المدينة من بقايا الخراج والجزية بعد دفع نفقات الجند في مصر والعراق

وكان الخلفاء هم الذين يتولون النظر في أمر الخراج ويراقبون سير الجباية فلما أفضى الامر الى الدولة العباسية وضعوا ديواناً مركزياً للخراج يشمل ما تحته من دواوين الاعمال ـ وضعه السفاح وعهد أمره الى خالد بن برمك جد البرامكة وكان ذلك أول خطوة لتداخل البرامكة في شؤون الدولة وتصرفهم بأموالها . وكان في جملة تصرفهم فيها انهم كانوا يضمنون مبلغ الخراج لاولادهم وأهلهم كما ضمن يحيى بن برمك في أيام المهدي خراج فارس وانكسر عليه المال . وأصبح ديوان الخراج في أيدي الوزراء مثل غيره من الدواوين حتى اذا ضعفت الدولة العباسية وصارت أمورها الى الامراء أبطلت الدواوين في أيام الراضي بالله

تقدير الخراج

قلنا في ما تقدم ان العرب أقروا الخراج دواوينه وسائر أحواله على ماكان عليه في أيام الدول السابقة (الروم والفرس) ويؤخذ مما ذكره المقريزي ان جباية خراجهم

كانت بالتعديل وهو ما يعبرون عنه بالمقاسمة — اذا عمرت القرى وكثر أهلها زيد خراجهم وإن قل أهلها وخربت نقصوه

وكانت جباية الشام على نحو ذلك ايضاً . وأما الفرس فكانوا يأخذون خراج أرضهم بالمقاسمة حتي مسحه قباذبن فيروز قبل الاسلام وجعله بالمساحة فضرب على الجريب الواحد درهماً وقفيزاً (الجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع) مهما يكن حاله من الخصب او الجدب . فلما فتح المسلمون البلاد عدلوا في الخراج على ما اقتضته الاحوال في سائر البلاد . ولهم قوانين عامة في الاراضين فالارض في الاسلام أربعة أقسام : ١ أرض استأنف المسلمون احياءها فهى أرض عشر للامام عشرها وتعد من قبيل احياء الموات ٢ أرض أسلم اهلها عليها فهم احق بها وهى ايضاً ارض عشر ٣ أرض ملكها المسلمون عنوة فهي غنيمة لهم وتعد ايضاً من ارض العشر ٤ أرض صولح أهلها عليها وهي الارض المختصة بالخراج . وخراجها لايبطل ولو أسلم أهلها . وقدر الخراج على هذه الارض يعتبر بما تحتمله . فلما فتحت العراق وضع عمر على سواده مثل ما كان الفرس قد وضعوه عليه وهو عن كل جريب من الارض قفيز ودرهم والقفيز عشر الجريب أى ٣٦٠ ذراعاً مربعاً . وضرب عمر على ناحية أخرى بطريقة اخرى فجعل مقدار الخراج تابعاً لنوع المحصول . فأمر عثمان بن حنيف بالمساحة فمسح ووضع على كل جريب من الكرم والشجر الملتف عشرة دراهم ومن النخل ثمانية دراهم ومن قصب السكر ستة دراهم ومن الرطبة خمسة دراهم ومن القمح أربعة دراهم ومن الشعير درهمين . فقبل عمر بذلك . وظلت أرض العراق بالمساحة او التوظيف أو الوظيفة الى أيام المنصور العباسي فعدل الى المقاسمة . لان السعر نقص فلم تكن الغلات تفي بخراجها وخرب السواد فجعله مقاسمة اذا زادت الغلة زاد الخراج . وتقدير خراج المقاسمة مفوض الى الخليفة لكنه لا يزيد على نصف الغلة ولا يقل عن خمسها

ملكية الارض

أما ملكية الارض فظلت كما كانت عليه في أول الاسلام أى ان الأرض ملك للامام . وان الناس يستغلونها وللحكومة حق من غلتهم . ماعدا بعض الاراضي الممتازة مما يسمونه الاواسى أو الرزقة اونحوهما مما لا محل لتفصيله هنا . حتى دخل القرن التاسع عشر وجرت الاصلاحات السياسية في المملكة العثمانية وفي جملتها مصر . فانها لما دخلت في حوزة محمد علي باشا الكبير في اوائل القرن الماضى رأى ببعد نظره ان الاحوال لاتستقيم والفلاح لايعمل في ارضه الا اذا كانت ملكا له . وكانت لما تولاها

محمد على قد أصبحت التزامات يلتزمها بعض وجهاء الناس وأهل الغنى والنفوذ ويستخدمون الفلاحين فيها ويستغلونها فيدفعون مال الحكومة ويستأثرون بما بقي . فقسم محمد على مصر الى مديريات والمديريات الى مراكز او أقسام وهذه الى نواح وعين فيها موظفين لادارة أمورها وجباة لجمع الضرائب وأبطل الالتزامات ووزع أراضي كل ناحية بين أهل تلك الناحية نفسها . بحيث ان كل فلاح قادر على الشغل أصابه قسم من الارض بقدر قسم الآخر

فلما تولى سعيد باشا أصدر لائحته الشهيرة المؤرخة في ٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ فتمم ملكية الارض للاهالى وجعلها ارثاً شرعياً في ذرياتهم . وأصبحت الارض المصرية ملكاً للمصريين من ذلك الحين . وجرى نحو ذلك في سائر الممالك المحروسة لان الباب العالى صادق على لائحة سعيد باشا بخط همايوني في هذا المعنى

ارتفاع الخراج

ويراد به مقدار مايجتمع من خراج البلاد في كل عام . وهو امر يعسر تعيينه لاختلافه باختلاف الزمان والمكان . ولان مؤرخي العرب كثيراً مايجمعون بين الجزية والخراج في تقدير الخراج فيقولون ارتفاع الخراج ويريدون به الخراج والجزية جميعاً . والجزية اقل من الخراج واقل ثباتاً منه لما يدخل من أهل الذمة في دين الاسلام بتوالى الازمان . وربما أدخلوا فى الخراج ايضاً العشور ونحوها . ونحن ذاكرون في مايلى أمثلة من جباية أعمال المملكة الاسلامية فى عصر بني أمية

فالسواد بلغ ارتفاع خراجه في ايام عمر بن الخطاب (سنة ٢٠ هـ) ١٢٠,٠٠٠٠٠٠ درهم . وفي أيام عبيد الله بن زياد (نحو سنة ٦٢ هـ) ١٣٥٠٠٠٠٠٠ درهم . وفى أيام الحجاج بن يوسف (سنة ٨٥ هـ) ١٨٨ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم . وجباه عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠٠ هـ) ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم . وكان ابن هبيرة بعده يجبيه ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم سوى طعام الجند وارزاق المقاتلة . ثم كان يوسف بن عمر يحمل منه الى دار الخلافة ٦٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم الى ٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ وينفق على من معه من جند الشام ١٦ ٠٠٠ ٠٠٠ وعلى البريد ٤ ٠٠٠ ٠٠٠ وعلي الطوارق ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم ويبقي عنده للنفقة على بيوت الاحداث والعواتق ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فكان مجموع جباية السواد على ايامه نحو ١٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم

اما مصر فقد جباها عمرو بن العاص ١٢ ٠٠٠٠٠٠ دينار . ولكن يظهر من عبارة المقريزى انها مبلغ الجزية وحدها على الجماجم على فريضة دينارين دينارين من كل رجل قال : وجباها بعده عبد الله بن سعد بن ابي سرح ١٤ مليوناً . وقل خراجها

في أيام بني أمية . حتى اذا كانت أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٧ هـ) فانتبه لها فبعث الى عامله على خراجها وامره ان يمسحها فخرج بنفسه فمسح العامر والغامر مما يركبه ماء النيل . فوجد مساحة ذلك ٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان (١) سوي ارتفاع الجرف ووسخ الارض فعدلها فعقدت معه ٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار وكان السعر راخياً وجباها اسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبد الملك (سنة ٩٧ هـ) ١٢٠٠٠٠٠٠ درهم . واختلف مقدار الجباية بمصر بعد ذلك . وضعف أمرها خصوصاً لما صارت الى بني العباس وبعد مركز الخلافة عن وادي النيل حتى انحط خراجها الى ٨٠٠٠٠٠ دينار فلما تولاها ابن طولون (٢٥٧ هـ) استقصى عمارها فبلغت جبايتها ٤ ٣٠٠ ٠٠٠ دينار . مع رخص الاسعار . فقد كان القمح كل عشرة ارادب بدينار : وظل خراجها نحو ذلك في سائر أيام بني العباس

وأما الشام فقد بلغ خراجها في أيام عبد الملك بن مروان ١٧٠٠ ٠٠٠ دينار منها ١٨٠٠ ٠٠ من الاردن و ٣٥٠ ٠٠٠ من فلسطين و ٤٠٠ ٠٠٠ من دمشق و ٨٠٠ ٠٠٠ من حمص وقنسرين والعواصم

تضمين الخراج

تضمين الخراج نوعان : ١ تضمينه للعمال أي الولاة الذين يتولون الامصار وهو باطل في الشرع الاسلامي لان العامل مؤتمن يستوفي ماوجب ويؤدي ما حصل . فهو كالوكيل الذي أدي الامانة لم يضمن نقصاناً ولم يملك زيادة . وكان الصحابة في صدر الاسلام يشددون في منع هذا التضمين . حكي عن ابن عباس ان عاملا أتاه يتقبل منه الابلة بمئة الف درهم فضربه مئة سوط وصلبه حياً تعزيراً وأدباً . ولما صارت الخلافة الاسلامية ملكا اغضوا عن هذا الامر وصار الخلفاء يضمنون الخراج لعمالهم أحياناً فيعطون بخراج أعمالهم مالا معيناً ثم يجبون البلاد ويستولون على مايفضل مهما كان مقداره . كما فعل يحي بن برمك وغيره وتطرقوا بعده الى تضمين القضاء والحسبة والشرطة كما سترى

٢ تضمين الخراج للملتزمين وهم اناس من أهل الغني او النفوذ كانوا يتقبلون الاراضي أي يضمنونها من متولي الخراج بمال معين يقع عليه بالمزايدة فيضمن الواحد قرية او بلداً او كورة فيزرعها ويستغلها ويدفع ما عليها من الخراج ويستولي على الباقي . وضمانه الاراضي او التزامها على هذه الصورة ليس من مخترعات الاسلام بل هو قديم من أيام اليونان وقد شاع في المملكة الرومانية وكان في جملة ما اقتبسه

(١) راجع ملاحظاتنا على هذه المساحة في باب المملكة الاسلامية واحصائها

العرب عنهم . وظل ضمان الاراضى على هذه الصورة شائعاً في المملكة الاسلامية الى عهد قريب . وقد مرت عليه ادوار تقلب فيها على أشكال وضروب . ومن هذا القبيل ضمان الاعشار في المملكة العثمانية

ضرائب أخرى

توابع الخراج

وكان من موارد الاموال في الاسلام غير خراج الاراضي وعشورها والصدقات والجزية اعشار السفن واخماس المعادن والمراعى وغلة دار الضرب والمراصد والضياع وأثمان الماء وضرائب الملاحات والآجام وغيرها مما يعد من قبيل الخراج

أما أعشار السفن فكانوا يضربونها على السفن التى تمر ببعض الثغور فيأخذون عشراً مما تحمله اما عيناً او نقداً . فقد كان عمال اليمن يأخذون هذه الضريبة من السفن التى تمر بسواحلهم قادمة من الهند تحمل الاعواد المختلفة والمسك والكافور والعنبر والصندل والصينى فيأخذون الضريبة عيناً . وقد بلغت أعشار السفن في ايام الواثق بالله مالا كثيراً

وكان الاندلسيون يضربون على السفن التى تمر ببوغاز جبل طارق في ذهابها وايابها فكان الافرنج أو غيرهم اذا مروا بسفنهم أدوا الضريبة في مدينة هي أقصى بلاد الاندلس جنوباً يقال لها طريف واسمها الآن طريفة (Tarifa) ويزعم الافرنج في كلمة (Tariff) التى تدل عندهم على الضرائب او الرسوم التى تؤخذ على البضائع في دخولها البلاد وخروجها او الكتاب المتضمن بيان لائحة الأثمان — انها تحريف طريف المشار اليها لانهم كانوا يسمون مايدفعونه من رسوم السفن « رسوم طريف » ثم أهمل اللفظ الاول وبقى اللفظ الثاني . مع ان لفظ « تعريفة » في العربية يدل على نحو معناها الافرنجى . فيجوز ان اللفظ الافرنجى منقول عن لفظ تعريفة العربى او تحريف طريف كما يقولون

واما اخماس المعادن فهي ما كانوا يضربونه على مايستخرج من باطن الارض من معدن اونحوه . وهى نوعان معادن ظاهرة ومعادن باطنة . والمعادن الظاهرة كالكحل والملح والقار والنفط . فهذه المعادن مباحة في الشرع الاسلامى كالماء الجارى من العيون لا يجوز احتكارها والناس فيها سواء يأخذها من ورد اليها . واما الباطنة فهي ما كان جوهرها مستكناً فيها لا يوصل اليه الا بالعمل كمعادن الذهب

والفضه والنحاس والحديد والرصاص . فهذه المعادن كانوا يقطعونها لاناس يستخرجون ما فيها على ان يؤدوا الخمس لبيت المال

وغلة دار الضرب هى مايخصص لبيت المال من دار الضرب باعتبار شيء في المئة كما ذكرنا في كلامنا عن دار الضرب من هذا الكتاب . وقد بلغت غلة دار الضرب في عهد بنى مروان بالاندلس ٢٠٠ ٠٠٠ دينار في السنة

ومن الضرائب التى كانت تؤخذ في الاسلام المكوس واحدها مكس وهو ضريبة تضرب على اصناف التجارة من قبيل مايعرف اليوم بالكرك او الفردة (الفرضة) او نحوها . وكان المكس او المقس شائعاً في الجاهلية فكان يؤخذ من تجار القبط والفرس في المدينة عشر متاجرهم . فلما ظهر الاسلام أقره عمر بن الخطاب (١) وكانت هذه الضريبة لاتؤخذ من التاجر الا اذا انتقل من بلاده الى بلاد أخري . فالشامى اذا طاف بلاد الشام كلها بتجارته لايؤخذ منه عشر او مكس . واما اذا انتقل الى مصر او العراق فيؤخذ منه المكس . والمكس على ما فرضه عمر ثلاث درجات : يؤخذ من أهل الذمة (النصارى واليهود) نصف العشر اي من كل عشرين درهما درهم. ومن المسلم ربع العشر اى من كل ٤٠ درهما درهم . وليس فى ما دون المائتين شيء . ويؤخذ من العربان الذين ليسوا من الرعايا العشر كاملا . ولم يرج المكس في الاسلام لان أهل الورع كانوا يكرهونه . وقس على ذلك ما بقي من أنواع الضرائب

الاقطاع

ومما يلحق بالخراج ايضاً مال القطائع . والاقطاع قديم في الدول . واصله ان الملك اذا فتح بلاداً واراد استبقاءها واستغلالها فرقها على قواده في مقابل حربهم واتعابهم كانها اجرة لهم . ويؤيد ذلك ان أصل لفظ الاقطاع في الافرنجية معناه الاجرة . والقواد يفرقون تلك الارض فى ضباطهم وهؤلاء يفرقونها في العساكر او من يقوم مقامهم . ويشترط الملك على قواده عند اعطائهم هذه الهبات ان يكونوا امناء له في الحرب والسلم فاذا خان احدهم ونكث رجعت الارض الى واهبها . واذا كان الخائن جندياً صغيراً رجعت الى ضابطه او كان ضابطاً رجعت الى قائده وهكذا حتى ترجع الى الملك . فكان من عواقب هذا المبدأ ان تبقى الارض في أيدى الملوك بشروط وأساليب وضعوها لذلك لامحل لاستيفائها هنا . وبمقتضاها يكون الملك ورعيته وجنده يداً واحدة

(١) المقريزي ١٢١ ج ٢

في الدفاع عن البلاد لاشتراك مصالحهم وتبادلها فيها . وانتشر مذهب الاقطاع في ممالك اوربا وساعد اهلها على طرد الرومانيين من بلادهم

اما في الاسلام فالاقطاع كان على كيفية أخرى . ويؤخذ مما كتبه الامام أبو يوسف ان الارض التي تقع في ايدى المسلمين وليس لها مالك يطالب بها - كالارض التى تكون لحاكم البلاد قبل فتحها او تكون لرجل قتل في الحرب او ان تكون من مغيض ماء او نحو ذلك - فهذه الاصناف من الارض كان الخلفاء الراشدون يجيزون اقطاعها لمن شاءوا على ان يؤدى عشر مالها لبيت المال او اكثر او اقل على مايتراءى للخليفة . فبلغ خراج البقاع التى دخلت تحت هذه الشروط من أرض السواد في أيام عمر ٧٠٠٠٠٠٠ درهم . وجرى على نحو ذلك من جاء بعده من الخلفاء والامراء فبلغت غلتها في ايام عثمان ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم . فلما كان عام الجماجم سنة ٨٢ هـ في فتنة عبد الرحمن بن الاشعث احرق الديوان فاستولى كل قوم على ماكان في ايديهم

وكان بنو أمية وبنو العباس يقطعون الارضين لبعض خواصهم وأهلهم فلا يأخذون عليها خراجا . فتؤخذ اعطيات الجند وسائر النفقات من مال الخراج ويحمل مافضل الى بيت المال . والقطائع تبقى في ايدى اصحابها

فلما خرجت السلطة من الخلفاء وأفضت الى السلاطين السلجوقية جعلوا الاقطاع عاماً على يد نظام الملك كما تقدم في الكلام عن اعطيات الجند . واقتدى به سائر السلاطين بعده وفي جملتهم الاكراد دولة بني ايوب بمصر . فان السلطان صلاح الدين جعل البلاد كلها اقطاعاً لامرائه وجنده وخصوصاً مصر . ثم تعدل الاقطاع بعد ذلك وتبدل فصارت بعض الارض اقطاعاً وبعضها مبيعاً وبعضها موقوفاً . ووصف المقريزى ارض مصر في ايامه (في القرن التاسع للهجرة) فقال انها تقسم الى سبعة اقسام : قسم يجري فى ديوان السلطان . وقسم اقطع للامراء والاجناد . وقسم جعل وقفاً محبساً على الجوامع والمدارس والخوانك وعلى ذراري واقفى تلك الارض . وقسم يقال له الاحباس وهى اراض فى أيدى قوم يأكلونها عن قيامهم بمصالح مسجد أو نحوه . وقسم صار ملكا يباع ويشرى ويورث ويوهب لانه مشترى من بيت المال . وقسم لايزرع للعجز عن زراعته . وقسم لايشمله ماء النيل فهو قفر

والاقطاع ضربان : اقطاع استغلال واقطاع تمليك . وهما يختلفان باختلاف نوع الارض من الضرائب والخصب وحالها من الحرب والصلح والفتح ورأي الخليفة في كل ذلك

وسنفصل الكلام في مقدار جباية الدولة في ايام العباسيين وعلاقة ذلك بثروة

المملكة في كلامنا عن ثروة المملكة الاسلامية في الجزء الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله

البريد

يراد بالبريد في الدول الاسلامية غير مايراد به الآن . فقد كان صاحب البريد أو صاحب الخبر اشبه برئيس البوليس السرى او رقيب اصحاب الاعمال . او هو عبارة عن جاسوس الخليفة او الامير او عينه الباصرة واذنه السامعة ينقل اليه أخبار عماله او مساعى اعدائه . فالبريد من هذا القبيل اشبه بقلم المخابرات فى نظارة الحربية

وكان الخلفاء لا يولون البريد الا ثقتهم من اهل التعقل والدراية لان على ماينقلونه من الاخبار تتوقف علاقات الخلفاء بعالمهم أو بمعاصريهم . وكان كسرى لايولى البريد الا اولاده

مصلحة البريد

ومصلحة البريد قديمة كانت عند الفرس والروم . واول من اتخذها من المسلمين معاوية بن ابي سفيان اقتداء بما كان قبله في الشام أو ما اشار عليه به عماله في العراق. وكان الغرض منه في اول وضعه سرعة ايصال الاخبار بين الخليفة في الشام وعماله في مصر والعراق وفارس . ثم توسعوا فيه حتى جعلوه عيناً للخليفة على عماله وسائر رجال دولته . فان طاهراً لما قطع الخطبة للمأمون على منبر خراسان عاتبه صاحب البريد فاعتذر انه سهو وقع منه وتقدم اليه ان لا يكتب الى الخليفة به . وتكرر ذلك منه ثلاث مرات وطاهر يتقدم اليه ان لا يكتب . فقال له صاحب البريد « ان كتب التجار لا تنقطع من بغداد وان اتصل هذا الخبر بأمير المؤمنين من غيرنا لم آمن أن يكون سبب زوال نعمتى » فقال اكتب اليه . فكتب

وكان البريد واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة . ينقل اوامر الخلفاء الى ولاتهم واخبار الولاة الى خلفائهم . وكان اصحاب البريد رقباء او مفتشين من قبل الدولة يرفعون التقارير عن احوال الجند او المال اوغير ذلك من امور المملكة . فاذا تكدرت العلائق بين العامل (الوالى) والخليفة واراد العامل ان يستقل أو يتمرد قطع البريد عن الخليفة كما فعل المأمون لما سمع وهو وال فى خراسان ان أخاه الامين

نقض بيعته وبايع ابنه موسي بولاية العهد بعده . فانه اسقط اسم الامين من الطراز وقطع البريد عنه

وكان بنو العباس اكثر الناس عناية في أمر البريد . وبالغوا في استخدامة حتى نسب الى بعضهم مباشرة ذلك بنفسه للاطلاع على احوال ولاته ونوابه ورعيته . وربما تطلعوا به على أحوال العوام وآحاد الناس . وقد رتب بعض الخلفاء ذلك جهاراً فعين مع وزيره صاحب خبر من الثقات ينهى اليه مايجرى في مجلسه . فلا يحسن الوزير لاحد ولايجتمع به احد من الناس الا بحضور ذلك الشخص . وكذلك فعل مع القاضى والنائب وجميع ولاة الاعمال . وكان ابو جعفر المنصور يقول « ما احوجني ان يكون على بابي اربعة نفر لا يكون على بابي اعف منهم وهم اركان الدولة ولا يصلح الملك الا بهم . اما احدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي . والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية » ثم عض المنصور على اصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول فى كل مرة « آه . آه » قيل « ماهو ياأمير المؤمنين ؟ » قال « صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة »

فأصحاب الاخبار هنا بمعني جواسيس هذه الايام . ولم يكن بين صاحب البريد والخليفة او السلطان او الامير واسطة . فاذا جاء صاحب البريد بخبر لايطلع احداً عليه قبل انهائه الى الخليفة ليكون هو الذي يشيعه أو يكتمه على مايراه

وقد يجعل الملوك او الامراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سراً . فلا يعتمد احدهم كتاب صاحب بريده الا اذا كانت فيه تلك العلامة ـ ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه اذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه . نحو ما فعل أبو مسلم الخراساني لما دعاه المنصور اليه من خراسان الى بغداد وخاف أبو مسلم عاقبة تلك الدعوة فاستخلف أبا نصر مالك بن الهيثم على عسكره وقال له « أقم حتى يأتيك كتابي فان أتاك مختوماً بنصف خاتم فانا ختمته وان اتاك بالخاتم كله فلم اختمه » فلما جاء ابو مسلم الى المنصور فى المدائن وكان ما كان من قتله كتب المنصور الى أبي نصر عن لسان أبي مسلم يأمره بحمل ما خلف عنده وان يقدم وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم . فلما رأى أبو نصر الخاتم تاماً علم ان ابا مسلم لم يكتب

ومصلحة البريد ولاية جليلة خطيرة يحتاج صاحبها الى عمال عديدين والى نفقات طائلة للتوسعة عليهم حتى يظلوا على أمانتهم . وكان فى جملة واجبات صاحب البريد حفظ الطرق وصيانتها من القطاع والسراق وطرق الاعداء وانسلال الجواسيس

في البر والبحر . واليه كانت ترد كتب اصحاب الثغور وولاة الاطراف وهو يوصلها فى أسرع ما يمكن من اختصار الطرق واختيار المراكب

طرق البريد

وكان للبريد طرق تتشعب من مركز الخلافة الى اطراف المملكة حتى تتصل بطرق الممالك الاخرى . وتنقسم كل طريق الى محطات او مواقف فيها افراس او هجن . فيستبدل عمال البريد افراسهم بافراس مستريحة في كل موقف التماساً للسرعة . وكان الغالب في العرب أن يتخذوا الجمال لبريدهم وأما الفرس فكانوا يستخدمون الخيل

وبلغ عدد سكك البريد في ابان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة ونفقات الدواب واثمانها وارزاق رجالها ١٠٠ ١٥٩ دينار في السنة . وقد رأيت فى كلامنا عن خراج السواد في ايام بني امية انه كان ينفق على البريد اربعة ملايين درهم أي نحو ضعفى ذلك . وهو يؤيد ما قلناه غير مرة عن بذل بني امية الاموال في سبيل تأييد سلطانهم

وكان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى تبلغ اربعين اوخمسين دابة . وكثيراً ما كانوا يستخدمون خيل البريد لحمل بعض الناس الى الخليفة أو الامير التماساً لسرعة قدومهم . وتختلف سرعة البريد باختلاف الطرق ونوع المراكب بين ان تكون ابلا أو خيلا . وكانوا يعلقون في اعناق الدواب جلاجل أوسلاسل اذ انحركت سمعت لها قرقعة تعرف عندهم بقعقعة البريد . وقد ترسل البرد على السفن في البحار

ومن طرق المخابرة بالبريد غير نقل الخرائط على الدواب او في البحار ارسالها مع السعاة . وهم رجال خفاف تعودوا الجري والصبر على السير ثلاث مراحل في مرحلة وأهل البراري أنشط لذلك . وأول من أنشأ السعاة في الدولة العباسية معز الدولة أنشأهم فى بغداد لاعلام اخيه ركن الدولة بالاحوال سريعاً . ونبغ في ايامه ساعيان اسم احدهما فضل والآخر مرعوش فاقا سائر السعاة . وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفا واربعين فرسخاً أي نحو ١٤٠ ميلا . واتصل استخدام السعاة في سائر الدول الاسلامية

حمام الزاجل

ومن وسائل المخابرة بالبريد حمام الزاجل فقد كان له شأن عظيم عندهم والمخابرة به قديمة جداً عند الامم القديمة . ولكن المسلمين كانوا اكثر عناية من سواهم فيه ويقال ان اول استخدامه كان في الموصل ثم في مصر على عهد الفاطميين

فالعباسيين . وكانت بين الاسكندرونة في سوريا وبين مدينة بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب . على انهم لم يعتنوا فيه العناية الكافية وينشئوا له الادارات



حمام الزاجل

الخاصة الا في العصور الاسلامية الوسطى . فانهم بذلوا في ذلك عناية كبرى ولا سيما في مصر . فقد كان للمخابرة بالحمام أبراج في قلعة القاهرة على عهد الايوبيين في القرن السابع للهجرة . وقد بلغ عدد الحمام المستخرج لهذه الغاية فيها الفاً وتسعمائة طائر لها عمال يناط بهم امر العناية بها . وكانت الطيور المذكورة لا تبرح الابراج بالقلعة . وكان بكل مركز حمام في سائر نواحي المملكة بمصر والشام والعراق من اسوان الى الفرات . فلا تحصي عدة ما كان منها في الثغور والطرقات الشامية والمصرية وجميعها تدرج وتنقل من القلعة الى سائر الجهات (١)

طرق أخرى للمخابرة

ومن طرق المراسلة عندهم ان تكتب ورقة تعلق بقصبة وتغرس القصبة في باقة حشيش وتلقى في الماء فيعوم الحشيش ولا يزال جارياً بمجرى النهر حتى يراه المرسل اليه . ومنها ان تكتب الاخبار على السهام وترمى الى المكان المراد ارسال الخبر اليه ويغلب ان يكون ذلك في ايام الحصار وانقطاع السبل

ومن طرق المخابرة بناء المناظر او المنائر كالابراج العالية على المرتفعات ونقل الاشارات عليها باشعال النار او نحوه فينتقل الخبر بها من منظرة الى منظرة حتى تبلغ المكان المطلوب . وكان ذلك معروفاً عند اليونان وغيرهم واستخدمه الحجاج بن يوسف في الاسلام فاتخذ المناظر بينه وبين قزوين . وكان اذا دخن اهل قزوين

(١) تفصيل ذلك في الهلال صفحة ٢١٢ سنة ١٠

دخنت المناظر ان كان نهاراً . وان كان ليلا أشعلوا ناراً وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط فيصل الخبر بوقت قصير

ومن عمال البريد ما عدا السعاة الشعوذي وهو رسول الامراء على البريد . والكوهبانية وهم أصحاب الاخبار الذين يرسلون للاستطلاع . ورجال يتولون فض الخرائط بين يدي الخليفة . والخرائط اجربة او اكياس من جلد توضع الكتب فيها وتختم بختم المرسل وتحمل الى المرسل اليه . فيفض ختمها يده أو يد من يتولى ذلك عنه

القضاء

تاريخ القضاء

القضاء قبل الاسلام

القضاء ـ ويراد به منصب الفصل بين الناس في الخصومات ـ قديم لأن الانسان لم يستغن عمن يفصل في قضاياه من أول أزمان وجوده . وكان قضاة القبائل عقلاؤها وكبارها وهم أيضاً حكامها وأمراؤها . فكان الرجل اذا نبغ في عقله وقوته تولى حكومة قبيلته وحكم في قضاياها وهو حال البدو على فطرتهم . وكذلك كان العرب في جاهليتهم. فقد كانوا يتقاضون الى وجهائهم وعقلائهم . واشتهر من هؤلاء القضاة قبل الاسلام جماعة كبيرة يحكم كل منهم في قبيلته . فمن تميم حاجب بن زرارة والاقرع ابن حابس وربيعة بن مخاشن . ومن ثقيف غيلان بن مسلمة . ومن قريش هاشم بن عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم وابو طالب بن عبد المطلب عم النبي والعاص بن وائل. ومن أسد ربيعة بن حذار . ومن كنانة سلمى بن نوفل . وغير هؤلاء ممن اشتهر في كل القبائل مثل اكثم بن صيفي وعامر بن الظرب وغيرهما . وكان العرب يتقاضون الى الكهان والعرافين

القضاء فى الاسلام

وأما فى الاسلام فأول من تولى القضاء النبي صاحب الشريعة الاسلامية نفسه ثم تولاه خلفاؤه . لان القضاء من المناصب الداخلة تحت الخلافة . فكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه الى من سواهم . حتى اذا اتسع سلطانهم وكثرت مهام منصبهم اضطروا الى استنابة من يقوم عنهم بالقضاء فى مركز الخلافة

وفي الاعمال . وأول من فعل ذلك منهم عمر بن الخطاب فولى أبا الدرداء معه فى المدينة وولى شريحاً بالبصرة وولى أبا موسى الاشعري بالكوفة . وكتب اليه كتاباً هو قاعدة الفقه الاسلامى وعليه تدور اكثر أحكام القضاة الى اليوم وهذا نصه :

« أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدي اليك . فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . واس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين . إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق . فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها . واجعل لمن ادعى حقاً غائبا أو بينة أمداً ينتهي اليه . فان أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه . فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعماء . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا في نسب أو ولاء . فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم به الله الاجر ويحسن به الذكر والسلام » (١)

أما مصر فالقضاء فيها كان موكولا الى أمرائها وهم الذين كانوا يولون قضاتها . وكان عمر بن الخطاب قد أراد أن يولى قاضي مصر كما ولى قضاة المدينة والبصرة والكوفة فكتب الى عمرو بن العاص أن يولى القضاء كعب بن يسار بن ضنة وكان ممن قضى في الجاهلية . فأبى كعب أن يقبل ذلك وقال « قضيت في الجاهلية ولا أعود اليه في الاسلام » فولى عمرو عثمان بن قيس بن أبي العاصي . وما زال أمير مصر هو الذى يولي القضاة حتى أفضت الخلافة الى بني العباس فأرادوا توطيد سلطانهم على مصر فجعلوا توليه القضاة اليهم . وأول قاض ولاه الخلفاء على مصر مباشرة عبد الله بن لهيعة الحضرمي ولاه ابو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ ثم صارت تولية قضاة مصر الى الخلفاء

وكان القضاة أول الامر يولون على الاقاليم على كل اقليم قاض . فلما عمرت المملكة واتسعت تعدد القضاة حتى صاروا يولون في المدن الكبرى عدة قضاة كل قاض في جانب من جوانبها والخليفة هو الذى يولي كلا منهم بنفسه . الى زمن

(١) ابن خلدون ١٨٤ ج ١

الرشيد وقد اتسعت بغداد في أيامه . ونبغ يومئذ القاضي ابو يوسف الشهير وكان الرشيد يكرمه ويجله فدعاه قاضي القضاة وهو أول من دعي بذلك . وكان ابو يوسف عالى الهمة فخدم هذا المنصب خدمة جلى وميز العلماء بلباس خاص بهم وكانوا من قبله يلبسون مثل سائر الناس . وصار قاضى القضاة بعده هو الذى يولى قضاة مدينة بغداد . ثم صار يولى قضاة الاقاليم . واقتدى بالعباسيين من عاصرهم وخلفهم من الخلفاء في الاندلس ومصر وصاروا يولون قاضي القضاة وهو يولى القضاة

عمل القاضى

وكانت وظيفة القاضي في صدر الاسلام محصورة في الفصل بين الخصوم . ثم صاروا يتعاطون أموراً أخرى على مانقتضيه الاحوال بحسب اشتغال الخلفاء بأمور السياسة . فاضيف الى اعمال القاضى استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين كالنظر في اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه . وفى وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء . . ثم امتدت سلطتهم إلى النظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح . وتوسع بعض الخلفاء حتى جعل للقضاة قيادة الجهاد في عساكر الصوائف منهم يحيى بن اكثم فقد كان يخرج في أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم . كذلك منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر الاموي بالاندلس . وولى العزيز بالله الفاطمي القاضى على بن النعمان القضاء بمصر وأضاف اليه قضاء الشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز والخطابة والامامة والعيار في الذهب والفضة والموازين والمكاييل . ثم تولى القضاء أبو محمد البازوري سنة ٤٤١ هـ واضيفت اليه الوزارة وهو أول قاض جمع بينهما ثم أضيفت الى غيره بعده

فترى مما تقدم ان منصب القضاء كان واسعاً جداً . على انه لم يكن كذلك في كل الاعصر وانما اختلف باختلاف الدول كما رأيت . ثم ان الخلفاء كانوا في اوائل الاسلام لا يولون القضاء الا أهل عصبيتهم من العرب أو مواليهم بالحلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غنائه فيما يدفع اليه . فلما تحولت الخلافة الاسلامية من الغرض الدينى الى الغرض السياسى وصار الامر كله ملكا أو سلطاناً ضعف هذا الشرط ثم تحولت ازمة الاحكام الى الاعاجم فتقاصرت واجبات القاضى بالتدريج الى الفصل بين الخصوم والحكم في الاحوال الشخصية . ثم انحصرت في الاحوال الشخصية بالمحاكم الشرعية كما هو اليوم

وكان القضاة يجلسون في المساجد للحكم بين الناس . فاذا جاءهم الخصوم حكموا بينهم هناك . وكانوا يعدون القضاء من الاعمال الشاقة الخطرة بالنظر الى الدين لما فيه من تحمل التبعة فيما قد يخطىء به القاضى فيحكم على صاحب الحق فيظلمه وهو



مجلس القضاة في غرناطة

مسئول عنه . فكثيراً ما كان العلماء ورجال التقوى يأبون ولايته كما رأيت في أمر كعب بن يسار لما ولاه عمر قضاء مصر . وكما فعل الامام أبو حنيفة النعمان لما أراد أبو جعفر المنصور أن يوليه القضاء فانه قال له « اتق الله ولا ترع فى امانتك الا من يخاف الله . والله ما انا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى ان تغرقنى في الفرات اوتلى الحكم لاخترت ان اغرق ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك » وكانوا اذا ولوا القاضى جاءوا به الجامع واحتفلوا هناك بقراءة السجل الصادر له بذلك

وكان قضاة مصر على مذهب الامام الشافعى منذ ظهور هـذا المذهب . ولكن كان القاضى يستنيب من شاء من قضاة المذاهب الاخرى . وفي سنة ٥٢٥ هـ عين أبو احمد بن الافضل أربعة قضاة يحكم كل منهم في مذهب من المذاهب الاربعة . ثم توالى ذلك على هذا المنوال في أيام المماليك

وكان منصب قضاء العسكرية تارة يضاف الى القاضي الحنفي وتارة يضاف الى القاضى الشافعى وتارة ينفرد به قاض حنفي . وما ذاك إلا لان قاضي العسكر انما ينتفع به فى الجهاد ووقت خروج العسكر . وتقع وصايا من الامراء وشهادات بينهم ولا يوجد في العسكر الجالسين فى المراكز أحد . ويحتاج الى اثبات ذلك عند القاضى الشافعى فلا يسمع شهادة العسكر فيتعطل اثبـات ذلك فتبطل وصاياهم وشهاداتهم . فلهذا السبب ولى الملك الظاهر بيبرس القاضي الحنفي لما اتفق له في الجهاد مثل ذلك . وامتنع القاضي الشافعى في ذلك الوقت من شهاداتهم ثم بتداول الايام ودخول أكثر

الممالك الاسلامية في قبضة الدولة العثمانية المقلد جمهور حكامهم لابي حنيفة النعمان انتهى الامر ان صار حصر القضاء على مذهب امامهم (١)

راتب القاضي

وأما راتب القاضي فيختلف باختلاف الدول والازمان . فقد رأيت فى غير هذا



قاضي العسكر في الدولة العثمانية في القرن السادس عشر

المكان ان عمر بن الخطاب ولى شريحاً قضاء البصرة وفرض له مئة درهم في كل شهر ومؤونته من الحنطة . وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك في سائر أيام الراشدين ثم تصاعدت في أيام بني أمية مثل تصاعد رواتب الجند وسائر العمال . فلما كانت أيام العباسيين أصبح راتب قاضي مصر ثلاثين ديناراً في الشهر . وأول من اقتضى هذا الراتب ابن لهيعة الذى ولاه المنصور كما تقدم . ثم تصاعد الراتب تصاعداً عظيماً في أيام المأمون فبلغ عطاء عيسى بن المنكدر قاضي مصر يومئذ ٤٠٠٠ درهم أو نحو ٢٧٠ ديناراً . وهو راتب فاحش ربما جعل كذلك لغرض خاص . لانه أجيز فوق هذا

(١) مناهج الالباب المصرية ٣٨٦

الراتب بألف دينار . وعاد راتب قاضي مصر بعد ذلك بضعاً وعشرين سنة إلى الف دينار في السنة . وأول من اقتضى هذا الراتب بكار بن قتيبة الذى تولى قضاء مصر على عهد احمد بن طولون سنة ٢٤٥ هـ . وزاد ذلك في الدولة الفاطمية فأصبح راتب القاضي وهو قاضي القضاة يومئذ ١٢٠٠ دينار في السنة ما عدا المؤونة والهدايا . ولعلها استمرت على ذلك في دولة الايوبيين ومن تلاهم

أما بغداد فاختلف راتب القاضي فيها باختلاف الازمان وكان فى زمن المعتضد نحو ٥٠٠ دينار في الشهر بما فيه أجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضي . ثم دخل القضاء في الالتزام فصار القضاة يضمنون دخل القاضى بمال يؤدونه الى الخليفة أو السلطان . وأول من ضمن القضاء عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب سنة ٣٥٠ هـ . في أيام معز الدولة بن بويه . فقد سمي قاضي قضاة بغداد والتزم القضاء على ان يؤدى ٢٠٠٠٠٠ درهم كل سنة . ثم صار ذلك أمراً مألوفاً وصاروا يضمنون الحسبة والشرطة

ديوان المظالم

وهو من توابع القضاء ويشبه ما نسميه اليوم « مجلس الاستئناف » بعض الشبه والغرض منه استماع ظلامات الناس من القضاة أو غيرهم . وكان العرب في جاهليتهم يلتفتون الى هذا الامر فيتحالفون على رد المظالم كما فعلت قريش قبيل الاسلام . وذلك انهم لما تعدد فيهم الزعماء وكثر التغالب والتجاذب اجتمعت بطونهم وعقدوا حلفاً على رد المظالم وانصاف المظلوم من الظالم . وهو حلف الفضول المشهور الذي عقد في مكة والنبي عمره ٢٥ سنة . وموضوعه أن لا يظلم أحد في مكة إلا أنصفوه وأخذوا له حقه

ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الاربعة لان الناس فى الصدر الاول كانوا بين من يقوده التناصف الى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم . إلا عليا فانه احتاج الى النظر فى المظالم ولم تكن في الحقيقة كما صارت اليه بعدئذ . على انه لم يفرد لسماع الظلامات يوما معينا أو ساعة معينة وانما كان اذا جاءه متظلم أنصفه . ثم أفردوا يوما خاصا للنظر في أقوال المتظلمين وتصفح قصصهم . وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان ولكنه كان اذا وقف منها الى مشكل واحتاج فيه الى حكم رده الى قاضيه ابن ادريس الازدى . فكان ابن ادريس هو المباشر وعبد الملك الآمر . وأول

من ندب نفسه لمباشرة المظالم عمر بن عبد العزيز الشهير . ثم أهملت بعده الى أيام الدولة العباسية فجلس لها خلفاء بني العباس . وأول من جلس منهم المهدي ثم الهادى ثم الرشيد ثم المأمون . وآخر من تولاها منهم المهتدى بالله محمد بن الواثق

وكانوا يسمعون ظلامات الناس وينصفونهم وفيهم من يتظلم من الولاة أو من العمال أو من جباة الاموال أو من كتاب الدواوين في تقصيرهم بشيء من رواتبهم أو من أحد أبناء الخلفاء أو الامراء أو نحوهم من أهل الوجاهة ممن يغتصبون الاموال أو الضياع . أو من القضاة لانهم لم ينصفوهم في أحكامهم. أو من أي انسان كبيراً كان أو صغيراً . فهو أوسع دائرة من مجلس الاستئناف وأطول باعاً وأشد وقعاً وأسرع نفوذاً . ومن أمثلة ما ردوه من المظالم على هذه الصورة ان عمر بن عبدالعزيز خرج ذات يوم الى الصلاة فصادفه رجل من اليمن فاستغاثه فقال «ماظلامتك ؟» فقال « غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي » فقال « يا مراجم ائتني بدفتر الصوافي » فوجد فيه « أصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان » فقال اخرجها من الدفتر وليكتب برد ضيعته اليه ويطلق له ضعف نفقته

وحكي عن المأمون انه كان يجلس للمظالم يوم الاحد . فنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة في ثياب رثة وتظلمت اليه في ابنه العباس فأوقفه بجانبها ورد ظلامتها . وبعد المهتدى لم يجلس الخلفاء العباسيون للمظالم . على انهم كانوا كثيراً ما يعهدون بهذا المنصب الى وزرائهم كما فعل المأمون ليحيى بن اكثم والمعتصم لاحمد بن أبي دؤاد . فلما غلب السلاطين على بني العباس صار النظر في المظالم الى السلاطين

أما في مصر فأول من نظر في المظالم احمد بن طولون لما استقل بحكم مصر سنة ٢٥٧ هـ فكان يجلس لذلك يومين في الاسبوع . ثم صار خلفاؤه يولون من يقوم بها دونهم . حتى فتح الفاطميون مصر وبنوا مدينة القاهرة فاهتموا في أمر المظالم . وجلس لها أولا قائدهم جوهر فاتح مصر وكان يوقع على قصص المتظلمين بيده . ثم صار الخلفاء بعده يعهدون بذلك الى قاضي القضاة أو الى بعض علماء الدولة . فلما ضعف أمر الفاطميين واستبد وزراؤهم في الحكم صارت المظالم الى الوزراء وأشهرهم في ذلك امير الجيوش . فقد كان يجلس للمظالم بنفسه . واقتدى به من جاء بعده وكانوا يجعلون بباب الديوان منادياً ينادي « يا أرباب الظلامات » فيحضرون اليه فيأمر بانصافهم

دار العدل

ولما أفضت الحكومة فى مصر الى السلاطين الايوبية بنوا داراً للنظر في المظالم سموها « دار العدل » وكان قد سبقهم الى بناء مثل هـذه الدار في دمشق الملك العادل نور الدين زنكي . وكان الايوبية يجلسون في دار العدل للنظر في المظالم . وجرى سلاطين المماليك بعدهم على ذلك . وكانت لهم عناية كبرى في انصاف الناس وكانوا يحترمون مجلسهم للمظالم فلا يقعدون فيه على تخت الملك ولكنهم يجلسون على كرسى بجانبه حتى تلحق أرجلهم الارض فاذا جلس السلطان على ذلك الكرسي يجلس قضاة من المذاهب الاربعة على يمينه ووكيل بيت المال وغيرهم من أرباب الوظائف والحرس والخاصة بين يديه وفيهم من يقرأ الظلامات للسلطان فيراجع القضاة أو أمراء العسكر في ما يرى مراجعتهم فيه ثم يمضي بما يراه

وكان لسلاطين المسلمين وأمرائهم عناية كبرى في النظر في مظالم الرعية. وكانوا يبذلون الجهد في رفعها . ولو كان النظلم منهم أو من أولادهم . وأمثلة هذه الحوادث كثيرة فى تاريخ الاسلام . فتعود الناس أن يرفعوا شكواهم الى خلفائهم وسلاطينهم في أيام معينة وصاروا يحسبون ذلك فرضاً واجباً . فاذا أمسك الخليفة عن النظر في المظالم يوما أو بضعة أيام ضجوا وملوا . وكان بعض الخلفاء يقسم المظالم الى فروع بعضها للنظر في مظالم الجند وبعضها للنظر في مظالم العمال وبعضها لغير ذلك

الحسبة

هي منصب ديني من قبيل القضاء . وصاحب الحسبة (المحتسب) يبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدن مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين ومنع أهل السفن من الاكثار في الحمل. والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب اذا بالغوا في ضربهم التلامذة . وله النظر في الغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين مما يعد من واجبات مصلحة البلدية في هذه الايام . والاصل في الامور التى ذكرناها ان تكون من واجبات القاضى لكنهم جعلوها عملا مستقلا تنزيهاً للقاضى عن استقصاء هذه الامور بنفسه . على انها كثيراً ما كانت تجعل في جملة أعمال القضاة في عهد الفاطميين بمصر والامويين فى الاندلس . فلما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاما في السياسة اندرجت الحسبة في وظائف الولاية

ولا يتولى الحسبة الا رجل من وجهاء المسلمين لانها خدمة دينية . وكان صاحب الحسبة يولى عنه نواباً في سائر الكور والاعمال وله الجلوس في الجوامع كل يوم ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش . فكان صاحب الحسبة في مصر يجلس في جامعى القاهرة والفسطاط يوما بعد يوم ويبعث نوابه في الشوارع لتفقد اللحوم والمطبوخات ومراعاة أحمال الدواب فلا يأذنون لاحد ان يحملها فوق طاقتها . ويأمرون السقايين بتغطية الروايا بالاكسية ولهم عيار هو أربعة وعشرون دلواً وكل دلو اربعون رطلا ، وان يلبسوا السراويلات الزرقاء القصيرة الضابطة لعوراتهم . وينذرون معلمي المكاتب بأن لا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا ولا فى مقتل . وكذلك معلمو العوام بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس . وللمحتسب النظر في ادارة العيار

أما في الاندلس فكانوا يسمون هذا المنصب « خطة الاحتساب » ويتولاه قاض. وكانت العادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً الى الاسواق وأعوانه معه وميزانه الذى يزن به الخبز في يد أحد الاعوان . وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حلله المحتسب في الورقة . ولا تكاد تخفى خيانته فان المحتسب يدس عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه ثم يختبر المحتسب الوزن فان وجده ناقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس . ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما يتدارس الفقهاء أحكام الفقه

الشرطة

والشرطة في الاصل من توابع القضاء لان المراد بها تنفيذ أحكام القضاة أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم واقامة التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة . فكانت الشرطة خادمة للقضاء تساعد القاضي في ثبات الذنب على مرتكبه وتساعد الحكومة على تنفيذ الحكم . ويتولى صاحبها أيضاً اقامة الحدود على الزنا وشرب المسكر وكثير من الامور الشرعية التى يجلون مقام القاضى عنها

ثم صار النظر في الجرائم واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية في الاندلس والفاطمية بمصر راجعاً الى صاحب الشرطة وأفردوها من نظر القاضى . ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم . ثم تفرعت الشرطة في الاندلس الى شرطة كبرى وشرطة صغرى . تحكم الكبرى في الخاصة والزعماء واهل المراتب السلطانية فتضرب على أيديهم في الظلامات وعلى أيدى أقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه . وأما الصغرى فتنحصر في الاحكام على العامة والرعاع . ونصبوا لصاحب

الشرطة الكبرى كرسياً بباب دار السلطان وله رجال يتبوءون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا من تصريفه . وكانت تعد ولايتها ترشيحاً للوزارة أو الحجابة . وكان صاحب الشرطة يسمى عندهم صاحب المدينة أو صاحب الليل . وفى دول السلاطين كانوا يسمون صاحب الشرطة الوالى وفي افريقية يسمونه الحاكم . فكأن الشرطة نشأت مع القضاء لكنها لم تنفرد بنفسها وتتميز عنه الا فى أيام بنى أمية

ديوان الانشاء

الكتابة

لم يكن العرب فى جاهليتهم يعرفون الكتابة إلا نفراً قليلين . ولم تكن كتابتهم بالاحرف العربية المعروفة اليوم وانما كانوا يكتبون بالاحرف العبرانية اقتباساً من اليهود في جملة ما اقتبسوه من الآداب والدين. وكان ممن كتب العربية بالقلم العبرانى ورقة بن نوفل ابن خال خديجة زوج النبي . أو بالاحرف النبطية نقلا عمن هاجر اليهم من الانباط في القرون الاولى للميلاد فراراً من سلطان الروم . والارجح عندنا ان الحرف العربي الذي تكتب به اللغة العربية اليوم متخلف عن الحرف النبطي الذي كان يكتب به الانباط في بطرا ومدائن صالح (١). وأما الحرف الكوفي فقد تخلف عن القلم الاسطرنجيلي الذي كان يكتب به السريان أو الكلدان في العراق واستخدمه العرب فى أول الامر لكتابة اللغة العربية فحدث فيه بعض التبديل حتى صار الى ما هو عليه ويؤيد قولنا انه من العراق وانه حدث بعد الاسلام . لان الكوفة من المدن التي بناها المسلمون في العراق . وسنعود الى تاريخ الخط في الجزء الثالث من هذا الكتاب

ولما ظهر الاسلام لم يكن يكتب بالعربية إلا بضعة عشر انساناً كلهم من الصحابة وفيهم علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وطلحة وعثمان وابو سفيان وولداه معاوية ويزيد وغيرهم . فكان علي وعثمان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم ممن كتب للنبي لانه لم يكن يكتب ولا يقرأ . فكتبوا له سور القرآن والكتب التى خاطب بها الملوك يدعوهم الى الاسلام . وكان بعضهم يكتب له حوائجه والبعض الآخر يكتبون بين الناس في المدينة ، والبعض الآخر يكتبون بين القوم فى مياههم وقبائلهم وفي دور الانصار بين الرجال والنساء

(١) كتاب العرب قبل الاسلام ٨١ ج ١

ولما تولى ابو بكر كان عثمان بن عفان كاتبه يكتب له الكتب الى العمال والقواد وصارت الكتابة منصباً من مناصب الحكومة لا يستغنى عنه . فلما تولى عمر كتب له أولا زيد بن ثابت ثم غيره فغيره . ولما فتحت الامصار وتدونت الدواوين عين عمر كاتباً لكل ولاية يكتب في ديوانها . وكان الكاتب يكتب في أول الامر لديوان الجند وبيت المال . فتولى عثمان وعلي وانقضت دولة الخلفاء الراشدين والكتابة منحصرة في واحد يضبط حساب الديوان من أعطيات الجند وأسمائهم ويكتب المراسلات . وربما كانا اثنين يتولى الثاني كتابة بيت المال

ولما انتقلت الخلافة الى بني أمية وتعددت مصالح الدولة على ما مر بك تعدد الكتاب فصارت الكتابة خمسة أصناف . كاتب الرسائل لمخاطبة العمال والامراء والملوك وغيرهم . وكاتب الخراج يدون حساب الخراج داخله وخارجه . وكاتب الجند يقيد أسماء الاجناد وصفاتهم وطبقاتهم وأعطياتهم ونفقات الاسلحة وغير ذلك . وكاتب الشرطة يكتب التقارير عما يقع من أحوال القود والديات وغيرها . وكاتب قاض يكتب الشروط والاحكام

ديوان الانشاء

وأهم أصناف الكتاب كاتب الرسائل وهو أقدمها وقد يسمى كاتب السر وهو يد الخليفة وكاتبه ومستودع أسراره كما كان عمر لابي بكر وعثمان لعمر . وكان الخلفاء فى أول عهد الاسلام لا يولون هذا المنصب الا أقرباءهم أو خاصتهم لما فيه من الخطورة . وظلوا على نحو ذلك الى أيام بني العباس فكان كتابهم في أول الامر يستبدون في الامر دونهم ثم صارت الكتابة الى وزرائهم ولم يكن الوزير يكتب الرسائل أو الرقاع بيده ولكنه يمضيها أي يوقع عليها كما يفعل الباشكاتب اليوم والوزير . وأول من وقع على الرقاع عندهم يحيى بن جعفر البرمكي لما أطلق الرشيد يده في أمور الدولة ومقاليدها . فصار اذا رفع أحد كتابا في ظلامة أو طلب رزق أو نحو ذلك وقع يحى عليه بيده . وصار الوزراء بعده يوقعون على الرقاع أو القصص . وربما انفرد بعضهم فى ولاية ديوان السر أو ديوان الرسائل أو الانشاء

وفي اخريات دولة بنى العباس استقلت الكتابة وعهدت الى غير الوزراء . وكانوا ببغداد يقال لهم كتاب الانشاء وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الانشاء أو صاحب ديوان الانشاء أو كاتب السر وكل أمور هذا الديوان الى الوزير . وكانوا

يسمونه أيضاً الديوان العزيز وهو الذي يخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء بما يشبه نظارة الخارجية أو الباب العالى في هذه الايام

التوقيع

يريدون بالتوقيع في دوائر الحكومة اليوم « الامضاء » اما في ايام الخلفاء فكان يراد به ما يعلقه الخليفة على القصص او الرقاع (العرضحالات) المعروضة عليه لطلب او شكوى او نحو ذلك فيكتب عليها بما يجب اجراؤه او مايفيد الجواب على نحواها بما يشبه التأشير او التعليم فى دوائر حكومتنا . وهو من واجبات صاحب ديوان الانشاء اومن يتعين للتوقيع خاصة . فيجلس الكاتب بين يدى الخليفة او السلطان في مجالس حكمه وفصله . فاذا نظر الخليفة في الرقاع امر الكاتب ان يوقع عليها فيتوخى الكاتب ابلغ ما يستطيعه . وكانوا يختارون للتوقيع كتاباً من اهل العارضة والبلاغة ليستقيم توقيعه . فكان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدى الرشيد ويرمى بالقصة الى صاحبها وكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على اساليب البلاغة وفنونها حتى قالوا انها كانت تباع كل قصة منها بدينار

توقيعات الخلفاء وغيرهم

وكان الخلفاء في صدر الاسلام هم الذين يوقعون في القصص والرقاع بأنفسهم او يأمرون كتابهم بتدوينه . والغالب في توقيعهم ان يكون اقتباساً من آية او حديث او حكمة مشهورة او شعر حكمي . ومن امثلة ذلك ان سعد بن ابى وقاص عامل العراق كتب الى عمر بن الخطاب كتاباً يستأذنه فيه ببناء دار . فوقع عمر في اسفل الكتاب « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » ووقع عمر ايضاً لعمرو بن العاص عامله على مصر جواباً على كتاب كتبه اليه « كن لرعيتك كما تحب ان يكون لك اميرك » وتشكى قوم لعثمان بن عفان من مروان بن الحكم وذكروا انه امر بوجأ اعناقهم فوقع في ذلك الكتاب « فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » وارسله اليه . ومن توقيعات علي بن ابي طالب فى كتاب جاءه من ابنه الحسن « رأي شيخ خير من جلد غلام » وكتب سلمان الفارسي الى على يسأله : كيف يحاسب الناس يوم القيامة ؟ فوقع على كتابه « يحاسبون كما يرزقون »

ومن توقيعات معاوية بن ابي سفيان ان عبد الله بن عامر كتب اليه يسأله ان يقطع مالا فى الطائف فوقع « عش رجباً تر عجباً » وكتب زياد بن ابيه الى معاوية يخبره ان عبد الله بن عباس يطعن في خلافته فوقع فى اسفل الكتاب « ان اباسفيان

وابا الفضل كانا في الجاهلية فى مسلاخ واحد وذلك حلف لايحله سوء رأيك »ووقع عبد الملك بن مروان في كتاب جاءه من الحجاج يخبره فيه بسوء طاعة اهل العراق وما يقاسى منهم ويستأذنه في قتل اشرافهم « ان من يمن السائس ان يتألف به المختلفون ومن شؤمه ان يختلف المتألفون» ووقع فى كتاب جاءه من الاشعث وهو ثائر عليه:

« فما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري »

وكتب قتيبة بن مسلم الى سليمان بن عبد الملك يهدده بالخلع فوقع سليمان على الكتاب:

« زعم الفرزدق ان سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع »

وكتب اليه قتيبة مرة اخرى بالتهديد فوقع في الكتاب « وان تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً » . وكتب بعض العمال الى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في مرمة مدينة فوقع في أسفل كتابه « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » وكتب اليه عامله على العراق يخبره بسوء طاعة أهلها فوقع له « أرض لهم ماترضى لنفسك وخذ بجرائمهم بعد ذلك » وكانت توقيعات عمر بن عبد العزيز كثيرة . ووقع يزيد بن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »

ومن توقيعات بني العباس ان بعض أهل الانبار كتبوا الى السفاح يشكون ان منازلهم أخذت وأدخلت في البناء الذي أمر به ولم يعطوا اثمانها فوقع « هذا بناء أسس على غير تقوى » وأمر باعطائهم الاثمان . وشكا أهل الكوفة الى أبي جعفر المنصور سوء معاملة عاملهم فوقع على كتابهم « كما تكونون يؤمر عليكم » ووقع على قصة رجل شكا عيلة « سل الله من رزقه » وجاءه من عامله على حمص كتاب فيه خطأ فوقع في أسفله « استبدل بكاتبك والا استبدل بك » . وكتب صاحب ارمينيا الى المهدي يشكو سوء طاعة رعاياه فوقع فى الكتاب « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وشكا بعضهم اليه اهمال عامله فى خراسان فوقع على شكواهم « أنا ساهر وأنت نائم » وأرسله اليه . ومن توقيعات هرون الرشيد الى عامله في خراسان « داو جرحك لا يتسع » والى عامله على مصر « احذر أن تخرب خزانتي وخزانة أخي يوسف فيأتيك منه ما لا قبل لك به ومن الله اكثر منه » . وقس على ذلك سائر توقيعات الخلفاء

على ان التوقيع لم يكن خاصاً بالخلفاء ولكنه كان شائعاً بين الامراء والكبراء أيضاً مثل زياد بن أبيه وأبي مسلم الخراساني وجعفر بن يحيى . ولجعفر شهرة طائرة في بلاغة توقيعاته كما تقدم . من ذلك توقيعه لمحبوس « ولكل أجل كتاب »

ووقع في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله « لقد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت » وفى رقعة رجل يستأذن في الحج « من سافر الى الله أنجح » وفي كتاب رجل طلب ولاية « لا أولى بعض الظالمين بعضا » وفي قصة رجل يستمنحه وقد كان منحه مراراً « دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » . وغير ذلك شيء كثير ومثله للفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وغيرهما

اختصار الكتابة

وكان لهم ولع غريب في اختصار الكتابة في المراسلات اختصاراً يصح أن يتخذ مثالا للبلاغة . من أمثلة ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يستمده بالحنطة والمؤونة من مصر على اثر ما اصاب اهل المدينة من الجهد . فكتب ابن الخطاب يقول « من عبد الله امير المؤمنين الى العاصي بن العاصى . سلام . اما بعد فلعمرى يا عمرو ما تبالى اذا شبعت انت ومن معك ان اهلك انا ومن معي فياغوثاه ثم يا غوثاه » فكتب اليه عمرو « لعبد الله امير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص . اما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك . قد بعثت اليك بعير اولها عندك وآخرها عندي والسلام » وامثال ذلك كثيرة من مراسلاتهم فلتطلب في كتب الادب والتاريخ

ولم يكن هـذا الاختصار قاصراً على المكاتبات بينهم وبين عمالهم لكنه كان شأنهم فى كل مكاتباتهم . من امثال ذلك جواب هرون الرشيد الى نقفور (نيسوفورس) ملك الروم وكان قد كتب اليه كتابا يهدده فيه ويطلب اليه ان يرد ما كان اخذه من الخراج من الامبراطورة التي كانت قبله . فلما قرأ الرشيد الكتاب احتدم غيظا فلم يتمالك عن أن أخذ دواة وكتب على ظهر الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه »

ومثل ذلك جواب يوسف بن تاشفين صاحب مراكش على كتاب الاذفونش ملك الافرنج الذى يهدده فيه . وكان الكتاب طويلا فلما قرأه يوسف كتب على ظهره « الذي يكون ستراه »

مكاتبة الخلفاء

وكان من القواعد المرعية في مكاتبة الخلفاء أن يبدأوا بأسمائهم قبل مخاطبهم ويكلفوا مكاتبيهم أن يراعوا ذلك كما رأيت فى ما دار بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ويعدون العدول عنه ذنباً . وقد كان في جملة ما حمل المنصور على قتل أبي مسلم الخراساني مع ما له على دولتهم من الفضل انه كتب مرة الى المنصور وبدأ بنفسه .

واذا رأيت في بعض المراسلات ما يخالف هذه القاعدة فانه سهو من النساخ

ولم يزل الامر كذلك الى أن استولى بنو بويه على الامر وغلبوا على الخلفاء واستبدوا بهم . فاحتجب الخلفاء ولم يبق اليهم في ما يكتب عنهم غالباً سوى الولايات. وفوض الامر فى غالب المكاتبات الى وزرائهم . وصارت اذا اقتضت الحال ذكر الخليفة كنى عنه بالمواقف المقدسة والمقامات الشريفة والسدة النبوية والدار العزيزة والمحل الممجد . يعنون بالمواقف الاماكن التى يقف الخليفة فيها ثم انتقلوا الى تعظيم الامراء والوزراء بالتلقيب بالمجلس العالى والحضرة السامية وما أشبه

الاشارة أو الرمز

ومن تفننهم في المكاتبات الاشارة بحرف واحد الى مقالة طويلة كما وقع للسلطان محمود الغزنوي بن سبكتكين بعد أن استقل بالسلطنة . فانه كتب الى الخليفة ببغداد يطلب اليه أن يذكر اسمه في الخطبة وينقش اسمه على النقود فامتنع الخليفة من ذلك. فبعث محمود اليه كتابا يهدده فيه قال في جملته « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » فبعث اليه الخليفة كتابا مختوما . فلما فتحه محمود لم يجد فيه غير البسملة وبعدها ألف ممدودة وفي وسط الكتاب لام . وفي آخره ميم ثم الصلاة والحمد لله . فتحير السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم ابو بكر القهستاني وكان من كبار العلماء ففكر فى ذلك حتى فقه له فقال « عندى شرحه » فقال السلطان « قل ولك ما تريد » فقال : انكم بعثتم تهددون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا الكتاب وفيه الف لام ميم اشارة الى قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الى آخر الآية فارتاع السلطان لذلك وتشاءم وندم وعاد الى أحسن الاحوال

ومن هذا القبيل حكاية لطيفة وقعت لسديد الملك علي بن مقلد صاحب قلعة شيزر في أواسط القرن الخامس للهجرة وكان شجاعاً مقداماً موصوفاً بقوة الفطنة. وكان قبل تملكه قلعة شيزر يتردد الى حلب وصاحبها يومئذ تاج الملوك محمد بن صالح. فوقع بينهما أمر أخاف سديد الملك من تاج الملوك . فخرج سديد الملك الى طرابلس الشام وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده . فعلم تاج الملوك بذلك فأراد الاحتيال في استقدام سديد الملك اليه للفتك به . فأوعز الى كاتبه أبى النصر محمد بن الحسين أن يكتب اليه كتابا يشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه اليه . وفهم ابو النصر الغرض الحقيقى من ذلك الكتاب وكان صديقاً لسديد الملك لكنه لم يرتدوحة عن كتابة الكتاب . فكتبه كما أمر به تاج الملوك حتى اذا بلغ الى قوله « ان شاء الله

تعالى » شدد النون فى ان وفتحها فجعلها « انّ » وأنفذ الكتاب . فلما وصل الكتاب الى سديد الملك قرأه ثم عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن في مجلسه من الخواص فاستحسنوا عبارة الكاتب واستعظموا ما فيه من رغبة تاج الملوك في سديد الملك وايثاره قربه . فقال سديد الملك « اني أرى في الكتاب ما لا ترون » ثم أجابه على الكتاب بما اقتضاه المقام وكتب في جملة ذلك «أنا الخادم المقر بالانعام» وكسر همزة « أنا » وشدد نونها فصارت « إنا » . فلما وصل الكتاب الى تاج الملوك ووقف عليه ابو نصر الكاتب سر بما فيه وقال لاصدقائه «قد علمت ان الذى كتبته لا يخفى على سديد الملك » وكان ابو نصر قد قصد بتشديد نون « إن » الاشارة الى الآية « ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » فأجابه سديد الملك بتشديد « انا » اشارة الى الآية « انا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها »

ومن تفننهم من هذا القبيل ما كتبه عضد الدولة بن بويه الى أبى منصور افتكين متولى دمشق . وكان افتكين قد كتب اليه كتاباً مضمونه « ان الشام قد صفا وصار في يدي وزال عنه حكم صاحب مصر ، وان قويتني بالاموال والعدد حاربت القوم فى مستقرهم » فكتب اليه عضد الدولة جواباً فى كلمات متشابهة لا تقرأ الا بعد الشكل والتنقيط والضبط وهي « غرك عزك فصارقصار ذلك دلك فاحش فعلك فعلك بهذا تهدا» الخ. أراد ان لا يقع الكتاب بيد احد فيطلع على ما فيه ففهم افتكين مراده وعمل به

ادوات الكتابة

القلم كانوا يصنعونه من القصب نحو مانفعل اليوم . واما الحبر وهو المداد فالظاهر انهم كانوا يصنعونه من مسحوق الفحم أو من الهباب مدوفاً بسائل لزج كالصمغ أو نحوه

وأما القرطاس فأقدم ما كتب فيه العرب من اول الاسلام الرق وهي الجلود وكتبوا أيضاً على الاقمشة وأشهرها نسيج مصري كانوا يسمونه القباطى وعليه كتبت المعلقات السبع قبل الاسلام واذا تعذر ذلك كتبوا على الخشب او العظام او على قطع الخزف او على الاحجار او نحو ذلك

ولما فتحوا مصر اتخذوا البردي (البابيروس) فكان اكثر مكاتبات الامويين على البابيروس والقباطى . وفي دار الكتب الملوكية في القاهرة آثار مخطوطة بالعربية عثروا عليها في بعض انحاء القطر المصري شاهدنا بينها صفحة من البابيروس

وقطعاً من القباطي وقد ظهر البلى فيها والكتابة لا تزال ظاهرة عليها . ورأينا قطعاً من الفخار عليها كتابة عربية أيضاً وتلك المخطوطات لا يتجاوز تاريخها آخر القرن الاول للهجرة . وكلها معروضة في معرض دار الكتب الملوكية

فلما كانت أيام الدولة العباسية اتخذوا الكاغد أشار به الفضل بن يحيى البرمكي فاصطنعوه . والارجح انهم أخذوه عن صناعة الصين لان الصينيين برعوا في صناعة الورق قبل الميلاد وكانت هذه الصناعة منتشرة في بلادهم . فلما فتح المسلمون سمرقند أخذوها عنهم لكنهم لم يجتهدوا فى تعاطيها الا في ايام الدولة العباسية اذ ضاقت الرقوق والجلود عن المكاتبات والمراسلات والسجلات فأشار الفضل باصطناعه فأنشأوا له المعامل في بغداد والشام وغيرهما من عواصم الاسلام . وكانوا الوسيلة الوحيدة في نشر صناعة الورق فى العالم . لان أهل أوربا لما أفاقوا من سباتهم في الاجيال الوسطى استخدموا الكاغد الشامي وكان اسمه عندهم Charta Damascena وانتقلت صناعة الورق الى أوربا بطريق الاندلس . فقد كان للعرب معامل لصناعة الورق في شاطبة وبلنسية وطليطلة . فلما دخلت الاندلس فى حوزة الافرنج استبقوا تلك المعامل ثم نقلت من اسبانيا الى سائر ممالك أوربا . ومن أقدم المخطوطات العربية على الكاغد نسخة من كتاب «غريب الحديث» في مكتبة ليدن الجامعة يظن انها كتبت في أوائل القرن الثالث للهجرة . وكتاب « ديوان الادب » في مكتبة المتحف البريطاني كتب في أوائل القرن الرابع

الحجابة

يراد بالحاجب فى دول الاسلام ما يراد بالتشريفاتي في هذه الايام . وهو الذى يتولى الاذن للناس في الدخول على الملك أو السلطان أو الامير ولا بد منه في الدولة حفظاً لهيبة الملك . وكلما أعرقت الدولة في المدنية واستغرقت في الترف تكاثف الحجاب بين ملكها ورعاياه . فكان الخلفاء الراشدون يفتحون أبواب مجالسهم لاى من كان ويخاطبون الفقير والغنى والصعلوك والقوى بلا حجاب ولا كلفة

فلما تحولت الخلافة الى الملك كان في جملة ما أدخلوه على الدولة التدقيق فى الحجاب وترتيب الناس في الدخول على الخلفاء بحسب طبقاتهم وأنسابهم . وأول من انتبه لذلك معاوية بن أبي سفيان نبهه اليه زياد بن أبيه . فكانوا يفضلون في الدخول أهل البيوتات أي أهل النسب فاذا تساوت الانساب فضلوا أهل السن . فاذا تساوت

فضلوا أهل الادب والعلم . لكنهم كانوا يبيحون الدخول لاربعة فى أى وقت شاءوا وهم المؤذن وطارق الليل ورسول الثغر وصاحب الطعام . ومن هذا القبيل قول زياد لحاجبه « وليتك حجابتى وعزلتك عن أربعة: هذا المنادى الى الله في الصلاة والفلاح لا تفرجنه عني فلا سلطان لك عليه . وطارق الليل لا تحجبه فشر ما جاء به ولو كان خيراً ما جاء به في تلك الساعة . ورسول الثغر فان أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله على وان كنت فى لحافى . وصاحب الطعام فان الطعام اذا أعيد تسخينه فسد »

فلما جاءت دولة بني العباس وصارت الى ما هو معروف من العز والترف زادوا في منع الناس عن ملاقاة الخليفة الا في الامور الهامة وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثانى . وصار بين الناس والخليفة داران دار الخاصة ودار العامة يقابل كل فئة في مكان على ما يراه الحجاب . وتطرقوا عند انحطاط الدولة الى حجاب ثالث أحصن من الاولين . ولا يكون هذا الا عند الحجر على صاحب الدولة . وذلك ان أهل الدولة كانوا اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وأرادوا الاستبداد عليهم فأول ما يتوخونه حجب البطانة وسائر الاولياء عنهم ويوهمونهم ان في مباشرتهم خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الادب كما حدث في آخر أيام الدولة العباسية ولا يكون ذلك الا في أواخر الدولة

النقابة

النقابة ونعني نقابة الاشراف سموها بذلك اشارة الى انها تتعلق بأشراف المسلمين وهم أهل بيت النبي . وذلك ان عائلة النبي كانت في أوائل الاسلام محفوظة الحرمة لقرب عهدهم من النبوة فكانوا يجعلون على أهل بيت النبي رئيساً منهم يتولى أمورهم ويضبط أنسابهم ويدون مواليدهم ووفياتهم وينزههم عن المكاسب الدنيئة ويمنعهم من ارتكاب المآثم ويطالب بحقوقهم ويدعوهم الى أداء الحقوق وينوب عنهم في المطالبة بحقوقهم في سهم ذوي القربى من الفيء والغنيمة ويقسمه بينهم ويمنع أيامهم أن يتزوجن الا من الاكفاء وغير ذلك مما يشبه الوصاية العامة وكان نقيب الاشراف وصيهم

وكانت نقابة الاشراف من المناصب السامية ولها الشأن الاول من الشرف بعد الخلافة ـ ولذلك قال الشريف الرضي نقيب الاشراف يخاطب الخليفة القادر بالله العباسي من قصيدة :

عطفاً أمير المؤمنين فانتما ... في دوحة العلياء لا تتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً كلانا فى المعالى معرق

الا الخلافة ميزتك فانني أنا عاطل منها وأنت مطوق

وكان الخلفاء يكتبون لنقباء الاشراف عهوداً وتقاليد تدل على جلالة قدرهم ورفعة منزلتهم . وكانوا كثيراً ما يعهدون اليهم بسقاية الحج وديوان المظالم من الخطط السامية . وما زالت الدول الاسلامية تحترم نقابة الاشراف فى كل أدوار تاريخها حتى الدولة العثمانية فانها لا تزال محافظة على ذلك الى الآن. فنقيب الاشراف فيها يقدم في التشريفات الرسمية على سائر رجال الدولة العلية حتى الصدر الاعظم وشيخ الاسلام

مشيخة الطرق الصوفية

مشيخة الطرق الصوفية من المناصب الدينية التى حدثت بعد حدوث الصوفية . ولصاحبها التكلم على جميع الطرق الصوفية . والشأن في هذه الطرق ان لكل طريقة شيخاً ولكل شيخ خلفاء في القرى والامصار ولكل خليفة مريدين . فالشيخ يدير أمر الخلفاء والخليفة يدير أمر المريدين من حيث ارشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتربيتهم ونحو ذلك . ولشيخ المشايخ الولاية العامة على الجميع . ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها أعمالهم وتتوحد بها مقاصدهم بل كانت كل طريقة أو زاوية مستقلة بنفسها فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن . فلما أنشأ السلطان صلاح الدين الايوبى خانقاه سعيد السعداء وسماها دوبرة الصوفية جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ . وكان لا يولى عليها الا أعاظم رجال الدولة من الاكابر والاعيان كأولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه مع ماكان لهم من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش . ووليها ذو الرياستين الوزير الصاحب تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الاعز وغيره . وما زالت الحال كذلك الى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر في القرن التاسع للهجرة فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكري . وكان من أعظم رجال عصره علماً ودينا . قال الشعراني عنه « ولو قلت انه أعلم أهل زمانه لم أبعد عن الصواب » ثم تولاها بعده ابنه الامام شيخ الاسلام المفسر الشهير ابو السرور البكري وانتقلت بعده الى ذريته ولا تزال الى الآن فى البيت البكرى الصديقى بمصر

تم الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي
بحمد الله وعونه

فهرس الجزء الاول

من تاريخ التمدن الاسلامي

صفحة

٣ المقدمة
٩ مقدمات تمهيدية
١٠ العرب والتمدن
١٣ عرب اليمن
١٨ عصر الجاهلية في الحجاز
١٨ الآداب الدينية الجاهلية
٢١ حكومة العرب في الجاهلية
٢١ الكعبة والتجارة وقريش
٢٤ النهضة العربية قبل الاسلام
٢٥ سبب تلك النهضة
٢٧ الدولة الاسلامية كيف نشأت
٢٧ الدعوة الاسلامية
٣٢ الروم والفرس عند ظهور الاسلام
٤٠ انتشار الاسلام ـ الغزوات
٤٤ الفتوح
٤٨ الخلفاء الراشدون
٥٣ الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام
٥٤ ما الذي جرأ العرب على الفتح
٥٦ ما الذي ساعدهم على الفتح
٦٥ عود الى الخلفاء الراشدين . الفتنة
٦٨ أحوال الخلفاء الراشدين
٦٩ دولة بني أمية
٧٠ الخلافة وبنو أمية
٧٣ خلفاء بني أمية

صفحة

٧٥ بنو العباس والدعوة العباسية
٧٦ الدولة العباسية
٧٨ الدولة الاموية في الاندلس
٨٠ الدولة الفاطمية
٨١ سائر الدول الاسلامية
٨٦ المملكة الاسلامية
٩٠ احصاؤها
٩١ مقدار العمارة
٩٥ مناصب الدولة الاسلامية
٩٥ نمو الدولة الاسلامية
٩٧ تشعب المناصب
٩٩ الخلافة
١٠١ مبايعة الخلفاء
١٠٥ بيعة ولى العهد
١٠٦ علامات الخلافة
١٠٦ البردة
١٠٦ الخاتم
١٠٩ شارات الخلافة
١٠٩ الخطبة
١٠٩ السكة أو النقود
١١٤ الطراز
١١٨ ولاية الاعمال
١١٨ الولايات قبل الاسلام
١١٩ الولايات في الاسلام

صفحة

١٢١ الامارة العامة
١٢٣ الأمارة الخاصة
١٢٣ رواتب العمال
١٢٤ الوزارة وما يتبعها
١٢٥ أمير الامراء
١٢٦ وزارة التفويض
١٢٧ وزارة التنفيذ
١٢٨ السلطان
١٣٠ أصل الجند ونظامه
١٣٠ جند الروم
١٣١ جند الرومان
١٣٢ جند العرب
١٣٣ تنظيم جند العرب
١٣٥ جند الاعاجم
١٤٢ ديوان الجند
١٤٣ أعطيات الجند
١٤٦ عدد الجند
١٥١ اللواء أو الراية
١٥٤ الموسيقى
١٥٥ السلاح
١٥٨ آلات الحصار
١٦٢ النار اليونانية
١٦٣ اختراع البارود
١٦٤ المدافع
١٦٥ تعبية الجيوش
١٧٢ الثغور والعواصم
١٧٣ الغزوات
١٧٤ الاساطيل

صفحة

١٨٢ بيت المال
١٨٢ الصدقة
١٨٤ الغنيمة
١٨٦ الفيء
١٨٨ تاريخ الجزية
١٨٨ مقدار »
١٩٠ الخراج وتاريخه
١٩٥ ضرائب أخرى
٩٦ الاقطاع
١٩٨ مصلحة البريد
٢٠٠ طرق البريد
٢٠٠ حمام الزاجل
٢٠١ طرق أخرى للمخابرة
٢٠٢ القضاء
٢٠٢ القضاء في الاسلام
٢٠٤ عمل القاضي
٢٠٦ راتب القاضي
٢٠٧ ديوان المظالم
٢٠٩ دار العدل
٢٠٩ الحسبة
٢١٠ الشرطة
٢١١ الكتابة
٢١٢ ديوان الانشاء
٢١٣ التوقيع
٢١٧ أدوات الكتابة
٢١٨ الحجابة
٢١٩ النقابة
٢٢٠ مشيخة الطرق الصوفية

تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث فى نشوء الدولة الاسلامية وتاريخ مصالحها
الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها وتاريخ العلم
والادب والتجارة والصناعة فيها ونظام الهيئة
الاجتماعية وآدابها والعادات والاخلاق الخ

تأليف

جرجى زيدان

منشىء الهلال

الجزء الثانى

فى ثروة الدولة الاسلامية وثروة رجال حكومتها
وخلفائها وأسباب تكون تلك الثروة وأسباب
انحطاطها وثروة المملكة ومدنها وقراها

(الطبعة الخامسة)

مطبعة الهلال

سنة ١٩٤٧



مقدمة الطبعة الاولى

فى مثل هذا اليوم من العام الماضى صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وكان لصدوره تأثير فى عالم الاقلام لاهمية موضوعه وحداثة عهده فى هذا اللسان . فقرظته الصحف وكتبت فيه المقالات الانتقادية ووردت الينا كتب الفضلاء من رجال العلم فى مصر وسوريا وأوربا وأميركا وفارس والهند مشحونة بعبارات التنشيط والاستحثاث على المثابرة فى هذا السبيل وفيهم من لم يكن يظن تأليف هذا الكتاب ممكنا لقلة المآخذ المساعدة على ذلك فزادنا هذا كله نشاطا واقداما على هذا العمل الجليل

ومن غريب ما اتفق لنا فى أثناء تأليف هذا الكتاب اننا أعلنا عزمنا على تأليفه ونحن لا نتوقع أن يجتمع عندنا من مواده ما يزيد على مثل هذا الجزء فلما شرعنا فى درس الموضوع والتنقيب عما ينطوى تحته من الابحاث الفلسفية التاريخية مما يتعلق بعوامل التمدن الاسلامى انكشف لنا من أحوال ذلك التمدن ما لم يكن يخطر بالبال فاتسع المجال للقلم فرأينا الموضوع يشغل أربعة أضعاف ما قدرناه . فأصدرنا الجزء الاول وفيه مقدمات تمهيدية عن حال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الأخيرة ثم ظهور الاسلام وانتشاره ونشأة الدولة الاسلامية وتواريخ مصالحها وجندها وبيت مالها . وقلنا فى مقدمة ذلك الجزء اننا سننشر بقية الكتاب فى ثلاثة أجزاء أخرى فى مثل حجمه

فلما باشرنا كتابة الجزء الثانى زاد المجال اتساعا ولم يعد يكفى الباقى منه أربعة أو خمسة أجزاء غير هذا بحيث تزيد أجزاء الكتاب كلها على ستة أو ربما سبعة أجزاء مما لا يمكن تحديده الا بعد الفراغ من كتابته

أما هذا الجزء فموضوعه « ثروة المملكة الاسلامية » وهى ركن عظيم من أركان ذلك التمدن . وقد قسمنا البحث فيها الى « ثروة الدولة الاسلامية » أى ثروة الحكومة ورجالها والى « ثروة المملكة الاسلامية » أى ثروة البلاد وأهلها . وبحثنا فى ثروة الدولة بحثا تاريخيا فلسفيا فابتدأنا بتاريخ تلك الثروة من أيام النبى فالخلفاء الراشدين فبنى أمية فالعباسيين . وبينا الاسباب التى دعت الى تقلب هذه الثروة واختلافها باختلاف تلك الدول وعلاقة ذلك بطبيعة كل دولة ونظامها وقوانينها . حتى وصلنا الى ثروة الدولة الاسلامية فى العصر العباسى فقسمناه الى عصرين « الأول » وهو العصر الزاهر و « الثانى » أو عصر الانحطاط . وفى العصر العباسى الأول نضجت الثروة وبلغت معظمها ففصلنا الكلام فيه تفصيلا

وصدرناه بتمهيد فى تاريخ ذلك العصر وما ساعد على قيام هذه الدولة ثم عمدنا الى النظر فى ثروة الدولة العباسية وقبل الشروع فيه أتينا بفذلكة فى جغرافية المملكة الاسلامية فى القرن الثالث للهجرة شفعناها بخريطة لبيان نسبة الولايات الاسلامية بعضها الى بعض . ثم ذكرنا ثروة العباسيين من أيام السفاح والدولة فى طفولتها حتى بلغت أشدها فى أيام الرشيد والمأمون فأتينا بثلاث قوائم ماليـة عن ارتفاع جبايتها فى أيام المأمون وبعيده وقابلنا بينها فكان مقدار ما يبقى فى بيت مال الحكومة نحو ٣٠٠ مليون درهم فى السنة وهى بقية لم تتفق لدولة من الدول . فعمدنا الى النظر فى أسـباب تلك الثروة فأفضى ذلك الى النظر فى مصادر الجبـاية ونفقاتها وأسباب كثرة الخراج وقلة النفقة . فأسباب كثرة الخراج أربعة : (١) سعة المملكة الاسلامية (٢) اشتغال الناس فى الزراعة وتعمير البلاد (٣) ثقل الخراج المضروب (٤) صدق العمال فى توريد المال المجموع . وأسباب قلة النفقة ثلاثة : (١) قلة الموظفين (٢) عدم وجود الدين على الحكومة (٣) اقتصاد الخلفاء الاولين

ولما فرغنـا من الثروة العباسية فى العصر الاول نظرنا فى أحوالهـا فى عصر الانحطاط وقدمنا الكلام بفصل فى علة ذلك الانحطاط ثم مقدار الجباية فى ذلك العصر . وبحثنا فى سبب تناقصها فحدا ذلك بنـا الى النظر فى أسباب قلة الجبـاية وكثرة النفقات ـ وأسباب قلة الجبـاية خمسة : (١) ضيق المملـكة (٢) تخفيض الخراج المضروب (٣) استئثار العمال بالجباية (٤) انشغال الناس بالفتن عن العمل (٥) تحـول أكثر البـلاد الى ضياع . وأسباب كثرة النفقات خمسة أيضـا : (١) اسراف الخلفاء ونسائهم وفيه بحث فيما بلغت اليه ثروة نسـاء الخلفاء (٢) كثرة أبواب النفقة فى الدولة (٣) زيادة الرواتب ـ وتحت هذا الباب تفصيل عن تاريخ رواتب موظفى الحكومة من العمال والـكتاب والوزراء والقضاة ثم أهـل الخلفاء وحاشيتهم فالجند ورواتب أخرى (٤) النفقة على البيعة (٥) استئثار رجال الدولة بالأموال لانفسهم ويتفرع من ذلك بحث عن حـال الوزراء فى عصر الانحطاط وتفشى داء الرشوة فيهم وما يجتمع اليهم من الاموال وبيت مال الحـكومة فارغ والخلفاء يشكون الفقر . وما آل اليه ذلك من مصـادرة الوزراء وأخـذ أموالهم بالقوة وبحثنا مثل هذا البحث أيضا فى العمال والكتاب والحجاب وختمنا هذا القسم بخلاصة اجمالية للموضوع

ثم عمدنا الى النظر فى القسم الثانى وهو « ثروة المملكة الاسلامية » أى ثروة البلاد وأهلها فتكلمنا اجمالا عن حالة البلاد فى ذلك العصر ، وعن اختصاص الثروة بالمدن وأسباب انحصارها فى الفئـة الحاكمة ومن ينتمى اليهم من أهل الوجـاهة

والنفوذ وسائر أهل البلاد فى فقر مدقع . وختمنا الكلام بوصف أشهر المدن الاسلامية فى مصر والشام والعراق والغرب كالبصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها وما بلغت اليه من الثروة والعمران فى عهد ذلك التمدن

ولما صدر الجزء الاول من هذا الكتاب عرف الفضلاء أهمية موضوعه ووعورة مسلكه فعمد أرباب الاقلام الى تقريظه وانتقاده فى الجرائد والمجلات فضلا عن الكتب الخصوصية فرأينا فى مجمل ذلك ما نشطنا لكننا رأينا لبعضهم انتقادا لمواضع من الكتاب عدها خطأ لانها لا تطابق ما يعلمه هو من مآخذ هذا الموضوع فرددنا عليه وبينا له ان التبعة فى ذلك على قلة ما وصلت اليه يده من تلك المآخذ وأسندنا كل قول من أقوالنا الى مصدر وثيق أجمع المؤرخون على صحته (راجع المؤيد عدد ٣٧٥٧ و٣٧٥٨) وقرأنا نحو ذلك الانتقاد فى جرائد أخرى تعجل فيها الكاتب الى الحكم علينا بالخطأ فى بعض المواضع ـ والخطأ فى تعجله ـ لاننا لم ننقل حقيقة تاريخية عن غير الثقات من المؤرخين . وقد أوردنا أكثر أسمائهم فى مقدمة الجزء الاول فلو اطلع المنتقدون على تلك المصادر لكفوا أنفسهم مؤونة الانتقاد . وكان قد خطر لنا ونحن نكتب ذلك الجزء أن نذيل صفحاته بالمآخذ التى نقلنا عنها تلك الحقائق ولكننا أمسكنا عن ذلك ضنا بصفحات الكتاب لاننا لم نبد رأيا ولا قلنا قولا الا وسندنا فيه كتاب أو عدة كتب فالاشارة الى تلك الكتب فى ذيل الصفحات تستغرق جانبا منها ـ على أننا لو فعلنا ذلك لكفينا أنفسنا وكفينا حضرات المنتقدين مؤونة العناء فى الاخذ والرد بلا طائل

وقد توسمنا فى مجمل ما قرأنا من التقاريظ والانتقادات رغبة حضرات الكتاب فى ذكر المآخذ ، وكتب الينا جماعة من أهل الفضل الغيورين على العلم يستحثوننا على ذلك وبينهم بضعة من علماء الهند وفارس نذكر منهم عالما كبيرا من علماء الهند عرف قراء العربية فضله من بعض ما نشر بينهم من آثار علمه ـ نعنى صديقنا شمس العلماء الشيخ شبلى النعمانى ناظر العلوم والفنون فى حيدر أباد دكن فانه من أوسع الناس اطلاعا على التاريخ الاسلامى وآدابه . فلما اطلع على الجزء الاول كتب الينا كتابا يسفر عن تقديره هذا الموضوع حق قدره ولكنه انتقد اغفالنا ذكر المآخذ فى ذيول الصفحات قال : « استلمت كتاب تاريخ التمدن الاسلامى بغاية الشوق لان موضوع الكتاب يهمنى بنوع خاص . ولم أعرضه على أحد الا أعجب به غاية الاعجاب وظنى أن تأليفكم هذا يترجم الى لساننا الاردو (الهندستانى) ولا شك انه يقع موقع القبول فى البلاد الاسلامية كلها . ولكننى أنتقد عليكم أمرا لا يسعنى كتمانه وهو ان دأبكم فى التأليف انكم تكتفون بذكر مصادر الكتاب فى أوله اجمالا من غير التزام الاستشهاد فى كل محل وموضوع ـ

وفيه مفاسد كثيرة ـ منها اننا رأينا كثيرين من مستشرقى أوربا يذكرون أمورا مهمة من المسائل العلمية أو الاختراعات وينسبونها الى العرب فنغتر بذلك ويذهب بنا الفخر كل مذهب ثم اذا راجعنا الاصل وحققنا الامر يظهر انهم استنوقوا الجمل وما كان هناك شىء يذكر ولا مأثرة تنقل ـ لا نقول انهم يتعمدون الكذب ولكنهم يغلطون فى الاستنباط . فلو كانوا يذكرون مصادر الرواية وماخذها لكان يسهل لنا المراجعة اذا مست الحاجة . ومنها أن كتب التواريخ لها مدارج ومراتب فما لم تذكر أسماء الكتب بالخصوص لا يتميز جيد الرواية من رديئها ولا أقواها من أضعفها » اه

فلما عمدنا الى كتابة هذا الجزء رأينا أن نعود الى رأينا الاول فنذيل صفحاته بالماخذ التى اعتمدنا عليها مع تعيين الكتاب والجزء والصفحة . واختصرنا فى ذلك جهد الطاقة ضنا بالمكان ولا يخفى ما يقتضيه هذا العمل من التدقيق والمراجعة . وفى تقليب صفحات هذا الجزء قبل تصفحها دلالة كافية على مقدار ما بذلناه من العناء فى تأليفه وخصوصا لانه أول كتاب فى هذا الموضوع كتب على هذا النسق

وليس تاريخ التمدن الاسلامى من الكتب التى يلهو بها العامة للتسلية ولا من الكتب الفكاهية كالروايات ونحوها . وانما هو موضوع تاريخى اجتماعى يبين أسباب نشوء المدنية وأسباب انحطاطها ويتخلل ذلك أبحاث فلسفية فى علاقة تلك الاسباب بعضها ببعض وما ينجم عنها من العبرة والموعظة فهو من الكتب التى يقرأها الخاصة أهل الاطلاع ـ ولم نعمد الى تأليفه الا بعد أن أعددنا أذهان القراء الى هذا الموضوع بما نشرناه بين ظهرانيهم من الروايات التاريخية الاسلامية منذ عدة أعوام مما تلذ قراءته للخاصة والعامة بما تحويه من الحقائق التاريخية فى سياق الحكاية الغرامية . فلما تهيأت الاذهان ورأينا فى القراء شوقا الى مطالعة التاريخ الاسلامى عمدنا الى تأليف هذا الكتاب وهو تاريخ الاسلام الحقيقى لان تاريخ الامة لا يقوم بسرد حروبها وفتوحها وانما هو تاريخ نشوئها وتنظيم حكومتها وتاريخ ثروتها وعلومها وآدابها ونظامها الاجتماعى ومصيرها ـ أو هو تاريخ تمدنها . ولنا فيما بسطناه من وعورة هذا المسلك عذر على ما قد يعتور مشروعنا من النقص . والكمال لله وحده

طبع ثانية سنة ١٩١٩ وثالثة سنة ١٩٢١ ورابعة سنة ١٩٢٦ وخامسة سنة ١٩٤٧

ظواهر التمدن وحقيقته

لخصنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب نشأة الدولة الاسلامية وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية تمهيداً للنظر فى تمدنها . ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين وحقيقة تنجلى منه للباحثين . أما الظواهر فهى ما نراه من ثمار ذلك التمدن كالثروة والابهة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها . وأما حقيقة التمدن فهى ما ينتج عنه من الخير أو الشر من السعادة أو الشقاء للمستظلين بظله أو سواهم من بنى الانسان . ومن ظواهر التمدن الاسلامى الثروة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها . وسنحصر بحثنا فى هذا الجزء بثروة المملكة الاسلامية دون سواها

والبحث فى ثروة المملكة يقتضى النظر فى مصادر تلك الثروة وأسبابها وأوجهها باعتبار الدول والاعصر والنظر فى ثروة كل عصر مع تفرق الثروة فى الاهالى أو حصرها فى فئة منهم أو في الحكومة أو فى رجالها مع اعتبار ما يلحق ذلك من وصف ثروة المدن والابنية وغيرها

ومعلوم أن المملكة الاسلامية بلغت معظم ثروتها فى العصر العباسى . فلو كان غرضنا مجرد وصف تلك الثروة لا كتفينا بالاشارة الى مقدار ما كان يحمل الى بيت المال من الجبايات وما كان عليه الخلفاء وأتباعهم من الغنى والبذخ وعددنا موارد الثروة ومصادرها ـ ولكننا عولنا منذ أخذنا فى تأليف هذا الكتاب أن نسند كل حادث الى أسبابه بالبحث عن العلل الحقيقية وتتبع الاسباب الى أصولها وعلاقة ذلك كله بالمجموع العام مع اعتبار الاحوال واختلافها باختلاف العصور

والمملكة الاسلامية عند التخصيص هى غير الدولة الاسلامية لأن هذه عبارة عن الحكومة ورجالها وأما المملكة فهى البلاد وأهلها . فيحسن والحالة هذه أن نقسم الكلام فى الثروة المذكورة الى ثروة الدولة الاسلامية وثروة المملكة الاسلامية ونتكلم فى كل منهما باعتبار العصور المتقدم ذكرها

وبناء على ذلك سنجعل الكلام فى ثروة الدولة الاسلامية باعتبار العصور فنبدأ بعصر النبى فالخلفاء الراشدين فبنى أمية فالعباسيين . ونقسم كل عصر الى أبواب بعضها للبحث فى ثروة الحكومة أو بيت المال والبعض الآخر للبحث فى ثروة رجال الحكومة وما يستلزمه ذلك من النظر فى أسباب تلك الثروة وعلة كثرتها أو قلتها

وتاريخ الخراج والجزية وغيرها وأبواب النفقة وغير ذلك

ثروة الدولة الاسلامية مرت فى خمسة أدوار أو أعصر وهى (١) عصر النبى (٢) عصر الخلفاء الراشدين (٣) عصر بنى أمية (٤) عصر العباسيين الاول أو عصر الزهو العباسى (٥) عصر العباسيين الثاني أو عصر الانحطاط . أما الدول الاسلامية الاخرى فى مصر والاندلس وغيرها فالكلام فى ثروتها يأتى عرضاً بطريق الاستشهاد أو التمثيل لأن المراد بالتمدن الاسلامى انما هو التمدن العباسى الشهير

ثروة الدولة الاسلامية

(١) عصر النبى من سنة ١ ـ ١١ هـ

اذا كان المراد بثروة الدولة ما يزيد من دخلها على خرجها أو ما تختزنه بعد نفقاتها من الاموال ونحوها فالدولة الاسلامية فى عصر النبي لم يكن عندها ثروة حقيقية لأنهم لم يكونوا يختزنون مالا ولا كان عندهم بيت مال بل كانوا اذا أصابوا غنيمة فرقوها فيما بينهم . وكذلك الصدقات فانها كانت تفرق فى أهلها واذا ظل منها شيء استبقوه لحين الحاجة اليه . وكان النبي يتولى ذلك بنفسه وأكثر الصدقات من الماشية والابل والخيل فكان يسمها بميسم خاص بها تمتاز به عن سواها

فكانت ثروة الدولة فى عصر النبي عبارة عن بقايا الزكاة من إبل أو خيل أو ماشية وتمتاز عن أموال سائر الناس بمراع خاصة كانت تحبس فيها بالبقيع قرب المدينة يعبرون عنها بالحمى[١] وبميسم كان النبي نفسه يسمها به[٢] وبلغت الاموال فى أيام النبي نحو ٤٠٠٠٠ بين إبل وخيل وغيرها[٣] ومن هذه الاموال وما يلحق بها من مال الصدقة النقد كانوا ينفقون على غزواتهم وعلى تحصيل الزكاة واعالة الفقراء ونحوهم

(٢) عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ ـ ٤١ هـ

هذا هو عصر الاسلام الذهبي . عصر العدل والتقوى كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة والغيرة الحقيقية على الدين ونبذ الدنيا . وهو العصر الذى اتخذه المسلمون منوالاً ينسجون عليه وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا

(١) الماوردى ١٧٦ (٢) البخارى ١٩٠ ج ١ (٣) شرح الموطأ (خط)

اليها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لأن الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسى ونشأت فى الخلفاء والعمال المطامع وأخذوا فى حشد الأموال بأية وسيلة كانت

﴿ بيت المال ﴾ توفى النبي والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ولم يكن عندهم بيت مال للاسباب التى قدمناها ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلا ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة وكانت النقود قليلة بين أيديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الاموال ذهباً وفضة فدهشتهم كثرتها وتنبهوا لها ـ يقال ان أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال وفير فقال له عمر « بما جئت » قال « بخمسمائة ألف درهم » فاستكثره عمر وقال «أتدرى ما تقول» قال « نعم مئة ألف خمس مرات » فصعد عمر المنبر وقال « أيها الناس قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلنا لكم كيلا وان شئتم عددنا لكم عداً »(١) وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين(٢) باعتبار السابقة والقرابة من النبي ولكنه نهى عن اختزان المال فقال له قائل « يا أمير المؤمنين لو تركت فى بيوت الاموال شيئاً يكون عدة لحادث اذا حدث » فزجره عمر وقال له « تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهى فتنة لمن بعدى انى لا أعد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله وهى عدتنا التى بلغنا بها ما بلغنا »(٣)

فلما كثرت الاموال فى أيام عمر ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المال وحرم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة أو المزارعة(٤) لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال حتى الى عبيدهم ومواليهم ـ أراد بذلك أن يبقوا جنداً على أهبة الرحيل لا يمنعهم انتظار الزرع ولا يقعدهم الترف والقصف . فاذا أسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الأصليين صار ما كان فى يده من الارض وداره الى أصحابه من أهل قريته تفرق فيهم وهم يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ويسلمون إليه ماله ورقيقه وحيوانه ويفرضون له راتباً فى الديوان مثل سائر المسلمين (٥)

والغرض الذى كان يرمى اليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدراً للمال الذى يحتاج اليه المسلمون فى إتمام الجهاد ووقفاً لمصالحهم مدى الدهور .

(١) المقريزى ٩٢ ج ١ (٢) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ١٥٦ (طبعة ثالثة) (٣) ابن الأثير ٢٤٨ ج ٢ والفخرى ٧٥ (٤) المقريزى ٢٥٩ ج ٢ (٥) ابن عساكر (نسخة كريمر)

أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ولا تمضي بضعة أجيال حتى تصير أملاكا خاصة بهم[١] وعمر يريد أن يبقيها محبوسة على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لا تباع ولا تورث لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد[٢] وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموى وكان يتحدى ابن الخطاب بكل خطواته فقال « أيما ذمي أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله وما كان من أرض فانها من فيء الله على المسلمين ، وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم »[٣] فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الاعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما

﴿ ثروة الخلفاء وعمالهم ﴾ علمت مما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة . فلما توفى أبو بكر لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا ديناراً واحداً سقط من غرارة[٤] لأنه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء لا ينظر الى مصلحة نفسه بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه . وذلك أربعون ألف درهم غير ما اكتسبه من التجارة لانه كان يتجر ليستعين على النفقة ثم فرضوا له مالا معيناً من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم . فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين[٥] وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما

وأخبار عمر بن الخطاب بالزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر . ويقال بالاجمال إنه مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمتن دعائم الملك ـ أسسها على العدل والتقوى والزهد والاستهلاك فى نصرة الحق مما يندر اجتماعه فى رجل واحد وقد يوهم لغرابته أنه من قبيل المبالغة . ويسهل علينا التصديق به إذا تذكرنا النتائج التى ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع مثله فى التاريخ ـ يكفى منها تلك الفتوح التى جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال فى المدينة كما ينصب الماء من الميازيب وعمر مع ذلك لايلتفت اليه ولايأخذ منه ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين وكان إذا احتاج إلى مال فوق راتبه جاء الى بيت المال فاستقرضه حتى يفيه إياه من عطائه فيما بعد[٦] ولما طعن وأحس بدنو الأجل قال لابنه « إنى استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفاً فاترد من مال ولدى فان لم يف مالهم فمال آل الخطاب »[٧] وزهده فى الطعام واللباس مشهور

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ١٤ (٢) ابن عساكر (٣) المقريزى ٧٧ ج ١ (٤) ابن الأثير ٢٠٤ ج ٢ (٥) ابن الأثير ٢٠٧ ج ٢ (٦) ابن الأثير ٢٩ ج ٣ (٧) اليعقوبى ١٨٣ ج ٣

ويقال نحو ذلك فى الامام على فقد كان مغالياً فى الزهد والعدل . ومن أقواله « تزوجت بفاطمة ومالى فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلق عليه ناضحنابالنهار ومالى خادم غيرها» وجاءه فى أيام خلافته مال من اصبهان فقسمه على سبعة أسهم فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة أسهم ودعا أمراء الأسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطى أولا . ولم يبن على آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وكان يأتى بحبوبه من المدينة فى جراب و قيل إنه أخرج سيفاً له إلى السوق فباعه وقال « لو كان عندى أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه » ومناقبه لا تحصى (١)

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى وحسن الاعتقاد فى الاسلام . فكان عمر إذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه وهو لايرى فى ذلك غبناً ـ كذلك فعل بسعد بن أبى وقاص عامله على الكوفة وعمرو بن العاص عامله على مصر وأبى هريرة عامله على البحرين (٢) وغيرهم

ولا غرابة فى ذلك لأن العامل إذا رأى خليفته زاهداً تقيا يمنع نفسه من كل شيء ويستهلك فى مصلحة الأمة فانه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه . على أن الخليفة نفسه لا يولى أعماله إلا من يكون على رأيه وخلقه وخصوصاً عمر فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلهم لأقل تهمة ـ ذكر أنه استعمل على حمص رجلا اسمه عمير بن سعد فلما انقضت السنة كتب اليه « أقدم الينا » فلم يشعر عمر إلا وقد قدم اليه الرجل ماشياً حافياً عكازه فى يده واداوته ومزوده وقصعته على ظهره . فلما رآه عمر قال « ياعمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء » فقال « يا أمير المؤمنين أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن وقد جئت اليك بالدنيا أجرها بقرابها » فقال « ومامعك من الدنيا » قال « عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدواً إن لقيته ومزود أحمل به طعامى» فقال « ماصنعت بعملك ياعمير » قال « أخذت الابل من أهل الابل والجزية من أهل الذمة ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فوالله ياأمير المؤمنين لو بقى عندى منها شيء لأتيتك به » فقال له « عد إلى عملك » (٣)

ولا بد لنا مع ذلك من أن نقف هنيهة للنظر فى أمر يفتقر إلى تفسير . قلنا إن عمر لم يكن يختزن مالا ونهى عن اختزانه فلو كانت الأموال التى ترد إلى بيت المال تفرق على السواء كما كانت تفرق الغنائم فى أيام النبى وأبى بكر لهان عليه أن لايختزن ولكنه فرض

(١) ابن الأثير ٢٠٢ ج ٣ (٢) اليعقوبى ١٨١ ج ٢ (٣) المستطرف ٩١ ج ١

أعطية معينة يتناولونها كل عام . ونعلم أيضاً أن الأموال زادت كثيراً في أيامه بما انضم اليهم من الأعمال بالفتح وكلها تؤدى الخراج والجزية فضلا عما يلحق بيت المال من الغنائم ـ فما الذى كان يفعله عمر بما يفيض من تلك الأموال بعد دفع الأعطية المذكورة ؟ يظهر أنه كان يفرقه فى أهل الحاجة أو لعله كان يستبقى بعضه على أن يفرقه ولا يعد ذلك اختزانا لأنه إنما منع الاختزان للحرب

﴿ اقتناء المسلمين للأموال ﴾ على أن رأى عمر بعدم اختزان المال ينافى المبدأ الأساسى الذى تقام عليه الدول وتتأيد به السلطات لأن اختزان الأموال من ضروريات الملك . ولكن المسلمين الاولين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكا سياسياً ولذلك لم تطل مدتهم إلا ريثما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها فعاد الناس الى فطرتهم وتسابقوا الى حشد الاموال والاستئثار بالسلطة

وقد باشروا ذلك فى أيام عثمان بن عفان (سنة ٢٣ ـ ٣٥ هـ) لأنه لم يكن شديداً مثل عمر وكان مع ذلك أموياً فاعتز الأمويون به وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التى كانت لهم فى الجاهلية وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها بعد الاسلام لأن النبى منهم [١] فأخذ عثمان يولى الاعمال رجالا من أقربائه وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا يأسا من فوزه على المسلمين . وكثرت فى أيامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يستخص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هـ فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منها ٢٥٠٠٠٠٠ دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته [٢] وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال . وأبطل عثمان محاسبة العمال لانهم من أهله فازدادوا طمعاً فى حشد الاموال لانفسهم وخصوصاً معاوية بن أبى سفيان عامله على الشام وهو أكثرهم دهاء وأبعدهم مطمعاً فكان فى مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر فى منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام وأقروا الأرضين فى أيدى أصحابها كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قواد جند الروم فلما غلبت الروم وفر البطارقة أو قتلوا ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها فأوقفها المسلمون على بيت المال فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمنها) ويضيفون دخلها الى بيت المال . فلما استقر معاوية على ولاية الشام واقتدى بالروم فى البذخ واتخاذ الحاشية لم يعد راتبه يكفيه

(١) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ٧١ (طبعة ثالثة) (٢) اليعقوبى ١٩١ ج ٢

ورأى من عثمان ضعفاً وميلا فكتب اليه ان الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ومن رسل الروم ووفودهم ووصف فى كتابه هذه المزارع وأن لا مالك لها وليست هى من قرى أهل الذمة ولا الخراج وسأله أن يقطعه إياها (١) . وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله فى الشام راتباً مقداره ألف دينار فى السنة (٢) وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال فى تلك الأيام . فلما طلب من عثمان أن يقطعه تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبساً على فقراء أهل بيته فجرأه ذلك على التمادي فى اقتناء الأرضين وبيعها فى أيام خلافته والاذن للمسلمين فى ذلك

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة فاقتنوا الضياع والعقار وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم وزادت أموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فانه اقتنى الضياع الكثيرة واختزن الاموال فوجدوا عند خازنه بعد موته ١٥٠ ٠٠٠ دينار و ١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما ١٠٠ ٠٠٠ دينار وخلف خيلا وإبلا (٣) والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال وأغراه أهله على ذلك وخصوصاً معاوية ـ ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً

ومن أسباب شيوع الاملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الارضين مما لم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئاً لبيت المال بمقابل الايجار أو الضمان كما تقدم . فلما حصلت فتنة الاشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم (٤)

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية فى هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فيه فنقموا عليه وخصوصاً الفقهاء ورجال التقوى . وفى حكاية أبى ذر الغفارى ما يغنى عن البيان . فقد كان هذا الرجل مغالياً فى التمسك بقاعدة عمر وكان يرى «ان المسلم لا ينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شىء ينفقه فى سبيل الله أو يعده لكريم» (٥) وكان يقوم في الشام ويقول « يا معشر الاغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » وما زال يقول ذلك ويكرره حتى

(١) ابن عساكر (خط) (٢) المقريزى ٩٥ ج ١ (٣) المسعودى ٣٠١ ج ١
(٤) الماوردى ١٨٣ (٥) ابن الاثير ٥٥ ج ٣

ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الاغنياء . فشكا الاغنياء الى معاوية ما يلقون منهم وكان معاوية يشكو أمر من شكايتهم لان أبا ذر وبخه غير مرة لاختزانه المال ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء فى دمشق وقد سأله معاوية « كيف ترى هذا » فقال أبو ذر « ان كنت بنيته من مال الله فانك من الخائنين وان كنت بنيته من مالك فانك من المسرفين » (١) فعظم ذلك على معاوية فأراد أن يوقعه فى ما يوجب محاكمته فبعث اليه بألف دينار أراد أن يغره بها ثم يتهمه باكتناز المال . فلما وصلت الدنانير إلى أبى ذر فرقها حالا مع أنها وصلته ليلا وجاءه رسول معاوية فى الصباح يزعم أنه دفع المال اليه خطأ وأن معاوية يطلبه فأخبره أنه أنفقه فى ساعته . فلم ير معاوية سبيلا إلى اتهامه بالفتنة فكتب إلى عثمان « إنك أفسدت الشام على نفسك بأبى ذر » فكتب اليه « احمله على قتب بغير وطاء » (٢) فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه من جشع بنى أمية وخروجهم من الحق . فأخرجه عثمان من المدينة إلى الربذة بالعنف وظل هناك حتى مات . فنقم المسلمون بموته على عثمان فى جملة ما نقموه عليه إلى مقتله

فلما قتل عثمان سنة ٣٥ هـ وقامت الفتنة فى الخلافة وأرادها معاوية لنفسه رأى بين دعاتها من هم أحق بها منه نسباً وسابقة فاحتال اليها بالمال فازدادت رغبته فى الاستكثار منه لبذله فى إنشاء الأحزاب ـ ولا غرو فان المال قوة تتحول إلى ماشئته من القوى وهو منذ القدم مرجع المشروعات العظمى ولا يزال حتى اليوم المحور الذى تدور عليه سياسة العالم المتمدن . فما من حرب أو سلم أو محالفة أو معاهدة وما من فتح أو حصار إلا والمحرك عليه أو الداعى اليه « المال » ـ وكذلك فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب نصروه بالدهاء والسيف حتى أفضت الخلافة اليه بعد واقعة صفين ولكنها لم تصف له إلا بعد مقتل على (٤٠ هـ) وتنازل الحسن له عنها والناس مع ذلك يعلمون أن معاوية إنما فاز ببذل المال حتى قال زين العابدين ابن حفيد الامام على « إن علياً كان يقاتله معاوية بذهبه » (٣) وسار بنه أمية على خطوات معاوية فى ذلك فجعلوا المال أكبر نصير لهم على دعاة الخلافة من بنى هاشم وعلى الخوارج وغيرهم فجرهم ذلك إلى الاستكثار منه بأي وسيلة كانت كما سيأتى

فالثروة فى عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين ولكن تحريمها لم يبق طويلا لأن بقاءه يقتضى بقاء عمر بن الخطاب أو من يكون فى مثل مناقبه وتقواه مع بقاء

(١) ابن الفقيه ١٥٦ (٢) اليعقوبى ١٩٩ ج ٢ (٣) المقريزى ٤٣٩ ج ٢

العرب على الفطرة البدوية مما يخالف نواميس العمران . فلذلك لم يكد يختلط العرب بالروم والفرس حتى تاقت نفوسهم إلى الترف وحشد الأموال وعجل ذلك فيهم رغبة بنى أمية فى استنصارها . فانقضى عصر الراشدين ولم ير المسلمون مثله بعده وظل أبو بكر وعمر مضرب أمثال القوم قروناً متطاولة إذا اعوج حاكم أوخليفة طلبوا اليه أن يقتدى بهما وخصوصاً عمر فقد كانوا يحاولون التشبه بعدله وحزمه وشدته في الحق حتى إن أشهر عمال بنى أمية ظلماً ودهاء أرادوا الاقتداء به فى ذلك فتهوروا وانقلب فيهم الى الظلم والعسف ـ يقال إن زياد ابن أبيه أراد أن يتشبه بعمر بن الخطاب فى ضبط الأمور والحزم والصرامة وإقامة السياسات إلا أنه أسرف وتجاوز الحد ثم أراد الحجاج بن يوسف أن يتشبه بزياد فأهلك ودمر [1]

(٣) عصر بنى أمية من سنة ٤١ ـ ١٣٢ هـ

تمتاز دولة بنى أمية عن دولة الراشدين بأن السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية الى الملك السياسى . وتمتاز عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة شديدة التعصب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم . ولذلك فان أهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الأصليين قاسوا من خلفاء بنى أمية ومن عمالهم الأمور الصعاب حتى الذين أسلموا منهم فان العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد وكانوا يسمونهم « الموالى » ويعدون أنفسهم ذوى إحسان عليهم لأنهم أنقذوهم من الكفر وإذا صلوا خلفهم فى المسجد حسبوا ذلك تواضعاً لله . وكان بعض العرب اذا مرت به جنازة مسلمة قال « من هذا » فاذا قالوا « قرشى » قال « واقوماه » وإذا قالوا « عربى » قال « وابلدتاه » وإذا قالوا « مولى » قال « هو مال الله يأخذ ماشاء ويدع ماشاء » . وكانوا يحرمون الموالى من الكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون فى الصف معهم [2] وكانوا يسمونهم العلوج . وفى كتاب الموالى للجاحظ أن الحجاج لما قبض على الموالى الذين حاربوا مع ابن الأشعث أراد أن يفرقهم حتى لا يجتمعوا فنقش على يد كل واحد منهم اسم البلدة التى وجهه اليها . وقد تولى ذلك النقش رجل من بنى عجل فقال الشاعر :

وأنت من نقش العجلي راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم [3]

وسنعود الى تفصيل ذلك فى الكلام عن نظام الهيئة الاجتماعية فى المملكة الاسلامية فى جزء آخر من هذا الكتاب وانما أشرنا الى ذلك هنا لبيان مقدار تعصب العرب فى دولة بنى امية على غير العرب ولو كانوا مسلمين

(١) ابن خلكان ١٢٤ ج ١ (٢) العقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٣) العقد ٧٤ ح ٢

وكان من جملة نتائج تعصب بنى أمية للعرب واحتقارهم سائر الأمم أنهم اعتبروا أهل البلاد التى فتحوها وما يملكون رزقاً حلالا لهم ـ يدل على ذلك قول سعيد ابن العاص عامل العراق « ما السواد الا بستان قريش ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه » (١) وقول عمرو بن العاص لصاحب اخنا لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال عمرو « انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خف عنا خففنا عنكم » (٢) فاتخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ماشاءوا من أموال الناس وقد جرأهم على ذلك معاوية اذ جعل بعض الأعمال طعمة لبعض عماله والبعض الآخر ضمنه بمال زهيد ـ فعل ذلك فى بادىء الرأى ترغيباً لهم فى نصرته ثم توالت عليه وعلى من خلفه من بنى أمية الحروب مع أحزاب بنى هاشم والخوارج وغيرهم فاضطروا الى الاستكثار من الاموال ولاسبيل الى جمعها الا بالخراج والجزية من أهل البلاد فاستخدموا من العمال من يثقون باقتدارهم على جمع الاموال فضلا عن الحرب . وأشد أولئك العمال وطأة الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق . واحتاج عبد الملك الى مقاومة جماعة من مناظريه على الخلافة وفيهم عبد الله بن الزبير فى مكة والمختار بن أبى عبيد فى العراق وغيرهما فوكل ذلك الى الحجاج وأمثاله فاستخدموا العنف فى تحصيل الاموال بحق وبغير حق (٣)

﴿ جور العمال ﴾ وكان عمال بنى أمية يجورون على أصحاب الارضين من أهل الذمة فى التحصيل ونحوه لا يهمهم بقى لهم من المحصول شىء أم لا . وكان الخراج يومئذ على المساحة فيؤخذ على الارض مال معين زرعت أم لم تزرع وكان من شروط الخراج أن يستبقى لأصحاب الارضين ما يجبرون به النوائب والجوارح . ومما يحكى أن الحجاج كتب الى عبد الملك بن مروان يستأذنه فى أخذ تلك البقية منهم فأجابه « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وأبق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً » (٤) . والظاهر أن الضغط على أهل القرى وأصحاب الأرضين حمل بعضهم على الاسلام احتماء به فأصبحوا من الموالى فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والجزية منهم فألزمهم الحجاج (٥) الخراج مع أنهم تنازلوا عن مغارسهم لأهلهم وغادروا القرى وسكنوا الأمصار فراراً من تلك الضرائب فأمر الحجاج بردهم وطالبهم بالخراج لأن المسلمين كانوا الى ذلك الحين لا يقيمون الا فى المدن التى بنوها هم . وأهل البلاد الأصليون يقيمون فى القرى للزرع والحرث فمن اعتنق منهم الاسلام رفع الخراج

(١) الأغانى ٣٠ ج ١١ (٢) المقريزى ٧٧ ج ١ (٣) ابن الأثير ١٠ ج ٥ وكتاب الخراج لأبى يوسف ٦٢ (٤) الماوردى ١٤٣ (٥) ابن خلكان ٢٧٧ ج ٢

عن رأسه وصار ما كان فى يده من الأرض وداره الى أصحابه يؤدون عنها ما كان يؤدى من الخراج كما تقدم وينزل هو الى الأمصار كالكوفة والبصرة والفسطاط . ففعل ذلك فى أيام الحجاج جماعة كبيرة ربما التمسوا به النجاة من الضغط فاذا هو ملاقيهم . وكتب الحجاج الى الأمصار « ان من كان له أصل فى قرية فليرجع اليها لتؤخذ منه الجزية والخراج » فعل ذلك فى أيام ابن الأشعث فخرج الناس وهم يبكون وينادون « يا محمداه يا محمداه » ولا يدرون الى أين يذهبون فاضطروا الى الانضمام للأشعث على الحجاج (١)

ولم تكن تلك المعاملة خاصة بالحجاج من عمالهم فقد فعل مثله أيضاً يزيد بن أبى مسلم عامل يزيد بن عبدالملك على افريقية (٢) وكذلك فعل الجراح فى خراسان (٣) وغيره فيما وراء النهر (٤) وكان أهل سمرقند قد أسلموا على أن ترفع الجزية عنهم فظلوا يأخذونها منهم فعادوا الى دينهم

أما النصارى وغيرهم من أهل الذمة الذين ظلوا على دينهم فيكفى فى تمثيل حالهم اعتبار ما تقدم من معاملة الذين أسلموا منهم . فكانوا يسومونهم العذاب فى تحصيل الجزية . ورأى هؤلاء أن اعتناق الاسلام لا ينجيهم من ذلك فعمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة لأن الرهبان لا جزية عليهم. فأدرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر باحصاء الرهبان وفرض على كل راهب ديناراً (٥) وهى أول جزية أخذت من الرهبان . وأمثال هذه الحوادث كثيرة فى تاريخ بنى أمية

ولم يكن ذلك كل ما اقترفوه فى سبيل جمع المال فانهم زادوا الخراج عما كان عليه فى أيام الراشدين ـ بدأوا بذلك من أيام معاوية فأراد أن يزيد قيراطاً فكتب الى وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر أن « زد على كل امرىء من القبط قيراطاً » فكتب اليه « كيف أزيد عليهم وفى عهدهم أن لا أزيد عليهم » (٦) ولعل عمراً لم يطعه فى ذلك لأن مصر طعمة له . فلما انتقلت الى خلفاء بنى أمية بعد عمرو زادوا فى الخراج ما شاءوا . وأشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحبحاب متولى الخراج من قبل هشام ابن عبد الملك (سنة ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) فانه زاد على القبط قيراطاً فى كل دينار فلم يصبر

(١) ابن الأثير ٢٢٥ ج ٤ (٢) ابن الأثير ٤٨ ج ٥ وابن خلكان ٢٧٧ ج ٢ (٣) ابن الأثير ٢٤ ج ٥ (٤) ابن الأثير ١١١ ج ٥ (٥) المقريزى ٤٩٢ ج ٢ (٦) البلاذرى ٢٢٧

القبط على ذلك وكانوا لايزالون هم السواد الأعظم فثاروا لحاربهم المسلمون وقتلوا منهم جمعاً كبيراً . وحدث نحو ذلك على يد أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج فانه أوقع فى النصارى وأخذ أموالهم . وكثر الالتجاء الى الرهبنة فى أيامه فأراد أن يمنع ذلك لأنه يضر فى الخراج والجزية فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم أيدى الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم الدير وتاريخه فكل من وجده بغير وسم قطع يده . وألزم كل نصرانى بمنشور يحمله يدل على أنه أدى ماعليه وكتب الى العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم فضرب أعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب (١)

على أن ذلك لم يكن يرضى الخليفة فلما بلغ هشام بن عبد الملك ذلك كتب الى عامله بمصر أن يجرى النصارى على عوائدهم وما فى أيديهم من العهود . فلم يطل العمل بهذا الأمر فعاد العمال الى ظلمهم وفى جملتهم حنظلة بن صفوان فانه زاد فى الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل نصرانى وسماً صورة أسد وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده (٢) . وقس على ذلك أمثلة كثيرة من سُدة عمال بنى أمية على أهل الذمة والموالى وغيرهم من العرب

ومن أمثلة ما اقترفه بنو أمية من زيادة الخراج والجزية أن أهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم ديناراً ، ومدين قمحاً ، وقسطين زيتاً ، وقسطين خلا فى العام فلما تولى عبدالملك بن مروان استقل ذلك فبعث الى عامله فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم وحسب مايكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته فى طعامه وأدمه وكسوته وطرح أيام الأعياد فى السنة كلها فوجد الذى يحصل بعد ذلك فى السنة لكل واحد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة (٣)

ولم تكن ضرائبهم قاصرة على أهل الذمة والموالى ولكنها شملت العرب المسلمين أنفسهم وذلك أن محمداً أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة وظلم الرعية وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجاً سماه « الوظيفة » فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر (٤)

وكان عمال بنى أمية فى فارس يخرصون الثمار على أهلها أى يحزرون مقدارها ثم

(١) المقريزى ٤٩٢ ج٢ (٢) المقريزى ٤٩٣ ج ٢ (٣) البلاذرى ٧٣ (٤) كتاب الخراج لأبى يوسف ٢٤

يقومونها بسعر دون سعر الناس الذى يتبايعون به فيأخذونها قرفاً على قيمتهم التى قدروها (١)

وكان من أساليبهم فى الاستكثار من الأموال ضرب الضرائب على الأرض الخراب، وكانوا يفرضون على الأهالى هدية فى عيد النيروز بلغت فى أيام معاوية ١٠ ... ... درهم (٢) وفرضوا مالا على من يتزوج وعلى من يكتب عرضاً (٣) وكانوا يكيلون للعامل بكيل وللاكار بكيل آخر ويكلفون أهل الخراج أرزاق العمال وأجور المدى وحمولة الطعام وثمن صحف وقراطيس وأجور الكياليين ومؤونتهم . وإذا أتى أحدهم بالدراهم ليؤديها فى خراجه يقتطع الجابى منها طائفة ويقول هذا رواجها وصرفها (٤)

ولم يكن عمال بنى أمية يأتون هذه الأعمال من عند أنفسهم دائماً بل كثيراً ما كانوا يفعلونه بأمر خلفائهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية الى وردان وكان ذلك شأنه فى تحريض عماله على جمع الأموال وهم يخترعون له الطرق للاستكثار منها (٥) وكذلك فعل من جاء بعده وخصوصاً عبد الملك لأنه كان شديد الحاجة الى المال ومناه الله بالحجاج فلم يترك وسيلة فى استخراج المال الا اتخذها . أما لو أراد الخلفاء ابطال هذه المظالم لهان عليهم ابطالها لأن العمال فى أيام عمر بن الخطاب كانوا يرتكبون مثل ذلك فلا يسكت عمر عنهم . ولما جار عمال الاهواز فى أيامه شكاهم أبو المختار يزيد بن قيس بقصيدة بين فيها أرباحهم من أهل الرساتيق والقرى وسماهم فى قصيدته وحرض عمر على مقاسمتهم ما ربحوه الى أن قال :

فقاسمهم أهلى فداؤك انهم سيرضون ان قاسمتهم منك بالشطر
ولا تدعونى للشهادة إننى أغيب ولكنى أرى عجب الدهر

فبعث عمر اليهم فقاسمهم شطر أموالهم حتى أخذ نعلا وترك نعلا ولم يكتف بمقاسمة العمال ولكنه قاسم بعض إخوتهم فاعترض هؤلاء فقال أحدهم لعمر « إنى لم آل لك شيئاً » فقال له « أخوك على بيت المال وعشور الابلة وهو يعطيك المال تتجر به » فأخذ منه عشرة آلاف (٦)

وكانت مشاطرة عمر عماله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك فى مشاطرة العمال فلم يكن يموت له عامل الا شاطر ورثته وهو يقول إنها سنة سنها عمر ثم تدرج الى استصفاء أموال الرعية وهو أول من فعل ذلك (٧)

(١) طبقات ابن سعيد (عن فان فلوتن) (٢) اليعقوبى ٢٥٩ ج ٢ (٣) الطبرى ١٣٦٧ ج ٢ (٤) كتاب الخراج لأبى يوسف ٦٢ (٥) اليعقوبى ٢٥٨ ج ٢
(٦) البلاذرى ٣٨٥ (٧) ابن الفقيه ١٠٩

فالعمدة فى حفظ النظام على الرأس فاذا صلح صلحت الاعضاء . فقد رأيت أن خلفاء بنى أمية طلبوا المال لقيام دولتهم بأى وسيلة كانت فأمدوا العمال بالسلطة وأطمعوهم فعمد هؤلاء الى احراز الاموال الى أنفسهم أيضاً واقتدى بهم العمال الصغار كالكاتب والجابى ونحوهما فزادت شكوى أصحاب الارضين فاضطر العمال الى اخراج أعمال الجباية من العرب وتسليمها الى الموالى ومنهم الدهاقين أصحاب الضياع فى العراق . فعل ذلك ابن زياد عامل الخراج سنة ٦٤ هـ فعاتبه بعضهم فأجابه « كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج فاذا أغرمت عشيرته أو طالبته أوغرت صدورهم وان تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأوهن بالمطالبة منكم مع أنى جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحداً » (١)

وفى كلام القاضى أبى يوسف فى عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التى كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها قال « بلغنى أنه قد يكون فى حاشية العامل أو الوالى جماعة منهم من له به حرمة ومنهم له اليه وسيلة ليسوا بأبرار ولاصالحين يستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقتضى بذلك الذمامات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه انما مذهبهم أخذ شىء من الخراج كان أومن أموال الرعية . ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدى . . . ويقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة . . وهذا عظيم عند الله شنيع فى الاسلام » (٢)

وكان شأن بنى أمية وعمالهم وجباتهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر ابن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقياً منصفاً فأراد أن يرد الأمور الى ما كانت عليه فى أيام سميه وجده لأمه عمر بن الخطاب . فأصدر أوامره الى العمال بابطال تلك المظالم وعينها بأسمائها مفصلة (٣) وأبطل لعن على على المنابر . وكان أهله قد اقتنوا الضياع وأخذوا كثيراً منها من أهل الذمة بغير حق ففتح بابه للناس وأعلن « أن من كانت له ظلامة فليأت » فأتاه المظلومون وفيهم النصارى واليهود والموالى وغيرهم ومنهم من يشتكى اختلاس ماله وآخر اغتصاب ضيعته وكان ينصفهم بالحق والعدل ولو أن الحكم على ابنه أو اخوته أو أبناء عمه (٤) فقال له بعضهم « وكيف تصنع بولدك » فبكى حنواً وقال « أكلهم الى الله » وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها « مظالم »

(١) ابن الأثير ٦٩ ج ٤ (٢) كتاب الخراج ٦١ و٦٢ (٣) الطبرى ١٣٦٦ ج ٣ وابن الأثير ٢٩ ج ٥ (٤) الخميس ٣٥٣ ج ٢

فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو انما قام بالمال فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعاً فمشوا الى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه اليها فأتته فقال لها « ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذاباً الى الناس كافة » (١)

ولما رأى الموالى عدله وتقواه اغتنموا الفرصة وشكوا اليه ما يقاسونه من الذل والضغط . وكان الجراح بن عبد الله الحكمى عامل خراسان قد أرسل الى عمر بن عبد العزيز فى الشام وفداً رجلين من العرب ورجلا من الموالى فتكلم العربيان والمولى ساكت فقال له عمر « ما أنت من الوفد ؟ » قال « بلى » قال « فما يمنعك من الكلام » فقال « يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق وصلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان » (٢) فقال عمر « أحر بمثلك أن يوفد » وكتب الى الجراح « انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية » فرغب الناس فى الاسلام وتسارعوا اليه فقيل للجراح « ان الناس قد سارعوا الى الأسلام نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان » فكتب الجراح الى عمر بذلك فأجابه « ان الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خاتناً » (٣)

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح وكان حيان قد كتب اليه « أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » فكتب اليه عمر « أما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف ضعفك وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطاً . فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ـ ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه » (٤)

وقس على ذلك عماله الآخرين فانه عزل من لم يوافقه منهم فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لأنه حاول اصلاح الامور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال . وما فى بنى أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات فقتلوه بالسم ويعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين (٥) واذا قالوا « العمرين » أرادوه وعمر ابن الخطاب (٦)

فترى مما تقدم أن القواعد الاساسية التى قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق

(١) ابن الأثير ٣٠ ج ٥ (٢) الطبرى ١٣٥٤ ج ٢ (٣) ابن الأثير ٢٤ ج ٥
(٤) المقريزى ٧٨ ج ١ (٥) الخميس ٣٥٤ ج ٢ (٦) القرمانى

ولكنها تختلف باختلاف الدين يتولون شؤونها . ولو أتيح لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها الى ما كانت عليه فى عهد ابن الخطاب لامحت مظالم بنى أمية ولكنه جاء فى غير أوانه فذهب سعيه هدراً . ولما مات عادت الأمور الى مجاريها ورافقها رد الفعل فصارت الى أشد مما كانت عليه قبله وبالغ العمال فى الاستبداد والعسف وشددوا فى استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض أصحاب الارضين الى الالجاء أى أن يلجئوا أراضيهم الى بعض أقارب الخليفة أو العامل تعززاً به من جباة الخراج كما سيأتى

أما الخلفاء فانهم زادوا انغماساً في الترف وأولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع الى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه سلامة وحبابة وحديثهما مشهور [1] وخلفه أخوه هشام وكان بخيلا وفى أيامه زيدت الضرائب فى مصر على يد الحجاب كما تقدم . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان مثل أبيه فى اللهو والخمر فقتله أهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ وكان عازماً على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته [2] فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر لان الاحوال غير ملائمة . وفى أيام خلفه مروان ابن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة اليهم

وكان بنو أمية قد انغمسوا فى الترف واللهو والخمر وأصبحوا لا ينظرون الى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون فى انتقاء عمالهم وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن . وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر فأعجبت هشاماً فأهدى هشاماً قلادة أخرى فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هـ [3] وبلغ ثمن الجارية فى أيام بنى أمية ١٠٠٠٠٠٠ درهم وهى الدلفاء [4] وأصبح العمال لا هم لهم إلا حشد الاموال والاستكثار من الصنائع والموالى ولم يعد أهل العدل يرضون بولاية الاعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذى يطلبه الخلفاء . كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان ابن عبد الملك العراق فقال يزيد فى نفسه « ان العراق قد أخربها الحجاج وأنا اليوم رجاء أهل العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج أدخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك السجون التى قد عافاهم الله منها ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل منى » [5] وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق . فلم يرغب فى الولايات إلا أهل المطامع . وجعل الخلفاء من الجهة

(١) الجزء الأول من هذا الكتاب ٨٠ (طبعة ثالثة) (٢) ابن الأثير ٣١٧ ج ٥
(٣) ابن الأثير ٧٢ ج ٥ (٤) أعلام الناس ٣٥ (٥) الطبرى ١٣٠٦ ج ٢

الاخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق فى أواخر أيام بنى أمية ٦٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (١) وكان العمال يبذلون جهدهم فى اختزان الأموال لأنفسهم لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم . فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم فبلغت غلة خالد القسرى أمير العراق فى أيام هشام ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (٢) أى نحو مليون دينار . فأصبح الخلفاء لايعزلون عاملا عن عمله إلا حاسبوه على ماعنده من المال وكانوا فى أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب . ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم من أموالهم كما فعلوا بخالد القسرى إذ وشى به كاتبه حيان النبطى أنه فرق ٣٦ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم . فبعث هشام اليه من اخرج معظم هذا المال منه ومن عماله (٣) ويسمون هذا العمل استخراجاً وكانوا يستخدمون الشدة فيه فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بنى أمية

أما ارتفاع الدولة الاسلامية فى أيام بنى أمية أى مقدار ماكان يجتمع لهم من الخراج والجزية وغيرهما فقد ضاع تفصيله فى جملة ماضاع من أخبارهم فى الفتن . على أن المملكة الاسلامية بلغت فى أيامهم اتساعاً عظيما نحو اتساعها فى أيام العباسيين ولكن عمدتهم كانت على العراق والجزيرة والشام ومصر . وأما الأطراف فقد كان خراجها يذهب بين العمال والكتاب والجباة . على أن كثيراً منها لم يكن يدفع شيئاً يستحق الذكر لأن قدم الأمويين لم تكن راسخة فيها

واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال وقد فصلنا ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ٢١٤ (طبعة ثالثة) وخلاصته أن متوسط جباية العراق فى أيامهم نحو ١٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم وجباية مصر ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار (أو ٣٦ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم) وجباية الشام ١٧ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار (أو ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم) فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم يضاف اليه أموال البلاد الأخرى مما لا نعرف مقداره

وخلاصة ما تقدم أن الأموال كانت تستخرج فى أيام بنى أمية بكثرة ولكنها لاتسمى ثروة لأنها كانت تصرف فى الحروب لتأييد شوكتهم . فقد حاربوا علياً والحسين بن على والمختار بن أبى عبيد وعبد الله بن الزبير وحاربوا الخوارج وغيرهم ناهيك بما كان يقوم من الفتن بين القبائل العربية اليمنية والمضرية وبين العرب والموالى فضلا عما كان ينفقه الخلفاء والأمراء فى البذخ واللهو والقصف

(١) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ (٢) ابن خلدون ٩٦ ج ٣ (٣) اليعقوبى ٣٨٨ ج ٢ وابن الأثير ١٠٤ ج ٥

(٤) الدولة العباسية

للدولة العباسية عصران يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً عظيما : العصر الأول وهو مايعبرون عنه بالعصر الزاهى يمتد من أول نشأة هذه الدولة سنة ١٣٢ هـ الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هـ وفيه بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وأنشأت التمدن الذى نحن فى صدده وفيه أدركت ثروة الدولة الاسلامية أعظم مابلغت اليه فى عصر من العصور وعليها مدار الكلام فى هذا الكتاب

والعصر الثانى ويعبرون عنه بعصر التقهقر أو الانحطاط يبتدىء بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ هـ وينقضى بانقضاء الدولة العباسية من بغداد وفيه تقهقر التمدن الاسلامى وقلت الثروة وضعفت الدولة حتى انحلت عراها وانقضت أيامها

العصر العباسى الأول من سنة ١٣٢ إلى ٢١٨ هـ

﴿ سبب قيام هذه الدولة ﴾ رأيت فى ما تقدم أن العصر الأموى يمتاز عن عصر الراشدين بانقلاب الحكومة فيه من الخلافة الدينية الى السياسية الدنيوية وأن خلفاءها وعمالها إنما كان همهم جمع المال . وأنه يمتاز عن العصر العباسى بتعصب أهله للعرب واحتقارهم سائر الأمم وخصوصاً الشعوب التى كانت تحت سلطانهم فى البلاد التى دانت لهم فى مصر والشام والعراق وفارس وخراسان وغيرها وفيهم القبط والنبط والروم والسريان والكلدان والفرس والترك والسودان وغيرهم ـ حتى الذين أسلموا منهم . فأصبحت تلك الأمم تئن من معاملتهم وزادها نفوراً ما كانوا يتخذونه من العنف فى تحصيل الخراج وأصبحوا يودون الخروج من حوزتهم وينصرون كل من دعا الى خلعهم [1] وخصوصاً الموالى فانهم باعتناقهم الاسلام خسروا أراضيهم ومنازلهم وأصبحوا مطالبين بالذهاب الى الحرب لحماية الدولة . فكان بنو أمية يخرجونهم الى القتال مشاة بلارزق ولافىء كما تقدم . وكان مناظر وهذه الدولة يغتنمون الفرص ويستنصرون الموالى عليها ويجعلون لهم الأرزاق . وأول من فعل ذلك المختار بن أبى عبيد سنة ٦٦ هـ إذجاء للانتقام من قتلة الحسين بالكوفة . فعظم ذلك على العرب وقالوا «إن المختار قد آذى بموالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم فيئنا » فقال لهم المختار يومئذ « اذا أنا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم تقاتلون معى بنى أمية . . . ؟ » فتفاوضوا فيما بينهم فقال أحدهم « ان أطعتمونى لم تخرجوا لأنى أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا ومع الرجل شجعانكم

(١) ابن الأثير ١٨٩ ج ٣

وفرسانكم . . . ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلة هؤلاء واحدة . ومواليكم أشد حنقاً عليكم من عدوكم فهم مقاتلوكم بشجاعة العرب وعداوة العجم » (١)

وكان ذلك شأن الموالى مع كل من قام يدعو الى خلع بنى أمية ولذلك كثر الخوارج فى أيامهم وقام فى نفوس العرب أن الخلافة لا يشترط فيها القرشية (٢) على أن هذا الاعتقاد لم يتمكن من نفوس المسلمين الا بعد أجيال . أما يومئذ فكان الدعاة أكثرهم من أهل بيت النبى وفيهم العلويون من نسل الامام على ابن عم النبى والعباسيون من نسل العباس عمه . وكان الخراسانيون من أكثر الناس نقمة على بنى أمية للأسباب التى قدمناها . فأخذوا بيد العباسيين وقائدهم أبومسلم الخراسانى . ولما نهضوا نهض معهم كل المسلمين غير العرب فى كل أنحاء المملكة الاسلامية فضلا عن أهل البلاد غير المسلمين . فدارت الدائرة على بنى أمية وتأيد العباسيون فجعلوا عاصمتهم فى العراق بالقرب من نصرائهم

وعرف العباسيون علة سقوط بنى أمية فتجنبوا الوقوع فى مثلها فاتخذوا الجند والأعوان من الفرس واستبقوا الجند العربى أيضاً من ربيعة ومضر رغبة فى المحافظة على العصبية العربية لأنها عماد الاسلام . ولم يكونوا يستطيعون التوفيق بين العنصرين لأنهم سيقوا بطبيعة الأمور الى الاختلاط بالفرس والتزيى بألبستهم من القلانس ونحوها — جعلوا ذلك فرضاً واجباً عليهم . وأول من أخذ الناس بلبسه المنصور سنة ١٥٣ (٣) فأمرهم بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول فقال أبو دلامة :

وكنا نرجى من إمام زيادة ... فزاد الامام المصطفى فى القلانس
نراها على هام الرجال كأنها ... دنان يهود جللت بالبرانس

على أن غضب العرب لم يغير شيئاً من مجارى الأمور فاتخذ الخلفاء أمهات أولاد من الفرس أولدوهن أولاداً تولوا الخلافة وفيهم ميل فطري الى العنصر الفارسى . وازداد هذا العنصر تغلباً فى بلاط الخلفاء بما اتخذوه من الوزراء ورجال الشورى منهم كالبرامكة وغيرهم . وكان الفرس يبذلون جهدهم فى خدمة الدولة العباسية بنصح وصدق نية لأن فى قيامها صلاح بلادهم

﴿ العرب والبيعة ﴾ على أن الخلفاء لم يكن لهم غنى عن جزيرة العرب وفيها الحرمان : الكعبة وقبر النبى وفى احترامهما احترام الدين الاسلامى وعليه تقوم دعائم الخلافة . وزد على ذلك أنهم كانوا يخافون أهل الحرمين من التشيع لآل على وهم فى

(١) ابن الأثير ١١٣ ج ٤ (٢) الاستقصاء ٦٠ ج ١ (٣) الطبرى ٣٧١ ج ٣

حاجة الى بيعة فقهاء المدينة لما لهم من المنزلة فى الخلافة والبيعة وكان أهل الورع من الخلفاء لا يقطعون أمراً دونهم (١) فشق ذلك على الفرس وخافوا أن يرجع النفوذ الى العرب فينتقموا منهم وتذهب مساعيهم أدراج الرياح فسعوا فى اغفال بلاد العرب . ولا سبيل الى اغفالها والكعبة فيها وهى حج المسلمين والحج من أركان الاسلام . فخيب بعضهم الى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها فى العراق وتكون حجاً للناس فبنى بناء سماه القبة الخضراء تصغيراً للكعبة (٢) وقطع الميرة فى البحر عن المدينة (٣) فاتخذ العرب ذلك حجة على العباسيين وأظهروا البيعة لمحمد بن عبد الله من آل على وخلعوا بيعة المنصور وقد أفتى لهم بذلك مالك بن أنس الامام الشهير (٤) . وكان بنو أمية فى الأندلس قد قطعوا دعوة بنى العباس بعد أن دعوا لهم مدة قصيرة (٥) عند دخول عبد الرحمن بن معاوية كما ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ٨٥ (طبعة ثالثة) . واستقل عبد الرحمن بالأندلس لبعدها عن دار الخلافة . ثم استولى محمد بن عبد الله على المدينة فخافه المنصور وبذل قصارى همه فى قتله ولم يستطع ذلك إلا بعد العناء الشديد

فكان ما قاساه المنصور من عواقب إهماله الحرمين عبرة لخلفائه فلما تولى ابنه المهدى أكرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة وفرق هناك مالا عظيما جاء به معه من العراق مقداره ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم وجاءه وهو فى المدينة ٣٠٠٠٠٠ دينار من مصر و ٢٠٠٠٠٠ دينار من اليمن ففرقها كلها وفرق ١٥٠٠٠٠ ثوب ووسع المسجد واتخذ حرساً من الانصار عددهم ٥٠٠ رجل حملهم معه الى بغداد وأقطعهم الارضين (٦) وأمر بحفر نهر الصلة بواسط وأحيا ما عليه من الارضين وجعل غلته لصلات أهل الحرمين والنفقات هناك (٧) وأصبح اكرام الحرمين على هذه الصورة سنة فى بنى العباس فى اثناء حجهم أو عند طلب البيعة لأولادهم فان الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ ومعه ابناه الأمين والمأمون فلما وصل المدينة أعطى فيها ثلاثة أعطية عنه وعن ولديه . وفعل نحو ذلك فى أهل مكة وبلغ ما فرقه ١٠٥٠٠٠٠ دينار وكتب هناك كتاباً بولاية العهد للامين وآخر للمأمون ووضع الكتابين فى الكعبة (٨) وأصبحت النفقة على الحرمين من جملة نفقات الدولة الضرورية . وعاد شأن العرب الى الظهور والخلفاء يرون ذلك ضرورياً لتثبيت أقدامهم فى الملك

(١) أبو الفداء ٢٠٩ ج ١ (٢) الطبرى ١٩٧ ج ٣ (٣) ابن الأثير ٢٦١ ج ٥
(٤) ابن الأثير ٢٥١ ج ٥ (٥) ابن الأثير ٢٣٥ ج ٥ و٤٥ ج ٦ وابن خلدون ٢٨٠ ج ٣
(٦) الطبرى ٤٨٣ ج ٣ (٧) قدامة ٢٤٢ (٨) ابن الأثير ٦٩ ج ٦

على أنهم كانوا من الجهة الاخرى لا يستغنون عن الفرس وهم وزراؤهم ومشيروهم فزادت المنافسة بين العنصرين حتى كان ما كان بين الأمين والمأمون واستنصر المأمون جند خراسان وهم أخواله [١] لأن أمه فارسية . والأمين أمه عربية هاشمية [٢] وجنده ينصرون العرب فغلب جند المأمون فقبض على أزمة الملك فعاد النفوذ الى الفرس فشق ذلك على العرب وتقموا عليه وأرادوا البيعة لسواه وإخراج الأمر من يده [٣] فازداد كرهاً لهم . ورذلهم فعوتب فى ذلك مرة وهو فى الشام فقال له رجل « يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعرب خراسان » فقال له « أكثرت علي والله ما أنزلت قيساً من ظهور خيلها إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفيانى حتى تكون من أشياعه وأما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث نبيه من مضر » [٤]

ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨ هـ واصطنع الأتراك والفراغنة ازداد العرب احتقاراً فى عيون أهل الدولة وتقاصرت أيديهم عن أعمالها حتى فى مصر فان آخر عربى تولاها عنبسة بن اسحق الضبي سنة ٢٣٨ هـ [٥] وأراد المعتصم أن يستغنى عن بلاد العرب جميعاً وكان قد بنى سامرا بقرب بغداد وأقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طواقاً واتخذ منى وعرفات غربه أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه [٦] فأصبح لفظ « عربى » مرادفاً لأحقر الأوصاف عندهم . ومن أقوالهم « العربى بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه » [٧] وقولهم « لا يفلح أحد من العرب إلا ان يكون معه نبي ينصره الله به » [٨] وأصبح الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال وقلت العناية بالعرب وأحزابهم

وكان العرب من الجهة الأخرى يجاهرون بكره الفرس وغيرهم من الأعاجم ويطعنون بمن يميل اليهم ولو كان من الخلفاء ولذلك فلما مات المعتصم وتولى بعده الواثق كان دعبل الخزاعى الشاعر المشهور فى الصميرة فلما جاءه نعى المعتصم وقيام الواثق أنشد هذين البيتين:

الحمد لله لا صبر ولا جلد ... ولا عزاء اذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد ... وآخر قام لم يفرح به أحد [٩]

وخلاصة ما تقدم أن الجامعة الاسلامية كانت فى عصر الراشدين عربية وكان

(١) ابن الأثير ٩٠ و ٩٢ ج ٦ (٢) الطبرى ٩٣٧ ج ٣ (٣) ابن الأثير ١٢٦ ج ٦
(٤) ابن الأثير ١٧٦ ج ٦ (٥) المقريزى ٤٥٥ ج ٢ (٦) المقدسى ١٢٢ (٧) ابن الأثير ٢١١ ج ٦ (٨) الطبرى ١٥٨٨ ج ٣ (٩) الجزء الأول ١٦١ (طبعة ثالثة)

غرضهم الأول نشر الاسلام فى الارض يدفعهم الى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة وان الله يدعوهم الى ذلك . فلما تولاها بنو أمية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال وتحول الغرض الى السلطة الزمنية السياسية وظلت الجامعة العربية متينة. وفى عصر العباسيين استبدلوا العصبية العربية بالأعاجم واحتاجوا فى اصطناعهم أو استخدامهم الى المال وانخرطوا هم فى سلكهم بواسطة الأمهات . ثم أصبح الأعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفراغنة وغيرهم يتسابقون الى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال كما سترى

ثروة الدولة العباسية

في العصر العباسى الأول

وصلنا الى موضوع هذا الكتاب لأن الثروة الاسلامية لم تنضج إلا فى هذا العصر وعليه سيكون مدار كلامنا . وتقاس ثروة الدولة المالية بما يبقى فى بيت مالها من دخلها بعد النفقات لا بمقدار الدخل على الاطلاق إذ قد يكون الدخل كثيراً والنفقة أكثر منه وتقع الدولة تحت العجز . فاذا اعتبرنا ذلك كانت ثروة الدولة العباسية فى العصر الأول فاحشة ـ وإن كنا لم نقف على ميزانيتها فى عهد الخلفاء الخمسة الأولين فلم نعلم مقدار جبايتها فى العام مما يعبرون عنه بارتفاع الدولة لضياع حساباتها فى الفتنة بين الأمين والمأمون إذ احترقت الدواوين[1] وضاعت الدفاتر كما احترق ديوان بنى أمية عام الجماجم[2] ولكننا نعلم مقدار الثروة فى أيامهم مما كانوا يختزنونه من المال فى أثناء حكمهم

﴿ الثروة فى أوائل الدولة ﴾ فالخليفة الأول أبو العباس السفاح لم يحكم إلا أربع سنوات (من سنة ١٣٢ ـ ١٣٦) قضاها فى الحروب ولم يجمع مالا . ولما مات لم يجدوا فى بيته إلا تسع جبات وأربعة أقمصة وخمسة سراويلات وأربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز[3] . وأما المنصور فانه حكم ٢٢ سنة (١٣٦ ـ ١٥٨) وكان رجلا حازماً كثير الاحتياط شديد الحرص على المال واختزانه ـ لا عن بخل ولكنه كان يخاف الفتن . فلما مات خلف فى بيت ماله ٦٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم و ١٤ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار[4] وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما وهى قيمته فى ذلك العصر تقريباً كان مجموع ما خلفه المنصور ٨١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (والدرهم نحو فرنك) . فلما دنا أجله أوصى ابنه المهدى قائلا « قد جمعت لك فى هذه المدينة من الأموال ما ان كسر عليك

(١) قدامة ٢٣٦ (٢) الماوردى ١٨٣ (٣) الطبرى ٨٨ ج ٣ (٤) المسعودى ١٧٧ ج ٢

الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجنـد والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحتفظ بها فانك لاتزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً» (١) ويدل ذلك على دهاء المنصور واحتياطه للزمان . على أن سيرته كلها تدل على الحزم والعظمة والدهاء وهو بالحقيقة مؤيد دولة بنى العباس حارب فى سبيل سلامتها حروباً كثيرة أنفق فيها أموالا طائلة منها ٦٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم أنفقها فى حرب الخوارج بأفريقية سنة ١٥٤ هـ فاعتبر ما أنفقه فى الحروب الاخرى وهى كثيرة ـ فضلا عما كان يبذله لأهله فانه بذل لجماعة منهم فى يوم واحد ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (٢) وأنفق على بناء بغداد وحدها ٤ ٨٣٣ ٠٠٠ درهم (٣) ناهيك بما كان ينفقه علي اصلاح الرى وبناء الجسور . فاذا اعتبرت ذلك كله هان عليك تقدير ما وصل الى بيت المال في أيام المنصور بمليار درهم (١ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) علي الاقل . فاذا قسمت ذلك علي سنى حكمه (٢٢) لحق السنة ٤٥ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم سوى الاموال التى كان يأخذها من العمال اذا عزلهم واستخرج أموالهم . لانه كان اذا عزل عاملا أخذ ماله وتركه فى بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » وكتب علي كل مال اسم صاحبه . ولما أحس بدنو الاجل أوصى ابنه المهدى فى ذلك قائلا « قد هيأت لك شيئاً فاذا أنا مت فادع من أخذت ماله فاردده عليـه فانك ستحمد بذلك اليهم والى العامة » (٤) ففعل المهدى ذلك لما تولى . وقد يتبادر الى الذهن أن المنصور استكثر المال بما أخذه من أموال بني أمية بعد قهرهم وهى كثيرة ولـكن تلك الاموال ظلت منفردة فى خزانة خاصة يسمونها « مال أهل بيت اللعنة » (٥)

وثروة المنصور قد تعد قليلة بالنظر الى ثروة الرشيد فقد خلف فى بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣ هـ) ٩٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم ونيفاً (٦) ومدة حكمه نحو مدة حكم المنصور غير ما أنفقه الرشيد وما بذله وأسرف فيـه وكرمه مشهور . وقد يخطر فى البال أن هذا المال تجمع من أيام المنصور فالمهدى فالهادى فالرشيد ولم يجتمع كله فى أيام الرشيد . والواقع أن المهدى أنفق كل ما خلفه المنصور وكل ما جباه فى أثناء خلافته (من سنة ١٥٨ ـ ١٦٩) (٧) لأنه كان كثير السخاء . ولم يحكم الهادى إلا سنة وبعض السنة ويروى من فرط سخائه أنه أعطى عبد الله بن مالك أربعمائة بغل موقرة دراهم وغيرها فلا يعقل أن يجتمع عنده مال يستحق الذكر . فما خلفه الرشيد فى بيت المال انما جمع فى أيامه واذا قدرناه باعتبار مدة حكمه لم يزد كثيراً عما تركه المنصور

(١) الطبرى ٤٤٤ ج٣ (٢) ابن الأثير ١٣ ج٦ (٣) المقدسى ١٢١ وسير الملوك ٥٤
(٤) الطبرى ٤١٥ ج٣ (٥) ابن الأثير ٤٠ ج ٦ (٦) الطبرى ٧٦٤ ج٣ وابن الاثير ٨٥ ج٦
(٧) المسعودى ١٧٧ ج ٢

لما بينهما من البون الشاسع فى السخاء . فقد كان الرشيد كريماً حتى انه لم يكن يعرف للمال قيمة [١] وكان المنصور متهماً بالبخل [٢] ناهيك بما كان من أمر البرامكة فى أيام الرشيد وما امتلكوه من الضياع وبذلوه من الاموال مما هو معلوم

ولما مات الرشيد سنة ١٩٣ تنازع ولداه الأمين والمأمون على الخلافة وتحاربا وكان الأمين في بغداد وقد أتته أمه زبيدة بخزائن أبيه [٣] والمأمون فى خراسان ودامت الحرب بينهما بضع سنوات أنفق الأمين فى أثنائها كل ما كان فى بيت المال مع ما أنفقه فى خاصته . لأنه انقطع فى أثناء خلافته الى اللهو والخمر وبذل الاموال فى طلب الملهين وضمهم اليه وأجرى عليهم الارزاق واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقسم الاموال والجواهر فى خواصه من الخصيان والنساء [٤]

فلما قتل الأمين سنة ١٩٨ استوثق الامر فى المشرق والمغرب للمأمون وزاد نفوذ الخراسانيين فى أيامه لانهم هم الذين أعادوا الملك اليه واستتبت السكينة فى المملكة العباسية واشتغل المأمون فى نقل العلوم الى العربية وسنأتى على تفصيل ذلك فى جزء آخر من هذا الكتاب خاص بالعلم والأدب

أما الثروة فى أيام المأمون فانها اتسعت لاستكانة الناس الى العمل واجتماع القلوب ومدة حكمه ٢٢ سنة نحو مدة أبيه الرشيد وأبى جده المنصور ولكننا لم نقف على مقدار ما خلفه فى بيت المال عند وفاته ولعل خبر ذلك ضاع فى جملة ما ضاع من هذا القبيل لقلة عناية مؤرخى هذه الايام فى هذه الابحاث

على ان ادخار المال أصبح بعد الخلفاء الراشدين من الامور المألوفة عند ملوك المسلمين فى كل الممالك والعصور . قيل ان عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس الشهير (تولى سنة ٣٠٠ ـ ٣٥٠) جمع فى بيت ماله الى سنة ٣٤٠ هـ نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار [٥] وكانت جباية الاندلس فى أيامه ٤٨٠٠٠٠٠ دينار ومن السوق والمستخلص ٧٦٥٠٠٠ دينار الجملة ٦٢٤٥٠٠٠ دينار ما عدا أخماس الغنائم فانها كانت كثيرة [٦] وكان الناصر ينفق على جنده ثلث هذا المال فقط [٧] وقد بالغ ابن خلدون فى مقدار ما خلفه الناصر فى بيت المال فجعله ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ولم يذكر ذلك جزافاً ولا خامر كلامه شك بل هو حولها الى الوزن فكانت على تقديره ٥٠٠٠٠٠ قنطار [٨] وهو قول بعيد لا ندرى كيف تطرق الى قلم هذا الفيلسوف . ويدل على بعده ان ابن

(١) الطبرى ١٣٣ ج ٢ (٢) ابن الأثير ١٢ ج ٦ (٣) أبو الفداء ٢٠ ج ٢
(٤) أبو الفداء ٢٢ ج ٢ (٥) ابن حوقل ٧٧ (٦) نفح الطيب ١٧٩ ج ١
(٧) ابن خلكان ٣٠ ج ٢ (٨) ابن خلدون ١١٥ ج ١

حوقل وهو من معاصرى تلك الدولة قدر ما اجتمع فى بيت مال الحكم بن الناصر بعد موت أبيه من خدمه والمصادرين وغيرهم فلم يزد على ٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار وعد ذلك كثيراً لم يجتمع لدولة من الدول فى ذلك العصر (١) وكانت بغداد يومئذ فى عصر الانحطاط وخلفاؤها وقوادها ووزراؤها يتقاتلون على المال ويصادر بعضهم بعضاً

أما فى أيام المأمون فالمال الذى كان يجتمع من صوافى الجباية في بيت المال كل عام لم يجتمع فى دولة من دول المسلمين ولا غيرهم . وقد وقفنا على مقدار تلك الجباية فى مقدمة ابن خلدون نقلا عن « جراب الدولة » (٢) وهى أقدم جريدة أو قائمة وصلت الينا من حسابات الدول الاسلامية ، تليها جريدة أخرى نقلها قدامة بن جعفر وأخرى رواها ابن خرداذبة وكلها لا تتجاوز أواسط القرن الثالث للهجرة وسنذكر كلا منها ونقابل بينها ليتبين لنا مقدار تلك الثروة

ولكننا نرى قبل التقدم الى ذكر الجباية أن نأتى على فذلكة فى جغرافية المملكة الاسلامية فى أيام المأمون لتتضح نسبة أعمال تلك المملكة بعضها الى بعض والى عاصمة المملكة العباسية

جغرافية مملكة الاسلام

فى عصر المأمون

﴿ حدودها ﴾ يحدها من الشرق أرض الهند وبعض الصين وبحر فارس ومن الغرب مملكة الروم ويعبر عن تلك الحدود الآن بالبحر الاسود وآسيا الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار . ومن الشمال بلاد السرير والخزر واللان فى آسيا وجبال البيرينيه فى أوربا . وفى خارطة هذه الأيام بلاد سيبيريا وبحر قزوين وبحر الروم . ومن الجنوب بحر فارس وما يلى مصر من بلاد النوبة وقد بينا مساحتها وعدد سكانها فى الجزء الأول صفحة ٩٧ (طبعة ثالثة)

وتقسم هذه المملكة الى عدة أعمال تختلف مساحتها ونسبتها بعضها الى بعض باختلاف الدول والأزمنة وسنبين ما كانت عليه حوالى عصر المأمون نقلا عن جغرافيي العرب فى تلك الأيام وخصوصاً الاصطخرى وابن حوقل وابن الفقيه . فهى تقسم الى سبعة وعشرين اقليما منها سبعة فى المغرب وعشرون فى المشرق وهى :

(١) ابن حوقل ٧٧ (٢) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

(أقاليم المغرب)	(أقاليم المشرق)		
ديار العرب	العراق	ارمينية	قومس
بحر فارس	خوزستان (الاهواز)	اذربيجان	مفازة خراسان
ديار المغرب	فارس	بلاد الران	سجستان
مصر	كرمان	الجبال	خراسان
الشام	مكران	الديلم	ما وراء النهر
بحر الروم	طوران	طبرستان	خوارزم
الجزيرة	السند	جرجان	

واليك وصف كل من هذه الأقاليم بما يمكن من الايجاز

﴿ ديار العرب ﴾ وهى جزيرة العرب يحيط بها بحر فارس من عبادان - وهو مصب ماء دجلة فى البحر - فيمتد على البحرين حتى ينتهى الى عمان ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهى الى سواحل اليمن الى جدة ثم يمتد الى مدين حتى ينتهى الى ايلة . فهم يريدون ببحر فارس كل ما يحيط ببلاد العرب من المياه ولكنهم يعبرون عن الجزء الممتد من باب المندب الى ايلة ببحر القلزم وهو البحر الأحمر . ويحدها من الغرب الشمالى براً بلاد الشام وفلسطين بخط منحن يمتد من ايلة الى البحيرة المنتنة فالشراة فالبلقاء فاذرعات وسلمية فالخناصرة الى الفرات الى الرقة وقرقيسيا والرحبة فالكوفة الى البطائح فواسط الى عبادان

وتقسم ديار العرب الى الحجاز وفيه مكة والطائف والمدينة واليمامة ومخاليفها . ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين . وبادية العراق . وبادية الجزيرة . وبادية الشام . واليمن المشتملة على تهامة . ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن

﴿ بحر فارس ﴾ ويراد به عندهم كل البحور المحيطة ببلاد العرب من مصب ماء دجلة فى العراق الى ايلة [1] فيدخل فيه ما نعبر عنه اليوم بخليج فارس وبحر العرب وخليج عدن والبحر الأحمر وخليج العقبة ولا يهمنا وصفه فى هذا المقام

﴿ ديار المغرب ﴾ يراد بها فى اصطلاحهم كل سواحل افريقيا الشمالية وراء حدود مصر غرباً ويدخل فى ذلك (١) برقة (٢) افريقية وهى تونس (٣) تاهرت فى الجزائر (٤) طنجة والسوس وزويلة فى مراكش

(١) الاصطخرى ٢٨

أما برقة فهى مدينة وسط واقعة فى مستو من الأرض خصبة يطيف بها البادية يسكنها طوائف من البربر وبينها وبين افريقية مدينة طرابلس الغرب وهى من عمل افريقية مبنية من الصخر ويليها المهدية ثم تونس وهي كبيرة خصبة ثم القيروان وهى عاصمة افريقية وأكبرمدينة فيها واقعة فى البر . وكذلك تاهرت فان عاصمتها تاهرت . ومن مدنها أيضاً سجلماسة وهي بعيدة فى الصحراء

ويجعلون الأندلس جزءاً من بلاد المغرب لأنها كانت تابعة لها عند فتحها . والأندلس (اسبانيا) مملكة كبيرة عاصمتها قرطبة وحدودها معروفة . ومن أشهر مدنها جيان وطليطلة وسرقسطة ولاردة ووادى الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة واستجة ورية . وعلى سواحلها شنترين ومالقة وجبل طارق وغير ذلك

﴿ مصر ﴾ وحدود مصر فى تلك الأيام مثل حدودها اليوم تقريباً ويلحقون بها البجة والنوبة الى حدود البحر الأحمر فالعقبة

﴿ الشام ﴾ ويراد بها سوريا على العموم وتقسم الى سبعة أقسام :

(١) جند فلسطين (٢) جند الأردن (٣) جند حمص
(٤) جند دمشق (٥) جند قنسرين (٦) العواصم (٧) الثغور

فجند فلسطين أول أجناد الشام غرباً يحده من جهة مصر رفح ومن الشمال اللجون وفيه يافا وأريحا وبيت لحم وغزة والشراة والبحيرة المنتنة وغوربيسان ونابلس وكانت قصبة فلسطين الرملة ويليها فى الكبر بيت المقدس

وجند الأردن قصبته مدينة طبرية

وأما جند دمشق فقصبته مدينة دمشق وهى أعظم مدن الشام على الاطلاق وهى معروفة

وأما جند حمص فقصبته مدينة حمص وهى مشهورة ويتبعها انطرطوس وسلمية بطرف البادية وشيزر وحماه وكانتا صغيرتين

وجند قنسرين قصبته حلب وهى مشهورة الى اليوم وكان لها شأن كبير لوقوعها فى طريق العراق الى الثغور والعواصم . ومن مدنها مدينة قنسرين وهى صغيرة ومعرة النعمان

وأما العواصم فيراد بها أعالى الشام وراء حلب الى اسكندرونة وقصبتها انطاكية

وهى تلى دمشق بالنزاهة . وكانت عاصمة الشام على عهد الروم وكان عليها سور ضخم للغاية قيل إن دوره للراكب يومين [١] ومن مدن العواصم بالش على ضفة الفرات ومنبج فى البرية

أما الثغور فهى ما وراء العواصم الى حدود جبل طورس فى آسيا الصغرى ومن مدنها الشهيرة سميساط على الفرات وملطية وهي أكبر الثغور وحصن منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة وأذنة وطرسوس . وقد يدخلون الثغور فى العواصم ويطلقون عليها جميعاً اسم العواصم . والمراد بالثغور عندهم المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم ولذلك كان عندهم ثغور شامية أى الحدود مما يلى الشام وحدود جزرية أى الحدود مما يلى الجزيرة

﴿ بحر الروم ﴾ ويراد به وصف ما فيه من الجزائر مما لا دخل له فى غرضنا الآن

﴿ الجزيرة ﴾ بين دجلة والفرات بلاد واسعة تعرف بما بين النهرين يسمى القسم الشمالى منها الجزيرة والجنوبى العراق والفاصل بينهما تكريت على دجلة والانبار أو هيت على الفرات . ويلحق الجزيرة بعض البلاد وراء الضفتين فى بعض المواضع . يحدها من الشمال ميافرقين وما يليها غرباً إلى الفرات قرب ملطية ومن الجنوب هيت على نهر الفرات وتكريت على دجلة ويحدها من الغرب الجنوبى بادية الجزيرة ومن الشرق الجبال وأذربيجان

والجزيرة بلاد خصبة جداً مثل بلاد العراق . ومن أشهر مدنها الموصل على دجلة من جهة الغرب وسنجار فى وسط البرية بديار ربيعة ليس فى الجزيرة بلد فيها نخل مثلها . ونصيبين وكانت أنزه بلد فى الجزيرة . ودارا وهى صغيرة . ورأس عين مدينة مستوية الأرض فى دار مضر وآمد فى أعالى دجلة وجزيرة ابن عمر على دجلة أيضاً ومن مدنها على الفرات الرقة وقرقيسيا والحديثة وهيت . وفى أواسطها أيضاً حران وهى مدينة الصابئين . والرها وهى قديمة مشهورة بالمدارس والعلوم أيام السريان . وسروج مدينة خصبة كثيرة الأعناب

وفى الجزيرة مفاوز يسكنها قبائل من ربيعة ومضر تقيم ربيعة فى الشمال الشرقي ومضر فى الجنوب الغربى وقد كانوا هناك قبل الاسلام . وهم أهل خيل وغنم وإبل على أنهم متصلون بالقرى والمدن فهم بادية حاضرة . وتكريت آخر حدود الجزيرة على دجلة وكان أكثر أهلها نصارى

(١) الاصطخرى ٦٢

﴿ العراق ﴾ هو القسم الجنوبى من بين النهرين وما يجاوره طوله من تكريت على دجلة من الشمال الى عبادان على بحر فارس فى الجنوب وعرضه من قادسية الكوفة فى الغرب الى حلوان فى الشرق . ومحيطه اذا بدأنا من تكريت نسير شرقاً الى شهرزور ثم جنوباً شرقياً الى حلوان فالسيران والصيمرة فحدود السوس الى عبادان ثم ينعطف الى البصرة ومنها صعداً نحو الشمال والغرب فى البادية على سواد البصرة وبطائحها الى الكوفة ثم على الفرات الي الانبار ومن الانبار شمالا الى تكريت . ويسمى مابين دجلة والفرات السواد . هذه حدود العراق فى إبان التمدن الاسلامى وهى تختلف عن حدوده الآن وخصوصاً لأن مجارى الأنهر تغيرت وسنعود الى تفصيل ذلك فى مكان آخر

وأشهر مدن العراق بغداد وهى قصبته وعاصمة المملكة الاسلامية فى إبان مجدها بناها المنصور . والبصرة وهى مدينة عربية بناها المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب وللبصرة بطائح سيأتى تاريخها فى موضع آخر . وواسط مدينة عربية أيضاً بناها الحجاج فى وسط السواد . والكوفة غربي الفرات وهى من بناء العرب . ومن مدن العراق النهروان شرقى دجلة على نهر اسمه النهروان جف الآن . وحلوان فى آخر حدود العراق شرقاً وكانت مدينة كبيرة بقرب الجبل . والحيرة قرب الكوفة والابلة قرب البصرة

﴿ خوزستان ﴾ هى شرقى العراق بينها وبين فارس يحدها من الشمال كور الجبال ومن الشرق فارس وأصبهان ومن الغرب العراق ومن الجنوب خليج فارس عاصمتها مدينة الاهواز واليها تنسب خوزستان فيقال لها الاهواز . وتقسم الى كور أولها كورة الاهواز . ثم جندى سابور والسوس وتستر ورامهرمز وسرق وعسكر مكرم . وقصبة كل كورة المدينة المسماة باسمها

﴿ بلاد فارس ﴾ وهى واقعة بين خوزستان فى الغرب وكرمان فى الشرق ويحدها شمالا أصفهان وبادية خراسان ومن الجنوب والغرب بحر فارس . وتقسم بلاد فارس الى خمس كور أكبرها كورة اصطخر قصبتها اصطخر ثم كورة اردشير خرة وقصبتها جور وفيها أيضاً مدينة شيراز وهى عاصمة بلاد فارس وبها دواوينها ودار الأمارة . ثم كورة دار ابجرد وكورة ارجان قصبتها مدينة ارجان ثم كورة سابور وهى أصغر كور فارس وفيها مدينة كازرون . ومن بلاد فارس بقاع يقيم فيها قبائل من الاكراد يزيدون على مئة حى يتعيشون بالمرعى والحرث فى بقاع يقال لها رموم . ويقدرون تلك القبائل فى بلاد فارس وحدها بنحو ٥٠٠٠ بيت ينتجعون المراعى فى المشتى والمصيف على

مذاهب العرب. وقد يكون فى البيت الواحد من الأرباب والأجراء والرعاة نحو عشرة رجال فاذا اعتبرنا معدل الرجال فى كل بيت خمسة كان عدد الرجال الاكراد ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ رجل وباعتبار ما يلحقهم من النساء والأولاد يزيد عددهم على عشرة ملايين

﴿ كرمان ﴾ هى أكبر من فارس واقعة بين فارس فى الغرب ومكران وسجستان فى الشرق ويحدها من الشمال مفازة خراسان ومن الجنوب بحر فارس وأشهر مدنها الشيرجان وبم وجيرفت وهرموز

﴿ مكران ﴾ هى شرق كرمان والى شرقيها طوران وبعض بلاد السند وفى الشمال سجستان وبلاد الهند وفى الجنوب بحر فارس وهى أكبر من كرمان ومن مدنها التيز وكيز ودرك ورسك

﴿ طوران ﴾ هى أصغر من فارس واقعة بين مكران فى الغرب وبلاد السند فى الشرق والشمال وبحر فارس فى الجنوب وأشهر بلادها محالى وكيز كانان وقصدار

﴿ السند ﴾ والسند آخر حدود مملكة الاسلام فى الشرق وأشهر مدنها المنصورة وهى بلسان الهنود برهماناباذ ومنها الديبل على شاطىء البحر والملتان وغيرها. أما المنصورة فانها واقعة على خليج من نهر مهران يحيط بها فى شبه الجزيرة وأهلها مسلمون. ويطلق الأصطخرى على مكران وطوران والسند اسم السند

﴿ أرمينية ﴾ هى فى أعالى مملكة الاسلام فوق الجزيرة تحدها من الشرق أذربيجان والران ومن الغرب بلاد الروم (فى آسيا الصغرى) ومن الشمال جبال القبق (القوقاس) ومن الجنوب الجزيرة قصبتها دبيل وفيها دار الأمارة والنصارى بها كثيرون ومن مدنها خلاط وارزن وقاليقلا وميافارقين ويعدها بعضهم من الجزيرة وهكذا فعلنا

﴿ أذربيجان ﴾ فى شرق الجزيرة يحدها من الغرب الجزيرة وأرمينية ومن الشرق بحر الخزر وبلاد الديلم ومن الشمال بلاد الران ومن الجنوب كور الجبال. عاصمتها مدينة اردبيل وفيها العسكر ودار الأمارة طولها ميلان فى ميلين ويلى اردبيل بالكبر المراغة وكانت قبلا دار الأمارة وتليها أرمية على شاطىء بحيرة الشراة. ومن مدنها سلماس ومرند وشيز

﴿ بلاد الران ﴾ هى شمالى أذربيجان يحدها من الشرق بحر الخزر ومن الغرب أرمينية ومن الشمال جبل قبق ومن الجنوب أذربيجان أكبر مدنها مدينة برذعة ثم تفليس والباب ومنها بيلقان والشاوران وغيرها

﴿ الجبال ﴾ يراد بالجبال جبال فارس وهى تقسم الى كور أشهرها ماه الكوفة وهى الدينور وماه البصرة وتسمى نهاوند . ويحد الجبال من الشرق مفازة خراسان وفارس ومن الغرب العراق والجزيرة ومن الشمال أذربيجان والديلم والرى وقزوين ومن الجنوب خوزستان والعراق . وهى تشتمل على مدن مشهورة أعظمها همذان والدينور وماسبذان وأصبهان وقم وقاشان ونهاوند واللور والكرج وقزوين وشهرزور وحلوان . مساحة همذان فرسخ فى فرسخ وكان لها سور أبوابه من حديد . والدينور (ماه الكوفة) نحو ثلثيها . وأصبهان مدينتان بينهما ميلان . ونهاوند (ماه البصرة) واقعة على جبل بناؤها من طين . وحلوان مدينة فى سفح الجبل المطل على العراق . وشهرزور قريبة من العراق . وقزوين فى أعالى فارس وهى ثغر بلاد الديلم . وقم مدينة عليها سور وهى خصبة . وقاشان مدينة صغيرة

﴿ الديلم ﴾ هى جبال مطلة على بحر الخزر (بحر قزوين) يحدها من الجنوب قزوين وبعض أذربيجان ومن الشمال بحر الخزر ومن الشرق قومس ومن الغرب أذربيجان . وأهل الديلم صنفان سكان الجبال وسكان السهول ومن توابعها الرى وأبهر وزنجان والطالقان وقزوين والرويان

﴿ طبرستان ﴾ وهى تلى الديلم شرقاً واقعة على بحر الخزر أيضاً يحدها من الشرق جرجان ومن الغرب الديلم . أكبر مدنها آمل وهى مركز الولاية وسارية وهى بلاد كثيرة المياه ودماوند (أو دنباوند)

﴿ جرجان ﴾ هى شرق طبرستان وشماليها يحدها من الشمال تركستان ومن الجنوب قومس ومن الشرق خراسان ومن الغرب بحر الخزر . أكبر مدنها مدينة جرجان وهى أكبر من آمل . ثم استراباد فى الجنوب ودهستان على شاطىء البحر

﴿ قومس ﴾ هى جنوبى جرجان وطبرستان وهما يحدانها من الشمال . وأما من الجنوب والشرق فحدودها مفازة خراسان ومن الغرب تحدها بلاد الرى قصبتها مدينة الدامغان

﴿ مفازة خراسان ﴾ هى بادية واقعة فى أواسط بلاد المشرق يحدها من الشمال قومس ومن الجنوب بلاد فارس وسجستان ومن الشرق سجستان وخراسان ومن الغرب الجبال والرى وهى أقل من بادية العرب سكاناً ، وبعض هذه المفازة تابع لخراسان والبعض الآخر تابع لعملى فارس وكرمان وهى وعرة ويصعب سلوكها بالخيل لقلة الماء فيها

﴿ سجستان ﴾ هى واقعة فى شمالى مكران يحدها من الشرق مفازة بينها وبين السند . ومن الجنوب مكران ومن الشمال أرض الهند ومن الغرب مفازة خراسان . أكبر مدنها زرنج وبست والطاق وغيرها

﴿ خراسان ﴾ هى من أخصب بلاد المشرق وأوسعها يحدها من الشرق الشمالى ما وراء النهر ومن الشرق الجنوبي بلاد السند وسجستان . ومن الشمال خوارزم وبلاد الغز فى تركستان . ومن الجنوب مفازة خراسان وفارس . ومن الغرب قومس . وتقسم خراسان الى كور أعظمها نيسابور ومرو وهرات وبلخ يليها كور قوهستان وطوس ونسا وابيورد وسرخس واسفزاروبوشنج وباذغيس وكنج رستاق ومرورود وجوزجان وطخارستان وزم وآمل

عاصمة خراسان مدينة نيسابور وهى أعظم مدنها جميعاً وتسمى أيضاً ابو شهر واقعة فى أرض سهلة أبنيتها من طين سعتها فرسخ فى فرسخ . ومدينة مرو وتعرف بمروالشاهجان وهى قديمة البناء . ومدن خراسان كثيرة وبلادها آهلة وتربتها خصبة وقد كان للمسلمين منها ارتفاع عظيم

﴿ ما وراء النهر ﴾ هى آخر بلاد الاسلام شمالا شرقياً يحدها من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ومن الغرب الجنوبى خراسان يفصل بينهما نهر جيحون ومن الشمال الغربى خوارزم ومن الجنوب طخارستان . وهو من أخصب أقاليم الاسلام وأنزهها وأكثرها خيراً . وأشهر نواحيها بخارا وسمرقند وكش ونخشاب وبيكند والساغانيان وفرغانة والسغد والشاش وأشروسنة وخوجند

﴿ خوارزم ﴾ وبعدها الاصطخرى تابعة لما وراء النهر فانها مستطيلة الشكل تمتد على ضفاف نهر جيحون فى الشمال . يحدها من الشمال بحر خوارزم ومن الجنوب خراسان وبلاد الصغد وتحدق بهذا الاقليم المفاوز من الشرق والغرب . قصبته مدينة خوارزم

هذه خلاصة جغرافية المملكة الاسلامية حوالى عصر المأمون ونسبة أقاليمها بعضها الى بعض تمهيداً لما سنذكره من جباية المملكة العباسية وهى تشمل كل هذه الأقاليم إلا الأندلس ولم يكن كل اقليم منها قائماً بذاته يؤدى خراجه باسمه فان بعض هذه الأقاليم كان داخلا فى عمل البعض الآخر . وقد اختلف ذلك باختلاف الأعصر فربما ورد فى قائمة الجباية ذكر خراج اقليم ويكون المراد خراج اقليمين أو أكثر مما دخل

تحت سيطرة عامله . إذ كثيراً ما كان الخلفاء يولون العامل عدة أقاليم يسمونها باسم واحد منها لأسباب لا يمكن حصرها

وقبل الشروع فى إيراد خراج الاعمال العباسية واستخراج ارتفاع الدولة لا بد لنا من بيان علاقة تلك الاقاليم أو الاعمال ببغداد عاصمة المملكة بالنظر الى توريد الخراج

علاقة الأعمال العباسية بالعاصمة

قلنا فى كلامنا عن ولاية الأعمال فى الجزء الاول انها كانت فى بادىء الرأى أشبه بالاحتلال العسكرى منها بالتملك . وكان العمال فى عهد الراشدين هم قواد الجند الذين فتحوا تلك الأقاليم وواجباتهم مراقبة سير الأحكام فى البلاد التى افتتحوها وإقامة الصلاة واقتضاء الخراج وظلت أعمال الحكومة فى داخل البلاد المفتوحة جارية على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان الذين يباشرون جباية الخراج ويتولون أعمال الحكومة فى البلاد موظفين من أهلها الاصليين فاذا اجتمع الخراج والجزية أنفقوا من مجموعهما ما تحتاج اليه الجباية من نفقات الجباة وغيرها ودفعوا الباقى الى الحاكم المسلم وهذا يدفع منه رواتب الذين معه من القواد والجند وما يقتضيه اصلاح الرى من إقامة الجسور والسدود ويرسل الباقى الى بيت المال فى عاصمة المملكة

ذلك كان شأن الاعمال الاسلامية فى زمن الراشدين ولما أفضى الامر الى بنى أمية واضطر معاوية الى اكتساب الاحزاب زاد فى نفوذ العمال وجعل بعض الاعمال طعمة لهم فازدادوا استقلالا فى أعمالهم . ثم دعت الاحوال الى تمكين المسلمين من البلاد المفتوحة واستلام أزمة الاحكام بأيديهم وتحويل الدواوين الى لسانهم فى أيام عبد الملك ومن جاء بعده — إلا جباة الخراج فانهم ظلوا من أهل البلاد الاصليين القبط فى مصر والدهاقين فى العراق وفارس . وظل العمال يقبضون صوافى الخراج والجزية وينفقون النفقات اللازمة ويرسلون الباقى الى بيت المال فى دمشق وهو ما يعبرون عنه بارتفاع الجباية . واذا لم تكف الجباية للقيام بالنفقات طالبوا الخليفة بالباقى (١)

ولما تولى بنو العباس ظلت الاعمال على نحو هذا الشكل . ويهمنا فى هذا المقام تتبع تلك العلاقة من حيث الجباية فقط . والظاهر أن العمال زادوا استقلالا من هذا القبيل عما كانوا عليه فى أيام بني أمية حتى آل الامر أخيراً الى تضمين الخراج أى

(١) المقريزى ٧٧ ج ١

تقبيله . وهو أن يوظف على العامل مال معين يدفعه فى السنة الى بيت المال فى بغداد وهو يتولى قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق ما ينفقه كما يشاء لا يطالبه الخليفة إلا بالمال المضروب . ويكون ذلك فى امارة الاستيلاء . كذلك فعل الرشيد مع ابراهيم بن الأغلب عامله على افريقية وكان هذا الاقليم عالة على الحكومة يحمل اليه من مصر كل سنة ١٠٠٠٠٠ دينار معونة له فلما تولاه ابن الأغلب تنازل عن هذا المال وبذل أن يحمل كل سنة ٤٠٠٠٠ دينار [١] وفعل الرشيد نحو ذلك ببرقة فانه جعلها قانوناً قائماً فوجه بمولى له فوزع خراج الأرض بأربعة وعشرين ألف دينار [٢] وكذلك فعل المأمون مع عبد الله بن طاهر فانه وظف عليه خراج خراسان وما يتبعه سنة ٢١١ هـ و ٢١٢ هـ قدراً معيناً سيأتى ذكره ، وقس عليه ما قبله الفضل بن مروان من فارس والاهواز وما تقبله عمران بن موسى من السند [٣] ثم صار التوظيف المذكور ضماناً وتكاثر حتى آل الى استقلال الامراء بولاياتهم

وجملة القول أن المال الذى كانوا يعبرون عنه بخراج البلد الفلانى انما يراد به ما يرد على بيت المال من خراج ذلك البلد بعد أداء أعطيات الجند المقيم فيه ونفقات الجباية واصلاح الرى وسائر الكلف [٤] أو بطريق التوظيف كما تقدم فما يجتمع من جبايات الاعمال يعبرون عنه بارتفاع الدولة أو جباية الدولة أى مجموع صافى الدخل لا ينفق منه إلا على موظفى الدواوين ورجال الدولة فى بغداد غير ما يأخذه الخليفة وأهله مما سيأتى تفصيله . وقد صرح ابن خلدون فى مقدمة كلامه عن مقدار تلك الجباية فى أيام المأمون بقوله « ما يحمل الى بيت المال ببغداد فى أيام المأمون من جميع النواحى نقلته عن جراب الدولة » [٥] فبالقياس على ما تقدم تعتبر كل ما يرد من الكلام عن ارتفاع الدولة انه صافى أموال الجباية

جباية الدولة العباسية

فى العصر الأول

فلنتقدم بعد هذا التمهيد الى تفصيل جباية الدولة العباسية فى أيام المأمون باعتبار ما يرد من كل عمل فى السنة . والتوفق الى ذلك نادر فى تاريخ الاسلام لأن القوم قلما يدونون

(١) ابن الأثير ٦٣ ج ٦ (٢) اليعقوبى (كتاب البلدان) ١٣٣
(٣) ابن خرداذبة ٣٤ و ٤٣ و ٤٨ و ٥٧ (٤) المقريزى ٩٧ ج ١
(٥) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

غير حوادث الحرب والفتح والقتل . أما قوائم ابن خلدون وقدامة وابن خرداذبة فقد عثرنا عليها عرضاً وهى :

(١) قائمة ابن خلدون : هى أقدمها كلها وقد أوردها ابن خلدون فى مقدمته فى عرض كلامه عن « أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها » وقال إنه نقلها عن جراب الدولة وفيها مقدار الخراج الذى كان يرد على بيت المال فى بغداد فى أيام المأمون . وقبل تحقيق ذلك الزمن نوجه التفات القارىء لما تطرق الى هذه القائمة من الخطأ بتوالى الأعوام . وقد تصفحنا النسخ المطبوعة من مقدمة ابن خلدون فى مصر والشام فرأينا خطأ فى أسماء بعض البلاد الواردة فى تلك القائمة نظنه وقع من النساخ لتشابه فى أشكال بعض الألفاظ . فلا بد من التنبيه الي ذلك وإصلاحه قبل إيراد القائمة المذكورة . لأن الخطأ اللفظى المشار اليه يجر الى الخطأ المعنوى لوقوعه فى أسماء البلاد أو الأقاليم التى حمل الخراج منها وهاك إصلاحها :

١ ـ كنكر[1] : هى لفظة لا معنى لها فى هذا المقام وصوابها « كسكر » وهو أقليم من أقاليم السواد

٢ ـ طبرستان والروبان ونهاوند [2] فالروبان بالباء صوابها « الرويان » بالياء وهى من أقاليم الديلم وقد ذكرناها فى محلها . ونهاوند قصبة كورة ماه البصرة من كور الجبال كما تقدم . ونظراً لبعدها من طبرستان والرويان فالغالب أن يكون المراد بها بلداً آخر قريباً من هناك نظنها « دماوند » وهى من كور طبرستان

٣ ـ مابين الكوفة والبصرة [3] : لم نر فى سائر القوائم ولا فى غيرها من التقاويم كورة بهذا الاسم . وقد لاحظ ذلك البارون فون كريمر المؤرخ الألمانى ولكنه حسبها كورة من كور السواد واقعة وراء الفرات بين الكوفة والبصرة دخلت فى القوائم الأخرى باسم آخر [4] . والصحيح على مانرى أن النساخ أخطأوا فى قراءتهم «مابين » وصوابها « ماها » أو « ماهين » مثنى « ماه » فيكون المراد « ماها البصرة والكوفة » وهما كورتان من كور الجبال قصبة الأولى نهاوند وقصبة الثانية الدينور كما تقدم . ويؤيد ذلك سقوط هاتين الكورتين من قائمة ابن خلدون بالكلية

٤ ـ ماسبذان والدينار[5] : ماسبذان من كور الجبال تقدم ذكرها وأما « الدينار » فلا مسمى لها فى بلاد الاسلام . وقد يتبادر إلى الذهن أنها تحريف « الدينور » قصبة

(١) فى السطر الثامن من طبعة بولاق صفحة ١٥٠ (٢) فى السطر ٢١ من الصفحة المذكورة
(٣) فى السطر ٢٦ من تلك الصفحة (٤) Cult. gesch. des Orients I. 356
(٥) فى السطر ٢٧ من تلك الصفحة

ماه الكوفة لو لم نكن قد وقفنا على اسم الماهين معاً فى هذه القائمة فهى على الغالب مبدلة من « الريان » وهى كورة بقرب كسكر فى العراق

وهناك غلط نسخى فى تعيين مقدار الخراج فى بعض الأقاليم صوابه ظاهر مثل قوله عن خراج كور دجلة إنه عشرون ألف ألف درهم وثمانية دراهم والعادة أن لايدونوا فى الديوان آحاد الدراهم [1] فالغالب أن يكون صوابها وثمانمائة الف درهم . وكذلك قوله عن جباية الاهواز انها خمسة وعشرون الف درهم والصواب ٢٥ الف الف درهم لأنها نحو ذلك فى القائمتين الأخريين . وكقوله فى طبعة بولاق عن خراج قومس « ألف ألف مرتين وخمسمائة الف من نقر الفضة » ونظن الصواب « ومن نقر الفضة الف » فيكون خراجها ١٥٠٠٠٠٠٠ درهم و ١٠٠٠ من نقر الفضة » . وقوله عن العسل الوارد من الموصل إنه ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ رطل والأقرب الى الصواب أن يكون ٢٠٠٠٠ رطل فقط . ومن هذا القبيل خراج مصر فقد ورد هناك أنه « الف الف الخ » والصواب على مانرى « الفاً الف الخ » بالقياس على جبايتها فى ذلك العصر . والخطأ إنما وقع بالنسخ لتشابه اللفظين خطا

أما زمن هذه القائمة فقد عينه ابن خلدون صريحاً فقال إنه فى أيام المأمون ولكنه لم يعين السنة . والمأمون حكم ٢٢ سنة من سنة ١٩٦ – ٢١٨ وحساب بيت المال فى بغداد احترق فى الفتنة بين الأمين والمأمون . ثم لم يدون الحساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ [2] فالقائمة المذكورة كتبت فى مابين ٢٠٤ و٢١٨ هـ ونظراً لاختلاف خراج خراسان فيها عما وظفه المأمون على ابن طاهر سنة ٢١١و٢١٢ هـ فالأرجح أنها كتبت بين ٢٠٤ و ٢١٠ هـ

ورأينا للبارون فون كريمر المذكور انتقاداً على تاريخ قائمة ابن خلدون خلاصته أنها كتبت قبل عصر المأمون بعشرات من السنين بحيث تتصل بعصر المهدى أو الهادى أى بين سنة ١٥٨ و ١٧٠ هـ ومن أدلته على ذلك « أنه ورد فيها ذكر خراج السند وافريقية وكانتا فى أيام المأمون قد استقلتا عن سلطة بغداد ولم يذكرهما قدامة ولا ابن خرداذبة » . والبارون فون كريمر لايستخف برأيه في تاريخ الاسلام وتمدنه وآدابه لأنه من أهل التحقيق والبحث ومن أكثر الألمان تمحيصاً للحقائق . ولكننا نراه واهماً فى حكمه على هذه القائمة للأسباب الآتية :

أولا : ان استقلال الأقاليم عن سلطة بغداد لم يكن يستلزم استقلالها عن الخلافة

(١) الطبرى ١٤٦٨ ج ٣ (٢) قدامة ٢٣٦

العباسية وقطع المال عنها . نعم ان افريقية استقل بها الأغالبة وتوارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤ - ٢٩٦ هـ ولكن استقلالهم هذا لا يمنع تأديتهم مالا معيناً كما كان يفعل معظم الأمراء المستقلين فى مصر وخراسان وغيرهما . فانهم كانوا يخطبون لخليفة بغداد ويعتبرون أنهم تابعون له دينياً فقط - كذلك كان شأن الدولة الطاهرية فى خراسان والطولونية فى مصر[1] وكان بعضهم يقدم المال باسم الهدية والبعض الآخر باسم الخراج أو الضمان أو غيرهما . وزد على ذلك أن افريقية لم تكن تحمل مالا الى بيت المال الا بعد سنة ١٨١ هـ أى بعد أن تولاها ابراهيم بن الأغلب وهو الذى فرض على نفسه ٤٠٠٠٠ دينار . فلا يبعد أن يستمر الأغالبة على دفع مثل هذا المال الى أيام المأمون . لأن الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون افريقية من مملكتهم كل أيام الأغالبة وكانوا يعينون الولاة عليها من بغداد باعتبار أن الأغالبة تحت هؤلاء الولاة[2] ويقال نحو ذلك فى السند بل نرى فى هذا شاهداً أقرب على صحة رواية ابن خلدون فان المأمون نفسه استعمل على السند سنة ٢١٦هـ عاملا اسمه عمران بن موسى العتكى[3] على أن يحمل اليه منها مليون درهم بعد كل نفقة[4] ويدل ذلك على سيادته عليها وان كان المال المذكور أقل كثيراً مما ذكره ابن خلدون إذ يختلف المراد بحدود السند باختلاف الأزمنة . أما عدم ورود هذين البلدين فى قائمتى قدامة وابن خرداذبة فقد يكون سببه عارضاً إما لانقطاع الخراج منهما بعد قائمة ابن خلدون أو لأسباب أخرى راجعة الى دخول بعض الأقاليم فى بعض أو غير ذلك كما سيتضح من مقابلة القائمتين التاليتين . وعلى كل حال فان افتراض هذه الأسباب أقرب الى الصواب من اتهام ابن خلدون بالخطأ أو الوهم وهو ثقة كثير التبصر والتمحيص . وقد قال صريحاً إن هذه الجباية وردت على بيت المال فى أيام المأمون

ثانياً : ان ابن خلدون استحوز على أوراق رسمية من أيام المأمون عن الدخل والخرج كان يرجع اليها فى تحقيق ما يكتبه فى هذا الشأن ونحوه[5]

ثالثاً : ان الديوان احترق فى أيام الأمين وقد قدمنا أنه لم يدون فيه حساب إلا بعد سنة ٢٠٤ هـ وأما ما كان منها قبل ذلك فقد ضاع

فبناء على ذلك يترجح عندنا أن يكون الحق فى جانب ابن خلدون وأن يكون البارون فون كريمر واهماً فى اعتراضه وفوق كل ذى علم عليم

(٢) قائمة قدامة : دونها قدامة ابن جعفر الكاتب البغدادى فى كتابه المسمى « كتاب الخراج » ولم يصل الينا منه الا نتف طبعت فى ليدن بعناية دى كويه المستشرق

(١) المقريزى ٣٢١ ج ١ (٢) ابن الاثير ٤٥ ج ٧ (٣) ابن الاثير ١٧١ ج ٦
(٤) ابن خرداذبة ٥٧ (٥) ابن خلدون ٣٢٩ ج ١

الهولندى الشهير . توفى قدامة المذكور سنة ٣٣٧ هـ وكان أبوه نصرانياً وأسلم فى أيام المكتفى (من ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وتولى منصباً كبيراً من مناصب الدولة العباسية والف كتباً كثيرة من جملتها كتاب الخراج هذا . ويظهر أنه كتبه نحو سنة ٣١٦ هـ نقلا عن أوراق رسمية اتصلت به . ويستدل من مطالعة الكتاب أن ما ورد فيه من جباية البلاد يراد به جبايتها نحو سنة ٢٢٥ هـ

(٣) قائمة ابن خرداذبة : هو عبد الله بن خرداذبة وذكر صاحب الفهرست أنه كان يتولى البريد فى بلاد الجبال . ويظهر أنه كتب وهو فى هذا المنصب كتابه «المسالك والممالك» وفيه هذه القائمة ويظن دى كويه ناشر هذا الكتاب أن ابن خرداذبة كتبه سنة ٢٣٢ ثم أضاف اليه بعض الزيادات فيما بعد بحيث لا يتجاوز حوالى سنة ٢٥٠ هـ

هذه هى القوائم الثلاث وفيها جباية الدولة العباسية فى ابان ثروتها فلنوردها باعتبار قدمها . وأقدمها قائمة ابن خلدون ثم قدامة ثم ابن خرداذبة :

١ - جباية الدولة العباسية

(فى أيام المأمون - نقلا عن ابن خلدون)

أسماء الاقليم	من الدراهم	من الأموال والغلال
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ومن طين الختم ٢٤٠ رطلا
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠	
كور دجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	
الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	وسكر ٣٠ ٠٠٠ رطل
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن ماء الورد ٣٠ ٠٠٠ قارورة ومن الزيت الاسود ٢٠ ٠٠٠ رطل
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	ومتاع يمانى ٥٠٠ ثوب وتمر ٢٠ ٠٠٠ رطل
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	
السند وما يليه	١١ ٥٠٠ ٠٠٠	وعود هندى ١٥٠ رطلا
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣ ٠٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلا
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢٠٠٠ نقرة و ٤٠٠٠ برذون و ١٠٠٠ رأس رقيق و ٢٠٠٠٠ ثوب متاع و ٣٠٠٠٠ رطل اهليلج
(المجموع)	١٦٥ ١٠٠ ٠٠٠	درهم

أسماء الاقليم	من الدراهم	من الأموال والغلال
(مجموع ماقبله)	١٦٥ ١٠٠ ٠٠٠	درهم
جرجان	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١٥٠٠ ٠٠٠	ومن نقر الفضة ١ ٠٠٠ نقرة
طبرستان والريان ودماوند	٦٣٠٠ ٠٠٠	و ٦٠٠ قطعة من الفرش الطبرى و ٢٠٠ اكسية و ٥٠٠ ثوب و ٣٠٠ منديل و ٣٠٠ جام
الرى	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
همدان	١١٣٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ رطل رب الرمان و ١٢ ٠٠٠ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠ ٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
شهرزور	٦٧٠٠ ٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
اذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ رأس رقيق و ١٢ ٠٠٠ زق عسل وعشر بزاة و ٢٠ كساء
أرمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ من القسط المحفور و ٥٣٠ رطلا من الرقم (ضرب من الوشى) و ١٠ ٠٠٠ رطل من المسايح السورماهى و ١٠ ٠٠٠ رطل من الصونج (نوع من لأسماك البحرية) و ٢٠٠ بغل و ٣٠ مهراً
برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
افريقية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	و ١٢٠ بساطاً
(المجموع)	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	درهم
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ حمل زيت
(المجموع)	٤٠٠ ٠٠٠	درهم

أسماء الاقليم	من الدراهم	من الأموال والغلال
(مجموع ما قبله)	٤٠٠ ٠٠٠	درهم
دمشق	٤٢٠ ٠٠٠	
الأردن	٩٧ ٠٠٠	
فلسطين	٣١٠ ٠٠٠	و ٣٠٠ ٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢٩٢٠ ٠٠٠	
اليمن	٣٧٠ ٠٠٠	سوى المتاع (لم يذكر)
الحجاز	٣٠٠ ٠٠٠	
(المجموع)	٤ ٨١٧ ٠٠٠	دينار وتساوى ٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره فى ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠	
يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة قبله	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	
(الجملة)	٣٩٠ ٨٥٥ ٠٠٠	درهم

وترى من النظر فى هذه القائمة أن خراج أقاليم المشرق كانوا يقدرونه بالدراهم وخراج أقاليم المغرب بالدنانير (الا برقة وافريقية) وسترى نحو ذلك أيضاً فى القائمتين الاخريين والسبب على ما يظهر أن مناجم الفضة كانت أكثر فى أقاليم المشرق منها فى المغرب وبعكس ذلك مناجم الذهب

فمجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وافريقية) ٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم ومجموع خراج سائر أقاليم المغرب ٤ ٨١٧ ٠٠٠ دينار حولناها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو صرفه فى ذلك العصر فبلغت ٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠ درهم وباضافتها الى جباية أقاليم المشرق بلغ المجموع كله ٣٩٠ ٨٥٥ ٠٠٠ درهم

ورأينا فى ما نقله فون كريمر من قائمة ابن خلدون بلدين هما الكرج والجيلان غير موجودين فى ما لدينا من النسخ ـ نظنه وجدهما فى نسخة فون همر . خراج الاولى

٣٠٠ ٠٠٠ درهم والثانية ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم وليس هنا مكان التحقيق عن صحة هذه الرواية أو عدم صحتها

فيكون مجموع جباية المملكة العباسية فى أيام المأمون نحو ٤٠٠ مليون درهم ما عدا الاموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته واذا أعدت النظر فيه رأيته شيئاً كثيراً . والعادة فى تقدير الجباية أن تقدر هذه الغلات بما تساويه من النقد ويضاف مبلغها الى مبالغ النقد كما فعل صاحب جراب الدولة فى غلات السواد ومعظمها فى الاصل من الحنطة وكما سترى فى تفصيل خراج طساسيج السواد بقائمتى قدامة وابن خرداذبة

وقد تقدم أن الجباية التى كانت ترد الى بيت المال فى بغداد انما هى صوافى ما تحصل منها فى الاقاليم بعد دفع أموال الجند ونفقات الجباية واصلاح الرى ونحو ذلك من نفقات الاقاليم ولم يبق على هذا المال الا نفقات الدواوين فى بغداد للخليفة ووزرائه وكتابه ورجال بطانته . وقد يرتاب القارىء فى رواية ابن خلدون لبعدها عما هو مألوف عندنا من ميزانيات دول هذه الايام وما فيهن من يبقى فى صندوقها معشار هذا المال ـ ولذلك فنأتى بالروايتين الاخريين للمقابلة بينهما وبين رواية ابن خلدون

٢ ـ جباية الدولة العباسية

فى أيام المعتصم ـ نقلا عن قدامة بن جعفر

كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشعير وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلا باعتبار طساسيج السواد أى نواحيه فى الشرق والغرب

طساسيج السواد فى الجانب الغربى :

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
الانبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠ ٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠ ٠٠٠
طسوج قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠ ٠٠٠
« بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠ ٠٠٠
بهر سير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠ ٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠ ٠٠٠
كوثى	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠ ٠٠٠
(المجموع)	٢٨٣٠٠	١٦٤٠٠	٢٦٠٠ ٠٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(مجموع ماقبله)	٢٨٣٠٠	١٦٤٠٠	٢٦٠٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابى الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« الجبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سوراو وبرنسما	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلى	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيليحين	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايغار يقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
طساسيج السواد فى الجانب الشرقي :			
طسوج بزرجسابور	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
« الرذانين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
« نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روستقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
(المجموع)	٩٦٣٠٠	٩٨٩٠٠	٧٠٤٤٨٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(مجموع ماقبله)	٩٦٣٠٠	٩٨٩٠٠	٧٠٤٤٨٠٠
جلولا وجلتا	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
الديبين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٠٠٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠٠
البذنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠٠
طسوج براز الروذ	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠٠
النهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بادرايا وباكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠٠
كورة دجلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠٠٠٠٠
نهر الصلة	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠٠
النهروان الأسفل	١٧٠٠	١٣٠٠٠	٥٣٠٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٣٥٦٢١	٨٨٢١٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥٦٠٠ كر حنطة و ١٣٥٦٢١ كر شعير و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم فقد قال فى إيراد المجموع : « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧٢٠٠ كر ومن الشعير ٩٩٧٢١ كراً ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم [1] ولعل السبب فى هذا الفرق خطأ فى قراءة بعض الأعداد . على أن الفرق على كثرته لا يعتد به فى ما نحن فيه . بقى علينا أن نحول الحنطة والشعير الى دراهم وقد فعل جعفر ذلك فحولهما باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين ديناراً والدينار على صرف خمسة عشر درهماً بدينار فبلغ ذلك ١٠٠٣٦١٨٥٠ درهماً وقال ان صدقات البصرة ترتفع فى السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم فاذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهماً على هذه الصورة

٨٠٩٥٨٠٠	الدراهم المجموعة ورقاً
١٠٠٣٦١٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٦٠٠٠٠٠٠	صدقات البصرة
١١٤٤٥٧٦٥٠	درهماً

(١) كتاب الخراج (طبعة ليدن) ٢٣٩

هذا هو ارتفاع السواد فلنتقدم الى إيراد جبايات سائر الأقاليم فى المشرق والمغرب . وهى مع السواد : —

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠	آذربيجان	٤ ٥٠٠ ٠٠٠
الاهواز	٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠	الرى ودماوند	٢٠ ٠٨٠ ٠٠٠
فارس	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	قزوين وزنجان وابهر	١ ٨٢٨ ٠٠٠
كرمان	٦ ٠٠٠ ٠٠٠	قومس	١ ١٥٠ ٠٠٠
مكران	١ ٠٠٠ ٠٠٠	جرجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠
أصبهان	١٠ ٥٠٠ ٠٠٠	طبرستان	٤ ٢٨٠ ٧٠٠
سجستان	١ ٠٠٠ ٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠ ٠٠٠
خراسان	٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠
حلوان	٩٠٠ ٠٠٠	الموصل وما يليها	٦ ٣٠٠ ٠٠٠
ماه الكوفة	٥ ٠٠٠ ٠٠٠	قردى وبذيدى	٣ ٢٠٠ ٠٠٠
ماه البصرة	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	ديار ربيعة	٩ ٦٣٥ ٠٠٠
همدان	١ ٧٠٠ ٠٠٠	أرزن وميافارقين	٤ ٢٠٠ ٠٠٠
ماسبذان	١ ٢٠٠ ٠٠٠	طرون	١٠٠ ٠٠٠
مهرجان قذق	١ ١٠٠ ٠٠٠	آمد	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
الايغارين	٣ ١٠٠ ٠٠٠	ديار مضر	٦ ٠٠٠ ٠٠٠
قم وقاشان	٣ ٠٠٠ ٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢ ٩٠٠ ٠٠٠
		(المجموع)	٣١١ ٥٨١ ٣٥٠

أقاليم المغرب	دينار	أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠ ٠٠٠	مصر والاسكندرية	٢ ٥٠٠ ٠٠٠
جند حمص	٢١٨ ٠٠٠	الحرمين	١٠٠ ٠٠٠
« دمشق	١١٠ ٠٠٠	اليمن	٦٠٠ ٠٠٠
« الأردن	١٠٩ ٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠ ٠٠٠
« فلسطين	٢٩٥ ٠٠٠	عمان	٣٠٠ ٠٠٠
		(المجموع)	٥ ١٠٢ ٠٠٠

وبتحويلها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً تساوى ٧٦ ٧١٠ ٠٠٠ درهم

وباضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة أعلاه يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨ ٢٩١ ٣٥٠ درهماً وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة[1]

٣ ـ جباية الدولة العباسية

فى أواسط القرن الثالث للهجرة ـ على رواية ابن خرداذبة

فصل ابن خرداذبة جباية أعمال السواد كما فصلها قدامة وزاد على ذلك عدد الشون والبيادر مما يطول بنا إيراده فنكتفى بذكر جملته من الحنطة والشعير والفضة وذلك عبارة عن ٦٣ ٤٠٠ كر حنطة و ٩١ ٨٥٠ كر شعير و ٨ ٤٥٦ ٨٤٠ درهماً نقداً . وبتحويل الحنطة والشعير الى دراهم باعتبار الكر بن المقرونين ستين ديناراً والدينار ١٥ درهما كما تقدم بلغت قيمتها ٦٩ ٨٦٢ ٥٠٠ درهم وباضافة ذلك الى الدراهم المجموعة نقداً تصير الجملة ٧٨ ٣١٩ ٣٤٠ درهما

ثم فصل جباية خراسان وما يلحق بها من الاقاليم فى الدولة الطاهرية باعتبار ما وظف عليها سنة ٢١٢ هـ ومقدار ذلك جملة ٤٤ ٨٤٦ ٠٠٠ درهم و ١٣ دابة للركوب و ٢٠٠٠ شاة من الغنم و ٢٠٠٠ رأس من السبى الغزية ما قيمته ٦٠٠ ٠٠٠ درهم . ومن الكرابيس الكندجية ١١٨٧ ثوباً ومن المرور وصفائح الحديد ١٣٠٠ قطعة نصفين . وكانت خراسان يومئذ تشمل نحواً من خمسين عملا فى جملتها الرى وقومس وجرجان وكرمان وسجستان ونيسابور وطخارستان والطالقان وأعمال ما وراء النهر وفيها بخارى والسغد وغيرها . وكان الطاهريون مستقلين بها ويدفعون عنها هذه الوظيفة . وقد اقتصرنا على إجمال ذلك خوف التطويل ومن أراد تفصيل جباية أعمال السواد وأعمال خراسان فليراجعها فى كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة. ولنتقدم إلى إتمام قائمته عن الاعمال الأخرى مع الاجمال الذى ذكرناه :

أقاليم المشرق	دراهم	أقاليم المشرق	دراهم
السواد	٧٨ ٣١٩ ٣٤٠	قم	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
خراسان وتوابعها	٤٤ ٨٤٦ ٠٠٠	الاهواز	٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠
شهرزور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠	فارس	٣٣ ٠٠٠ ٠٠٠
ماسبذان ومهرجان قذق	٣ ٥٠٠ ٠٠٠	قزوين	١ ٢٠٠ ٠٠٠
		(المجموع)	١٩٥ ٦١٥ ٣٤٠

(١) وقد رأينا اختلافاً فى قائمة قدامة بين التفصيل والاجمال لعله تطرق اليها من النساخ فحصناه بقدر الامكان

اقاليم المشرق	دراهم	اقاليم المغرب	دنانير
(ماقبله)	١٩٥ ٦١٥ ٣٤٠	قنسرين والعواصم	٤ ٠٠٠ ٠٠٠
		جند حمص	٣٤٠ ٠٠٠
ماه الكوفة	٣ ٨٠٠ ٠٠٠	« دمشق	٤٠٠ ٠٠٠
اصبهان	٧ ٠٠٠ ٠٠٠	« الأردن	٣٥٠ ٠٠٠
ديار مضر	٥ ٦٠٠ ٠٠٠	جند فلسطين	٥٠٠ ٠٠٠
الموصل	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	مصر	٢ ١٨٠ ٠٠٠
ديار ربيعة	٧ ٧٠٠ ٠٠٠	اليمن	٦٠٠ ٠٠٠
أرمينية	٤ ٠٠٠ ٠٠٠		
(المجموع)	٢٢٧ ٧١٥ ٣٤٠	(المجموع)	٤ ٧٧٠ ٠٠٠

وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم تبلغ ٧١ ٥٥٠ ٠٠٠ درهم تضاف الى مجموع جباية أقاليم المغرب أعلاه على هذه الصورة :

درهم	
٢٢٧ ٧١٥ ٣٤٠	جباية أقاليم المشرق
٧١ ٥٥٠ ٠٠٠	« « المغرب
٢٩٩ ٢٦٥ ٣٤٠	الجملة

مجمل جباية الدولة العباسية

وخلاصة ما تقدم أن ارتفاع الدولة العباسية كان على معظمه فى أيام المأمون ثم أخذ فى التناقص بعده ولم يظهر ذلك النقص الا بعد أواسط القرن الثالث للهجرة لأسباب سيأتى بيانها . وأما قبل ذلك فان ارتفاع هذه الدولة كان عظيما جداً كما تبين من القوائم الثلاث التى ذكرناها وهاك فذلكتها :

درهم	
٣٩٦ ١٥٥ ٠٠٠	جباية الدولة العباسية فى أيام المأمون بين سنة ٢٠٤ و ٢١٠ هـ
٣٨٨ ٢٩١ ٣٥٠	« « « « « المعتصم أو بعيده الى سنة ٢٢٥
٢٩٩ ٢٦٥ ٣٤٠	« « « « أواسط القرن الثالث [1]
١ ٠٨٣ ٧١١ ٦٩٠	الجملة

(١) لا يخفى على المتأمل أننا عينا هذه الازمنة بالتقريب إذ قد يرد فى قائمة ابن خرداذبة مثلا خراج اقليم كما وظف عليه فى عهد قائمة ابن خلدون أو قدامة وبالعكس وانما اعتبرنا فى تعيينها الاغلبية

فترى من مقابلة هذه الأرقام أن الفرق فى الجباية ظهر حتى فى النصف الأول من القرن الثالث وخصوصاً اذا اعتبرت ما أغفلناه من قائمة ابن خلدون من الأموال والأمتعة والمحصولات وهى من جملة الخراج . فمعدل الوارد الى بيت المال فى العام نحو ٣٦٠ مليون درهم وهى صوافى جباية الأعمال كما قدمنا مما لم نسمع بمثله فى الدول قديماً ولا حديثاً ـ الا اذا اعتبرنا ما أورده بعضهم إجمالا بطريق العرض عن دولتى الروم والفرس . فقد قال جبن مؤرخ الدولة الرومانية إن جباية هذه الدولة إبان سطوتها ومعظم سعتها تساوى نحو ٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم منها ١٣٥ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم من آسيا (الصغرى) [1] وذكر ابن خرداذبة أن جباية مملكة الفرس فى أيام كسرى برويز بلغت ٤٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ مثقال أو نحو ٧٢٠ مليون درهم . فاذا سلمنا بصحة هذه الارقام أعوزنا الاطلاع على طريقة الانفاق عندهم اذ ربما كانت تستغرق معظم هذه الجباية بخلاف الدولة العباسية كما سترى . أما ماخلا هاتين الدولتين فالفرق بين جبايتها وجباية هذه الدولة عظيم جداً . فالدولة العثمانية بلغت معظم سعتها فى أيام السلطان سليمان القانونى فى أواسط القرن العاشر للهجرة ولم يزد ارتفاع جبايتها فى أيامه على ٨ ٠٠٠ ٠٠٠ دوكات [2] أو نحو ٦٥ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك . فأين ذلك من جباية الدولة العباسية فانها تزيد على أضعافه . وقس على ذلك دول هذه الايام باعتبار ما يبقى فى صندوقها كما سيأتى

ولنتقدم الى الكلام فى الجهات التى كانت تنفق فيها الاموال

نفقات الدولة العباسية

لم نر فى ما كتبه المؤرخون القدماء فى العربية نصاً يتعلق بهذا الشأن ولا ندرى اذا كانوا فعلوا ذلك عمداً أو ضاع ما كتبوه فى ثنيات الزمان . على أن مؤرخى المسلمين قلما دونوا حوادث التمدن الاسلامى أو ما هو فى معناه كمقدار الدخل أو الخرج وثروة المملكة وحال العلم أو نظام الهيئة الاجتماعية غير ماجاء عرضاً فى أثناء ذكر الوقائع الحربية أو وصف مجالس الطرب ـ إلا ابن خلدون فقد أورد جباية الدولة فى عرض الكلام عن بذخها فى إبانها . وأما قدامة وابن خرداذبة فقد ذكرا مقدار الخراج فى عرض الكلام عن طرق البريد . وقد ذكر الخراج أيضاً بعض أصحاب التقاويم (الجغرافية)

(١) Gibbon's Roman Empire I. 110

(٢) Porter's Conts. Hist. of Turkey. Ms.

ولكنهم لم يذكر أحد منهم شيئاً عن الشؤون التى تنفق فيها الأموال المجموعة من الخراج فى العصر الذى نحن فى صدده

على أننا بالقياس على ماعرفناه من أحوال ذلك التمدن نرجح أن المال المشار اليه كان يوضع فى بيت المال بعد دفع رواتب الجند والكتاب والقضاة وسائر أرباب المناصب فى دواوين الحكومة فى بغداد والموظفين الذين قد تعينهم الحكومة من بغداد وتدفع رواتبهم من بيت مالها ولو كان عملهم فى الخارج مثل عمال البريد [1] وغيرهم . وما بقى من أموال الجباية بعد هذه النفقات يوضع فى بيت المال تحت اجتهاد الخليفة [2]

أما مقدار ما كان ينفق على الجند بالدواوين وغيرهم فمما لا يمكن القطع فيه لأنه يختلف باختلاف العصور وأحوال الخلفاء ولم نقف على شىء صريح فى هذا الشأن فى العصر العباسى الأول ولا فى غيره

على أننا توفقنا بهمة البارون فون كريمر الى قائمة تشمل ما اشترطه أحمد بن محمد الطائى على نفسه أن يقدمه من ضمانه الي بيت المال ـ وفيه ما كان ينفقه بيت المال فى بغداد فى السنين الأولى من خلافة المعتضد العباسى (سنة ٢٧٩ هـ) [3] وقد عين فيه مقدار المال اللازم لكل فئة من فئات الموظفين الذين تدفع رواتبهم من بيت المال وجملة ذلك ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ دينار فى السنة تدفع مياومة باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار تفرق فى الجند وموظفى الدواوين والخدم وغيرهم على هذه الصورة :

نفقات الدولة العباسية

فى أيام المعتضد بالله سنة ٢٧٩ هـ بالمياومة

دينار فى اليوم	
١ ٠٠٠	أرزاق أصحاب النوبة ومن برسمهم من البوابين وفيهم البيضان من الجنابيين والبصريين وأصحاب المصاف بباب العامة وغيرهم والسودان وأكثر مماليك الناصر
١ ٠٠٠	أرزاق الغلمان الذين أعتقهم الناصر (هو الموفق بن المتوكل) ويعرفون بالغلمان الخاصة
٢ ٠٠٠	المجموع

(١) ابن خرداذبة ١٥٣ (٢) الماوردى ١٧٩

(٣) Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

دينار فى اليوم	
٢٠٠٠	(مجموع ما قبله)
١٥٠٠	أرزاق الفرسان من الأحرار المميزين
٦٠٠	أرزاق المختارين وهم جند منتخبون من كل قيادة وقد عرفوا بالشهامة والشجاعة
٥٠٠	أرزاق الفرسان المثبتين فى أيام الناصر
١١٠	« سبعة عشر صنفاً من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين والمنجمين والفنجاميين وأصحاب الأعلام والبوقيين والمضحكين والطالبين وغيرهم
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة فى مدينة السلام وغيرها
٣٠٠	أثمان انزال المماليك وغيرهم
٣٣٣ ١/٣	نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز وانزال الحرم والحشم ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف الشراب للخاصة والعامة وآلاته ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وخزائن السلاح والفرش الخ
٤	أرزاق السقائين بالقرب فى القصر والخزائن والمخابز والدور والحجر والخدم الخ
١٦٧	أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والمماليك دون الاكابر الأحرار ومن أضيف اليهم من الحشم القدماء
١٠٠	أرزاق الحشم من المستخدمين فى شراب العامة وخزائن الكسوة والصناع من الصاغة والخياطين والعقادين والأساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والنجادين والوراقين والعطارين والمشهرين والنجارين والخراطين والاسفاطيين وغيرهم الخ
١٠٠	أرزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة
٦٦ ٢/٣	ما يصرف فى ثمن الكراع والابل والخيل الخ
٦٣٣١	(المجموع)

دينار فى اليوم	
٦٣٣١	(مجموع ما قبله)
٣٠	أرزاق المطبخيين
٣٠	« الفراشين والمحلبيين وخزان الفرش والحمالين
٥	« أصحاب الركاب والجنائب والسروج ومن يخدم فى دواب البريد
٤٤	« الجلساء وأكابر الملهين ومن يجرى مجراهم
٢٣ ١/٣	« جماعة من المتطببين وتلامذتهم الخ
٧٠	« أصحاب الصيد من البازياريين والفهادين والكلابزريين وغيرهم
١٦ ٢/٣	« الملاحين فى الطيارات والشذات والحراقات وغيرها من السفن
٤	ثمن النفط والمشاقة للنفاطات والمشاعل وأجرة الرجال لخدمتها
١٥	الصدقة التى تحضر كل يوم عند صلاة الصبح فى خرقة سوداء
٣٣ ١/٣	جارى أولاد المتوكل
١٦ ٢/٣	« « الواثق
١٦ ٢/٣	جارى أولاد الناصر
٢٠	أرزاق مشائخ بنى هاشم وأصحاب المراتب والخطباء فى المساجد
٣٣ ١/٣	أرزاق جمهور بنى هاشم من العباسيين والطالبيين
٣٣ ١/٣	جارى عبيد الله بن سليمان (الوزير) مع خمس مئة دينار للقاسم ابنه (فى الشهر) برسم العرض
١٥٦ ٢/٣	أرزاق أكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان والبوابين والمدبرين والأعوان وسائر من فى الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد ـ سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم وخزان بيت المال فانهم يأخذون أرزاقهم بما يوفرونه من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم
١٦ ٢/٣	جارى اسحق بن ابراهيم القاضى وخليفته يوسف بن يعقوب والد أبي عمر وأولادها وعشرة نفر من الفقهاء
٥٠	نفقات السجون وثمن أقوات المحبسين
٦٩٤٥ ٢/٣	(المجموع)

دينار فى اليوم	
٦٩٤٥ ٢/٣	(مجموع ما قبله)
٣ ١/٢	جارى المؤذنين فى المسجدين والمكبرين والقوام والأئمة وثمن الزيت للمصابيح والحصر والبوارى والماء وثمن الستار للصيف والجلباب والخزف والعمارة فى شهر رمضان
١٠	نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من سفنهما وأرزاق الجسارين
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدى ولم يكن يومئذ غيره وأرزاق المتطببين والمأانين والكحالين ومن يخدم المغلوبين على عقولهم والبوابين والجنازين وغيرهم وأثمان الطعام والأدوية والأشربة
٦٩٧٤	(الجملة)

فالمجموع نحو سبعة آلاف دينار وذلك نفقات الدولة العباسية فى اليوم الواحد من أيام المعتضد (سنة ٢٧٩ هـ) ومجموع ذلك فى السنة نحو مليونين ونصف (٢٥٠٠٠٠٠ دينار) . فاذا فرضنا نفقاتها فى أيام المأمون والمعتصم نحو ذلك — وهى فى اعتقادنا يجب أن تكون أقل من ذلك بالنظر الى تكاثر الغلمان والمماليك فى أواخر القرن الثالث عما كان فى أوائله — فاذا فرضنا النفقات واحدة فى أيام المأمون والمعتضد وحولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهماً على الأكثر بلغ ذلك ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم فاذا أسقطناها من معدل الجباية الذى ذكرناه وهو ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم كان الباقي ٣١٠٠٠٠٠٠ درهم أو قل ٣٠٠ مليون فقط . فالدولة التى يبقى فى بيت مالها هذا المبلغ العظيم كل سنة تعد فى معظم الثروة لأننا لم نسمع بدولة من الدول يبقى فى صندوقها نصف هذا المال أو ربعه أو عشره إلا ما قدمناه عن دولتى الروم والفرس

وزد على ذلك أن هذه النفقات جزء صغير من مال الجباية لأنها عبارة عن خراج ما ضمنه الطائى من البلاد وهى سق الفرات ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق والدبيين وكلواذى ونهر بين والرذانين وطريق خراسان وكلها من العراق وهى بعضه كما يتضح ذلك من مراجعة قائمة قدامة صفحة ٥٤ — فلا مشاحة فى أن نفقات الدولة العباسية كانت تستخرج من خراج بعض أعمالها

تقدير هذه الثروة بنقود هذه الأيام (سنة ١٩٠٣ م)

ولكى ينجلى لنا مقدار هذه الثروة بالنظر الى التمدن الحديث يجب أن نحولها الى

نقود هذه الأيام . وقد تقدم أن الدينار كان صرفه فى النصف الأول من القرن الثالث درهماً فمقدار هذه الثروة بالدنانير ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ويقدرون الدينار بنقود هذه الأيام بنصف جنيه فيكون مجموع الباق فى بيت المال فى السنة يساوى عشرة ملايين جنيه

ثم ان قيمة النقود تختلف باختلاف ما تستبدل به من المحصولات أو ما يستخدم به من الرجال فصاحب الف جنيه فى بلاد يباع فيها اردب الحنطة بخمسين قرشاً يعد بمنزلة صاحب الفين فى بلاد يباع فيها الاردب بمئة قرش

ويختلف ذلك فى البلد الواحد باختلاف العصور فصاحب بضعة آلاف قرش كان يعد عندنا فى أوائل القرن الماضى من الاغنياء لأن حاجيات الحياة كانت رخيصة جداً ثم أخذت أثمانها تتصاعد بتكاثر الناس وتفننهم فى طرق المعائش ولأسباب أخرى حتى أصبح هذا المبلغ مما ينفقه أوساط الناس فى شهر واحد . وقد لاحظنا فرقاً واضحاً فى سعر الذهب فى الاعوام الأخيرة بمصر يجدر بالحكومة أن تنتبه له وتراعيه لعلاقته برواتب مستخدميها ـ وذلك أنه بالنظر الى تصاعد أثمان المآكل وأجور المساكن زادت نفقات البيوت نحو الربع عما كانت عليه منذ خمسة أعوام أو ستة فالموظف الذى كان ينفق على عائلته الف قرش فى الشهر مثلا أصبح لا يكفيه أقل من ١٢٥٠ أو ١٣٠٠ قرش والراتب الذى كان يتقاضاه لا يزال واحداً ويعبر عن ذلك بنزول قيمة الذهب ـ فأصحاب الرواتب المعينة ينبغى أن تزداد رواتبهم كلما غلا السعر

فللوقوف على حقيقة ثروة المملكة العباسية بالنظر الى قيمة نقود هذه الأيام يجب أن نقابل بين أثمان المحصولات يومئذ وأثمانها اليوم وأجور العمال فى العصرين . وقد رأيت فى ما تقدم أن ثمن الكر من الحنطة والشعير فى أيام قدامة [١] ثلاثون ديناراً والكر العراق أربعون أردباً [٢] والاردب من الحنطة والشعير اليوم يقدر بنحو جنيه فالاربعون أردباً بأربعين جنيهاً أو ثمانين ديناراً أى نحو ثلاثة أمثاله فى تلك الايام

وكانت أجرة الاستاذ البناء فى أيام المنصور قيراط فضة والروزكارى (الفاعل) حبتين [٣] والقيراط فى العراق $\frac{1}{24}$ من الدينار [٤] والحبة $\frac{1}{48}$ منه فكأن أجرة الاستاذ بنقود هذه الايام $\frac{3}{4}$ الدرهم أى نحو ثلاثة قروش وأجرة الفاعل قرش وذلك نحو ثلث أجرته اليوم أو ربعها . فالنقود فى أيام العباسيين كانت تساوى ثلاثة أضعاف

(١) قدامة ٢٣٩ (٢) محيط المحيط (٣) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٥
(٤) محيط المحيط

ما تساويه اليوم على الاقل . فالباقي فى بيت مال العباسيين فى السنة يساوى ثلاثين مليون دينار بنقود هذه الايام وكانت توضع فى بيت المال تحت تصرف الخليفة واجتهاده يستخدمها فى الجهات التى يريدها أو تتراءى له فيها مصلحة للدولة ـ فهل نستغرب بعد ذلك اذا قيل لنا إن الخليفة الفلانى أعطى شاعراً مئة الف درهم أو عشرة آلاف دينار . ونحن نرى أغنياءنا اليوم يبتاعون الصورة القديمة بمائة الف جنيه والقطعة من الآثار القديمة (الانتيكة) بنصف مليون جنيه أو مليون ـ وانما ذلك من نتائج الغنى الفاحش

وما فى دول هـــذه الأيام ما يزيد الباقى فى صندوقها على مليون واحد إلا نادراً مع أن مصادر الدخل عندها زادت عما كانت عليه فى أيام العباسيين . خذ انكلترا مثلا وهى من أعظم الدول وأقربها الينا الآن فان دخلها لعام ١٩٠٠ بلغ نحو ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه منها :

جنيـــه	
٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ضرائب المشروبات الروحية والتبغ والشاى
٣٢ ٠٠٠ ٠٠٠	قيمة الرخص على بيع هذه المشروبات ونحوها
١٨ ٥٠٠ ٠٠٠	ضريبة الايراد
١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	طوابع البريد
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	من التلغراف
٨ ٥٠٠ ٠٠٠	طوابع للعقود ونحوها
٩٧ ٠٠٠ ٠٠٠	(المجموع)

فترى من هذا المجموع أن نحو أربعة أخماس دخل هذه الدولة من مصادر لا يكاد يكون لها أثر فى صدر الدولة العباسية

ويغلب فى نفقات الدول الحديثة أن تساوى دخلها أو يبقى لها باق قليل جداً يندر أن يزيد على مليون جنيه وكثيراً ما يعجز صندوقها عن القيام بالنفقات كلها لحدوث ما يدعو الى زيادة النفقة كالحروب ونحوها كما حدث لانكلترا فى الاعوام الاخيرة أثناء حربها فى جنوبى أفريقيا حتى اضطرت الى الاستقراض كما هو مشهور ـ فما هو السبب فى الفرق بين ميزانية دول هذه الايام وميزانية الدولة العباسية ؟ لا يتضح لنا ذلك الا اذا ذكرنا أسباب الثروة العباسية فنقول : ـ

أسباب الثروة العباسية

من القضايا البديهية أن مثل هذه الثروة لا يتأتى الا اذا كان الدخل كثيراً وكانت النفقة قليلة . والثروة المشار اليها عبارة عن الباقى من إسقاط الخرج من الدخل . فلنبحث فى أبواب الدخل وهى مصادر الجباية وفى أبواب الخرج وهى سبل النفقة ونرى الفرق بينهما ونبين أسباب كثرة الاولى وقلة الثانية

مصادر الجباية

كانت الجباية فى أوائل الهجرة قاصرة على الزكاة ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن صالح النبى من نصارى جزيرة العرب ويهودها وتوفى النبى ومصادر الجباية الزكاة والغنائم والجزية . فلما كانت الفتوح فى الشام والعراق ومصر وضعوا الخراج والعشور على الارض والمكس على التجارة وانقضت دولة الراشدين وهذه مصادر الجباية . وما زال الحال على نحو ذلك فى أيام بنى أمية مع ما فرضوه من الضرائب غير القانونية واستخدموه من العنف فى تحصيلها كما تقدم . ومما وضعوه فى أيامهم ضرائب الاسماك وضعها محمد بن مروان فى أثناء ولايته أرمينيا سنة ٧٢ هـ (١) ونظنهم وضعوا أيضاً أعشار السفن وهي العشور التى تؤخذ من المراكب المارة فى البحار . وأخماس المعادن التى تحفر لاستخراج المعادن منها . وما زالت مصادر الجباية ترتقى وتتفرع حتى أصبحت فى أيام العباسيين عديدة ترجع الى أحد عشر وهى :

(١) الصدقة أو الزكاة
(٢) الجزية
(٣) الخراج
(٤) المكوس (الفردة)
(٥) الملاحات والأسماك
(٦) أعشار السفن
(٧) أخماس المعادن
(٨) المراصد (الكمارك)
(٩) غلة دار الضرب
(١٠) المستغلات
(١١) ضرائب الصناعة وغيرها

على أن العمدة فى زيادة الثروة انما هى على الخراج حتى انهم سموا مجموع الجباية خراجاً باطلاق البعض على الكل . فاذا قالوا خراج فارس مقداره كذا وكذا أرادوا مجموع جبايتها من كل الضرائب. وعليه فلنبحث أولا فى الخراج وسبب كثرته فى العصر العباسى الاول ثم نلم بالضرائب الاخرى على وجه الاختصار

(١) ابن الأثير ١٩٦ ج ٤

أسباب كثرة الخراج

الخراج ما يوضع من الضرائب على الارض أو محصولاتها ولكثرته فى الدولة العباسية أسباب أهمها أربعة وهى :

(١) سعة المملكة العباسية

لما كان المعول فى مقدار الجباية على الخراج فجباية المملكة تتعاظم بزيادة مساحة أرضها وخصب تربتها . والمملكة الاسلامية فى العصر العباسى الاول كانت عظيمة الاتساع جداً بل هى أوسع ممالك التمدن القديم (وخصوصاً اذا اعتبرنا أسبانيا منها) إلا مملكة الاسكندر فربما قاربتها

أما مساحة المملكة العباسية فتقديرها انما يعرف من مساحات الممالك التى قامت مقامها اليوم وهى :

مساحة المملكة العباسية

فى القرن الثالث للهجرة

أسماء البلاد	الدولة التابعة لها سنة ١٩٠٣	مساحتها بالأميال
إيران كلها	شاه العجم	٦٢٨ ٠٠٠
أفغانستان	مستقلة	٢١٥ ٠٠٠
بلوجستان	انكلترا	١٣٠ ٠٠٠
السند	انكلترا	٤٨ ٠٠٠
تركستان روسيا فقط	روسيا	٢٥٧ ٠٠٠
قوقاسيا (تفليس)	روسيا	١٥ ٣٠٠
أرمينية وكردستان	تركيا	٧٢ ٥٠٠
العراق والجزيرة	تركيا	١٠٠ ٢٠٥
سوريا وفلسطين	تركيا	١٠٩ ٥٠٩
جزيرة العرب (منها)	تركيا	٢٠٠ ٠٠٠
القطر المصرى	تركيا	٤٠٠ ٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٣٠٠ ٠٠٠
	(المجموع)	٢ ٥٧٥ ٥١٤

أسماء البلاد	الدولة التابعة لها سنة ١٩٠٣	مساحتها بالأميال
	« مجموع ماقبله »	٢ ٥٧٥ ٥١٤
طرابلس الغرب	تركيا	٣٩٨ ٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	١٨٤ ٥٠٠
تونس	فرنسا	٥١ ٠٠٠
مراكش	مستقلة	٢١٩ ٠٠٠
	(المجموع)	٣ ٣٢٨ ٠١٤

فمجموع مساحة هذه المملكة ٣ ٣٢٨ ٠١٤ ميلا مربعاً وذلك نحو مساحة أوربا كلها . فخراج ممالك أوربا لو جباه المسلمون لم يزد على خراج مملكتهم فاعتبر عدد تلك الممالك وفيها أعظم دول الارض اليوم . فلو كان اعتماد تلك الدول فى جبايتها على الخراج لما استقام أمرها وانما عمدتها على ضرائب المشروبات الروحية والكمارك كما تقدم

على أن سعة المملكة العباسية لا تكفى وحدها لتعليل ثروتها لأن المملكة العثمانية بلغت من السعة فى أيام السلطان سليمان القانوني ما يقرب من سعة مملكة بنى العباس ومع ذلك فان الجباية فى أيامه لم تزد على ٦٥ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك كما رأيت وانما ساعد الدولة العباسية على ذلك اهتمام الناس فى الزراعة وثقل الضرائب وخصب الارضين وغير ذلك

(٢) اشتغال الناس فى الزراعة

قلنا فى كلامنا عن بيت المال فى عصر الأمويين ان عمالهم كانوا يسيئون أصحاب الخراج من الرعايا بما يستعملونه من العنف والعسف فى تحصيلها فتشاغل الناس عن الزرع فأهملت الأرض وزادها اهمالا انتشاب الفتن والحروب فى العراق وفارس وسائر أنحاء المملكة الاسلامية ونقم الناس على حكومتهم وأبطلوا الزراعة نكاية فيها ولقلة انتفاعهم بها فأصبح معظم البلاد خراباً من الاهمال [١] وفيها الضياع والمزارع . فلما تولى العباسيون ونشروا لواء العدل وأحسنوا معاملة أهل الذمة والموالى وأمنوهم على حقوقهم وأموالهم وأرواحهم عاد الناس الى الاشتغال بالزرع وغيره

وكان للخلفاء الأولين من بنى العباس عناية كبرى فى تأييد الأمن وتعمير البلاد ورعاية أهلها من الذميين والموالى . فالمنصور كان يتتبع العمال الظلام ويأخذ أموالهم ويستبدلهم بسواهم ويضع ما يأخذه من أموالهم فى بيت مال مفرد سماه بيت مال المظالم [٢]

(١) الفخرى ١٥٧ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦

وكان يبعث الى الأطراف يسأل عن أسعار الغلة لئلا يظلم الناس بعضهم بعضاً ويبحث عن كل ما يقضى به القضاة أو يعمل به الولاة وعما يرد الى بيت المال وعن كل حدث . فاذا رأى الأسعار تغيرت سأل عن السبب واذا شك فى شىء مما قضى به القاضى سأله ووبخه (١) وبعد أن كان الموالى كالأرقاء فى أيام بنى أمية أصبحوا فى أيام العباسيين هم أهل الدولة وحماة الخلافة يوصى الخلفاء بعضهم بعضاً برعايتهم وخصوصاً آل خراسان فقد أوصى المنصور ابنه المهدى قائلا « انظر الى مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدتك اذا نزلت بك وأوصيك بأهل خراسان خيراً فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك » (٢) وكذلك فعل المأمون وغيره . وكان المنصور يشغل نهاره فى النظر فى الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهديهم . ومن وصاياه لابنه المذكور « يا بنى لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ولا تعمر البلاد بمثل العدل »

وأدلة عدل الخلفاء العباسيين الأولين وتقواهم ورفقهم كثيرة . فقد كان المهدى يجلس للمظالم فينصف الناس من عماله وقضاته وأهله . وأخبار الرشيد فى العدل أكثر من أن تحصى وكان اذا ذكروا الظلم بين يديه بكى . من أمثلة ذلك أنه كان قد حبس أبا العتاهية وجعل عليه عيناً يأتيه بما يقول فرأوه يوماً قد كتب على الحائط

أما والله ان الظلم لؤم وما زال المسىء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد فبكى وأحضره واستحله وأعطاه ألف دينار . وله مع أبى العتاهية حديث أغرب من هذا وهو أن الرشيد أولم وليمة ووضع طعاماً وطلب الى أبى العتاهية أن يصف ما هم فيه من النعيم فقال :

عش ما بدا لك سالماً فى ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيـ ت لدى الرواح وفى البكور
فاذا النفوس تقعقعت فى ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ما كنت إلا فى غرور

فبكى الرشيد فقال الفضل بن يحيى « بعث اليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته » فقال الرشيد « دعه رآنا فى عمى فكره أن يزيدنا » (٣)

وأمثلة ذلك كثيرة عن الرشيد والمأمون مما لا يستوعبه كتاب . فكيف لا يستتب

(١) الطبرى ٤٣٥ ج ٣ (٢) ابن الأثير ٨ ج ٦ (٣) ابن الاثير ٨٨ ج ٦

الأمن فى ظل هؤلاء ؟ولماذا لا تخصب الزراعة وتتسع التجارة فى حمايتهم؟وكيف لايتقاطر الناس الى جوارهم والاستهلاك فى خدمتهم ؟ وكيف لا تعمر البلاد فى ظل العدل وهو ميزان نصبه الله بين عباده فلا عمران إلا فى ظله ولا حياة إلا به . ولا يتم عز للسلطان إلا بالعدل إذ لا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل الى المال إلا بالعمارة ولا سبيل الى العمارة إلا بالعدل [١] والعدل أساس الملك

ومما ساعد على عمران المملكة العباسية أن الخلفاء كانوا يبذلون جهدهم فى تعمير ما تركه الأمويون خراباً من الضياع والمزارع بتسليمها الى من يصلحها ويعمرها [٢] فضلا عما كانوا يبذلونه من العناية فى احتفار الأنهر وانشاء السدود وغيرها من مسهلات الرى

﴿ السواد ﴾ فعمرت بذلك البلاد وكثرت غلتها وخصوصاً السواد (أو العراق) فانه من أخصب بقاع الأرض وإذا راجعت ما ذكرناه من جبايته رأيت خراجه ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم وذلك نحو ثلث خراج المملكة كلها . والسواد كثير الجباية من أيام الفرس، فقد جباه قباذ بن فيروز ١٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم [٣] وجباه كسرى ابن قباذ ٢٨٧ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم [٤] وجباه غيرهما من ملوك الفرس ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم سوى ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ من الوضائع لموائد الأكاسرة [٥] ـ كانوا يجبون ذلك على غير ظلم ولا عسف ولكنهم كانوا يعتنون بالرى فيحفرون الترع ويبنون السدود والجسور ، ووادى الفرات كما لايخفى كثير الشبه بوادى النيل من جملة وجوه لخصب تربته وغزارة مائه وهو يفيض مثله كل سنة ولكن الفرات ودجلة يجريان من الشمال الى الجنوب ويفيضان فى الشتاء والنيل يجرى من الجنوب الى الشمال ويفيض فى الصيف . ويحتاج السواد بعد كل فيضان الى إصلاح ماتخرب من الجسور ونحوها بطغيان الماء

وكان ماء دجلة يجرى قديماً غير مجراه اليوم . أى أنه كان يجرى مثل مجراه اليوم من بغداد جنوباً الى المدائن فالدير فالعاقول فجرجرايا فجابول الى ماذرايا ومن هناك ينعطف غربا حتى يسير سيزاً عموديا الى فم الصلح فواسط حتى يصب فى البطائح حيث يلتقى بالفرات ومنها الى دجلة العوراء بقرب البصرة ومنها الى خليج فارس قرب عبادان ثم جرى بعد ذلك من ماذرايا شرقا ثم انعطف جنوبا شرقيا على ماهو عليه اليوم . وكان الفرات فرعين : أحدهما بجانب الكوفة والآخر شرقيه وكلاهما يصب فى البطائح

﴿البطائح﴾ والبطائح مستنقعات أو أرض كان يغمرها الماء فى أسفل العراق بين البصرة

(١) ابن خلدون ٢٤٠ ج١ (٢) الفخرى ١٥٧ (٣) ابن خرداذبة ١٤
(٤) الماوردى ١٦٥ (٥) ابن الفقيه ٢٠٥

والكوفة . وسببها أن دجلة انبثق فى أيام قباذ بثقا كبيراً بقرب كسكر فأغفل أمره حتى غلب ماؤه وغرق كثيراً من أرضين عامرة كانت تليه وتقرب منه . فلما ولى أنوشروان العادل الشهير أمر بذلك الماء فرحم بالمسنيات حتى عاد بعض تلك الأرضين الى العمارة ثم خلفه ابنه برويز وفى أيامه زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة (فى السنة السادسة للهجرة) لم ير مثلها وانبثقت بثوق كبار فجهد برويز أن يسكرها حتى ضرب أربعين سكراً فى فى يوم واحد فلم يقدر على رد الماء . فظلت الحال على ذلك حتى جاء المسلمون لفتح العراق وشغل الفرس بالحرب فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت اليها أحد ويعجز الدهاقين عن سدها فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت[1] ومع ذلك فقد كان خراج هذه الأرض المستنقعة كبيراً فان عبد الله بن دراج استغل منها ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم فى خلافة معاوية ابن أبى سفيان[2] لكنهم قلما عنوا فى اصلاحها والانتفاع بالأرض المغمورة . فلما تولى الحجاج بن يوسف اشتغل بالحروب عن اصلاح الرى . وفى أيامه انبثقت بثوق أخرى وكبرت البطائح فكتب الى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبرها وأنه قدر على سدها للنفقة ٣٠٠٠٠٠٠ درهم فاستكثرها الوليد فقال له أخوه مسلمة بن عبد الملك « أنا أنفق على سدها من مالى على أن تعطينى خراج الأرضين المنخفضة التى يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على أيدي ثقاتك » فرضى الوليد بذلك فحصلت للوليد أرضون وطاسيج كثيرة فحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الأكرة والمزارعين وعمر تلك الأرضين واستخرج للوليد أيضاً من البطائح ثم لهشام بعده مالا كثيراً ثم جرى الناس على ذلك الى أواخر بنى أمية[3]

ولما أفضت الخلافة الى العباسيين واتخذوا السواد مقر ملكهم جعلوا همهم إحياء أرضه باحتفار الأنهر وإنشاء الجسور حتى تشبكت الترع فى السواد وأصبح مابين دجلة والفرات سواداً مشتبكا غير مميز تخترق اليه أنهار من الفرات[4] وقس على ذلك سائر أنحاء العراق . وهو لم يصر الى هذا الخصب والرخاء الا فى أيام العباسيين لارتياح الناس الى العمل ورغبة الخلفاء فى تعمير البلاد مع قابلية الأرض لذلك

﴿ خراسان ﴾ ومن البلاد التى زاد بها الخراج زيادة كبرى خراسان فقد كانت أرضاً خصبة مع سعتها ورغبة أهلها فى نصرة الدولة العباسية . وخراج خراسان نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠ درهم إذا أضيف الى خراج العراق بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة كلها . ولذلك كانت عناية بنى العباس فى إبان دولتهم مبذولة فى هذين البلدين

(١) قدامة ٢٤٠ (٢) الماوردى ١٧١ (٣) قدامة ٢٤١ (٤) الاصطخرى ٨٣

وفى الحجاز . أما العراق فللمال وأما خراسان فللمال والرجال . وأما الحجاز فهو مصدر الثقة فى الخلافة وتثبيت البيعة . وعمران خراسان فى ذلك الوقت مما لا ريب فيه ـ قال المقدسى فى عرض كلامه عن مدائن العراق وقد أطنب فى عمرانها « فهذه مدن بغداد وبخراسان قرى كثيرة أجل من أكثر هذه المدن » (١) وكثيراً ما كان الخلفاء العباسيون يعدون خراسان المملكة كلها (٢)

ويدخل فى ولاية خراسان بلاد ماوراء النهر وهى كثيرة الخصب جداً ـ قال ابن حوقل « ولم أر ولم أسمع فى الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارا لأنك إذا علوت قهندزها لم يقع بصرك من جميع النواحى إلا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء وكأن السماء مكبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور مابين ذلك كالتراس اللمطية أو كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً من أراضى ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرآة » قال « والمشار اليه من متنزهات الأرض سغد سمرقند ونهر الابلة وغوطة دمشق » (٣) ناهيك بعمران سائر المدن الاسلامية فى ذلك العصر الزاهر (راجع خريطة المملكة الاسلامية الملحقة بهذا الكتاب)

﴿ مصر ﴾ ولا غرابة فيما تقدم من عمران البلاد فى ظل الدولة العباسية فان العدالة توطد دعائم الأمن وإذا أمن الناس على أرواحهم وحقوقهم تفرغوا للعمل فتعمر البلاد ويرفه أهلها ويكثر خراجها . اعتبر ذلك بمصر وتاريخ جبايتها . فقد كان عدد سكانها عند الفتح الاسلامى نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس على ما أجمع عليه مؤرخو العرب ويستبعد أهل هذا الزمان امكانه . وأكثر منهم استغراباً أهل أوائل القرن الماضى . فقد ذكر الدكتور كلوت بك تقدير العرب لسكان وادى النيل انه عشرون مليوناً وعقب عليه بأنه « بعيد الاحتمال لأن طبيعة الارض لا تحتمل أن يزيد عدد سكانها على ثلث هذا القدر » (٤) وقد رأينا اليوم أنه زاد على نصفه ولا يزال آخذاً فى الزيادة

أما كلوت بك فانه أعظم ذلك لأن احصاء هذا القطر كان على عهد كتابه (سنة ١٨٤٠) ٣٠٠٠٠٠٠ نفس فقط على أنه لما ذكر هذا الاحصاء أظهر إعجابه بزيادة سكان وادى النيل فى ظل محمد على باشا عما كانوا عليه فى أيام المماليك لما كان من عدالته ورغبته فى احياء البلاد

أما فى أيام الأمراء المماليك قبله فلم يكن يزيد عدد سكان مصر على ٢٠٠٠٠٠٠

(١) المقدسى ١٢٢ (٢) اليعقوبى ٥٥٥ ج ٢ (٣) ابن حوقل ٣٤٥
(٤) Aperçu gen. sur l'Egypte I. 165

ولا نظن الارض المزروعة فيها كانت تزيد مساحتها على مليون فدان وبعض المليون بالنظر الى ما كان يقاسيه المصريون من استبداد الأمراء المماليك . فلما ظلالهم العدل فى عهد محمد على وخلفائه تزايد السكان واتسعت مساحة الارض المزروعة حتى بلغت الآن ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان (سنة ١٩٠٣) وسكانها نحو عشرة ملايين وهى آخذة فى الزيادة . وبالطبع أن مقدار الجباية يزداد بزيادة العمران وكثرة السكان وهما لا يكونان الا فى ظل العدل الصحيح ـ اعتبر ذلك فى جباية مصر بالنظر الى الدول والعصور فترى أنها تمشت على هذه القاعدة تماماً :

كانت جباية مصر فى زمن الراشدين أعلى ما بلغت اليه فى الاسلام . فقد جباها عمرو بن العاص فى زمن عمر بن الخطاب ١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ومساحة الارض المزروعة على تقديرهم ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان . وجباها عبد الله بن سعد فى أيام عثمان ١٤ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ولكنه استعمل العنف فى تحصيلها [١] . فلما كانت أيام بنى أمية وكان ما كان من ظلم العمال وعنفهم انحطت الجباية ولم تزد فى أيامهم على ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار الا فى أيام ابن الحبحاب على عهد هشام بن عبد الملك فبلغت ٤ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار لأنه بذل الجهد فى تحصيلها وتعديلها وزاد الخراج . فلما كانت الدولة العباسية لم تزد الجباية كثيراً لبعد مصر من دار الخلافة يومئذ فظلت على نحو ما كانت عليه فى أيام بنى أمية . ولما أخذت الدولة العباسية فى التقهقر زاد انحطاط الجباية فى مصر حتى أصبح فى بعض سنى القرن الثالث للهجرة ٨٠٠ ٠٠٠ دينار فلما تولاها ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ استقصى عمارتها فبلغت جبايتها فى أيامه ٤ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار مع رخاء الأسعار وكان القمح كل عشرة أرادب بدينار [٢] فلما انقضت دولة بنى طولون والدولة الاخشيدية ودخلت مصر فى حوزة الفاطميين سنة ٣٦٣ هـ جباها جوهر القائد ٧ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار [٣] لكنه لم يستطع ذلك الا بزيادة الخراج على الافدنة . ثم عادت الجباية فانحطت وارتقت تبعاً لما تناوب عليها من الدول مما يطول شرحه

وآخر عهدنا بانحطاطها على أيام الأمراء المماليك فى أواخر القرن الثامن عشر كما تقدم . اذ كانت جبايتها قليلة جداً مع كثرة الضرائب والتشديد فى تحصيلها . واليك ميزانية الحكومة المصرية سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨) م : —

(١) ابن حوقل ٨٨ (٢) المقريزى ٩٩ ج ١ (٣) ابن حوقل ١٠٨

الوارد

ميدة أو نصف	
٨٠ ٤٦٠ ٠٦٨	مال الميرى على القرى والأوقاف
١٠ ٨٧٠ ٧٧٣	« « « الايراد
٢٢ ٨١١ ٨٠٥	« « « الصنائع والمأكولات
٢ ٥٠٩ ٠٨١	« « « على الرؤوس
١١٦ ٦٥١ ٧٢٧	

الخارج

ميدة أو نصف	
٢ ٩٣٩ ٢٤٧	نفقات كبار الموظفين
٢٩ ٧٧٢ ٦٥٧	« الجند
٢ ٦٥٣ ٥٨٥	« مختلفة
٨ ٤٣٨ ٩٩٤	« العلماء والتعليم ووقفيات
١٣ ٨٩٢ ١٣٩	« رجال الدين والجوامع ونحوها
٤٢٠٧١ ٦٥٤	« الحج
٩٩ ٨٦٨ ٢٧٦	مجموع الخارج يستخرج من مجموع الوارد أعلاه
١٦ ٧٧٣ ٤٥١	الباقى

والباقى المشار اليه كانوا يسمونه الخزنة وكانوا يحملونها الى الاستانة كل سنة . ولما تمرد حكام مصر حاول بعضهم اسقاطها والبعض الآخر تخفيضها ثم انتهت أخيراً إلى أن يقتطعوا منها ٩ ٢٨٣ ٤٥١ نصفاً فى مقابل نفقات فوق العادة على هذه الصورة :

ميدة أو نصف	
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	ترميم قلاع القاهرة
١ ٥٠٠ ٠٠٠	« « سائر القطر
٢ ٠٠٠ ٠٠٠	أثمان سكر وخلافه
٢ ٧٨٣ ٤٥١	نفقات أخرى يأمر بها شيخ البلد
٩ ٢٨٣ ٤٥١	الجملة

فاذا أسقط هذا المال من الخزنة المذكورة كان الباقى ٧ ٥٠٠ ٠٠٠ ميدة (١)

وخلاصة ما يهمنا فى هـذا المقام أن مجموع الايراد في عصر المماليك بلغ ١١٦ ٦٥١ ٧٢٧ نصفاً أو ميدة والميدة فى تلك الايام كانت تساوى أربعة سنتيمات تقريباً (٢) أو كل ٢٨ نصفاً تساوى فرنكا واحداً . فجباية مصر يومئذ قيمتها بالفرنكات نحو ٤ ١٥٠ ٠٠٠ فرنك . غير أن قيمة نقود تلك الايام كانت تختلف عن قيمتها اليوم وقياس ذلك الاختلاف أسعار المأكولات فقد كان ثمن الرطل من اللحم الضانى سبعة أنصاف وثمن أردب القمح ٢٤٠ نصفاً (٣) فاذا قسنا ذلك بأثمانها فى هذه الأيام رأينا الميدة أو النصف يقابل نصف القرش المصرى تقريباً . فتكون جباية مصر فى عصر المماليك تساوى نحو ٥٨ ٠٠٠ ٠٠٠ر قرش مصرى أو ٥٨٠ ٠٠٠ جنيه . فلما تولتها العائلة الخديوية وعملت على عمرانها أخذت جبايتها فى الزيادة حتى بلغت فى العام الماضى (١٩٠٢) ١١ ٨٥٠ ٠٠٠ جنيه أى أكثر من عشرين ضعف جبايتها فى أيام المماليك والتربة واحدة والنيل واحد والفصول على حالها ـ وانما هي العدالة يكثر فى ظلها الناس وتخصب الأرض وتتوفر الثروة ـ سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا

(٣) ثقل الخراج المضروب

كان الخراج المضروب على الأرض فى المملكة العباسية يختلف نوعه باختلاف البلاد فبعضها بالمساحة أى أن يضربوا على المساحة المعلومة من الارض مالا معيناً فى العام سواء زرعت تلك الارض أم لم تزرع . والبعض الآخر بالمقاسمة أى أن يكون الخراج جزءاً من حاصل الارض بعد زرعها واستغلالها . فما لم يزرع لا يطالب بخراجه وكل من خراج المساحة والمقاسمة درجات وفئات سيأتى بيانها . ولما كان السواد (أو العراق) أهم أقاليم المملكة العباسية بالنظر الى الخراج بدأنا به

﴿ السواد ﴾ كان السواد لما فتحه المسلمون يجبى بالمساحة باعتبار « الجريب » وهو قطعة من الارض مساحتها ستون ذراعاً فى ستين أى ٣٦٠٠ ذراع مربع فكل ما كانت مساحته جريباً كان الفرس يأخذون عليه قفيزاً ودرهماً (٤) . والقفيز عشر الجريب ويعبرون عن القفيز وزناً بثمانية أرطال ويقدرون قيمته ثلاثة دراهم (٥) وكانت ضريبة الخراج بالقفيز معروفة فى الجاهلية ومن ذلك قول زهير بن أبى سلمى

تغل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

(١) Descrip. d'Egypte XII. (٢) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠
(٣) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠ (٤) الماوردى ١٦٥ (٥) الماوردى ١٤١

فاذا اعتبرنا القفيز بثلاثة دراهم كان الجريب بثلاثين درهما يؤخذ عليه أربعة دراهم أى نحو ١٣٪ فى المئة وهو خراج خفيف جداً ـ لولا أن كثيراً من الاجربة تبقى بلا زرع ويدفع أصحابها الخراج عنها

فلما فتح السواد على عهد عمر بن الخطاب وعلم بما كان الفرس يجبونه أمر بمساحته فمسحوه وعدلوه باعتبار نوع الغرس . وخلاصة ذلك أنه أبقى الخراج على الحنطة كما كان فى أيام الفرس أى على الجريب قفيز ودرهم أو أربعة دراهم . وجعل على الجريب من الكرم عشرة دراهم ومن النخيل ثمانية دراهم ومن القصب ستة دراهم والرطبة خمسة دراهم وعلى الشعير درهمين وعلى الرأس من الناس ١٢ درهما أو ٢٤ أو ٤٨ درهما وأخرج من ذلك النساء والصبيان [١] وكان العمال يجبون السواد لعمر المذكور ١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم باعتبار أنه ٣٠٠٠٠٠٠٠ جريب . وظل السواد فى أيام الراشدين عامراً وأكثره مزروع . فلما كانت الفتنة بعد مقتل عثمان واشتغل المسلمون بالحروب الى أيام بنى أمية واستصفاء الاموال فى أيام معاوية والحجاج وغيرهما اشتغل أهل السواد عن الزرع كما تقدم . ومع ذلك فان الحجاج جباه نحو جبايته فى أيام عمر ولا بد أنه استخدم العسف والشدة فى ذلك لأن صاحب الارض كان يطالب بالخراج عن أرض لم يزرعها فاذا لم يؤد ما عليها ظل عليه الخراج ديناً عاماً بعد عام فيتراكم ذلك على أصحاب الارضين وهم يزدادون ضنكا فخربت البلاد وهجرها أهلها وجرى على ذلك معظم عمال العراق بعده حتى اضطر أصحاب الارضين الى الالجاء كما سيأتى . ناهيك بما كان فى نفوس أهل السواد وغيرهم من كره بنى أمية لتعصبهم للعرب واحتقارهم غير العرب ولو كانوا مسلمين

فلما أفضت الخلافة الى العباسيين سنة ١٣٢ هـ وجهوا عنايتهم الى السواد بنوع خاص وأول من فعل ذلك منهم المنصور فانه نظر فى السواد فاذا هو يكاد يكون خراباً للاسباب التى قدمناها فرأى استبقاء الخراج عليه بالمساحة على تلك الصورة ظلماً فجعل خراج الحنطة والشعير مقاسمة (وهما أكثر غلات العراق) أى أن يؤخذ خراج الأرض من غلتها اذا زرعت فاذا لم تزرع لا يؤخذ منها شىء وأبقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر من الخراج بالمساحة [٢] ولا ندرى كم جعل حصة بيت المال من المقاسمة المذكورة ولكننا نعلم ان ابنه المهدى (من سنة ١٥٦ ـ ١٦٩) عين ذلك وحدده فجعل المقاسمة بالنصف فى الأرض التى تسقى سيحاً أى بدون تعب وبالثلث فى الارض التى

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ٢٠ (٢) الماوردى ٧٧ و ١٦٨

تسقى بالدوالى وبالربع فى الارض التى تسقى بالدواليب وأبقى خراج النخل والكرم والشجر على المساحة وفضل بعضه على بعض باعتبار قربه من الاسواق والعرض - أشار عليه بذلك وزيره معاوية بن يسار (١) فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلته تقريباً لأن أكثره يسقى سيحاً وهو خراج ثقيل ولكن الناس عدوه يومئذ فرجاً ورحمة

ويظهر أن الهادى أو الرشيد زاد على ذلك الخراج العشر فصار خراج العراق نصف غلته وعشرها أى ستة أعشارها وظل ذلك شأنها إلى سنة ١٩٢ هـ فأسقط الرشيد العشر وأبقى النصف فقط (٢) وما زال أهل السواد يدفعون نصف غلتهم خراجاً الى سنة ٢٠٤ هـ فجعلها المأمون خمسين (٣) فكأنه أسقط عشرين فى المئة من مقدار الخراج وخفض خراج بعض البلاد الأخرى غير السواد كالرى فانه جاءها سنة ٢١٠ هـ فأقام فيها مدة وأمر بتخفيف الخراج عنها . فلما انصرف وبلغ أهل قم ذلك، طلبوا اليه أن يحط خراجهم كما فعل بالرى فأبى فتمردوا وامتنعوا عن أداء الخراج وكان مقداره ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم فحاربهم المأمون وجباه فى ذلك العام ٧٠٠٠٠٠٠٠ درهم تأديباً لهم (٤)

فترى مما تقدم أن خراج السواد كان ثقيلا بالنظر الى ما كان عليه فى أيام الراشدين على المساحة ، لأنهم كانوا يأخذون على الجريب أربعة دراهم ونسبة الجريب الى الفدان كنسبة ١٢٦٠ : ٤٢٠٠ أو نسبة ١٠٠ : ٣٣٣⅓ فاذا كان على الجريب ٤ دراهم كان على الفدان ١٣⅓ وهو خراج زهيد بالنظر الى الارض التى تزرع وأما بالنظر الى مايبقى بوراً فهو كثير وربما كان المعدل فى الحالين واحداً - يدلك على ذلك أن الفرق فى ارتفاع الخراج بين المساحة فى أيام الراشدين والمقاسمة فى إبان كثرتها لا يعتد به . أما بالنظر الى هذه الايام (سنة ١٩٠٣ م) فان ضرائب السواد ما زالت حتى فى أيام المأمون ثقيلة . اذ ليس فى العراق الآن أرض يزيد خراجها على خمس غلتها وفيها جانب كبير يؤخذ منه العشر فقط . وفى لبنان ظاهر الخراج على المساحة ولكنه مؤسس على المقاسمة. لأنهم مسحوا الأرضين وقسموها باعتبار ما يحصل من غلتها باختلاف المغروسات فالارض التى غلتها كيل زيتون أو حمل ورق توت أو بذار مد قمح أو ما تساوى قيمته ٣٦٠ قرشاً سموها سهماً وفرضوا على السهم ٢١ قرشاً إلا ربع قرش فيكون الخراج ٦ فى المئة فقط

﴿ مصر ﴾ ويلى العراق بالخصب مصر وكان خراجها على المساحة باعتبار الفدان

(١) الماوردى ١٦٨ والفخرى ١٦٤ والبلاذرى ٢٩١ (٢) البرى ٦٠٧ ج ٣ وابن الأثير ٤٨ ج ٦
(٣) الفخرى ١٩٨ وابن الأثير ١٤٧ ج ٦ والطبرى ١٠٣٩ ج ٣ (٤) البرى ١٠٩٣ ج ٣

وهو قطعة من الارض كانت مساحتها عندهم ٤٠٠ قصبة والقصبة خمسة أذرع بذراع النجار وستة أذرع وثلثا ذراع بذراع القماش [١] وفى تعريف الحكومة المصرية اليوم الفدان = ٣٣٣ قصبة والقصبة ٣٫٥٥ من المتر المربع وبتحويله الى أمتار مربعة يكون الفدان نحو ٤٢٠٠ متر مربع وقد تزيد أو تنقص قليلا[٢]

وقد تقدم ما كان يقاسيه المصريون فى عهد بنى أمية من العسف وزيادة الضرائب فدخلت الدولة العباسية ومصر أكثرها خراب لما كان يسومهم عمال بنى أمية من زيادة الخراج وأشهر من فعل ذلك منهم عبيد الله بن الحبحاب فى أيام هشام بن عبد الملك فانه زاد على القبط قيراطاً فى كل دينار كما تقدم فآل ذلك الى ثورة كبرى . على أن الثورات كانت تتوالى فى مصر بسبب ضغط العمال ، فلما تولى العباسيون بعثوا اليها العمال ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رعاية أعمالهم وملاحظة سيرهم كما كانوا يلاحظون سير عمال العراق لبعد وادى النيل من مركز خلافتهم فكان العمال حتى فى صدر الدولة العباسية يضاعفون الخراج ويشددون فى تحصيله كما فعل موسى بن على سنة ١٥٦ هـ فى أواخر أيام المنصور وموسى بن صعب فى أيام المهدى فانه ضاعف الخراج وشدد فى استخراجه [٣] وربما كان ذلك بايعاز الخليفة لأن المهدى زاد الخراج على أهل العراق كما رأيت

أما فى أيام المأمون أى فى ابان الثروة الاسلامية فقد كان الخراج المضروب على مصر دينارين عن كل فدان [٤] وذلك كثير بالنظر الى ما يؤخذ منها الآن اذا اعتبرنا الفرق فى السعر بين تلك الأيام واليوم . لأن الخراج المضروب على أطيان مصر الخراجية (وهى الجانب الاكبر) يختلف مقداره اليوم باختلاف خصبها وهو وان كان على المساحة فأساسه المقاسمة . لأنهم قسموا القطر المصرى الى نواح يختلف خراجها باختلاف خصبها . وأخصب النواحى لا يزيد خراج الفدان فيها على ١٨٠ قرشاً [٥] وأمثال هذه الفدادين قليل جداً . وأما الاكثر فخراجه حوالى مئة قرش وفيها ما خراجه عشرون قرشاً أو عشرة قروش . واذا اعتبرنا غلة الارض بالنظر الى خراجها رأينا الخراج لا يزيد على خمس الغلة بوجه التقريب لأن الفدان الذى تقدير خراجه مئة قرش مثلا يضمن بخمسة جنيهات أو ستة

واذا استخرجنا معدل خراج مصر على كل الفدادين رأينا معدل خراج الفدان

(١) المقريزى ١٠٣ ج ١ (٢) القوانين العقارية ١٦١ (٣) المقريزى ٣٠٨ ج ١
(٤) المقريزى ٩٩ ج ١ (٥) القوانين العقارية ١٦٤ وما بعدها

لا يزيد على ٨٥ قرشاً لأن فى القطر المصرى نحو ٥٠٠٠٠٠٠ فدان زراعى بلغ مقدار خراجها للسنة الماضية ٤٦٥٢٥٧٠ جنيهاً [١] فيلحق الفدان الواحد نحو ٨٥ قرشاً وقد تقدم فى غير هذا المكان أن القرش اليوم يساوى ثلث قرش تلك الايام . فالدينار ان خراج الفدان فى أيام المأمون يساويان ستة دنانير فى هذه الايام أو ثلاثة جنيهات فيكون خراج مصر فى أيام المأمون يزيد على ثلاثة أضعافه فى هذه الأيام (سنة ١٩٠٣)

ولكن يظهر أن الخراج فى مصر زاد بعد المأمون حتى بلغ فى أواسط القرن الرابع للهجرة لما جاءها القائد جوهر وفتحها باسم الخلفاء الفاطميين ثلاثة دنانير ونصفاً فجعلها هو سبعة دنانير [٢] وذلك شىء كثير

وقد رأينا فى كتاب أحسن التقاسيم للمقدسى انه « ليس على مصر خراج ولكن يعمد الفلاح الى الارض فيأخذها من السلطان ويزرعها فاذا حصد ودرس وجمع رشمت بالعرام وتركت ثم يخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعان كرى الارض ويعطيان ما بقى للفلاح » ولكن ذلك كان خاصاً بالأرضين التى كانت الحكومة تقبلها أى تضمنها وليس لها مالك وقد تكون فى الاصل لبعض القواد أو العمال من الروم الذين قتلوا فى الحرب أو هربوا فبقيت حلالا لبيت المال كما تقدم فيضمنها الحاكم ويأخذ ضمانتها عيناً أو نقداً

﴿ بلاد أخرى ﴾ وهناك بلاد بعضها كان يجبى بالمساحة والبعض الآخر بالمقاسمة . فبلاد فارس مثلا كان خراجها على ثلاثة أصناف (١) المقاسمة (٢) المساحة (٣) القوانين وهى المقاطعات . على أن أكثر بلاد فارس على المساحة وتختلف الأخرجة فيها باختلاف البلاد فأثقلها فى شيراز [٣] فان خراج الجريب حنطة أو شعيراً ١٩٠ درهماً والجريب من الارطاب والباطخ ٢٣٧ ½ درهم ومن القطن ٢٥٦ درهماً وأربعة دوانق ومن الكرم ١٤٢٥ درهم ولكن الجريب عندهم كبير أى سبعون ذراعاً بذراع الملك وهو تسع قبضات [٤] فافرض الجريب جريبين من أجربة العراق فالخراج مع ذلك لا يزال ثقيلا جداً . وهو خراج تلك البلاد فى أواسط القرن الرابع ولم نقف على مقداره فى أيام المأمون

ومن هذا القبيل خراج المغرب فى أيام الأغالبة فقد بلغ خراج الفدان فى أيام عباس بن ابراهيم بن الأغلب ١٨ ديناراً [٥] ولا نظن مثل هذا المال يطول اقتضاؤه من

(١) ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ صفحة ١٢ (٣) ابن حوقل ١٠٨
(٣) الاصطخرى ١٥٧ (٤) المقدسى ٤٥١ (٥) ابن الأثير ١٣٥ ج ٦

أصحاب الارضين وانما هو يختلف باختلاف الأعوام والأحوال

وجملة القول ان الخراج كان فى العصر العباسى الاول ثقيلا ومع ذلك لم يكن يعسر اقتضاؤه وقلما شكا الناس ثقله وربما استطاع العامل أن يجمع الملايين من الدراهم بسهولة فى بضعة أيام كما اتفق للمأمون لما مر بدمشق وكان أخوه المعتصم عاملا له عليها وقد قل المال مع المأمون فشكا ذلك الى المعتصم فقال « يا أمير المؤمنين كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعة » فجاءه بثلاثين ألف ألف درهم (٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠) من خراج ما يتولاه له ففرق معظمه وهو واقف (١)

سائر مصادر الجباية

على أننا لا نرى بأساً من الاشارة الى ما بقى من مصادر الجباية فى العصر العباسى الاول لتتمة الموضوع ـ منها :

١ ـ ﴿ أعشار السفن ﴾ هى ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال مبالغ وافرة لم نعثر على تفصيلها ولا وقفنا على مقدار ما كان يجبى منها فى العصر العباسى ولكن يؤخذ مما نعلمه من اتساع التجارة فى تلك الايام بين العراق وسائر أقطار الدنيا حتى الهند والصين أن السفن كانت كثيرة وأحمالها ثمينة . وقد ذكروا تاجراً واحداً من تجار البصرة فى القرن السادس للهجرة اسمه حسن بن العباس له مراكب تسافر الى أقصى بلاد الهند والصين بلغ مقدار ما يتحصل من ضرائبها ١٠٠ ٠٠٠ دينار فى العام (٢) فاعتبر ذلك وقس عليه غيره فى البصرة وغيرها من ثغور الاسلام وفيها ما يكون أكثر دخله من أعشار السفن . فقد كان ضمان أعشار المراكب فى عدن فى القرن الرابع ٢٠٠ ٠٠٠ دينار (٣) وضمانها فى القرن السادس ١١٤ ٠٠٠ دينار (٤) والظاهر أن جباية تلك الأعشار كانت فى العصر العباسى أقل مما صارت اليه بعد ذلك لأننا نرى فى جريدة على بن عيسى التى كتبها للخليفة المقتدر سنة ٣٠٦ هـ ان ضرائب المراكب فى البصرة بلغت ٢٢ ٥٧٥ ديناراً . وقد تقدم أن أضعاف ذلك كان يتحصل من أحد تجارها بعد قرنين

٢ ـ ﴿ أخماس المعادن ﴾ كانت المعادن عندهم ضربين ظاهرة وباطنة فالمعادن الظاهرة ما كان جوهرها المستودع فيها بارزاً كمعادن الكحل والملح والقار والنفط فهذه

(١) الطبرى ١١٤٣ ج ٣ ـ وفى ابن الأثير وأبى الفداء والفخرى ان مقدار ذلك المال ثلاثون ألف ألف ألف درهم (٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) وهذا خطأ من النساخ

(٢) ابن حوقل (فى الذيل) (٣) ابن حوقل ٢٠ (٤) ابن حوقل (فى الذيل)

لا يجوز اقطاعها لأنها كالماء والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه . وأما المعادن الباطنية فهى ما كان جوهرها مستكناً فيها فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ولها الخمس مما يخرج منها (١) ونظراً لسعة المملكة العباسية فقد كانت المناجم فيها عديدة ومنها الذهب والفضة والنحاس والزئبق والفيروز والزبرجد وغيرها وهاك أمثلة منها ومن أماكن وجودها

كانت فى خراسان معادن الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم والنوشادر والزئبق (٢) . وفى ما وراء النهر معادن الذهب والفضة والزئبق الذى لا يكاثره معدن فى الغزارة والكثرة (٣) . وفى بلاد فارس عامة المعادن الفضة والحديد والانك والكبريت والنفط والصفر والزئبق . وبغربى أصبهان معدن الكحل (٤) . وفى كرمان مدينة اسمها دمندان كان فيها أكثر معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والنوشادر والصفر (٥) . ومن هذا القبيل مغاوص المرجان بسواحل أفريقيا الشمالية وهو شىء كثير كانوا يوسقون من منجم واحد منه خمسين قارباً أو أكثر وفى كل قارب عشرون رطلا (٦) . وفى سوريا معادن الحديد كانت بجوار بيروت والمغرة الجيدة فى حلب وجبال الحمر فى مكان آخر ومعدن الرخام فى فلسطين ومعدن الكبريت فى الأغوار (٧) . وفى مصر معادن الشب بالصعيد وكانت العربان تحضره من مناجمه الى ساحل اخميم وأسيوط والبهنسا ويحمل منه الى الأسكندرية أيام النيل وكانوا يبيعون منه تجار الروم نحو ١٢٠٠٠ قنطار بسعر أربعة دنانير لكل قنطار الى ستة. وكذلك النطرون فى البر الغربى للنيل وفى غيره كان يستخرج منه كل سنة ١٠٠٠٠٠ قنطار وكان يضمن فى بعض الأحوال ضماناً تبلغ قيمته ١٥٥٠٠ دينار (٨) . وفى النوبة مما يحاذى اصوان معدن الذهب المشهور ـ قال ابن حوقل « والمعدن ليس من أرض مصر ولكنه فى أرض البجة وينتهى الى عيذاب والمعدن أرض مبسوطة لا جبل فيها وهى رمال ورضراض ومجمع تجارهم العلاق » (٩) ، وفى بلاد الغرب مما يلى سجلماسة معادن الذهب والفضة وكذلك فى ما وراء ذلك الى بلاد السودان (١٠) . وكان فى صعيد مصر جنوبى النيل (كذا) معدن الزبرجد فى برية منقطعة عن العمارة (١١) . وفى البحرين بخليج فارس

(١) الماوردى ١٨٧ (٢) المقدسى ٢٢٦ (٣) ابن حوقل ٣٣٧ (٤) الاصطخرى ١١٥ و ٢٠٢ (٥) ابن الفقيه ٢٠٦ (٦) ابن حوقل ٥١ (٧) المقدسى ١٨٤ (٨) المقريزى ١٠٩ ج ١ (٩) ابن حوقل ١٠٧ (١٠) المقدسى ٢٣١ (١١) الاصطخرى ٥١

مغاوص اللؤلؤ وفى صنعاء مناجم العقيق وبين ينبع والمروة معادن الذهب وعلى شواطىء عدن ومخا العنبر (١)

هذه أمثلة مما كان فى المملكة العباسية من المعادن تمثيلا لما كان يجبى من أخماسها الى بيت المال . وكانوا يقطعون هذه المعادن أقطاعاً أو يضمنونها تضميناً بمال معين وقد يكون ذلك المال كثيراً ـ من أمثلة ذلك أن معادن الفيروز فى نيسابور بلغت ضمانتها فى أواسط القرن الرابع للهجرة ٧٢٠ ٧٥٨ درهماً (٢)

٣ ـ ﴿ الجزية والزكاة ﴾ كانت الجزية فى صدر الاسلام كثيرة ثم تناقصت بدخول الناس فى الاسلام . والزكاة كان لها شأن كبير فى أول الاسلام ثم قلت أهميتها وسيأتى بيان ذلك

٤ ـ ﴿ المكوس والمراصد ﴾ وهما تقابلان الكمارك والعوائد فى هذه الايام وكانوا يأخذون ضريبة من كل تجارة واردة فى البحر أو البر مهما يكن نوعها من الأنسجة أو المحصولات أو المصنوعات أو الرقيق أو غيره . وكان يحصل لهم من ذلك مال كثير . ولا نعلم مقدار ما كان يجمع منه ولكن يظهر أنها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان وربما اختلفت فى البلد الواحد باختلاف الزمان وفى الزمن الواحد باختلاف البلاد مما لا يمكن حصره وانما نأتى بما شاهده شمس الدين المقدسى بنفسه فى مصر بأواسط القرن الرابع للهجرة من الضرائب التى كانت تؤخذ فى تنيس ودمياط قال « وأما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل وأما الثياب الشطوية فلا يمكن القبطى أن ينسج شيئاً منها الا بعد ما يختم عليها بخاتم السلطان ولا أن تباع الا على يد سماسرة قد عقدت عليها وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ثم تحمل الى من يطويها ثم الى من يشدها بالقشر ثم الى من يشدها فى السفط والى من يحزمها وكل واحد منهم له رسم يأخذه . ثم على باب الفرضة يؤخذ شىء وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش المراكب عند اقلاعها . ويؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا وأشباهه . ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال رأيت بساحل تنيس ضرائبياً جالساً قبل قبالة هذا الموضع فى كل يوم ألف دينار ومثله عدة على سواحل البحر فى الصعيد وساحل الأسكندرية . وبالأسكندرية أيضاً على مراكب الغرب وبالفرما على مراكب الشام ويؤخذ بالقازم من كل حمل درهم » (٣)

(١) المقدسى ١٠١ (٢) المقدسى ٣٤١ (٣) المقدسى ٢١٣

وذكر ابن حوقل انه كان يتحصل مما يخرج من أذربيجان الى نواحى الرى ولوازم على الرقيق والدواب وأسباب التجارات والأبقار والأغنام ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم فى السنة (١)

على أن هذه الضرائب وأمثالها لم يكن لها رواج فى أوائل الدولة العباسية ولا كانت غلتها تستحق الذكر ولكن دخلها تعاظم فى عصر الانحطاط

٥ ـ ﴿ المستغلات وغلة دار الضرب ﴾ يراد بالمستغلات مايجبى لبيت المال من أسواق أو منازل أو طواحين ابتناها الناس فى أرض تربتها للسلطان فيؤدون عنها أجرة (٢) . وذكر ابن خرداذبة مبلغ غلات الأسواق والارحاء ودور الضرب فى مدينة السلام بغداد ١٥٠٠٠٠٠٠ درهم فى السنة (٣) وبلغت غلات ومستغلات سامرا وأسواقها ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم فى السنة (٤)

فالدولة العباسية فى إبان زهوها كانت تجبى من هذه الضرائب شيئاً كثيراً ولكن العمدة كانت على الخراج كما تقدم

٤ ـ صدق العمال فى ارسال المال المجموع

قد رأيت مما ذكرناه من جور عمال بنى أمية انهم كثيراً ما كانوا يستأثرون بالخراج لأنفسهم إما باذن الخلفاء كما فعل عمرو بن العاص بمصر إذ جعلها معاوية طعمة له فى مقابل نصرته إياه على على أو بحجة الحاجة الى المال فى الحروب كما حصل في أيام الحجاج أو استرضاء لعامى متمرد التماساً لقعوده (٥) أو أن يعصى العامل بالخراج لغير سبب كما فعل مسلمة بن عبد الملك فى ولايته على العراق فى أيام أخيه يزيد (٦) فان يزيداً استحيى أن يطالبه بالخراج ولعله خاف عصيانه . ناهيك بما كان يكتمه العمال عن خلفائهم من أموال الفيء والغنائم وهى من حق بيت المال وقد يذكرونها ويطمعون فيها كما فعل يزيد بن المهلب بعد فتحه جرجان سنة ٩٨ هـ فانه أصاب مالا كثيراً بقى منه لبيت المال ٦٠٠٠٠٠٠ درهم كتب عنها للخليفة لكنه استبقاها لنفسه (٧) ـ ذلك ونحوه دعا الخلفاء فى بعض الأحوال الى أن يستخرجوا المال من عمالهم بالقوة كما تقدم

أما بنو العباس فقد كان معظم عمالهم فى أوائل الدولة من أهلهم الأقربين ثم

(١) ابن حوقل ٣٥٣ (٢) ابن حوقل ٢١٧ (٣) ابن خرداذبة ١٢٥
(٤) اليعقوبى (كتاب البلدان) ٣٨ (٥) ابن الأثير ١٤٣ ج ٢ (٦) ابن الأثير ٤٧ ج ٥
(٧) الطبرى ١٣٣٤ و ١٣٥٠ ج ٢

استعملوا أنصارهم الفرس وهم أكثر الناس رغبة فى قيام دولتهم . وكان الخلفاء من الجهة الأخرى لا يقصرون فى زيادة رواتبهم حتى بلغت فى أيام المأمون ثلاثة ملايين درهم (١) وهى عمالة الفضل بن سهل على المشرق ولم يدرك مثلها أحد من عمال بنى أمية . لأن أكبر راتب اقتضاه عمالهم لم يزد على ٦٠٠٠٠٠٠ درهم وهى عمالة يزيد بن عمر ابن هبيرة على العراق (٢)

ومما ساعد بنى العباس فى أوائل دولتهم على حفظ نظام أعمالهم واجماع العمال على ولائهم سداد رأى وزرائهم وخصوصاً البرامكة فانهم كانوا واسطة عقد تلك الدولة وزهرة تمدنها . وكذلك كان الفرس على الاجمال لأنهم كانوا يعدون استيلاء بنى العباس عليهم رحمة من الله كانوا يتوقعونها منذ أعوام للتخلص من بنى أمية واحتقارهم إياهم

وهناك أسباب أخرى لكثرة جباية الدولة فى أيام المأمون كقلة الحروب والفتن فانها مذهبة للاموال مضيعة للخراج مفسدة للاعمال لاشتغال الناس عن الزراعة والتجارة وانفاق الأموال فى الجند

أسباب قلة النفقة

فرغنا من الكلام عن أسباب كثرة الخراج فى الدولة العباسية بالقياس على أيام بنى أمية وهذه الأيام (سنة ١٩٠٣) وهى القسم الأول من أسباب الثروة العباسية . فلنأت الى القسم الثانى وهو قلة النفقة وأهم أسبابها ثلاثة :

١ ـ قلة الموظفين

يختلف عدد الموظفين فى مصالح الحكومة باختلاف نمط تنظيمها ويقال بالاجمال إنهم أقل عدداً فى الحكومات الاستبدادية منهم فى الحكومات المقيدة لاستغناء الحكم المطلق عن تدوين كل شىء وضبطه لمراجعة النظر فيه . اعتبر ذلك فى المحاكم القضائية ومقدار الفرق بين عدد موظفيها فى عهد الأحكام العرفية وبينهم فى عهد الأحكام القانونية وقس عليه سائر مصالح الحكومة والسبب فيها متشابه . ويكفى لبيان هذا الفرق مقابلة عدد موظفى الحكومة المصرية قبل نظامها الحالى بعددهم اليوم

كانت حكومة مصر قبل دخول الفرنساويين اليها (فى أواخر القرن الثامن عشر) لا تزال على نحو ما رتبها عليه السلطان سليم الفاتح وابنه السلطان سليمان

(١) الطبرى ٨٤١ ج ٣ (٢) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢

وخلاصة ذلك أن رئيسها الباشا وهو الوالى المرسل من الاستانة يليه ٢٤ بيكا (طلبه خانه) منهم ١٢ يتولون المصالح الكبرى فى القطر وهم :

(١) الكخيا : وهو نائب الباشا وكاتم سره
(٢) الدفتردار : وهو ينظر فى الخراج ويقابل ناظر المالية عندنا
(٣) أمير الخزنة : وهو يحمل الى الاستانة ما يخصها من خراج مصر
(٤) أمير الحج : وهو يتولى قيادة الحج الى الحجاز
(٥) ثلاثة قباطين لقيادة ثغور السويس ودمياط والاسكندرية
(٦) خمسة مدراء لأقاليم جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية

وهناك أربعة كشاف لأقاليم القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم وأعمالهم مثل أعمال البكوات مديرى الأقاليم الأخرى

ومن المصالح الأخرى القاضى وأمير الضربخانة والمحتسب

وكان الجند عبارة عن ست فرق تسمى وجاقات وهى :

(١) وجاق المتفرقة : وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطانى
(٢) وجاق الجاويشية : وهو مؤلف فى الأصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج
(٣) وجاق الهجانة
(٤) وجاق التفقجية : وهم ناتلو البنادق
(٥) وجاق الانكشارية : وهم أخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية وكانوا يعرفون أيضاً بالمستحفظين لانالطة محافظة البلاد بهم
(٦) وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من أفراد يقال لهم « وجاقلية » واحدهم « وجاقلى » على كل وجاق منها ضابط يلقب بالآغا يصحبه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والروزنامجى[1] . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضى أمراً إلا بمصادقتهم

هذه خلاصة نظام الحكومة المصرية المركزى ولا ترى عدد الموظفين فيه يزيد على خمسين (ماعدا الجيش) فاذا اعتبرنا ما يلحقه من الكتاب والنواب وغيرهم ربما

(١) تاريخ مصر الحديث ١١ ج ٢ (طبعة ثالثة)

بلغ الى ٢٠٠ أو قل ٣٠٠ أو ٤٠٠ وهو يقابل فى هذه الأيام نظارات الحكومة ومجلس النظار والمعية ومصلحة الصحة والبوليس والسجون وسائر المصالح مما يربو عدد موظفيها على ألفين كما يأتى :

الموظفون فى الحكومة المصرية الآن فئتان: الفئة الأولى العمال . وهم الذين يتولون أعمالها وإدارة شؤونها ومنهم النظار ورؤساء المصالح ورؤساء الأقلام والكتاب والحساب . والفئة الثانية الخدمة ومنهم الفراشون والبوابون ونحوهم . واليك عدد الموظفين من طبقة العمال فقط مرتبة باعتبار النظارات والمصالح والأقلام (١)

عدد موظفى الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢ من طبقة العمال

عدد	
١١٢١	المعية وتوابعها
١٨	مجلس النظار
٢٦	« الشورى
٢٤	نظارة الخارجية
٤١٩	« المالية
٤٢٤	« المعارف
١٨٦	« الداخلية
٢٧٦٠	« الحقانية
٦٢٩	« الأشغال
٣٣٠٦	« الحربية
١٧١٥	مصالح إدارة الأقاليم وماليتها
٦٦٤٤	مصلحة البوليس
٥٢٦	« الصحة
١٠٥	« السجون
١٥	« منع الرقيق
٣٦	« الدفترخانة
٥١٠	الكمارك
١٨٤٦٤	(المجموع)

١٨٤٦٤	(مجموع ما قبله)
٢١٨	خفر السواحل
١٤٠	الدخوليات
٤	مصايد الأسماك
٠٣	الرسالة
١٩٣٨	السكة الحديدية
٣٢٧	التلغرافات
٢٩	ميناء الاسكندرية
٥٥٠	البوستة
٠٣	الفنارات
٦	الليمانات
١٥	التمغة للمصاغات
٣٠١	مكاتب تابعة للمعارف
١١	الكتبخانة الخديوية
٤	الأنتكخانة
١٤	المطبعة الأهلية
٩٠	أملاك الميرى الحرة والمشتركة
٢٢٧	القومسيون البلدى
٢٢٤٥٤	(الجملة)

(١) ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢

فجملة موظفى الحكومة المصرية من العمال ٢٢٤٥٤ فاذا أخرجنا منهم المصالح ذات الايراد إذ لادخل لها فى ادارة شؤون الحكومة وهى :

عدد			
١٩٣٨	السكك الحديدية	٢٨٤٤	(مجموع ما قبله)
٣٢٧	التلغرافات	١٠٣	الفنارات
٢٩	ميناء الاسكندرية	٦	اللمانات
٥٥٠	مصلحة البوستة	١٥	قلم التمغة
٢٨٤٤	(المجموع)	٢٩٦٨	(الجملة)

ومصالح ادارة الأقاليم وعدد موظفيها ١٧١٥ كان المجموع ٤٦٨٣ وباخراجه من العدد الاصلى يبقى ١٧٧٧١ وهو عدد موظفى الحكومة فى نظاراتها ومصالحها ما عدا الجيش . فاعتبر الفرق العظيم بين هذا العدد وبين ما كان عليه فى أيام المماليك وقس عليه عدد موظفى الحكومة فى الدولة العباسية

على أن ذلك يتضح من مراجعة قائمة نفقات الدولة العباسية صفحة ٦٤ فانك ترى معظم أصحاب الراتب هناك من الجند وخدمة البلاط والحرس الخاص والغلمان والحشم والفراشين وأصحاب الصيد ونحوهم وليس من عمال الحكومة الحقيقيين إلا جزءاً صغيراً وهم المعبر عنهم صفحة ٦٦ « بأكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان والبوابين الخ وعبد الله بن سليمان (الوزير) واسحق بن ابراهيم القاضى والفرسان ونفقات السجون والعلوفة » ونحو ذلك . ولا نظن نفقات الحكومة على مصالحها الحقيقية تزيد على نصف ذلك المال (أى ١٢٥٠٠٠٠ دينار) مع أن نفقات الحكومة المصرية الآن على مصالح الادارة والتحصيلات وحفظ النظام فقط تزيد على ٣٢٥٠٠٠٠ جنيه . وما مصر بالنظر الى المملكة العباسية إلا جزء صغير . وأما سبب هذه الزيادة فمن كثرة الموظفين لما اقتضاه النظام الحديث من الضبط والتحرير كما تقدم

على أن السبب فى قلة نفقات الدولة العباسية من حيث الموظفين ليس قلة عددهم فقط ولكن هناك سبباً آخر ذا بال أعنى تسديد أرزاق بعض العمال من مال يوفرونه ولا يدخل فى باب الوارد . فقد رأيت فى صفحة ٦٦ أن أرزاق أكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان الخ ٣/٤ ١٥٦ دينار فى اليوم غير أن هؤلاء ليسوا كل موظفى الدواوين بل هم الكبراء فقط . ويتضح ذلك من قوله هناك « سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم وخزان بيت المال فانهم يأخذون أرزاقهم مما يوفرون من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم » ويدل ذلك أيضاً

على اختصار الحسابات مما لا يرتكبه فى هذه الايام أصغر الباعة اذا أراد ضبط حسابه فضلا عن دوائر الحكومة . فان أموال الساقطين وغرم المخلين كان يجب أن تدون فى أبواب الوارد وتدون رواتب أولئك الموظفين فى باب النفقات . وعلى أننا نستبعد أن لا يكون لهذه القيود محل فى دفاتر الحكومة العباسية وأنها أسقطت من هذه القائمة حباً بالاختصار أو لأسباب أخرى

(٢) عدم وجود الدين على الحكومة

من أدران التمدن الحديث انغماس الحكومات الاوربية فى الديون وما من دولة الا وهى مديونة بمال لا بد لها من تأدية فوائده أو تسديد بعضه من دخلها كل عام . فهو عبء ثقيل على ماليتها وسبب كبير فى قلة مايفضل من دخلها مع كثرة أبواب الدخل عندها مما فرضته من الضرائب المختلفة التى لم تكن معروفة فى الدولة العباسية أو أنها كانت خفيفة جداً . فقد تقدم صفحة ٦٩ أن دخل انكلترا ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه يجتمع نحو أربعة أخماسها من ضرائب أكثرها حديثة العهد وأن نفقات الدولة تستغرقها كلها . فمن أسباب ذلك أن ربع هذا الدخل تقريباً يذهب فى وفاء فائدة ما على هذه الدولة من الديون . ولولا ذلك لبقى فى خزينة الحكومة الانكليزية كل عام حوالى ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه أى نحو ثروة الدولة العباسية كلها . وليست انكلترا وحدها غارقة فى الديون فان معظم دول أوربا مثلها وان تفاوتت ديونها ـ وهاك ديون أشهر دول العالم فى آخر القرن التاسع عشر بقطع النظر عن كسور المليون وقد رتبناها فى الجدول الآتى باعتبار الاكثرية

ديون أشهر دول العالم (١)

	جنيه		جنيه
فرنسا	١ ٢٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠	(مجموع ما قبله)	٢٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠
انكلترا	٧٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	المانيا	١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠
روسيا	٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	هولندا	٩٣ ٠٠٠ ٠٠٠
الولايات المتحدة	٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	الصين	٥٤ ٠٠٠ ٠٠٠
الدولة العثمانية	١٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	اليابان	٤٨ ٠٠٠ ٠٠٠
النمسا	١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	ايطاليا	٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠
مصر	١٠٣ ٠٠٠ ٠٠٠	اسبانيا	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٢٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠	(الجملة)	٣٠٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠

(١) Statesman's year book

وقد تراكمت هذه الديون على تلك الدول بتوالى الاجيال بما احتاجت اليه من النفقة فى الحروب أو فى إنشاء المشروعات الكبرى أو نحو ذلك مما لم تكن الدولة العباسية فى غنى عنه ولكنها كانت فى أيام زهوها تنفق مما تدخره من فضلات الجباية كما تقدم . فلما قلت الجباية وكثرت أسباب النفقة فى طور الانحطاط ولم يبق فى بيت مالها ما تنفقه فى الحروب عمدت الى استخراج الاموال من أهل الثروة وخصوصاً من كبار موظفيها كالوزراء والعمال والكتاب الذين أثروا من مالها بالاختلاس ونحوه وسموا ذلك مصادرة كما سيأتى

على أن الدولة العباسية كانت فى بعض الاحوال تستلف من بعض التجار أموالا فى مقابل أوراق لم يحل أجلها وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك مع اليهود وهم أقدر الناس على المراباة كما لا يخفى — وبلغ مقدار الربا الذى كانوا يأخذونه على تلك السلفيات نحو ٢٠ فى المئة فقد كان على بن عيسى وزير المقتدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة اذا احتاج الى المال وليس له وجه استلف من التجار على سفائج وردت من الاطراف ولم تحل بعد . وكان مقدار ما يدفعه عليها من الربا دانقاً ونصفاً على كل دينار فى الشهر فاذا استدان عشرة آلاف دينار بلغ رباها فى الشهر ٢٥٠٠ درهم . وأشهر من كان يتعامل معهم من صيارف اليهود فى بغداد رجل كان يعرف بيوسف بن فنحاس وهو من تجار الاهواز أيضاً وآخر اسمه هرون ابن عمران أو من قام مقامهما مدة ست عشرة سنة (١) — غير أن ذلك لا يعد من قبيل الدين الأهلى الشائع فى هذه الأيام

(٣) اقتصاد الخلفاء الأولين وتدبيرهم

من الأمور المقررة فى التاريخ السياسى أن مؤسسى الدول ومن يتلوهم من الأمراء الأولين يغلب فيهم الاقتصاد والتدبير ولولا ذلك لم يتأت لهم إنشاء الدول أو تثبيت دعائمها ويعبر فلاسفة التاريخ عن ذلك بصبوة الدولة . والصبوة تدعو الى النمو بالادخار . فاذا بلغت الدولة شبابها وتم نموها عادت ناكصة على عقبها كما يتقهقر المرء الى الكهولة فالشيخوخة — فالدولة العباسية نشأت فى حجر السفاح طفلة فتناولها المنصور صبية فغذاها وأنماها حتى أدركت شبابها في أيام الرشيد والمأمون ثم تقهقرت الى الكهولة فالشيخوخة فالهرم فى أيام الخلفاء التابعين

توفى السفاح وقد ملك أربع سنوات ولم يخلف سوى بعض الثياب (٢) ولو كان

(١) Ein. Abb. 63 (٢) ابن الأثير ٢١٩ ج ٥

طماعاً لجمع مالا كثيراً لكثرة ما وقع له من غنائم بنى أمية فضلا عن الجبايات وغيرها وخلفه المنصور فتولاها بضعاً وعشرين سنة أذخر فى أثنائها نحو ٨١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم كما تقدم . وكان لفرط حرصه متهماً بالبخل ولم يكن بخيلا ولكنه كان لا يضع الكرم فى غير موضعه ـ لم يكن يبذل المال إلا اذا رأى فى بذله منفعة فى تأييد دولته . وفضل المنصور فى تأييد الدولة العباسية بالحزم والشدة والعدل مثل فضل عمر بن الخطاب فى تأييد الاسلام ـ يكفيك من دلائل اقتصاده وتدبيره وحسن نظره ما أوصى به ابنه المهدى عند وفاته . من ذلك قوله « قد جمعت لك من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث . . وإياك أن تدخل النساء فى أمرك ، وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمن السبل العامة وادخل المرافق عليهم وادفع المكاره عنهم وأعد الأموال واخزنها فان النوائب غير مأمونة وهى من شيم الزمان وأعد الكراع والرجال والجند ما استطعت وإياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الأمور وتضيع .... وأعد رجالا فى الليل لمعرفة ما يكون فى النهار ورجالا فى النهار لمعرفة ما يكون فى الليل وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل واستعمل حسن الظن وأسىء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ » (١)

قضى المنصور مدة خلافته ولم ير فى داره لهو ولا شىء يشبه اللهو أو اللعب أو العبث إلا مرة وكان فى مجلسه فسمع جلبة فأمر حماداً التركى وكان واقفاً على رأسه أن يبحث عن سبب ذلك . فمضى فرأى خادماً من خدم المنصور قد جلس وحوله الجوارى وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فعاد حماد وأخبر المنصور فقال « وأى شىء هو الطنبور » فوصفه له فقال « وما يدريك أنت ما الطنبور » فقال « رأيته بخراسان » فقام المنصور ومشى الى الجوارى فلما رأينه تفرقن خوفاً منه فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور وأخرج الخادم فباعه

وكان المنصور بخيلا على نفسه باللباس فيرتدى بجبة هروية ويرقع قميصه واذا استجداه أحد بخل إلا اذا رأى الجود لازماً . فربما سأله أحدهم درهماً فلا يعطيه ويعطى الآخر ألفاً بلا سؤال . من أمثلة ذلك أن أحد معارفه القدماء لقيه بعد الخلافة وكان فقيراً فسأله المنصور « ما عيالك » قال « ثلاث بنات والمرأة خادم لهن » فقال له « أنت أيسر العرب . أربع مغازل يدرن فى بيتك » ولم يعطه شيئاً . ولما توفى عيسى

(١) ابن الأثير ٨ ج ٦

ابن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم « خلف ألف دينار أنفقته امرأته على مأتمه » فقال « كم خلف من البنات » . قال « ستاً » فأطرق المنصور ثم أمر لكل من البنات بثلاثين ألف دينار وسعى فى تزويجهن . وفرق المنصور فى أهل بيته فى يوم واحد ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم (١)

ولما توفى المنصور خلفه ابنه المهدى وكان شبيهاً بأبيه من عدة وجوه ومن جملتها النظر فى دقائق الأمور . وفى أيامه ترتبت الدواوين وتنظمت ادارة الحكومة وتقررت القواعد على يد وزيره معاوية بن يسار (٢) وكان يجلس للمظالم بنفسه وكان تقياً ورعاً ولكنه لم يكن فى مثل ما كان عليه أبوه من الاقتصاد . وتولى بعده الهادى زمناً قصيراً ثم الرشيد وكان تدبير المملكة قد أفضى الى الوزراء من آل برمك وقد اتسعت الارزاق وكثرت الاموال . وكان البرامكة أهل كرم وسخاء فزادوا الخلفاء كرماً وكانوا يحرضونهم على ذلك منذ صغرهم كما فعل يحيى البرمكى مع الرشيد وكان يسايره يوماً فقام رجل فقال « يا أمير المؤمنين عطبت دابتى » فقال الرشيد « يعطى خمسمائة درهم » فغمزه يحيى . فلما نزل الرجل قال الرشيد ليحيى « يا أبتاه أومأت الى بشىء وقت ما أمرت بالدراهم فما هو » فقال « مثلك لا يجرى هذا المقدار على لسانه انما يذكر مثلك خمسة آلاف الف وعشرة آلاف ألف » قال « فاذا سئلت مثل هذا كيف أقول » فقال « تقول يشترى له دابة ويفعل به فعل نظرائه » (٣)

وكان الرشيد ميالاً للجود من فطرته فنشطه ذلك حتى صار الى أبعد مما أرادوه واضطروا الى ايقافه عند حده (٤) . وأوغل الخلفاء بعد ذلك فى البذخ والاسراف وهما من أسباب سقوط دولتهم على ما سيجىء

وجملة القول أن أسباب الثروة العباسية كثرة الدخل وقلة النفقة . وأسباب كثرة الدخل (١) سعة المملكة (٢) اشتغال الناس بالزراعة والتجارة لاطمئنان خواطرهم (٣) ثقل الخراج المضروب على الارض (٤) صدق العمال فى ارسال المال المجموع الى بغداد . وأسباب قلة النفقة (١) قلة الموظفين (٢) عدم وجود الدين (٣) اقتصاد الخلفاء الأولين

(١) ابن الأثير ١٣ ج ٦ (٢) الفخرى ١٦٣
(٣) سير الملوك ٧٨ (٤) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣

ثروة الدولة العباسية

فى عصر الانحطاط

تمهيد ـ فى أسباب ذلك الانحطاط

لكل دولة أدوار شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة الى الشيخوخة . فالدولة العباسية بلغت شبابها في أيام الرشيد والمأمون وهو العصر العباسى الزاهر . ثم أخذت بعدها فى الانحدار نحو الكهولة فالشيخوخة كما بلغت الدولة الأموية فى الشام شبابها فى أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد . والدولة الأموية بالأندلس بلغت شبابها فى أيام الخليفة الناصرى وابنه الحكم . والدولة العثمانية بلغت ذلك الدور فى أيام السلطان سليمان . وقس عليه . وقد قسم ابن خلدون أيام الدولة الى خمسة أطوار (١) الظفر (٢) الاستبداد (٣) الفراغ والدعة (٤) المسالمة والقنوع (٥) الاسراف والتبذير [1] . وهو تقسيم اجمالى ربما لا ينطبق على أحوال الدول انطباقاً تاماً إلا بالتأويل . وأما تقسيمها باعتبار العمر فانه صريح واضح . ويحسن بنا قبل التقدم الى الكلام عن الثروة العباسية فى عصر الانحطاط أن نذكر أسباب ذلك الانحطاط مما يتعلق بموضوع هذا الكتاب فنقول :

﴿ العرب والفرس ﴾ علمت مما تقدم أن الدولة العباسية انما قامت بنصرة الفرس وخصوصاً أهل خراسان . وهؤلاء لم ينصروها الا انتقاماً لأنفسهم من بنى أمية لما كان من تعصبهم للعرب واحتقارهم سائر الأمم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين . فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم فى ذلك فقربوهم واستخدموهم فى مصالح الدولة واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب وغيرهم . فضعف شأن العرب وصاروا ينظرون الى الدولة نظر المحاذر المراقب ولا حيلة لهم فى إرجاع نفوذهم . وبلغ الفرس أرفع المنازل عند العباسيين فى أيام البرامكة فزاد حقد العرب عليهم وسعوا فى إسقاطهم رغم ما كان من جود البرامكة وكرم أخلاقهم ـ ولعلهم كانوا يبالغون فى السخاء دفاعاً عن مركزهم . على أنهم لم ينجوا من الحساد ممن ينتصرون للعرب فوشوا بهم واتهموهم بالطمع فى الملك حتى نكبهم الرشيد . ومن أشهر وشاتهم الفضل بن الربيع وهو لم يكن عربياً ولكنه ينتسب الى العرب لاتصال نسبه بمولى عثمان بن عفان [2]

(١) ابن خلدون ١٤٧ ج ١ (٢) ابن خلكان ٤١٢ ج ١

فلما نكب البرامكة ظن العرب أنهم سيرجعون الى شوكتهم وسلطانهم . ثم مات الرشيد واختلف ابناه الأمين والمأمون على الخلافة والأمين عربى الأبوين لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور . فأخذ أهل بغداد بناصره وفيهم جند العرب (الحربية) . وأما المأمون فأمه فارسية وكان فى خراسان بين أخواله وشيعته [١] فنصره الخراسانيون كما نصروا أجداده وانتهى الخلاف بمقتل الأمين وفوز المأمون فعاد النفوذ الى الفرس وعادوا الى امتهان العرب . فعظم ذلك على هؤلاء وخصوصاً لما تولى الحسن بن سهل وهو فارسى مجوسى الأصل حديث العهد فى الاسلام فطعنوا فى اسلامه وقالوا « لا ترضى بالمجوسى ابن المجوسى » وتمردوا على الحكومة ولكنهم عادوا الى السكينة قهراً [٢] وجاء المأمون الى بغداد واستتب الأمر له ولنصرائه واشتغل هو بالعلم والفلسفة فجره ذلك الى القول بأن القرآن مخلوق فازداد العرب كرهاً له ولكنهم لم يستطيعوا رده

﴿ الأتراك ﴾ فلما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ أفضت الخلافة الى أخيه المعتصم بالله وكانت أمه تركية الاصل من بلاد السغد فى تركستان [٣] فشب محباً للأتراك وكان قد أصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين وهى أول مظاهر جرأتهم على الخلفاء . ولم يكن له من الجهة الاخرى ثقة فى جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما سامهم إياه العباسيون من الاذلال . وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربتهم — فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب . وكانت الفتوح الاسلامية قد أدركت ما وراء النهر وكان العمال هناك يبعثون الهدايا الى بلاط الخلفاء وفى جملتها صبيان الاتراك والفراغنة فهان عليه اقتناؤهم لاتصال نسب أمه بهم . فاقتنى منهم ألوفاً اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أتاه على سبيل الهدية وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً [٤] فضاقت بهم بغداد وضجر البغداديون من سوء تصرفهم فابتنى لهم مدينة سامرا وأقامهم فيها [٥] وأطلق لهم الارزاق وجند منهم الجنود . ولا ريب أنهم كانوا عوناً له فى تأييد سلطانه والفوز فى حروبه ضد أعدائه من الروم والترك ولكنهم كانوا من الجهة الاخرى سبيلا الى تقهقر الدولة العباسية بما كان من مطامعهم فى الاموال واستئثارهم بالنفوذ حتى أصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها عرضة لأغراضهم

وكان المأمون عالماً حكيما وكل بطانته وجلسائه من أهل الحكمة والعلم وكان مع

(١) ابن الأثير ٩٢ ج ٦ (٢) ابن الأثير ١٢٩ ج ٦ (٣) ابن الأثير ٢١٥ ج ٦
(٤) القرمانى ١٥٧ (٢) اليعقوبى (كتاب البلدان) ٣٢

ذلك رقيق الجانب يضرب المثل برقته ودعته ـ قال يحيى بن اكثم : ماشيت المأمون يوماً من الأيام فى بستان مؤنسة بنت المهدى فكنت من الجانب الذى يستره من الشمس فلما انتهى الى آخره وأراد الرجوع أردت أن أدور الى الجانب الذى يستره من الشمس فقال « لا تفعل ولكن كن بحالك حتى أسترك كما سترتنى » فقلت « يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك حر النار لفعلت فكيف الشمس » فقال « ليس هذا من كرم الصحبة » ومشى ساتراً لى من الشمس كما سترته (١)

وقال يحيى أيضاً « كنت نائماً عند المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغص على نومي فرأيته وقد قام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة فأخذ منها كوزاً فشرب ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى أنا عليه فخطا خطوات خائف لئلا ينبهنى حتى صار الى فراشه »

وبالغ المأمون بملاطفة حاشيته ورجال دولته حتى طمع خدمه فيه واستخفوا به . قال عبد الله بن طاهر « كنت عند المأمون يوماً فنادى بالخادم يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادى ثانياً وصاح يا غلام فدخل غلام تركى وهو يقول « ما ينبغى للغلام أن يأكل ولا يشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام الى كم يا غلام ؟ » فنكس المأمون رأسه طويلا فما شككت أن يأمرنى بضرب عنقه ثم نظر الىّ وقال : يا عبدالله ان الرجل اذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه واذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه وانا لا نستطيع أن نسىء أخلاقنا لتتحسن أخلاق خدمنا » (٢)

تلك كانت مناقب المأمون من اللطف والدعة والحلم مع العلم والادب والفضل وسعة الصدر . فخلفه المعتصم وكان عارياً من العلم يقرأ قراءة ضعيفة (٣) وكان غضوباً شديد النقمة (٤) منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة (٥) وساعده على ذلك قوة بدنه فقد كان يحمل ألف رطل ويمشى بها خطوات (٦) فرأى رجال الدولة فرقاً بعيداً بينه وبين أخيه فلم يخلصوا له فازداد هو رغبة فى أتراكه وفراغته . وكان مع ذلك على رأى أخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن فاستخدم العنف والشدة فى تأييده حتى انه أحضر احمد بن حنبل الامام الشهير وسأله عن رأيه فى القرآن فلم يجب الى القول بخلقه فأمر به فجلد جلداً عظيماً حتى غاب عقله وقطع جلده وحبس مقيداً (٧)

(١) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١ (٢) المستطرف ٩٦ ج ١ (٣) القرمانى ١٥٥
(٤) أبو الفداء ٢٧ ج ٢ (٥) ابن الأثير ٢١٦ ج ٢ (٦) الفخرى ٢٠٩
(٧) ابن الأثير ١٨١ ج ٦

فزاد نفور عامة المسلمين منه وخصوصاً العرب وهو لا يكترث بذلك وانما كان معتمده على جنده الاتراك وهم حديثو العهد فى الاسلام وفى التمدن الاسلامى لأنهم جاءوا من بلاد كانت لا تزال فى عهد الجاهلية وكانوا حجر عثرة فى طريق ذلك التمدن ففسدت النيات واضطربت الأحوال وابتدأت الدولة فى التقهقر من ذلك الحين

﴿ المال ﴾ وكانت غاية المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين تأييد الاسلام ونشره ورفع شأن العرب . فلما طلب الامويون الخلافة احتاجوا الى المال فبذلوا كل وسيلة فى سبيل جمعه وقلت الرغبة فى تأييد قواعد الدين ولكنهم ظلوا على تعصبهم للعرب وزادوا عليه احتقارهم سائر الأمم . فكان مطمح أنظارهم « العرب والمال » فلما تولى العباسيون أهملوا أمر العرب واستبدلوه بنصرة الاسلام على الاطلاق وانصرفوا فى أيام زهوهم الى الاشتغال بالعلم والفلسفة والتجارة وغيرها من عوامل التمدن واستعانوا على ذلك بالفرس وكانوا عريقين فى المدنية قبل الفتح الاسلامى وفيهم استعداد فطرى للتمدن فضلا عن أن تأييد الدولة العباسية يعود بالعمران على بلادهم لأن مركز الخلافة فيها . فأخلصوا الخدمة فعمرت البلاد ونضجت الثروة وتدفقت ينابيعها ففاضت الاموال فى خزائن الخلفاء ورجال دولتهم فأسرفوا وبذخوا وانغمسوا فى الرخاء والرغد والترف حتى بلغوا قمة المجد فى أيام الرشيد والمأمون . فلما كانت أيام المعتصم واستكثر من المماليك الأتراك كما تقدم واستخدمهم فى مصالح الدولة انحصرت غاية رجال الدولة فى اختزان الاموال لأنفسهم ولو آل ذلك الى خراب البلاد لأنها ليست بلادهم ولا أهلها أهلهم . وانما كان همهم حشد الأموال وحملها الى بلادهم [1] وضعف الخلفاء عن رد شكيمتهم فطمع فيهم العمال والوزراء واستبدوا وصاروا يتسابقون الى الاستئثار بالأموال فتحولت ثروة الدولة العباسية من الخليفة وبيت المال الى الوزراء والعمال والكتاب والقواد ونحوهم . فاضطر الخلفاء فى اصلاح شؤونهم واستبقاء سلطانهم الى الجند والجند يتطلبون الأموال والأموال عند الوزراء والعمال والكتاب فعمد الخلفاء الى مصادرة هؤلاء أى أخذ أموالهم بالقوة . والمصادرة تحتاج الى رجال وهم لا يعملون عملا إلا بالمال

فأصبح المال محور القوة لحفظ كيان الدولة وعليه معول الخلفاء فى تثبيت بيعتهم ومحاربة أعدائهم والدفاع عن حياتهم حتى فى داخل قصورهم . واحتت العصبية القرشية التى قضت على عيسى بن مصعب بن الزبير أن يخالف أباه مصعباً فى أثناء محاربته عبد الملك

(١) ابن الأثير ٢٠٩ ج ٦

ابن مروان سنة ٧١ هـ ويسلم نفسه للقتل حياء من قريش ـ وكان مصعب قد يئس من البقاء وهو يدافع عن حق أخيه عبد الله فى الخلافة فجاءه محمد بن مروان فبذل له الأمان اذا سلم فأبى ولكنه حرض ابنه عيسى على التسليم لحفظ حياته فأجابه الغلام « لا تتحدث نساء قريش انى خذلتك ورغبت بنفسى عنك » فقال له مصعب « اذهب أنت ومن معك الى عمك فى مكة فاخبره بما صنع أهل العراق ودعنى فانى مقتول » فقال الغلام « لا أخبر عنك قريشاً أبداً ولكن يا أبت ألحق بالبصرة فانهم على الطاعة أو ألحق بأمير المؤمنين » فقال مصعب « لا تتحدث قريش انى فررت » ثم قال لابنه « تقدم انى احتسبك » فتقدم وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً (١)

ثم ان ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر . فلما كانت الدولة العباسية فى ابان عمرانها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها ثم أخذت فى التقهقر بغتة من أيام المعتصم ـ ويتضح ذلك جلياً من مقابلة مجاميع القوائم الثلاث المتقدم ذكرها وأقدمها أكثرها وهى :

١ قائمة ابن خلدون من سنة ٢٠٤ الى ٢١٠ هـ ارتفاعها ٣٩٦ ١٥٥ ٠٠٠ درهم

٢ « قدامة « حوالى ٢٢٥ « « ٣٨٨ ٢٩١ ٣٥٠ «

٣ « ابن خرداذبة « « ٢٥٠ « « ٢٩٩ ٢٥٦ ٣٤٠ «

فترى أن ارتفاع الدولة كان فى أول القرن الثالث نحو ٤٠٠ مليون درهم ما عدا الاموال والغلات . ثم صار فى الربع الاول من القرن المذكور ٣٨٨ مليون بدون غلات ثم صار فى أواسط ذلك القرن أقل من ٣٠٠ مليون . فاعتبر هذا التدريج فى النقص الى أواخر أيام الدولة . على أننا لا نستطيع اثبات ذلك صريحاً فى كل العصور لقلة المصادر التى بلغت الينا فى هذا الشأن إما لعدم عناية الحكومة فى تدوين الميزانيات المضبوطة أو لضياعها فى أثناء الفتن الأهلية وغيرها

مقدار الجباية فى عصر الانحطاط

واذا نظرنا فى ما كان يجتمع ببيت المال من بقايا الجباية على توالى الاعوام رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الاولين . على أنهم كانوا اذا توفق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شيئاً خلفه من يسرف فيضيعه . ومن أمثالهم المأثورة ان ما جمعه

(١) ابن الأثير ١٥٩ ج ٤

السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد أنفقه الأمين (سنة ١٩٣ — ١٩٨) وما جمعه المأمون والمعتصم والواثق أنفقه المتوكل (سنة ٢٣٢ — ٢٤٧) وما جمعه المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى أنفقه المقتدر (سنة ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ)

أما مقدار الجباية فى العام فلم نتوفق الى تفصيل لها الا فى أيام المقتدر اذ اضطر وزيره على بن عيسى لتبرئة نفسه مما لحق بيت المال من العجز أن يرفع تقريراً بما كان من مقدار الدخل والخرج لعام ٣٠٦ هـ . وكانت نسخة هذا التقرير ضائعة حتى أظهرها البارون فون كريمر ونشرها فى كتاب سماه جباية الدولة العباسية [1] لسنة ٣٠٦ وصدره بمقدمة ألمانية ذكر فيها كيفية عثوره على تلك النسخة وما عاناه فى قراءتها لأنها مكتوبة بخط عربى غير مألوف وأبدى ملاحظاته على تلك القائمة مما يطول شرحه فنكتفى بذكرها كما قرأها هو

والقائمة المذكورة عبارة عن أربعة أقسام : الأول فى جباية السواد وملحقاته . والثانى فى جباية المشرق أى البلاد الواقعة شرقى السواد . والثالث جباية المغرب أى البلاد الواقعة غربى السواد . والرابع جباية الأموال الخاصة والموقوفة

(١) Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

جباية الدولة العباسية لسنة ٣٠٦ هـ

وهى قائمة على بن عيسى وزير المقتدر ـ كما قرأها فون كريمر

١ ـ جباية السواد

حرف عن السواد والاعمال المعمورة والبلاد المذكورة

دينار	
١ ٥٤٧ ٧٣٤	أموال السواد وطساسيجه وصدقات أراضى المغرب بالبصرة والمراكب بها وسائر ما ينسب اليها ويجرى معها
	(تفصيلها)
	باذوريا وكلواذى ونهر بين ٢٨٣ ١٦٦ درهم
١٩٨ ٣١٣	الانبار وقطربل وسد
٧٥ ٥٧٦	بهرسير والرومقان وايغار يقطين وجازر والمدينة العتيقة
٢٥ ٠٠٠	كوثى ونهر درقيط
٩ ٥٢٦	الزاب الأعلى ونهر كشتاسب
١٦ ٧٣٦	الفلوجة العليا والارحاء
١٣ ٥٨٥	الفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر
١٤٠ ٢٥٩	السيب الاعلى وسورا وبابل وخطرنية وباروسما الاعلى
٣٨ ٣٥٠	نهر الملك وموزجا ونهر جوبر والاساسان والمالكيات
٤٦ ٣٣٦	باروسما الأسفل
١١٠ ١٥٤	طساسجة الكوفة والحزن
٥٠ ٢١٩	العمارات بسر من رأى
٢٠ ٥٩٠	نهر بوق والدير الاسفل
٢٤ ٣٠٠	بزر جسابور
٢٠ ٠٣٥	الزاذابان
١٣ ٦٦٦	روستقباذ
٤٦ ٤٨٠	النهروان الأعلى وسمنطاى
٨٥٩ ١٢٥	(المجموع)

٨٥٩ ١٢٥	(مجموع ما قبله)
٤٠ ٣٢٧	النهروان الأوسط
٦٠ ٥٣٢	النهروان الأسفل
١٥٩ ٠٨٩	الصلح والمنازل
٤٢ ٤٩٩	بادرايا وباكسايا
٣١٠ ٧٢٠	واسط مع الخاصة والمستحدثة والعباسية بعد النفقات الراتبة
١٢١ ٠٩٥	البصرة وكور دجلة
٢٢ ٥٧٥	المراكب بالبصرة
٤٢ ٧٥٠	أموال الضمانات وما يؤدى عن فصول الانهار مما ينسب الى مفردات
٨٠ ٢٥٠	العبارة بهيت
١٦ ٩٧٥	أسواق الغنم بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة
٦٠ ٣٧٠	دور الضرب بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة
١٦ ٠٠٠	الجوالى بمدينة السلام
١٣ ٨٧٤	ما يؤدى الى الحضرة عن مال الارتفاقات والشجر والمقاطعات
١ ٨٤٦ ١٨١	(المجموع) [1]

٢ ـ جباية المشرق

١ ٢٦٠ ٩٢٢	كور الاهواز ضماناً على ابراهيم بن عبد الله المسبع وغيره
١ ٦٣٤ ٥٢٠	أموال فارس مع ما يسوغه مونس الخادم مع ما فى أيدى أصحاب الأطراف مما ورد نفلا (هبة) فقط
٢٥٨ ٠٤٠	ضياع الأمراء بهذه النواحى مع مال المراكب بسيراف
٣٦٤ ٣٨٠	كرمان مع ضياع الامراء سوى مال العهد والورح وقرى المفازة وما يسوغه مونس الخادم عن مال الخزن والجهبذة (الصيرفة)
٨٠ ٠٠٠	مقاطعة عمان سوى اللطف (هدايا) المحمول الى الحضرة
٣ ٥٩٧ ٨٦٢	(المجموع)

(١) ترى فرقاً كبيراً بين هذا المجموع والمجمل المذكور فى أول القائمة لعل سببه خطأ فى قراءة الأعداد فى الأصل وسنعتمد على المجمل الأول

٣ ٥٩٧ ٨٦٢	(مجموع ماقبله)	
		ارتفاع الخراج والضياع العامة بالمشرق على العقد والارتفاع بالامانة والضمانة ١ ٥٧٠ ٥٢٥
	٤٦٥ ٠٧٨	الخراج والاعشار والاخماس بالرى والدماوند مع ما فيه مما استخرجه ابن داودان وأحمد بن على
	١٢٢ ٦٤٤	الضياع بها
		قزوين وزنجان وابهر
	١١٥ ٧١٠	الخراج
	٥٨ ٢٩٠	الضياع
		قم
	١٩٧ ٢٢٩	الخراج
	٨٠ ٢٢٩	الضياع
		اصفهان
	٤١٠ ١٧٨	الخراج على العقد المجددة مع خراج الاكراد ومايغل من الايغار وضياع السلطان
	١٨٩ ٣٣٤	الضياع بها
		ماء البصرة والايغارين
	١٨٥ ٦٣٦	الخراج
	٢٦٧ ٥٢٠	والضياع
		همدان
	١٥٠ ٤٨٠	الخراج
	٥٥ ٧٨٩	الضياع
		ماسبذان
	٥٧ ٧٤٦	الخراج
	١٦ ٧٥٠	الضياع
٢ ٣٩٠ ٢٣٨	١٧ ٦٢٥	ساوة ودار الضرب بها
٥ ٩٨٨ ١٠٠	(المجموع)	

٥ ٩٨٨ ١٠٠	(مجموع ماقبله)	-
	١٠٥ ٦٧٨	ماه الكوفة بالخراج سوى الضياع الراسية والمستحدثة والطعم
	٨٩ ٥٠٠	الضياع بها
٢٢٥ ١٩٣	٣٠ ٠١٥	حلوان عن الخراج والضياع
٢٢٦ ٣٧٠		آذربيجان وأرمينية على المعارفة التى فورق عليها سبيل السعر
٦ ٤٣٩ ٦٦٣		(المجموع)

٣ ـ جباية المغرب

حرف الضياع والخراج العامة بالمغرب وأجناده بعد الاحتسابات التى وضعها العمال من أصول الارتفاع كما هو جار فى العادات وسوى مقاطعة وثمن أجناس الغنائم معها فورق أهل (جزيرة قبرس) على أدائه فى كل سنة والاعمال المذكورة والاموال المسماة يكون

ما يتعلق بالمغرب وأجناده

٤ ٧٤٦ ٤٩٢

تفصيله

٢٩٠ ٧٧٣	مصر والاسكندرية بعد الاحتسابات القديمة
١ ٠٨٠ ٠٠٠	وسوى مصادرة الماذرائيين ومال المرافق والتجارة الواردة وأثمان الغنائم
	جند فلسطين بعد الاحتسابات
٨٠ ٧٥٠	مال
٢٣٠ ٦٤٧	
	جند الاردن بعد الاحتسابات
٤٠ ٤٦٠	مال
١ ٧٢٢ ٦٣٠	(المجموع)

١ ٧٢٢ ٦٣٠	(مجموع ما قبله)
١٠٢ ٠٦٢	
	جند دمشق بعد الاحتسابات
١١٣ ٠٥٧	مال
٣١٥ ٣٠٠	
	جند حمص بعد الاحتسابات
٢٠٠ ٤٦٠	مال
١١٥ ١١٤	
	جند قنسرين والعواصم بعد الاحتسابات
١٣٣ ٠٩٧	مال
٣٥٢ ٥٧٠	
١٥ ٧٦٥	دلوك ورعبان
٥٢ ٩٨٥	الثغور الشامية سوى صلح (أى ما صولح عليه) احمد بن الحسين الكاتب
٥ ٣٩٧	شمشاط وحصن منصور وكيسوم بعد الموضوع (أى بعد الذى وضع منه أى أسقط)
	مال
٦٥ ٣٣٢	
	سميساط وملطية بعد الاحتسابات
١٤ ٥٠١	مال
٣٤ ١٢٠	
	آمد سوى ما جمع فى اقطاع وكاسه بعد الاحتسابات
٥ ٤٧٨	مال
٨٢ ٤٢٢	
	ارزان وميافارقين بعد الاحتسابات
٥٦ ٧٥٠	مال
٨٢ ٤٢٢	
٣ ٤٦٨ ٤٦٣	(المجموع)

٣ ٤٦٨ ٤٦٢	(مجموع ما قبله)
	ديار مضر
٢٥٧ ٢٢٥	
	ديار ربيعة بعد الاحتسابات
٢٢ ٧٩٧	مال
٣٠٤ ٠٩٣	
	الموصل ومردين وبهذرا والرساتيق الجبلية بعد الاحتسابات
١٧ ٧٥٠٠	مال
٤٩٢ ٤٣٠	
٩٦ ٥٨٤	طريق الفرات
٤ ٦٥٩ ٣٤١	(المجموع) [1]

٤ ـ جباية الأموال الخاصة

يكون أموال الأعمال المسماة وأموال الخاصة والأموال الموقوفة وغير ذلك

٢٨٩ ٠٣٦	الضياع المستحدثة بعد الذى جرى فى ضمان واسط أسوة حال الخاصة
٥١٦ ٤٤٧	أموال الخاصة سوى ما كان منها بنواحى واسط فانه أضيف الى أموال العامة وخلط بها ودخل فى حملها ونفقاتها
١٨٥ ٤١١	العبر (أملاك الشواطىء أى الأملاك على السواحل)
١١٦ ١٦٠	الاهوار (المستنقعات)
٧٢ ٦٢٦	المشرق
١٠٤ ٠٠٠	المغرب
١٨ ٧٧٨	هيت وأعمالها سوى ضياع السكر
٨ ٢٤٠	العبر
٥ ٢٦٢	الاهوار
٥٨ ٤٥٠	المغرب
٦٢ ٢٠٠	المشرق
٨٢٤ ٢٦١	(المجموع)

(١) ترى فرقا بين هذا المجموع والمجموع المذكور فى أعلاه وسنعتمد على ذلك

٨٢٤ ٢٦١	(مجموع ما قبله)	
١٤٤ ٧٦٠	مال الضياع العباسية سوى ما هو بنواحى واسط	
	١٤ ٧٣٢	العبر
	١٤ ٢٤٦	الاهوار
	٣٠ ٦٧٢	المشرق
	٧٥ ١١٦	المغرب
٤ ٥٧٠	مال الموقوف للمساجد سوى ما كان منها بواسط	
	٢٢ ٨٦٩	المشرق
	١٢ ٧٦٠	المغرب
٦١٧ ١٢٦	مال الضياع الفراتية	
	١٧٠ ٢٢٦	العبر
	١٢٩ ٧٢٤	الاهوار
	٩٧ ٣٣٦	فارس
	٩٥ ٢٧٨	المشرق
	١١٤ ٢٢٥	المغرب
١٠٠ ٣١٨	مال الضياع المفردة فى سنة ثلث وثلثمائة	
٧٦ ٩٨٠	مال الخزن والجهبذة سوى ما يجمعه العمال مع أصول الاموال وسوى ماسوغه مونس الخادم منها بفارس وسوى ما دخل منها فى ضمان واسط	
١ ٧٦٨ ٠١٥	(المجموع)	

الخلاصة

١ ٥٤٧ ٧٣٤	جباية السواد
٦ ٤٣٩ ٦٦٣	« المشرق
٤ ٧٤٦ ٤٩٢	« المغرب
١ ٧٦٨ ٠١٥	« الاموال الخاصة
١٤ ٥٠١ ٩٠٤	دنانير

نسبة هذه الجباية الى ما كانت عليه فى العصر العباسى الاول

فمجموع هذه الجباية أكثر من ١٤ مليوناً ونصف مليون من الدنانير وادا تحولت الى دراهم بلغت نحو جباية العصر العباسى الاول . غير أن الحال فى هذه الجباية غير ما كانت عليه فى ذلك العصر . لان هذا المجموع لم يف بالنفقات اللازمة للدولة . وكانت النفقات قد تضاعفت لأسباب سيأتي بيانها . ومن أدلة ذلك ما جاء فى عنوان السير عن نفقات الدولة على عهد على بن عيسى وقد ذكرها المؤلف المذكور بنوع خاص غير النفقات الاعتيادية وهى :

دينار	
٣١٥ ٤٢٦½	نفقات الحرمين وطريقهما
٤٥٦ ٤٩١	« الثغور
٥٦٩ ٥٦	رواتب القضاة فى الممالك
٤٣٩ ٣٤	رواتب ولاة الحسبة والمظالم فى جميع البلاد
٤٠٢ ٧٩	« أصحاب البريد
٩٧٧ ٢٩٢½	

وكل هذه الأبواب لم يكن لها ذكر فى قائمة المعتضد ـ ناهيك بزيادة الجند وغيره من أسباب النفقة بحيث زاد الخراج على الدخل فى أيام على المذكور ٢ ٠٨٩ ٨٩٤ دينارا[1]

وقس على ذلك أحوال بيت المال قبل المقتدر وبعده مما يختلف باختلاف الخلفاء والوزراء وسائر الاحوال . ولكن يقال بالاجمال ان الثروة تقهقرت بعد المأمون بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها . والثروة كما قدمنا ما يفيض من الدخل على الخرج ولذلك قلما كان يبقى فى بيت المال بقية إلا فى أحوال خصوصية وبمبالغ صغيرة . فالمعتصم ترك فى بيت ماله ٨ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم [2] والمستعين (سنة ٢٥١) خلف فى بيت المال ٥٠٠ ٠٠٠ دينار [3] والمكتفى (سنة ٢٩٥ هـ) خلف ١٥ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار والظاهر أنها اجتمعت بتوالى الخلفاء فلما تولى المقتدر أنفقها كلها وأنفق ما جمعه فى أيامه من أموال المصادرة فضلا عن الخراج [4] حتى قدروا ما أنفقه ضياعاً وتبذيراً بنيف

(١) عنوان السير نقله كريمر فى كتاب Ein. Abbasiden (٢) الفخرى ٢٠٩
(٣) الطبرى ١٥٤٥ ج ٣ (٤) ابن الأثير ٤ ج ٨

و٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار [١] ما عدا نفقات الدولة واضطر مع ذلك لاسترضاء الجند والغلمان للخلافة أن يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب [٢] وبلغ من فقر بيت المال فى أيام المطيع لله سنة ٣٦١ هـ أنه باع ثيابه وأنقاض داره ليدفع ٢٠٠ ٠٠٠ درهم طلبت منه للجند فى أثناء الفتنة ببغداد [٣] . وكانت أحوال الخلفاء قد تغيرت فى أيام الراضى بالله سنة ٣٢٢ وخرجت قيادة الامور من أيديهم ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة [٤]

ولانحطاط الثروة العباسية أسباب توضح كثيراً مما جاء فى جريدة على بن عيسى من أسماء بعض الضرائب غير المألوفة

أسباب انحطاط الثروة العباسية

فى العصر العباسى الثانى

قلنا فى بحثنا عن الثروة العباسية فى العصر العباسى الأول وعلة كثرتها ان أسباب تلك الثروة كثرة الجباية وقلة النفقة وفصلنا ذلك تفصيلا . فأسباب قلة الثروة يجب أن تكون قلة الجباية وكثرة النفقة ولكل من هذين البابين فروع لكل منها أسباب هاك تفصيلها :

أسباب قلة الجباية

١ ـ ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية أكبر سعتها فى أيام الرشيد والمأمون ثم أخذت بعض الولايات تنفصل عنها لأسباب يطول شرحها . وأول ما استقل من الولايات العباسية افريقية بدأت بالاستقلال فى أيام الرشيد كما تقدم . ثم خراسان فى أيام المأمون ثم مصر فى أيام المعتمد فى أواسط القرن الثالث للهجرة ثم فارس وما وراء النهر وغيرها . ولم يمض الربع الأول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواسعة الى بضعة عشر قسما كل منها فى حوزة دولة من دول المسلمين [٥] على أن معظم هذه الدول كانت تعد الخليفة العباسى رئيسها الدينى وتؤدى اليه الأموال بعضها باسم الضمان والبعض الآخر

(١) ابن الأثير ٩٠ ج ٨ (٢) صلة تاريخ الطبرى ١٤٤ (٣) ابن الأثير ٢٤٤ ج ٨
(٤) الفخرى ٢٥٢ وابن الأثير ١٤٢ ج ٨ (٥) راجع الجزء الاول صفحة ٨٤ (طبعة ثالثة)

باسم المصالحة والآخر باسم الهدية أو غير ذلك . وكان أكثرهم لا يؤدى ما عليه إلا مرة كل بضعة أعوام . وطبيعى ان تشتت المملكة على هذه الصورة يقلل مقدار الجباية

٢ ـ تخفيض الخراج المضروب

ذكرنا من أسباب زيادة الثروة العباسية فى أيام زهوها ثقل الضرائب وخصوصاً فى العراق إذ كانت مقاسمة على النصف الى أيام المأمون . فأدرك هذا الخليفة العاقل ثقل هذا الخراج ورأى الثروة فائضة فى بيت ماله والأموال متوفرة فعمد إلى التخفيف عن الناس فجعل خراج العراق خمسين [1] أى أنه أنقصه عشرين فى المئة وهو اسقاط عظيم وقد ظهر فرق ذلك فى ارتفاع جباية العراق حالا إذ كان فى قائمة قدامة ٦٥٠ ٤٥٧ ١١٤ درهماً فصار فى قائمة ابن خرداذبة ٣٤٠ ٣١٩ ٧٨ درهماً لأن الأول قدره على ما يظهر باعتبار النصف والثانى باعتبار الخمسين

واقتدى بالمأمون فى تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء فأبطل الواثق سنة ٢٣٢ هـ اعشار السفن [2] وقد رأيت أنها ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال شىء كثير . واقتدى بالواثق خلفه المتوكل فأرفق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين . وسبب ذلك أن الفرس قبل الاسلام كانوا يبدأون بجباية الخراج فى النوروز وهو يقع عندهم في الخامس من حزيران (يونيو) وكانوا يكبسون فى كل مائة وعشرين سنة شهراً بحيث يرجع النوروز الى الخامس من حزيران . فاذا مضت ١٢٠ سنة أسقطوا شهراً فيجعلون الخامس من حزيران الخامس من إيار (مايو) ولا يعيدون النوروز أو يطالبون بالخراج الا بعد شهر أى حتى يأتى الخامس من حزيران . فلما فتح المسلمون العراق وفارس ظل الحساب فى جباية الخراج على ما كان عليه قبل الاسلام حتى تمت المائة والعشرون وكان ذلك فى ولاية خالد القسرى على العراق فأراد الفرس أن يسقطوا شهراً على جارى عادتهم فنهاهم خالد وقال « هذا من النسىء الذى نهى الله عنه» واستشار الخليفة هشام بن عبد الملك فى ذلك فوافقه على إبطال الكبس . فظل الحساب الجارى متقدماً شهراً عن الحساب الحقيقى الذى تنضج فيه الغلات وظل الفرس يحاولون العود إلى الكبس فلم يتم لهم . ولما كانت خلافة الرشيد طلبوا إلى يحيى ابن خالد أن يتوسط لدى الخليفة بشأن ذلك فأراد يحيى أن يجيب طلبتهم فتقول أعداؤه

(١) الفخرى ١٩٨ وابن الأثير ١٤٧ ج ٦ والطبرى ١٠٣٩ ج ٣

(٢) الطبرى ١٣٦٣ ج ٣

فى ميله الى الزرداشتية فعدل عن عزمه . وما زال ذلك الفرق يتعاظم بتوالى الأعوام حتى صار فى أيام المتوكل يقع فى نيسان (ابريل) والزرع أخضر . واتفق أن المتوكل مر ببستان فرأى الزرع أخضر فقال لرفيق له « مالى أرى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج » فقص عليه السبب فأمر أن يضاف الى تلك السنة ما كان تأخر فاذا هو شهران وبضعة أيام حتى يصير النوروز فى الوقت اللازم . فأصدر أمره بذلك سنة ٢٤٣ هـ ففرح الناس [١] لأنه رفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس فقال البحترى فى ذلك :

إن يوم النوروز عاد إلى العهـ ـد الذى كان سنه ازدشير

ولكن أمر المتوكل لم ينفذ تماماً لأنه قتل بعد قليل واضطربت أحوال الخلافة حتى إذا كانت أيام المعتضد بالله روجع فى ذلك فأصدر أمره آخر سنة ٢٨١ هـ بتأخير النوروز ستين يوماً وكان قد وافق أوائل المحرم سنة ٢٨٢ فأمر أن يكون فى ١٣ ربيع أول منها . وجعلوه موافقاً ١١ حزيران (يونيو) وأن يكبس بعد ذلك فى كل أربع سنين من سنى الفرس يوم واحد [٢] — فعل ذلك ترفيهاً للناس ورفقاً بهم [٣]

وكان المهتدى (٢٥٥ هـ) قد أمر باسقاط الكسور عما بقى من الزرع على المساحة — وذلك أن المنصور لما جعل خراج العراق مقاسمة كما تقدم أبقى بعضه على اسم الخراج القديم بالمساحة وكان ينكسر على أصحابه شىء كل عام والحكومة تطالب به . فلما تولى المهتدى أمر باسقاط الكسور وغض النظر عن أمثالها ومقدار ذلك نحو ١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم فى السنة [٤]

فترى من مجمل ذلك أن موارد الخراج ضعفت عما كانت عليه فى عصر الرشيد والمأمون وكان ذلك مساعداً على تقليل الجباية

﴿ الجزية والزكاة ﴾ ومن هذا القبيل ما أصاب الجزية من النقص بدخول الناس فى الاسلام بتوالى الأعوام حتى انحط مقدار مايجبى منها بمدينة السلام فى أواسط القرن الثالث للهجرة ١٣٠ ٠٠٠ درهم [٥] وقد رأيت فى قائمة على بن عيسى أنهم جبوها ١٦ ٠٠٠ دينار أى نحو ضعفى ما ذكره ابن خرداذبة ومع ذلك فاذا اعتبرنا تقديرها على أوسط قيمتها وهى ٢٤ درهماً على الشخص كان عدد الرجال نحو ٩ ٠٠٠ وباضافة

(١) البيرونى ٣١ (٢) المقريزى ٢٧٣ ج ١ (٣) ابن الأثير ١٨٦ ج ٧
(٤) الماوردى ٧٧ (٥) ابن خرداذبة ١٢٥

ما يلحقهم من النساء والأولاد لا يزيد عددهم على ٤٠٠٠٠٠ نفس من أهل الذمة فى مدينة بغداد من النصارى واليهود وهى فى ابان مجدها وسكانها يزيدون على المليون . فقس على ذلك سائر المدن

ويقال نحو ذلك أيضاً فى الزكاة فقد تناقصت بتوالى الاعوام حتى كادت تتلاشى وأصبحت المطالبة بها تدعو الى التذمر [١] وكانت قد أبطلت فى مصر حتى أعادها السلطان صلاح الدين الأيوبى . وتذمر المسلمون منها وشنعوا على الذى يطالب بها حتى اذا تولى المنصور قلاون سنة ٦٧٨ هـ أبطل الزكاة من مصر [٢]

٣ ـ استئثار العمال بالجباية

قد رأيت استبداد العمال فى عصر بنى أمية واستئثارهم بالخراج وكيف تحسنت أحوالهم فى عصر العباسيين . غير أن ذلك التحسين لم يدم طويلا فلما ضعف شأن الخلفاء عاد العمال الى ما تطمح اليه أنظارهم من طلب الاستقلال بالحكم أو الاستئثار بالجباية واضطر الخلفاء الى التراضى معهم على مال مضمون وان يكن أقل مما يجبى وهو الضمان أو المقاطعة ـ كما قاطع المأمون بشير بن داود على السند سنة ٢٠٥ هـ على أن يدفع له ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم فى العام [٣] مع أن ارتفاع جبايتها الحقيقى ١١٥٠٠٠٠٠٠ درهم [٤] وضمن البريدى الاهواز على أيام الراضى كل سنة ٣٦٠٠٠٠٠ دينار على أن يدفعها أقساطاً [٥] وخراجها الحقيقى يزيد على أربعة أضعاف هذا المبلغ . ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون الا قليلا مما تعهدوا به . فاذا ألح الخليفة عليهم فى المطالبة اتخذوا الحاجة ذريعة الى الاستقلال التام فيستنجد الخليفة جنده ونصرتهم تحتاج الى المال ومن تمكن من المال ملك واستبد

٤ ـ اشتغال الناس بالفتن والظلم عن العمل

لما نشأت الفتن وانتشبت الحروب بين طوائف الجند أو بينهم وبين العمال انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم وتوقف العمال وغلت الأسعار وتعطلت الزراعة لضياع الأمن فقلت الجباية واحتاج العمال والقواد الى الأموال فظلموا الناس فى تحصيلها منهم فزاد الخراب ـ وما من هادم للعمران كالظلم فانه يغل الأيدى ويقعد الناس عن السعى فينشغل به الزارع عن زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته ووبال ذلك

(١) ابن الاثير ٨٢ ج ٨ (٢) المقريزى ١٠٦ و١٠٨ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٤٩ ج ٦
(٤) ابن خلدون ١٥٠ ج ١ (٥) ابن الاثير ١٢٦ ج ٨

عائد على الدولة إذ لا قوام لها إلا بالرعية . والمشهور أن الظلم أخذ المال من يد مالكه بلا عوض ولا سبب ولكنه أعم من ذلك كثيراً فان كل من أخذ ملك أحد أو غصبه فى عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه . فجباة الأموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الأملاك على العموم ظلمة ـ فاذا ساد الظلم أقبل الخراب لا محالة

ومما زاد البلاء جسامة أن أكثر ما احتفره الخلفاء المصلحون فى أوائل الدولة العباسية من الترع والأنهر لرى الأرض وتسهيل الاستغلال انسد بالحروب . لأن المحاربين كثيراً ما كانوا يضطرون الى سد الأنهر ليمنعوا سفن الأعداء من المرور فيها (١) فضلا عما يدعو اليه إهمال العمال من فساد الرى وضياع الزرع

٥ ـ تحويل أكثر البلاد الى ضياع

يراد بالضياع عندهم المزارع أو ما يعبر عنه المصريون بالأبعادية أو العزبة . ويغلب فى الضياع أن تكون لأهل الدولة من الخلفاء أو أقاربهم أو عمالهم أو وزرائهم أو كتابهم أو من يلوذ بهم من أهل النفوذ وقد رأيت صفحة ١١ من هذا الجزء أن عمر بن الخطاب نهى المسلمين عن اتخاذ الزرع واقتناء الضياع لحكمة أرادها من بقائهم على أهبة الرحيل عند الاقتضاء لا يقعدهم الترف أو القصف كما نهى عن اختزان المال فى بيت المال . غير أن هاتين القاعدتين لم يطل العمل بهما إلا ريثما انتقلت الدولة الاسلامية من الخلافة الدينية الي الملك العضوض فى أيام بنى أمية فاختزن الصحابة الأموال واتخذوا المصانع والضياع كما بيناه هناك . واقتدى بهم من جاء بعدهم من التابعين وتابعى التابعين وكان أقدمهم على ذلك الخلفاء من بنى أمية فقد أكثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض أهلهم يقبضها اغتصاباً من أصحابها وليس من ينصفهم لتعصب بنى أمية للعرب واحتقارهم سائر الأمم واعتبارهم ما فتحوه من الأرض ملكا حلالا لهم فما أرادوا أخذه أخذوه وما أرادوا تركه تركوه (٢) حتى أفضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز فعمل على الاقتداء بعمر بن الخطاب بالرفق والاحسان مع العدل وأمر باسترجاع الضياع المغتصبة الى أهلها من النصارى أو اليهود أو المجوس فساء ذلك أهله فعجلوا به وعادت الأحوال بعده الى أشد مما كانت عليه كما تقدم

فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس سنة ١٣٢ أعملوا السيف فى بنى أمية ففروا

(١) ابن الاثير ١٨١ ج ٦ و٢٢٦ ج ٨ (٢) المقريزى ٧٧ ج ١ والاغانى ٣٠ ج ١١

وتركوا أموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون ولم يعدوا امتلاكها مخالفاً لشروط الخلافة لاعتبارهم ذلك لازماً لحياطة الدولة أو حقاً من حقوق الملك إذ ليس من أوامر الدين أو نواهيه ما يمنعهم من ذلك صريحاً . والانسان ميال من فطرته الى الاستكثار من حطام الدنيا واختزان القوة اذا وجد الى ذلك سبيلا . فالخلفاء العباسيون فى أوائل دولتهم بذلوا الجهد فى إنصاف الناس وتأمينهم ليبينوا لهم الفرق بين حالهم فى أيام بنى أمية وفى أيامهم فلم يكونوا يغتصبون ضيعة ولا مالا ولكن بعض الذين دخلوا فى خدمتهم أو انتموا اليهم من الأمراء أو الكبراء كانوا يمدون أيديهم الى ضياع الناس وكان الخلفاء ينصفون أصحاب الضياع اذا تظلموا ويردون ضياعهم اليهم (١) على أن ذلك قلما كان يقلل من مطامع أهل الدولة فى أموال الناس فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والأبنية بحق أو بلا حق والخلفاء يمنعونهم جهد الطاقة فاذا لم يتمكنوا من منعهم بالحسنى صادروهم أو قبضوا أموالهم بعد موتهم . كما فعل الرشيد بأموال محمد بن سليمان عامله على البصرة وكان مبلغها ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته ١٠٠٠٠٠ درهم فى اليوم (٢) وأمثال هذا القبض كثيرة ناهيك بالمصادرات التى سيأتى تفصيلها . فالضياع التى تقبض على هذه الصورة تصير الى الخليفة أو الدولة فآل ذلك الى استكثار الخلفاء أنفسهم من الضياع

على أن أكثر ما يكون اقتناء الضياع لحاشية الخليفة وأهله . وهذا طبيعى فى الحكومات الاستبدادية وخصوصاً اذا كان الحاكم كريم الخلق أو ضعيفاً تؤثر عليه وساطة أهله ورجال حاشيته . ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهادونها أو ينعمون بها على الناس جائزة على قصيدة أو خطاب أو نكتة أو غير ذلك . وفى أخبار البرامكة كثير من أمثال هذه العطايا . ومن هذا القبيل ما فعله الحسن بن سهل لما زفت ابنته بوران الى المأمون فانه كتب ضياعه فى رقاع أسم كل ضيعة فى رقعة ونثرها على القواد فمن وقع له رقعة أخذ الضيعة المسماة فيها (٢)

وكان من أبواب اقتناء الضياع عندهم — حتى فى صدر الدولة العباسية — كثرة ما كان من الأرضين المهملة من عهد بنى أمية . فيأمر الخليفة بعض أهله أو خاصته بتعميرها وغرسها ثم تصير له — كما فعل المنصور بابنه صالح إذ أمره بعمارة بعض المزارع العاطلة فى الاهواز (٣) — ومن أحيا أرضاً مواتاً فهى له

﴿ الالجاء ﴾ ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة الجاء

(١) الماوردى ٨٧ (٢) المسعودى ١٨٨ ج ٢ (٢) أبو الفداء ٣١ ج ٢ (٣) الفخرى ١٥٧

الاهالى ضياعهم ومغارسهم الى بعض أقارب الخلفاء أو العمال تعززاً بهم من جباة الخراج . فكان صاحب الأرض يلتجىء الى بعض أولئك الكبراء فيستأذنه أن يكتب ضيعته أو ضياعه باسمه فلا يتجرأ الجباة على العنف أو الظلم فى اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الكبير . ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدون ذلك فى دفاتر الحكومة . فتصبح تلك الضيعة بتوالى الاعوام ملكا للملجأ اليه[١] ويصبح صاحبها الاصلى شريكا فى غلتها . ومثل هذا الالجاء يحدث فى كل العصور فى البلاد التى يخاف أهلها سطوة الحكام واستبدادهم

وقد بدأ الالجاء فى الاسلام بأيام بنى أمية لما كان من ظلم عمالهم . فألجأ أهل السواد فى ولاية مسلمة بن عبد الملك وخلافه أخيه الوليد ضياعهم الى مسلمة المذكور تعززاً به من جباة الخراج . ثم صارت تلك الضياع له وبقيت فى أعقابه حتى قامت الدولة العباسية فقبض الخلفاء العباسيون عليها فى جملة ما قبضوه من أموال بنى أمية وضياعهم . وأقطعت هذه الضياع لداود بن على بن عبد الله بن عباس ثم صارت من الضياع السلطانية [٢] وكذلك فعل بعض أهل المراغة فى آذربيجان مع مروان بن محمد لما تولى أرمينيا فانهم ألجأوا تلك الضيعة اليه فقبضت فى جملة ما قبض من ضياعهم [٣]

وامتد الالجاء الى أيام بنى العباس بالاستمرار فألجأ أهل زنجان ضياعهم الى القاسم ابن الرشيد تقرباً اليه ودفعاً لمكروه الصعاليك عنهم . فكتبوا له الأشرية وصاروا مزارعين له ثم صارت تلك الأرض من الضياع السلطانية [٤] وحدث نحو ذلك أيضاً فى فارس فقد كانت فيها ضياع ألجأها أربابها الى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق وظلت تجرى بأسمائهم تخفف عنهم الربع وبقيت أجيالا وهى فى أيدى أهلها بأسماء هؤلاء يتبايعونها ويتوارثونها [٥] وأصبح أهلها مزارعين لهم

ولم ينقض عصر الزهو العباسى حتى أصبح فى حوزة الخلفاء وأقاربهم ورجال دولتهم ما لا يحصى عدده من الضياع واضطرت الحكومة الى انشاء ديوان خاص بخراجها وعشورها سموه ديوان الضياع وهو غير ديوان الخراج . وقد رأيت مقدار خراج الضياع فى ما دونه على بن عيسى فى جريدة سنة ٣٠٦ وكلها فى بلاد المشرق فى الرى ودماوند وقزوين وزنجان وقم واصبهان وهمدان وماسندان وغيرها . وترى خراج الضياع فى بعض الممالك يزيد على خراج الأرضين الأخرى . فخراج الضياع فى ماه

(١) ابن الفقيه ٢٨٢ وابن خلدون ٣٠٨ ج ١ (٢) قدامة ٢٤١ (٣) ابن الفقيه ٢٨٤
(٤) ابن الفقيه ٢٨٢ (٥) الاصطخرى ١٥٨

البصرة والايغارين مثلا ٥٢٠ ٢٦٧ ديناراً وخراج سائر الأرض هناك ٦٣٦ ١٨٥ ديناراً . ولو عوملت الضياع فى مقدار الخراج وطرق تحصيله مثل معاملة الأرضين الأخرى لزاد خراجها أضعاف ذلك . لأن خراج تلك الضياع كان خفيفاً جداً بالنظر الى غيره وكثيراً ما كان يترك ولا يطالب به أعواماً على مقتضى أحوال السياسة وعلاقة ذلك بالعمال والخلفاء وربما تراكم الخراج عدة أعوام حتى تتغير السياسة ويأتى من يطالب به [١]

الضياع السلطانية

وكانت الضياع بالاجمال قسمين: الضياع العامة وهى ضياع رجال الدولة وأرباب الثروة من الأهلين وغيرهم . والضياع السلطانية وهذه أقسام سميت بأسماء تدل على أنواعها وهى:

(١) الضياع الخاصة : وهى ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيه أحد . وقد رأيت خراج هذه الضياع فى جريدة على بن عيسى « غير ما كان منها فى نواحى واسط لأنه أضيف إلى أموال العامة » ٥١٦٤٤٧ ديناراً

(٢) الضياع العباسية : وهى فى الغالب لبنى العباس أهل الخليفة وقد بلغ عددهم فى أيام المأمون ٣٣ ٠٠٠ نفس [٢] وبلغ خراج تلك الضياع سنة ٣٠٦ هـ ٧٦٠ ١٤٤ ديناراً سوى ما هو منها فى واسط

(٣) الضياع المستحدثة : قد رأيت خراجها فى تلك السنة ٠٣٦ ٢٨٩ ديناراً

(٤) الضياع الفراتية : وسميت بذلك لأنها واقعة على ضفاف الفرات وخراجها لذلك العام ١٢٦ ٦١٧ ديناراً

وكانت هذه الضياع من سواد بغداد والكوفة والبصرة وواسط والاهواز واصبهان [٣] يضمنونها أحياناً بأموال معينة فى العام [٤] ولها دواوين وكتاب وعمال

فالضياع على إجمالها قليلة الخراج مع أنها أخصب الأرضين لأن الخلفاء وعمالهم كانوا يغضون عن كثير من الأموال المطلوبة منهم [٥] وقد يتركونها لهم ومع ذلك فقد رأيت خراج الضياع السلطانية يزيد على مليون ونصف غير ما هو منها فى واسط وغيرها مما يدل على كثرة تلك الضياع وسعتها . والظاهر أن ذلك طبيعى فى الدول المطلقة فى تلك العصور فقد ذكرنا صفحة ٦٢ أن جباية الدولة العثمانية بلغت فى أيام السلطان سليمان ٨ ٠٠٠ ٠٠٠ دوكات منها ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ من الضياع السلطانية وحدها [٦]

(١) ابن الأثير ١٨٢ ج ٧ (٢) أبو الفداء ٢٤ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٤٣ ج ٨
(٤) ابن الاثير ٦٨ ج ٨ (٥) Ein. Abb. 80. (٦) Porter's Const. Hist. of Turkey MS.

﴿ الايغار ﴾ وكان عندهم ضرب من استهلاك الخراج اسمه « إيغار » ومعناه فى الأصل « استيفاء » فيقولون « أوغر العامل الخراج أى استوفاه » ثم استخدموها بمعنى الاعفاء من الخراج بمال معين يدفعه صاحب الأرض مرة واحدة ولذلك قالوا « أوغر الملك الرجل الأرض جعلها له من غير خراج » أو هو أن يؤدى الخراج الى السلطان الأكبر فراراً من العمال ويسمى ضمان الخراج إيغاراً[١] فكان أصحاب الضياع يستوغرون ضياعهم إذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . ومن الايغارات المشهورة فى الدولة العباسية « إيغار يقطين » وأصلها أن رجلا اسمه يقطين أوغرت له ضياع من عدة الطاسيج ثم صار ذلك الى السلطان فنسب الى ايغار يقطين [٢]

أسباب كثرة النفقات

١ ـ اسراف الخلفاء ونسائهم

من الأمور الطبيعية فى العمران اذا كثرت الأموال فى الدول أن يسخو الملوك فى بذلها وخصوصاً فى الدولة المطلقة وعلى الأخص فى الدولة العباسية والخليفة مطلق التصرف فى بيت المال [٣] ودعاة الخلافة كثيرون لايقعد فتنتهم غير استرضاء الأحزاب بالمال أو كسر شوكتهم بالحرب والأول أسلم عاقبة وأقرب منالا اذا توفرت الأموال وقد رأيناها متوفرة خصوصاً فى عصر الرشيد والمأمون . فلا غرو اذا رأيناها يبذلان الأموال فى استكفاف الأذى عن الدولة أو سد أفواه أهل الفتن . لكنهم تجاوزوا ذلك الى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف فاقتنوا الجوارى واتخذوا الفرش من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة [٤] وابتنوا المتنزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وانشأوا مجالس الغناء وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والرياش . وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامى [٥] وأطلقوا أيدى نسائهم وأمهاتهم وخاصتهم فى الأموال

﴿ ثروة نساء الخلفاء ﴾ لم يتزوج السفاح الا امرأة واحدة [٦] . وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدى أن لايشرك النساء فى أمره [٧] ومع ذلك فان الخيزران أم الرشيد كانت هى صاحبة الأمر والنهى فى أيام الهادى وأيامه وكان وزيره يحيى تحت

(١) محيط المحيط (٢) قدامة ٢٤١ (٣) الماوردى ٢٠٣ (٤) أعلام الناس ٩٨
(٥) ابن الأثير ٢٥٤ ج٢ (٦) أعلام الناس ٤٥ (٧) ابن الأثير ٨ ج ٦

أمرها [١] فأفضى نفوذها الى حشد الأموال لنفسها حتى بلغت غلتها فى العام ١٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم [٢] وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد . وغلة أعظم متمولى العالم اليوم لاتزيد على ثلثى هذا المال . فقد ذكروا أن إيراد روكفلر الغنى الاميركى الشهير نحو ١٠٥٠٠٠٠٠٠ دينار . وقد بينا فى غير هذا المكان أن قيمة النقود كانت تساوى ثلاثة أضعافها اليوم والدينار نصف جنيه فتكون غلة روكفلر نحو ثلثى غلة الخيزران

وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغابة فى الاستئثار فلما آنست فى ابنها الهادى معارضة لارادتها دست اليه من قتله [٣] ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها وأقطع الناس ضياعها [٤]

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى فلا غرابة فى اقتنائها الأموال فى إبان الثروة العباسية إنما الغرابة فى اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة فى عصر الانحطاط وبيت المال فارغ . فان قبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت فى الدهاليز ونحوها نحو ٢٠٠٠٠٠٠ دينار نقداً ومالا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتى بذكره على سبيل المثال : من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته ٢٠٠٠٠٠٠ دينار وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل ٥٠٠٠٠٠ دينار [٥]

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق فقد كانت غلتها ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار [٦] فى العام تنفقها فى جواريها وهى نحو غلة الخيزران . وأخرجوا من تربة والدة المقتدر ٦٠٠٠٠٠٠ دينار كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله [٧] وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين فى العراق وغيره من بلاد الاسلام. فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهن من إطلاق الايدى فى أمور الدولة كما فعل المستعين العباسى (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته ويد اتامش وشاهك الخادم فى بيوت الاموال وأباحهم فعل ما أرادوا. فكانت الاموال التى ترد من الآفاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة [٨]

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدم والقواد : وهل تستغرب

---

(١) ابن الأثير ٤٠ ج ٦ (٢) المسعودى ١٨٨ ج ٢ (٣) ابن الأثير ٤٠ ج ٦
(٤) سير الملوك ٨٥ (٥) الطبرى ١٧١٩ ج ٣ (٦) الطبرى ١٧٢٠ ج ٣
(٧) ابن الاثير ٧ ج ٧ (٨) ابن الاثير ٤٧ ج ٧

بعد ذلك اذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه ١٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار ربما (درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر [١] . أو اذا قيل لك ان فلانة حشت فم الشاعر الفلانى درا فباعه بعشرين ألف دينار [٢] أو اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء [٣]

ناهيك بما كان فى بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتى كن يتولين شؤون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه [٤] فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم فى قصور الخلفاء وفى أعمال الدولة ـ كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة فى أيام المقتدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة [٥] ولم يكن لأولئك القهرمانات سبيل للانفاق لولا ما فى قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم

﴿ الجوارى والغلمان ﴾ وقد رأيت فى ما ذكرناه من مناقب المنصور صفحة ٩٨ أنه لما علم بوجود الطنبور فى داره كسره على حامله . لكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مرسحاً للغناء واللهو ـ قالوا انه كان فى قصر الرشيد ثلثمائة جارية ما بين جنكية الى عودية الى دفية الى قانونية الى زامرة الى مغنية الى راقصة الي سنطيرية فضلا عمن كان فى قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ أبى الحسن الخليع الدمشقى [٦] وابن أبى مريم المدنى [٧] وغيرهما . وما من جارية إلا وثمنها ألف دينار أو عشرة آلاف دينار [٨] الى مئة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلى وهى شىء كثير . فقد اشترى الرشيد خاتماً بمئة ألف دينار [٩] وقس على ذلك

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والألوف فقد بلغ عدد خدم المقتدر ١١٠٠٠ خصى من الروم والسودان [١٠] غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش . فقد بنى المعز داراً في بغداد أنفق عليها ١٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم [١١] وبنى الأمين قصوراً فى الخيزرانية أنفق عليها ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم [١٢] واصطنع فى دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد والثانية بصورة الفيل والثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيماً وفيها يقول أبو نواس :

(١) المستطرف ١٣٤ ج ١ (٢) ابن خلكان ١٩٩ ج ١ (٣) المستطرف ٤٦ ج ٢
(٤) ابن الأثير ٣٧ ج ٨ (٥) ابن الأثير ٢٤ ج ٨ (٦) أعلام الناس ٩٧
(٧) الطبرى ٧٤٣ ج ٣ (٨) ترتيب الدول ١٢٦ (٩) ابن الأثير ٤٤ ج ٦
(١٠) الفخرى ٢٣٤ (١١) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ (١٢) ابن الأثير ١١٢ ج ٦

سخر الله للامين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن براً سار فى الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على صو رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحي ن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذا ما استعجلوها بجيئة وذهاب

ومما يحسن إيراده مثالا على بذخهم أن الأمين المذكور أمر يوماً أن يفرش له على دكان فى الخلد ففرش عليها بساط ذرعى ونمارق وفرش مثله وهيأ من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم وأمر قيمة جواريه أن تهيء له مئة جارية صانعة فيصعدن اليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد [١] ففعلت وسنأتى على تفصيل بذخ الخلفاء وطرق اسرافهم فى الجزء المتعلق بالهيئة الاجتماعية من هذا الكتاب

﴿ السخاء ﴾ على أن الاسراف كان أكثره فى ما يبذلونه كرماً وسخاء ومنه ما ينفق يومياً فرضاً واجباً . فقد كان الرشيد يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته [٢] وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم ٦٠٠٠ درهم [٣] فاعتبر مقدار ذلك فى السنة فيزيد على ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم . وليس هذا بالشيء الذى يذكر بجانب ما كانوا ينهبونه من الجوائز ونحوها . فقد فرق المنصور فى يوم واحد ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم على أهل بيته [٤] وفرق المأمون فى يوم واحد ١ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم على ثلاثة أشخاص [٥] . وقد رأيت صفحة ٨٦ أنه فرق ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم ورجله فى الركاب . وأوصى الرشيد للمأمون بمبلغ ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم . وتصدق المعتصم فى أثناء خلافته بما مجموعه ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم [٦] وبلغ ما أنفقه المقتدر ضياعاً ما خلا الأرزاق ٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار [٧] ـ فضلا عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم وربما بلغت جائزة الشاعر مئة ألف درهم . وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة أو أكثر . وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر أنه نظم قصيدة مدح فيها المهدى وحلف أنه لا يأخذ قيمتها إلا مئة ألف ألف درهم

(١) ابن الأثير ١٢٠ ج ٦ (٢) الطبرى ٧٤٠ ج ٣ (٣) الفخرى ٢٠٧
(٤) ابن الأثير ١٣ ج ٦ (٥) ابن الأثير ١٦٧ ج ٦ (٦) الطبرى ١٣٢٩ ج ٣
(٧) ابن الأثير ٩٠ ج ٨

(١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) فأعطاه إياها ـ وفى ذلك مبالغة ظاهرة لكنها تدل على مبلغ ذلك السخاء [١] وكثيراً ما كانوا يهبون الشعراء الضياع فضلا عن الأموال [٢]

هل كانوا يفعلون ذلك حقيقة ؟

فهذا وأمثاله يحسبه أهل هذا الزمان من قبيل الخرافات بالقياس على ما يعلمونه من القواعد الاقتصادية . على أننا لا نظنهم يقولون ذلك بعد ما تبين لهم من مقدار الثروة العباسية ومقدار ما كان يبقى من الاموال تحت تصرف الخلفاء أو من يقوم مقامهم كالوزراء والكتاب ـ إلا اذا شككنا فى حقيقة تلك الثروة وهو شك فى التاريخ على إجماله . لأن المؤرخين على اختلاف عصورهم ومواطنهم متفقون على ما بيناه من هذا القبيل كما رأيت . ثم اذا اعتبرنا نظام الهيئة الاجتماعية فى تلك الايام على ما سنفصله فى الاجزاء التالية من تأثير الشعراء ونحوهم فى مركز الخليفة نفسه هان علينا تصديق ما كانوا ينالونه من الهبات الكبرى . على اننا نعرف بين أغنيائنا اليوم من يبذل ٥٠ ٠٠٠ جنيه و ١٠٠ ٠٠٠ جنيه ثمن صورة أو قطعة من الآثار القديمة لا تنفع ولا تضر . وقرأنا بالأمس أن مورغن المثرى الأمريكي الشهير اشترى صوراً بمليون جنيه ليقدمها هدية لبعض المتاحف

وزد على ذلك اننا نستدل على صحة ما تقدم أيضاً من سياق بعض الوقائع المروية من هذا القبيل . مثل حديث المؤمل عن قدومه على المهدى وهو ولى عهد قال : قدمت على المهدى فى الرى وهو ولى عهد فأمر لى بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحته بها فكتب اليه المنصور (أبوه) يعذله ويلومه ويقول له « انما كان ينبغى لك أن تعطى الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم » ـ الى أن قال ـ وبعث المنصور يستقدمنى اليه حتى جئت ودخلت عليه فقال « هيه أتيت غلاماً غراً فخدعته » فقلت « نعم أصلح الله أمير المؤمنين أتيت غلاماً غراً كريماً خدعته فانخدع » فقال المنصور « أنشدنى ما قلت فيه » فأنشدته (ثم ذكر القصيدة ومطلعها :

هو المهدى إلا أن فيه مشابه صورة القمر المنير)

فقال « والله لقد أحسنت ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم » وقال « أين المال » قلت « ها هو ذا » قال « يا ربيع انزل معه فاعطه أربعة آلاف درهم وخذ منه الباقى » فخرج الربيع فحط ثقلى ووزن لى أربعة آلاف درهم وأخذ الباقى [٣] . فترى من هذه الحكاية انهم كانوا يقدرون الشعراء بآلاف الدراهم

(١) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ (٢) الطبرى ١٤٦٨ ج ٢ (٣) الطبرى ٤٠٦ ج ٣

هل كان الخلفاء يسرفون من أموالهم الخاصة ؟

بقى علينا النظر فى ما كان الخلفاء يهبونه من الجوائز ونحوها هل كانوا يؤدونه من أموالهم الخاصة أم من بيت مال الحكومة المعبر عنه ببيت مال المسلمين ؟ وهو موضوع مبهم لم نجد فيه قولا صريحاً . على أن سكوت المؤرخين عنه يرجح أنهم كانوا يدفعون ذلك من بيت المال ـ ولا جناح فيه عليهم لأن الامام عندهم هو ولى بيت المال ينفقه فى ما يرى فيه مصلحة المسلمين حسب اجتهاده وقد يرى فى اجازة الشاعر أو هبة العالم فائدة للدولة

على أننا رأينا ذكراً لبيت مال الخاصة فى أيام الهادى ويظهر من سياق بعض الحوادث التى وقعت للخلفاء انهم كانوا اذا أمروا لشاعر أو غيره بمال انما يريدون ان يدفع له من بيت مال المسلمين وان الوزراء كثيراً ما كانوا يتذمرون من ذلك الاسراف ولا ينفذون أمر الخليفة فى الصرف كما وقع لعيسى بن دأب مع الهادى ـ وذلك ان عيسى المذكور كان من أكثر أهل الحجاز أدباً وأعذبهم ألفاظاً وكان قد حظى عند الهادى حظوة لم تكن لأحد قبله . فأمر له مرة بثلاثين ألف دينار فى دفعة واحدة . فلما اصبح ابن دأب أرسل قهرمانه الى الحاجب في قبضها فقال الحاجب « هذا ليس إلى فانطلق الى صاحب التوقيع والى الديوان » فعاد إلى ابن دأب فأخبره فقال « اتركها » فبينما الهادى فى مستشرف له ببغداد رأى ابن دأب وليس معه إلا غلام واحد فاستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له الهادى « أرى ثوبك غسيلا وهذا شتاء يحتاج فيه الى الجديد » فقال « باعى قصير » فقال « وكيف وقد صرفنا اليك ما فيه صلاح شأنك » فقال « ما وصل إلى » فدعا الهادى صاحب بيت مال الخاصة فقال « عجل الساعة بثلاثين ألف دينار » فأحضرت وحملت بين يديه [1] ـ فيظهر من سياق هذه الحكاية أن الخليفة أراد أن يدفع اليه المال من بيت المال العام فلما لم يدفعوا له أمر بدفعه من بيت ماله الخاص

ومن هذا القبيل ما اتفق ليحيى بن خاقان إذ أمره الرشيد أن يدفع ثمن جارية ١٠٠٠٠٠ دينار فاستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الاسراف فى ما لا مصلحة للدولة فيه فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو ١٥٠٠٠٠٠ درهم فوضعها فى الرواق الذى يمر به الرشيد

(١) ابن الأثير ٤٣ ج ٦

اذا أراد الوضوء . فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك إسرافه ولكنه شعر بما فى ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غل يديه فحفظ ذلك فى نفسه . ويقال انه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة (١)

واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات فى ثمن جارية فلما مطل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ففعل (٢)

وفى كتاب أبى سفيان الثورى الى الرشيد جواباً على كتاب استدعاه به الى بغداد ما يشبه كلام أبى ذر الغفارى لمعاوية ويدل على أن الرشيد كان يهب ويجيز من بيت مال المسلمين . وذلك أن الرشيد دعاه بكتاب بعثه اليه فى الكوفة وأخبره أن الناس قدموا اليه وأنه فتح بيوت الأموال وأعطاهم من المواهب السنية الخ . فأجابه أبو سفيان بكتاب شديد اللهجة وفى جملة ذلك قوله « أما بعد فانى كتبت اليك أعلمك أنى صرمت حبلك وقطعت ودك وأنك قد جعلتنى شاهداً عليك باقرارك على نفسك فى كتابك أنك هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه وأنفذته بغير حكمه . ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت الى تشهدنى على نفسك . فأما أنا فانى قد شهدت عليك أنا واخوانى الذين حضروا كتابك وسنؤدى الشهادة غداً بين يدى الله الحكم العدل . يا هرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . . . هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل . . ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعنى العاملين) ؟ أم رضى بفعلك الأيتام والأرامل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعيتك . . ؟ » (٣)

فهذا وأمثاله يدل على أن الخلفاء كانوا يهبون ويجيزون ويبذخون ويسرفون من بيت المال

٢ ـ تكاثر أبواب النفقة فى الدولة

بينا فى الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ١٠٣ (طبعة ثالثة) كيف تدرجت الدولة الاسلامية فى مصالحها منذ كان النبى هو الأمير والوزير والقاضى والقائد حتى أصبح موظفو الحكومة فى أيام الراشدين ستة وما كان من تزايدهم بتزايد الحضارة واتساع المملكة فى أيام بنى أمية فبنى العباس . وكانت تلك المصالح تتكاثر عندهم بتكاثر الثروة وميل الخلفاء ورجال دولتهم الى الترف والرخاء فأصبحت فى أيام الرشيد أكثر

(١) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣ (٢) ابن الأثير ١٣ ج ٧ (٣) الدميرى ١٨٨ ج ٢

منها فى أيام المنصور وفى أيام المأمون أكثرمنها فى أيام الرشيد . وقس على ذلك تكاثرها في أيام من جاء بعدهم من الخلفاء . فقد قرأت فى جريدة المعتضد (صفحة ٦٤) من أصناف المرتزقين فى بلاط الخليفة من الغلمان والمماليك وأصحاب المطابخ والجلساء وأصحاب الركاب ما لم يكن له ذكر فى صدر الدولة العباسية . وقس عليهم أصناف الخدم الخاصة من الأطباء والمغنين والندماء مما لا يقع تحت الحصر وكله قد اقتضاه الترف فى حضارة الدولة

وزد على ذلك أن بعض النفقات كانت تصرف من غير بيت المال فصارت تصرف منه لأسباب كثيرة لا سبيل الى معرفتها إذ لم يرد نص صريح بشأنها وان كنا نستدل عليها ضمناً من نصوص كثيرة ـ مثل ما نراه من الفرق بين جريدة النفقات فى أيام المعتضد سنة ٢٧٩ هـ وبين جريدة علي بن عيسى لعام ٣٠٦ هـ فانك تجد فى هذه نفقات لا ذكر لها فى تلك مثل نفقات الحرمين ورواتب القضاة فى الممالك وولاة الحسبة وأصحاب البريد فى جميع البلاد ونفقات الثغور . فان هذه الأبواب غير واردة فى تلك لأن العمال كانوا يقومون بها من خراج أعمالهم كما أشرنا الى ذلك فلما ضعف الخلفاء وتمرد العمال اضطرت الدولة الى دفعها من بيت مالها

وقد تقدم صفحة ١٩١ (طبعة ثالثة) من الجزء الأول أن ارتفاع الثغور كان ينفق فى مصالحها لا يرد منه شيء الى بيت المال على أنهم كثيراً ما كانوا يستوردون منها الأموال الطائلة من الغنائم ونحوها فى صدر الدولة العباسية [1] أما فى أيام الانحطاط فقلت الغزوات وبطلت الغنائم وتحمل بيت المال نفقات تلك الثغور وزادت عما كانت عليه فى صدر الدولة حتى بلغت فى أيام المقتدر نحو ٥٠٠ ٠٠٠ دينار وكانت قبله ١٠٠ ٠٠٠ دينار وهو مقدار ارتفاعها ينفق فى مصالحها [2] ـ ناهيك بما حدث من نفقات الجند وغيره

٣ ـ زيادة الضرائب

ولم تقتصر زيادة النفقات على تجديد مصالح لم تكن من قبل ولكن المصالح القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه فى أوائل الدولة . وطبيعي اذا كثرت ثروة الدولة أن توسع على رجالها فتزيد رواتبهم وجواريهم . فاذا كانت تلك الدولة مؤسسة على أساس ضعيف لا تلبث أن تنحط ثروتها وتبقى الرواتب كما هى فيقصر بيت المال فى تأديتها فيضطروا

(١) ابن الأثير ٢٧ ج ٦ (٢) قدامة ٢٥٣

الى ضرب الضرائب الفادحة واستخدام العنف فى تحصيلها فتضعف همة الناس عن العمل وتزداد البلاد فقراً

كان المسلمون فى أيام النبى وأبى بكر يرتزقون مما يقع فى أيديهم من الغنائم فتختلف حصة كل منهم باختلاف مقدار تلك الغنائم حتى تولى عمر بن الخطاب ووضع الديوان وجعل لكل مسلم راتباً معيناً فى السنة وميزهم باعتبار أنسابهم من النبى أو سابقتهم فى الاسلام (١) وليس باعتبار مايؤدونه من الأعمال فقد يكون أحدهم كاتباً أو عاملا أو قاضياً على السواء . فلما تفرعت مصالح الدولة وتميزت لم يروا بداً من تعيين الرواتب باعتبار المناصب فجعلوا لكل من الجندى والعامل والكاتب والحاجب والقاضى وغيرهم راتباً معيناً . ولما حدثت الوزارة فى الدولة العباسية جعلوا لها راتباً كما جعلوا لسواها من المناصب المستحدثة . واختلف مقدار راتب كل من هذه المناصب باختلاف الدول والعصور فلننظر فى تاريخ أشهر تلك المناصب باعتبار رواتبها بالنظر الى ما نحن فيه

﴿ رواتب العمال ﴾ كان راتب العامل فى أيام عمر ٦٠٠ درهم فى الشهر (٢) ثم اختلف باختلاف العمال والأعمال فقد جعل عمر لمعاوية على الشام الف دينار فى السنة (٣) ولما أفضى الأمر إلى بنى أمية أصبحت ولاية الأعمال فوضى على ما تقتضيه الأحوال من أطماع العمال بنصرتهم أو التوسيع لهم بالنفقة لحرب الخوارج أو العلويين أو غير ذلك . فربما جعلوا الولاية كلها طعمة لايدفع عنها العامل شيئاً بل ينالها مكافأة على خدمة قام بها ـ على أن ذلك كان خاصاً بالعمال الكبار كعامل العراقين أو مصر أو خراسان . وقد بلغ راتب يزيد بن عمرو بن هبيرة أمير العراق فى أيامهم ٦٠٠ ٠٠٠ درهم فى السنة (٤) وبلغت غلة خالد القسرى ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (٥) وليس هذا الأخير من قبيل الراتب فلا يقاس عليه

وكان تحت هؤلاء العمال عمال يفرقونهم فى أعمالهم كما كان يفعل الحجاج فى العراق وعمرو بن العاص بمصر . فالعمال الصغار كانت رواتبهم محددة لا تزيد على ٣٠٠ درهم فى الشهر (٦) وظلت على نحو ذلك فى صدر الدولة العباسية الى أيام المأمون فزادها وزيره الفضل بن سهل فى جملة ما زاده من الرواتب على أثر ما كان من تكاثر الثروة مع رغبة الخليفة فى إرضاء نصرائه من أهل خراسان . أما مقدار ذلك الراتب فانه كان يختلف باختلاف الأعمال لأن العمل قد ينحصر فى ولاية صغيرة أو يعقد على

(١) الجزء الأول ١٥٤ (طبعة ثالثة) (٢) سراج الملوك ٢٧٧ (٣) المقريزى ٩٥ ج ١
(٤) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ (٥) ابن خلدون ٩٦ ج ٣ (٦) الطبرى ٤٣٤ ج ٣

عدة ولايات فتقدر العمالة بقدر اتساعه وأهميته وباعتبار رضى الخليفة عن عامله ونحو ذلك . فقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همدان الى التيبت طولا ومن بحر فارس الى بحر الديلم (قزوين) وجرجان عرضاً ويدخل فى ذلك كل ماوراء العراق شرقاً الى الهند وجعل له عمالة ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم فى السنة وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين وأعطاه علماً وسماه ذا الرياستين [١] السيف والقلم ونقش على سيفه بالفضة من الجانب الواحد « رياسة الحرب » ومن الجانب الآخر « رياسة التدبير » [٢] ـ فعل المأمون ذلك له لما كان من نصرته إياه فى خلافه مع أخيه الأمين فلا يقاس به العمال الذين كانوا يتولون الأعمال الصغرى ومنهم بضعة عشر عاملا تحت راية الفضل بن سهل فى المشرق . وعمالة هؤلاء تختلف أيضاً باختلاف الولايات ويظهر أنها كانت تتراوح بين ٣٠٠ درهم و ١٠٠٠ قياساً على ما ذكره ابن حوقل من رواتبهم فى أيام منصور بن نوح [٣]

وأما عمال الولايات الكبرى التى كانت علاقتها رأساً مع الخليفة فقد كانت رواتبهم كبيرة جداً كما رأيت من راتب الفضل بن سهل . وكانت عمالة الحسين بن على الماذرانى على مصر فى أوائل القرن الرابع للهجرة ٣٠٠٠ دينار فى الشهر [٤] أو ٦٠٠٠٠ درهم ومقدار ذلك فى السنة ٧٢٠٠٠٠ درهم وقس على ذلك

فاذا اعتبرنا هذه الرواتب بالنظر الى هذه الأيام رأيناها فاحشة جداً . لأن الولايات فى الدولة العثمانية ثلاث درجات : الدرجة الأولى راتبها ٢٥٠ ليرة عثمانية فى الشهر والثانية ٢٠٠ والثالثة ١٥٠ . وراتب عامل انكلترا على الهند (حكمدار الهند) ٢٠٨٣٣ روبية فى الشهر [٥] أى نحو ٥٠٠٠٠٠ فرنك فى السنة وهو أعظم رواتب العمال في هذا العهد . ومع ذلك فانه أقل من راتب الماذرانى المتقدم ذكره ـ ناهيك بما كان يكتسبه عمال الدولة العباسية من الاتجار ونحوه

﴿ رواتب الكتاب ﴾ وكانت رواتب الكتاب الى أيام المأمون مثل رواتب العمال الصغار لا يزيد مقدارها فى الشهر على ٣٠٠ درهم فزادها الفضل بن سهل كما تقدم ولم نقف على مقدار تلك الزيادة . ولكن بالقياس على غيرها يجب أن تكون كثيرة . فضلا عما كانوا يستولون عليه من الأخرجة اليومية وقد عدد المقريزى ما كان يستولى عليه كاتب من كتاب مصر فى عهد الدولة الفاطمية فى اليوم الواحد

(١) ابن الأثير ١٠٣ ج ٦ (٢) الطبرى ٨٤١ ج ٣ (٣) ابن حوقل ٣٤٢
(٤) Ein. Abb — 80. (٥) وبتكر ٤٦٦

من البقولات والتوابل والحلويات والأثمار والفاكهة والعطريات وسائر الاطعمة ومن الالبسة والافرشة وما كان يجرى من ذلك كله على أولاده وأهله فاستغرق تعداده نحو صفحتين أو ثلاث صفحات من قطع هذا الكتاب ـ فاكتفينا بالاشارة اليه تفادياً من التطويل ومن أراد التفصيل فليراجعه هناك (١)

﴿ رواتب الوزراء ﴾ الوزارة من محدثات الدولة العباسية وأول من اشتهر من وزرائها البرامكة ولم نقف على مقادير رواتبهم والظاهر أنها كانت كبيرة . فضلا عن إطلاق أيديهم فى بيت المال يقطعون ويصلون كما يتراءى لهم . على أننا قد رأينا فى قائمة النفقات فى أيام المعتضد صفحة ٦٦ أن راتب الوزير ½ ٣٣ دينار فى اليوم أو الف دينار فى الشهر . فاذا اعتبرنا تقدير النقود بالنظر الى قيمة الفضة والذهب فى هذه الايام زاد هذا الراتب على ١٥٠٠ جنيه ـ وما من وزير يبلغ راتبه الى هذا المقدار اليوم . فان راتب الوزير فى الدولة العثمانية ٣٠٠ ليرة عثمانية فى الشهر إلا الصدر الاعظم فان راتبه الف ليرة . والوزير المصرى راتبه ٢٥٠ جنيهاً فى الشهر وراتب أكبر وزراء انكلترا ٢٠٠٠ جنيه فى العام (٢)

على أن رواتب الوزراء كانت تختلف باختلاف الاعصر والدول ـ كان راتب الوزير على أيام الناصر الاندلسى ٨٠٠٠٠ دينار فى السنة وهدايا (٣) وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفى فى أواسط القرن السادس للهجرة ١٠٠٠٠٠ دينار فى السنة (٤) وكان للوزراء فضلا عن رواتبهم المشار اليها رواتب لأولادهم وإخوتهم وخدمهم وأتباعهم وأرزاق ووظائف كثيرة وخصوصاً فى مصر . فقد كان راتب الوزير فى الدولة الفاطمية ٥٠٠٠ دينار فى الشهر ولمن يليه من ولد أو أخ من ٣٠٠ الى ٢٠٠ دينار ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من ٥٠٠ الى ٣٠٠ دينار ما عدا الاقطاعات (٥) غير ما يجرى عليه وعلى أهله من المأكولات وسائر حاجيات الحياة . فقد كان للوزير ابن عمار أيام العزيز بالله الفاطمى بمصر من الجرايات لنفسه وأهل حرمه من اللحم والتوابل ما قيمته ٥٠٠ دينار فى الشهر ومن الفاكهة سلة بدينار وعشرة أرطال شمع بدينار ونصف حمل بلح (٦) وكان راتب الوزير فى الدولة السلجوقية عشر مغل البلاد (٧)

(١) المقريزى ٣٩٩ ج ١ (٢) وبتكر ١٧٠ (٣) نفح الطيب ١٦٨ ج ١
(٤) الفخرى ٢٧٨ (٥) المقريزى ٤٠١ ج ١ (٦) المقريزى ٣ ج ٢
(٧) ابن خلكان ٧٣ ج ٢

﴿ رواتب القضاة ﴾ كان راتب القاضى فى أيام الراشدين مئة درهم فى الشهر ومؤونته من الحنطة [١] ثم ارتقى فى أيام بنى أمية مثل سائر الرواتب فصار راتب قاضى مصر سنة ٨٨ هـ ألف دينار فى السنة [٢] أى نحو عشرة أضعافه فى أيام الراشدين. فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس أنزلت الرواتب وصار راتب قاضى مصر فى أيام المنصور ٣٠ ديناراً فى الشهر. ثم تصاعد فى عهد من خلفه حتى بلغ فى أيام المأمون (سنة ٢٠٣ هـ) ٤٠٠٠ درهم فى الشهر أى ٢٧٠ ديناراً ثم عاد فى أيام ابن طولون الى الف دينار فى السنة [٣]

وأما فى بغداد فلم نطلع على راتب القاضى فى أوائل الدولة العباسية ولكننا رأينا فى جريدة المعتضد أن راتب القاضى ١٦ ٢/٣ دينار فى اليوم أو ٥٠٠ دينار فى الشهر بما فيه أجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضى ـ ومع ذلك فانه راتب كبير بالنظر الى رواتب قضاة هذه الايام فان راتب شيخ الاسلام في الاستانة لا يزيد على ٥٠٠ ليرة عثمانية فى الشهر مع اعتبار الفرق فى قيمة النقود بين تلك الايام واليوم

﴿ رواتب الخلفاء وأهلهم ﴾ قد رأيت أن الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لأهل الوزراء والكتاب فبالأولى أن يفرضوها لأنفسهم وأولادهم والخليفة هو القابض بيده على بيت المال. لكننا لم نجد قولا صريحاً بهذا الشأن غير ما كان يأمر به الخلفاء لأهلهم من الضياع أو الاموال وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك فى أول الدولة اذا خافوا أهلهم من مناظرتهم على الملك فيبتاعون البيعة بمال يرضون به أهلهم كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى إذ اشترى منه البيعة لابنه المهدى بمبلغ ١١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم له ولأولاده [٤] أو للتوسعة عليهم واستنصارهم كما فعل مع أعمامه فانه أمر لكل واحد منهم بمليون درهم تدفع اليهم من بيت المال وهو أول من فعل ذلك [٥] ويظهر أنها كانت تدفع اليهم فى كل عام. ولما توفى ابنه المهدى فرض لأهل بيته كل واحد ٦٠٠٠ درهم فى السنة [٦] والظاهر أنهم بقوا على نحو ذلك فضلا عما كانوا ينالونه من الهبات الطائلة وخصوصاً أبناء الخلفاء وولاة عهدهم فان الهادى أمر سنة ٢٧٠ هـ لابنه الرشيد بمليون دينار وأن يحمل اليه نصف الخراج [٧] على أثر ما كان من عزمه على خلعه من ولاية العهد

(١) سراج الملوك (على هامش المقدمة) (٢) السيوطى ١١٥ ج ٢
(٣) السيوطى ١١٩ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٥ (٥) الطبرى ٤٢٠ ج ٣
(٦) سير الملوك ٦٥ (٧) ابن الاثير ٤٠ ج ٦

والظاهر أن الرشيد زاد فى رواتب أهله . وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب فى خلافته . وكان أعضاء العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا فى أيامه ٣٣٠٠٠ نفس . ولما تولى المستعين سنة ٢٤٨ هـ ابتاع من المعتز والمؤيد جميع ما لهما وأشهد عليهما بذلك وترك للمعتز ما يتحصل منه فى السنة ٢٠٠٠٠ دينار وللمؤيد ما يتحصل منه ٥٠٠٠ دينار وحبسهما (١)

فلما كانت أيام ابن رائق أمير الأمراء فى أوائل القرن الرابع للهجرة كفت أيدى الخلفاء عن بيت المال وصارت الى رجال الدولة ـ وأول من كفت يده الراضى بالله الذى توفى سنة ٣٣٩ هـ واستبد القواد ورجال الدولة فى الأموال وصار الخلفاء فى حاجة الى الراتب بعد ما ذهبت سيطرتهم عن بيت المال فقرروا لهم راتباً زهيداً (٢)

ويظهر أن الخلفاء لم تكن لهم قبل ذلك رواتب معينة غير ما كان يصيبهم من الغنائم بحسب الشرع ـ إلا أبا بكر فقد فرضوا له ٦٠٠٠ درهم لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف (٣) ثم لم نر ذكراً لرواتب الخلفاء الى أيام ابن رائق . فلما استولى معز الدولة الديلمى على بغداد سنة ٣٣٤ هـ فرض للخليفة المستكفى ٥٠٠٠ درهم كل يوم لنفقاته ولكنه قلما كان يدفعها اليه (٤) ثم كان ما كان من فقر الخلفاء مما يأتى ذكره فى حينه

وفرض الاعطية للملوك وأهلهم عادة جارية عند معظم الامم الآن والغالب فى الدول المتمدنة ان تكون تلك الرواتب معينة فى ميزانياتها وهاك رواتب العائلة المالكة فى انكلترا لعام ١٩٠٢

رواتب العائلة المالكة فى انكلترا لعام ١٩٠٢

جنيه انكليزى	
١١٠٠٠٠	راتب الملك
١٢٥٨٠٠	راتب خدم القصر
١٩٣٠٠٠	نفقات القصر
٤١٢٠٠	نفقات اخرى وصدقات
٤٧٠٠٠٠	(جملة مخصصات الملك)
١٦٠٠٠٠	رواتب سائر أعضاء العائلة
٦٣٠٠٠٠	

(١) الطبرى ١٥٠٧ ج ٣ (٢) الفخرى ٢٥٤ (٣) المقريزى ٩٥ ج ١
(٤) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨

وهذه رواتب العائلة الخديوية لعام ١٩٠٢

جنيه مصرى	
١٠٠ ٠٠٠	مخصصات الحضرة الخديوية
٩٧ ٩٢٧	مرتبات العائلة الخديوية
٥٧ ٤٣٤	نفقات كابينه الحضرة الخديوية
٢٥٥ ٣٦١	

ولجلالة السلطان راتب مقداره فى الشهر ٧٥ ٠٠٠ ليرة عثمانية أو ٩٠٠ ٠٠٠ ليرة فى السنة ما عدا النفقات والمخصصات (عام ١٩٠٢)

﴿ رواتب حاشية الخليفة ﴾ ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة أعمالهم بشخص الخليفة وليس بأعمال الدولة كالأطباء والحجاب والحرس الخاص . ورواتبهم من بيت مال الخاصة . وقد يكون لهم رواتب من بيت مال العامة وكانت كبيرة نستدل على ذلك من مخصصات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد ومنها رواتب نقدية كان يقبض بعضها من بيت مال العامة والبعض الآخر من بيت مال الخاصة واليك راتب جبريل المذكور فى السنة كما وجدوه مدوناً بخط كاتبه (١)

مرتبات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد فى السنة

درهم		من بيت مال العامة
	١٢٠ ٠٠٠	راتب نقدى
١٨٠ ٠٠٠	٦٠ ٠٠٠	النزل
		من بيت مال الخاصة
	٥٠ ٠٠٠	راتب نقدى
	٥٠ ٠٠٠	ثياب قيمتها
	٥٠ ٠٠٠	هدية على عيد صوم النصارى
	١٠ ٠٠٠	« « يوم الشعانين ثياب قيمتها
	٥٠ ٠٠٠	« « « الفطر نقداً
	١٠ ٠٠٠	« « « « ثياباً
	١٠٠ ٠٠٠	لفصد الرشيد دفعتين فى السنة كل دفعة ٥٠ ٠٠٠
٤٢٠ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠	لشرب الدواء « « « « « ٥٠ ٠٠٠
٦٠٠ ٠٠٠		(المجموع)

(١) طبقات الأطباء ١٣٦ ج ١

		من أصحاب الرشيد نقداً وثياباً وأطياباً
	٥٠٠٠٠٠	من عيسى بن جعفر
	٥٠٠٠٠٠	« زبيدة أم جعفر
	٥٠٠٠٠٠	« العباسة
	٣٠٠٠٠٠	« ابراهيم بن عثمان
	٥٠٠٠٠٠	« الفضل بن الربيع
	٧٠٠٠٠٠	« فاطمة أم محمد
٤٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	كسوة وطيب ودواب
	١٠٠٠٠٠٠	(المجموع)
		من البرامكة
	٦٠٠٠٠٠	من يحيى بن خالد
	١٢٠٠٠٠٠	« جعفر بن يحيى الوزير
٢٤٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	« الفضل بن يحيى
٨٠٠٠٠٠		غلته من ضياعه
٧٠٠٠٠٠		من فضل مقاطعته
٤٩٠٠٠٠٠٠		(الجملة)

فجملة رواتبه فقط ٤٩٠٠٠٠٠٠ درهم فى العام فاذا جمع ذلك فى مدة خدمته كلها وهى ٢٣ سنة كان مقدار ماقبضه من مال الدولة العباسية ١١٢٧٠٠٠٠٠٠ درهم يخرج منها ما قطع عنه من مرتبات البرامكة بعد نكبتهم فى العشر السنين الأخيرة وهو ٢٤٠٠٠٠٠٠٠ درهم فالباقى ٨٨٧٠٠٠٠٠٠ درهم وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلات الجسام . وأما ما أنفقه فهو :

درهم	
٢٧٦٠٠٠٠٠٠	نفقاته على نفسه وبيته فى السنة ١٢٠٠٠٠٠٠ درهم عنها فى ٢٣ سنة
٧٠٠٠٠٠٠٠	ثمن دور وبساتين ومتنزهات ودواب ورقيق وغيرها
٨٠٠٠٠٠٠	ثمن آلات وأجر وصناعات ونحو ذلك
١٢٠٠٠٠٠٠٠	ماصار فى ثمن ضياع ابتاعها لخاصته
٥٠٠٠٠٠٠	ثمن جواهر وما أعده للذخائر
٣٠٠٠٠٠٠	ما أنفقه فى البر والصلات والمعروف
٣٠٠٠٠٠٠	ما كابره عليه أصحاب الودائع وجحدوه
١٢٨٦٠٠٠٠٠٠	(والمجموع فى الأصل ٩٠٠٠٠٠٠ دينار و ٩٠٦٠٠٠٠٠٠ درهم)

وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة فى تلك الأيام . فقد كانت غلة صاحب حرس الرشيد ٣٠٠ ٠٠٠ درهم فى السنة . وغلة صاحب شرطته ٥٠٠ ٠٠٠ درهم وغلة حاجبه ١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم فى السنة (١)

﴿ رواتب الجند ﴾ بينا فى باب الجند من الجزء الأول صفحة ١٥٥ (طبعة ثالثة) كيف كان المسلمون كلهم جنداً وذكرنا ما فرضه لهم عمر من الرواتب باعتبار النسب والسابقة وكيف تضاعفت رواتبهم فى أوائل بنى أمية ثم نقصت فى أواخرها ثم زادت فى أوائل بنى العباس ثم نقصت حتى صارت فى أيام المأمون ٢٤٠ درهماً فى السنة للجندى الراجل (النفر) فضلا عن حصته من الغنائم إذا غزا . ويظهر أن تلك الحصة كانوا يحبسونها عن الجند فى صدر الدولة العباسية حتى طلبوا من محمد الأمين سنة ١٩٨ هـ أن يردها عليهم إذا غزوا فردها فأصاب الرجل ستة دنانير (٢)

ولما قامت الفتنة بين الأمين والمأمون كان كل منهما يرغب جنده بالأعطيات فلما فاز جند طاهر بن الحسين على جيش على بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ زاد المأمون أعطيات جند طاهر حتى جعل راتب الواحد ثمانين درهماً فى الشهر (٩٦٠ درهماً فى السنة) (٣) أى أنه أعادها الى ما كانت عليه فى أيام السفاح . فلما انتهت الفتنة عادت الى ٢٤٠ درهماً

﴿ الأفشين وبابك ﴾ فلما أفضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وكان ما كان من اقتنائه الأتراك والفراغنة والمغاربة وتجنيدهم وضعف الخلفاء للأسباب التى قدمناها أصبح مرجع القوة فى كل شىء الى الجند . وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال أمر بابك الخرمى فى أرمينيا وأذربيجان . وكان بابك قد ظهر فى أيام المأمون يدعو الناس الى دين جديد أساسه التقمص (٤) فبعث اليه المأمون جنوداً هزمهم غير مرة فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بابك لأنه أصبح فى خطر منه على ملكه فبعث اليه أتراكه بقيادة رجل منهم اسمه الأفشين حيدر بن كاووس سنة ٢٢٠ هـ ثم أردفه بآخر اسمه بغا الكبير ومعه المال وآخر اسمه جعفر الخياط ثم أنفذ اليه ايتاخ ومعه ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم لنفقات الجند وبعد حروب سنتين فاز الأفشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيها المال . وجاء ببابك الى سامراً فخرج الواثق بن المعتصم وسائر أهل المعتصم لاستقباله باحتفال وهم لا يصدقون أنهم نجوا من بابك على يده لأنه كان قد أمعن فى البلاد نهباً وقتلا فقتل فى عشرين سنة

(١) طبقات لأطباء ١٣٢ ج ١ (٢) الطبرى ٩٧٢ ج ٣ (٣) الطبرى ٨٣٠ ج ٣
(٤) ابن الأثير ١٣٤ ج ٦

٥٠٠ ٢٥٥ نفس وغلب على معظم قواد المأمون والمعتصم ـ فلما قبض الأفشين عليه أمر المعتصم أن يركبوه على الفيل فأركبوه واستشرفه الناس وكان بابك عظيم الجثة . ثم أدخلوه على المعتصم فى داره فأمر سياف بابك نفسه أن يقطع يديه ورجليه فقطعها فسقط بابك فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه وأنفذ رأسه الى خراسان وصلب بدنه فى سامرا . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً أمن فيه المعتصم على ملكه وعرف ذلك الفضل للافشين ورجاله ـ وكان لا ينفك وهو يواصل الافشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه الى يوم رجوعه . فكان يرسل اليه كل يوم خلعة وفرساً ويدفع اليه فى أثناء إقامته بازاء بابك (سوى الأرزاق والأنزال والمعاون) عن كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وعن كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم . ولما عاد الافشين تقدم المعتصم بنفسه وألبسه وسامين مرصعين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم عشرة ملايين منها لنفسه وعشرة يفرقها فى عسكره وعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه (١)

فالافشين لم يثبت فى محاربة بابك الا طمعاً بالمال مع ما كان يواصله به المعتصم من الخلع والأموال فى أثناء الحرب ثم ما دفعه اليه عند رجوعه . وكان الافشين يرسلها كلها الى بلاده حتى وهو فى دار الحرب . فكان اذا اجتمع اليه مال من غنيمة أو هدية بعث به رأساً الى بلده اشروسنة وراء النهر بطريقة سرية فيجتاز حملة المال بخراسان فيعلم بهم عاملها ابن طاهر فيكتب الى المعتصم بشأنهم والمعتصم يأمره أن يطلعه على كل ما يراه من هذا القبيل . فأنفذ الافشين مرة مالا كثيراً جعله فى أوساط أصحابه فى الهمايين فبعث ابن طاهر ففتشهم فوجد المال فقال « من أين لكم هذا المال » قالوا « للافشين » فأخذه وأظهر أن الافشين لا يفعل ذلك وانما هم لصوص . فوقعت الوحشة من يومئذ بين ابن طاهر والافشين حتى آل الأمر الى حبسه وقد تبين من محاكمته أنه لم يعتنق الاسلام الا طمعاً فى المال وأنه لا يزال على المجوسية (٢)

وقس على ذلك سائر جند المعتصم فانهم انما كانوا يحاربون لمجرد كسب الاموال وحملها الى بلادهم فى أقصى الشرق ـ فكيف تستقيم دولة هذا جندها ـ على أن الخلفاء لم يكونوا يجدون بداً من استنصارهم ولا سبيل الى ذلك إلا بالمال . فكانوا يبذلون لهم الرواتب الكبيرة غير ما يهبونهم إياه من الهدايا ونحوها اقتداء بما كان يفعله المعتصم معهم ـ لأنه بنى لهم سامرا وأقطعهم فيها الاقطاعات واشترى لهم الجوارى فأزوجهم منهن ومنعهم أن يتزوجوا أو يصاهروا أحداً من المولدين الى أن ينشأ لهم

(١) الطبرى ١٢٣٢ ج ٣ (٢) ابن الأثير ٢٠٩ و ٢١١ ج ٦

الولد فيتزوج بعضهم الى بعض . وأجرى للجوارى الأتراك أرزاقاً قائمة وأثبت أسماءهن فى الدواوين فلم يكن يقدر أحد منهم يطلق امرأته ولا يفارقها (١)

فاذا اعتبرت هذه النفقات مع أرزاق الرجال وما قد يحتاجون اليه من المؤونة والاخرجة كان المجموع عظيما جداً — قال الطبري فى حوادث سنة ٢٥٢ هـ « وذكر أن أرزاق الاتراك والمغاربة والشاكرية قدرت فى هذه السنة فكان مبلغ ما يحتاجون اليه فى السنة ... ... ٢٠٠ دينار وذلك خراج المملكة كلها لسنتين » (٢) — ونظن المراد ... ... ٢٠٠ درهم (لا دينار) إذ يستبعد أن يجتمع هذا القدر من الخراج دنانير فى سنتين لأننا لو حولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهما وهى قيمته فى ذلك الحين كان خراج المملكة فى السنة ... ... ٢ درهم وقد رأينا خراجها فى إبان ثروتها لا يزيد على ... ... ٤٠٠ درهم — فانفاق ٢٠٠ مليون درهم على الجند فى سنة واحدة أمر عظيم جداً وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود فى تلك الأيام . ولكنه لا يعد شيئاً بالنظر الى نفقات الجند فى هذه الأيام (سنة ١٩٠٣) لأن التمدن الحديث اقتضى الاحتياط والتجنيد وإعداد المعدات حتى كثرت نفقات الجند كثرة فاحشة وخصوصاً اذا أضفنا اليها نفقات الاساطيل — فانكلترا مثلا تنفق على جنديتها براً وبحراً نحو ... ... ٤٠ جنيه فى السنة أى نحو ... ... ١ فرنك (أو درهم) وفرنسا تنفق نحو هذا المبلغ وكذلك روسيا . وهو مع اعتبار قيمة النقود بالنسبة الى تلك الايام لا يزال يعادل ضعف ما كان ينفقه العباسيون تقريباً ولكننا أعظمنا ما أنفقوه بالنظر الى ما كان من طرق إنفاق الجند عندهم

ناهيك بما كان يرتكبه الجند العباسي من اغتصاب أموال الناس فى منازلهم وحوانيتهم لأقل سبب يحدث والخلفاء لا يعدون ذلك ذنباً لهم بل ربما عنفوا الناس لأنهم لم ينقلوا سلعهم وأمتعتهم الى مكان لا يعرفه الجند

على أن الخلفاء كانوا ينشطون مطامع الجند فيهم بما كانوا يشرطونه على أنفسهم من المال اذا هم فعلوا لهم الأمر الفلانى حتى فى ساحة الحرب . فكانوا اذا احتدم القتال وخاف الخليفة أو الأمير ضعفاً صاح فى جنده « من جاء بأسير فله عشرة دنانير ومن جاء برأس فله خمسة دنانير » كما فعل المقتدر سنة ٣٢٠ هـ (٣)

أما رواتب الجند العباسى أى ما كانوا يتقاضونه قدراً معيناً فى العام فقد تبين من قائمة نفقات الدولة فى أيام المعتضد صفحة ٦٤ أن أرزاق الجند من الفرسان والمماليك

(١) اليعقوبى (كتاب البلدان) ٣٣ (٢) الطبرى ١٦٨٥ ج ٣ (٣) ابن الأثير ٩٠ ج ٨

ونحوهم لا تزيد على ١ ٥٠٠ ٠٠٠ دينار أو ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم . ثم استفحل أمر الجنود الأتراك بتوالى الاعوام وتعددت فرقهم وتزايدت رواتبهم مما لا يمكن حصره لأنه يختلف باختلاف الأزمان والأحوال فضلا عن سكوت المؤرخين فى هذا الشأن إلا ما قد نتناوله عرضاً

فقد بلغ عدد فرقة الرجالة المصافية الملازمين لدار الخليفة المقتدر سنة ٣١٧ هـ ٢٠ ٠٠٠ رجل بلغت رواتبهم ١٢ ٠٠٠ دينار فى الشهر أى ستة دنانير كل واحد . وكان عدد الفرسان ١٢ ٠٠٠ فارس رواتبهم فى كل شهر ٥٠٠ ٠٠٠ دينار وذلك نحو ٤٢ ديناراً لكل واحد . أو نحو ١٢ ٠٠٠ درهم فى السنة للفارس و ١ ٤٤٠ درهماً للراجل . وكانوا مع ذلك كثيراً ما يثورون ويطلبون الزيادات ويهددون الخليفة بالقتل اذا لم يجبهم (١) . وتداخلوا فى منازل الخلفاء ووضعوا أيديهم على الخلافة وصاروا يولون من شاؤا واذا أتت الأموال اقتسموها فيما بينهم لا يتركون منها للخليفة أو الديوان الا القليل كما فعل أتامش وشاهك فى أيام المستعين بالله سنة ٢٤٩ هـ (٢)

وكما كان القواد يطمعون بالخلفاء ويستبدون فيهم كانوا أيضاً يستأثرون بالأموال دون أفراد الجند حتى كثيراً ما ثار هؤلاء على قوادهم وطالبوهم بالأموال وهددوهم واذا لم يروا منهم إصغاء وتلبية قتلوهم . كما فعلوا بوصيف سنة ٢٥٣ هـ فان الأتراك والفراغنة والاشروسنة شغبوا وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيما فكلمهم وصيف بالجفاء وقال لهم « خذوا التراب ليس عندنا مال » فوثب عليه بعضهم وقتلوه (٣) وكثيراً ما تظلموا للخلفاء وشكوا مما صار اليه قوادهم من الاقطاعات التى قد أجحفت بالضياع والخراج وما صار الى كبرائهم من المعاون والزيادات فى الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا أكثر أموال الخراج (٤) حتى طلبوا التخاص منهم وأن يقود الجند أخو الخليفة

﴿ رواتب الجند الآن ﴾ على أننا اذا اعتبرنا رواتب الجند الاسلامى على اختلاف عصوره من أيام الراشدين الى أواخر الدولة العباسية وقسناها برواتب جنود هذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها تزيد عليها زيادة فادحة . فقد رأيت أن راتب الجندى فى أيام الراشدين من ٣٠٠ الى ٥٠٠ درهم فى السنة ثم صار أيام بنى أمية الف درهم وتقلب

(١) صلة تاريخ الطبرى ١٤٢ ـ ١٥١ (٢) الطبرى ١٥١٢ ج ٢
(٣) ابن الاثير ٧٠ ج ٧ (٤) الطبرى ١٧٩٦ ج ٣

فى أيام العباسيين حتى صار فى أيام المقتدر ١٤٤٠ درهم للراجل و ١٢٠٠٠ درهم للفارس فى السنة ـ تلك رواتب أفراد الجند (الانفار) عندهم مع أن راتب النفر فى الدولة الانكليزية للراجل شلين وللفارس شلين و ٩ بنسات فى اليوم ومقدار ذلك فى السنة نحو ٤٥٥ فرنكا (أو درهما) للراجل و ٨٠٠ فرنك للفارس على أن رواتب الجند عندهم تختلف فى كل من المشاة والفرسان باختلاف الفرق . ولكنها فى كل الاحوال عظيمة بالنظر الى رواتب الجند فى الدول الاخرى . وأما بالنظر الى الدولة العباسية فانها صغيرة وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود فى الحالتين

ومن أسباب كثرة نفقات الجند اليوم كثرة الضباط وكبر رواتبهم وان كنا لا نعلم مقدار رواتب ضباط تلك الايام وهم القواد . وهاك رواتب الجندالانكليزى من أكبر الضباط الى النفر العسكرى فى اليوم [1] ثم رواتب الجندين العثمانى والمصرى

رواتب الجند الانكليزى فى اليوم بالجنيه والشلين والبنس (سنة ١٩٠٣)

المشاة			الفرسان			
ب	ش	ج	ب	ش	ج	
—	—	٨	—	—	٨	الجنرال (المشير)
—	١٠	٥	—	١٠	٥	الفريق
—	—	٣	—	—	٣	اللواء
—	١٨	—	٦	١	١	اميرالاى
—	١٨	—	٦	١	١	قائمقام
٧	١٣	—	—	١٥	—	بكباشى
٧	١١	—	—	١٣	—	يوزباشى
٦	٦	—	٦	٧	—	ملازم أول
٣	٥	—	٨	٦	—	« ثان
—	١	—	٩	١	—	النفر

(١) ويتكر ٢٢٠

رواتب الجند العثمانى فى الشهر (سنة ١٩٠٣)		رواتب الجند المصرى فى الشهر (سنة ١٩٠٣)	
قرش عثمانى		قرش مصرى	
٢٥٠٠٠	المشير	٠٠٠٠	المشير (لا يوجد)
١٠٠٠٠	الفريق	٧٥٠٠	الفريق
٦٠٠٠	اللواء	٦٥٠٠	اللواء
٢٥٠٠	اميرالاى	٤٧٠٠	اميرالاى
١٨٠٠	قائمقام	٣٠٠٠	قائمقام
١٢٠٠	بكباشى	٢٥٠٠	بكباشى
٧٠٠	قولاغاسى	١٥٠٠	صاغقولاغاسى
٥٠٠	يوزباشى	٩٠٠	يوزباشى
٢٥٠	ملازم أول	٦٠٠	ملازم اول
٢٠٠	« ثان	٥٠٠	« ثان
٢٠	نفر	٣٠	نفر

﴿ رواتب أخرى ﴾ كانت سياسة الملك فى تلك العصور تقتضى استرضاء بعض الناس ممن يخاف الخلفاء أقلامهم أو ألسنتهم أو أحزابهم . لأن المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لأنفسهم من العلويين أو الخوارج أو غيرهم ـ والملك لا يخلو من حساد يترقبون فرصة للانتقام . وكان للخطابة والحماسة يومئذ تأثير على الرأى العام أكثر مما للصحافة فى هذه الأيام . فالخلفاء العقلاء كانوا يؤثرون ملافاة شرور المقاومين بالاحسان اليهم أو الرفق بهم فيقطعون ألسنتهم بالجوائز الوقتية أو بالرواتب الجارية كما يفعل ملوك هذه الأيام بالصحافة فان بعضهم يدفع الرواتب السنوية الى أرباب الصحف فى مقابل سكوتهم عنه والبعض الآخر يبتاع مساعدتهم فى إنهاض الهمم أو جمع كلمة الأحزاب . فالشعراء والخطباء ونحوهم كان شأنهم فى تلك الأيام مثل شأن الصحافة اليوم . فلا غرابة اذا بذل الخلفاء الاموال لاسترضائهم

وأول من تحدى ذلك فى الاسلام معاوية بن أبى سفيان . فكان يسمع التقريع بأذنه ولا يجازى عليه إلا بالعطاء ولذلك كانوا يعبرون عن إجازة الشاعر بقطع لسانه [1] وكان يفعل ذلك بالشعراء والوجهاء وغيرهم . وسار الخلفاء بعده على خطواته وفرضوا

(١) المستطرف ٣٤ ج ١

الأعطية لرؤساء الأحزاب من بنى هاشم والطالبيين ونحوهم وصاروا يهبون الاموال لمن يخافونهم على سلطانهم وأكثر ما كان يهبه الخلفاء من الجوائز والعطايا للوفود والشعراء انما كان يعطى لنحو ذلك الغرض

وكانوا يفرضون الرواتب أحياناً لأناس يرجون نصرتهم على مناظريهم فى الملك كما فعل العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٨١هـ بعلى بن الحسين من آل المغربى لما جاءه من بغداد فانه جعل له ٦٠٠٠ دينار فى السنة وسماه من شيوخ الدولة (١) وقد يفرضونها لطبقات الناس من أهل العوز كما فعل الاخشيد بمصر فى أوائل القرن الرابع للهجرة فانه فرض للضعفاء والمستورين من أبناء النعم وأجناس الناس (ليس فيهم أحد من الجيش ولامن الحاشية ولا من المتصرفين بالاعمال) رواتب بلغ مقدارها فى أيام كافور الاخشيدى ٥٠٠٠٠٠ دينار فى السنة (٢) فلا بد من أن يكون مثل هـذه الرواتب فى الدولة العباسية

ناهيك برواتب الحاشية والأعوان ونحوهم ممن تندرج رواتبهم فى نفقات الدولة فقد رأيت أنها كانت كبيرة . ومن هـذا القبيل حواشى الأمراء والعمال والوزراء وغيرهم وقد يبلغ عددهم عند بعضهم بضعة آلاف (٣) أو تزيد

عدد أيام الشهور

شرعت الدولة العباسية فى زيادة الرواتب فى إبان ثروتها ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الاموال الواردة على بيت المال . ثم ما لبثت ان رأت الجباية تتناقص ولم يعد فى إمكانها تنقيص الرواتب بعد ان تعود اصحابها الاسراف والبذخ واقتناء الخدم والمماليك اقتداء بخلفائهم ولا فى الامكان إقالتهم خوفاً من غضبهم فعمد الوزراء الى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئاً كثيراً من المال . وذلك انهم جعلوا الرواتب مياومة فاذا أرادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الرواتب ألف دينار فى الشهر مثلا فبدلا من ان يجعلوه ٨٠٠ دينار يبقونه على ما كان ويزيدون أيام ذلك الشهر فيجعلونها أربعين يوماً أو خمسين . فأصبح لكل فئة من الموظفين تقريباً شهر خاص يختلف عدد أيامه عن أيام أشهر الآخرين

فقائمة نفقات المعتضد المنشورة فى هذا الجزء (صفحة ٦٤) يختلف شهر كل من أصحاب الرواتب فيها عن شهر غيره . فالغلمان الذين أعتقهم الناصر كانت أيام شهورهم

(١) المقريزى ٤٥٩ ج ٢ (٢) المقريزى ٩٩ ج ١ (٣) ابن الأثير ١٨٣ ج ٧

أربعين يوماً فأساؤا الادب فى مطالبة كانت منهم فجعلها خمسين يوماً . ثم لما تولى المعتضد جعلها ستين يوماً . والفرسان الاحرار والمميزون كانت شهورهم خمسين يوماً فجعلها تسعين ونسبوا الى التسعينية ثم جعل شهور بعضهم ١٢٠ يوماً . وأشهر المختارين سبعون يوماً وأشهر الفرسان المثبتين ١٢٠ يوماً وكذلك المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والسقايين . وقس عليهم سائر الموظفين فى هذه القائمة وغيرها . فالذى راتبه ألف دينار فى الشهر اذا جعل شهره ١٢٠ يوماً كأنه تنزل الى الربع . وكثيراً ما كان يعجز بيت المال عنها ويقصر عن تأديتها شهراً بعد شهر حتى يثور الجند فاما أن يخلعوا الخليفة أو يقتلوه ويفوز بالخلافة صاحب المال

(٤) النفقة على البيعة

رأيت فى ما تقدم أن الخلفاء فى أوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون فى تأييد بيعتهم الى استرضاء أهل الحرمين وكانوا يحملون اليهم الاموال ويبذلون لهم الأعطية ويفرقون فيهم الهدايا . فلما ضعف شأن العرب بعد المعتصم وقوى جند الاتراك أهمل أمر الحرمين وصارت القوة اليهم أو بالحرى الى المال ـ لأن الاتراك انما يحاربون مع المال . وصارت مبايعة الخلفاء راجعة الى خاطرهم أو الى من يدفع المال اليهم . على أن الخلفاء كانوا من أوائل الدولة يسترضون الجند ويكرمونهم بالهدايا عند كل بيعة ويسمون ما يدفعونه اليهم فى هذه السبيل « حق البيعة » فلما تولى الأمين فرق فى الجند رزق ٢٤ شهراً [١] ولولا ذلك لم يحكم شهراً واحداً . ولما أراد المأمون أن يبايع لعلى الرضا صرف للجند راتب شهر على أن يصرف لهم الباقى اذا أدركت الغلة [٢] فلم يقبلوا ولعله لو عجل لهم بالمال لبايعوا لمن شاء . وكان بنو أمية يعطون فى مقابل البيعة ولاية عمل يجعلونها طعمة عدة سنين كما فعل عبد الملك بن مروان مع عبد الله بن خازم سنة ٧٢ هـ وكان عبد الملك يحارب ابن الزبير فى مكة ويخاف منه فبعث الى ابن خازم المذكور يدعوه الى بيعته ويطعمه خراسان سبع سنين [٣]

وأما بعد أيام المعتصم فأصبحت البيعة تجارة ينالها صاحب المال أو صاحب الجند والمعنى واحد . وكان الجند يسرون بخلع الخلفاء طمعاً بالمال لأنهم كلما تولى خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق ستة أشهر أو سنة أو أكثر أو أقل على قدر مطامعهم [٤] وهناك

(١) ابن الأثير ٨٩ ج ٦ (٢) الطبرى ١٠٣ ج ٣ (٣) ابن الأثير ١٦٨ ج ٤
(٤) ابن الاثير ٧٥ ج ٨

من أمثال هـذه المطالبات ما لا يعد ولا يحصى فلتراجع فى تاريخ الخلفاء العباسيين . فانشغل الخلفاء بذلك عن سياسة المملكة واختلت الأحكام وأصبح همهم منصرفاً الى حفظ أرواحهم واستبقاء ضياعهم وصارت البلاد فوضى للجند أو لمن يستطيع استخدامهم وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة وأهملت الاعمال بوجه الاجمال

وزاد أهل البلاد شقاء أن قواد الجند كانوا اذا أعوزهم المال ولم يكن فى بيت المال ما يكفى استخرجوه من الاهالى . وكثيراً ما كان يحدث ذلك فى أثناء الحروب بين فرق الجند فى تنازعهم على تولية أحد الخلفاء . فقد نهب جند الديلم أموال الناس فى بغداد فى أثناء الحصار بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة ٣٣٤ هـ بشأن الخليفة المطيع لله وكان مقدار ما نهبوه من أموال المعروفين فقط ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار (١) ولما عين الخليفة المستكفى شير زاد أميراً للامراء فى تلك السنة زاد هذا أعطيات الجند زيادة كثيرة على جارى عادتهم عند كل بيعة لكنه لم يجد فى بيت المال ما يعطيهم فقسط الأموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم وظلم الناس . فظهرت اللصوص فى بغداد وأخذوا الأموال نهباً ففر التجار وأصبحت البلاد فوضى (٢)

فآل ذلك وأمثاله الى تتابع الاحن على البلاد فتقاعد أهل المدن عن العمل كما تقاعد أهل القرى عن الزرع وغلت الأسعار وتوالى الجوع أعواماً على مدن العراق وخصوصاً بغداد فكثر اللصوص وصاروا طوائف عديدة لا عمل لهم إلا النهب عند سنوح الفرصة وخصوصاً فى أثناء الفتن . ومنهم العيارون والشطار . ولم يجد الخلفاء مالا يستأجرون به جنداً لدفع الفتن أو إخماد الثورات . على أنهم كثيراً ما كانوا يمسكون عن دفع المال ولو كان فى خزائنهم لأنهم يرون النفوذ لسواهم . كما حدث للمقتدر سنة ٣٢٠ هـ فانه أمسك عن دفع الأموال وهى عنده وعند والدته حتى آل الأمر الى قتله بمساعى مؤنس الخادم . فكان مافعله مؤنس سبباً لجرأة أصحاب الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيهم (٣) حتى تجرأوا على نهبهم ومصادرتهم كما حدث للمطيع سنة ٣٦١ هـ اذ سطا جند الروم من جهة الجزيرة حتى بلغوا نصيبين وسبوا وأحرقوا ففر بعض أهلها الى بغداد يستنجدون الخليفة وجنده وأهل المدينة فشغب الناس وخافوا فطلب بختيار (صاحب الأمر يومئذ هناك) الى الخليفة أن يدفع المال للنفقة على الغزاة لمحاربة الروم فقال المطيع « إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وتجبى إلى

(١) ابن الاثير ١٧٨ ج ٨ (٢) ابن الأثير ١٧٦ ج ٨ (٣) ابن الأثير ٩٠ ج ٨

الأموال وأما إذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شىء وإنما يلزم من البلاد فى يده وليس لى إلا الخطبة فاذا شئتم أن أعتزل فعلت » فلم ينفعه ذلك الاحتجاج فاضطر الى بيع ثيابه وأنفاض داره وغير ذلك لدفع ٤٠٠٠٠٠ درهم . فشاع الخبر أن الخليفة صودر. على أن المال المذكور لم ينفق فى الغزاة وإنما أنفقه بختيار فى مصالحه [١] وما أشبه حال الخلفاء العباسيين مع جندهم الأتراك بحال سلاطين آل عثمان مع جندهم الانكشارية فى القرن الثامن عشر وبعيده ولا ندرى كيف كان حالهم لو لم ينكبهم السلطان محمود الثانى سنة ١٨٢٦

فلم يبق فى الدولة العباسية والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها واستبقاء جندها لأن الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد . ولكن الجند لا بد منه لحفظ السلطة فلما استولى معز الدولة بن بويه على بغداد فى خلافة المطيع شغب الجند عليه وأسمعوه المكروه فضمن لهم إيصال أرزاقهم . ولما أعجزه ذلك من طريق الحلال اضطر الى ضبط الناس وأخذ أموالهم من غير وجوهها فلم يغنه ذلك شيئاً فارتأى أن يسلم القرى والضياع الى قواده ورجاله ليزرعوها ويستغلوها فسلم اليهم ضياع الخلافة وضياع أصحاب الأملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدى العمال . وكانت البلاد قد خربت للأسباب التى قدمناها فاستأثر القواد بالقرى العامرة فزادت عمارتها وتوفر دخلها بسبب الجاه والنفوذ . وأخذ الأتباع القرى الخربة فزادت خراباً فردوها وطلبوا غيرها وأهملوا الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل كثير منها وأخذ غلمان المقطعين فى تحصيل العاجل بالظلم . وبالجملة فقد تعذر على معز الدولة بهذه الطريقة جمع ذخيرة للنوائب والحوادث . وكان قد أكثر من إعطاء غلمانه الأتراك والزيادة لهم فى الاقطاع فحسدهم الديلم فزادت الوحشة والمنافرة عما كانت عليه بينهما [٢]

(٥) استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم

اذا بلغت الدولة الى قمة ثروتها وانغمس الملك فى الترف والقصف وتقاعد عن مباشرة الأحكام بنفسه تحول النفوذ الى المحيطين به أو الذين ينوبون عنه أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكاتب والحاجب والقائد وأصبح الأمر والنهى فى أيديهم . فيستأثرون بالاموال لأنفسهم يجمعون منها ما استطاعوا فيسرفون ويبذخون

(١) ابن الأثير ٢٤٤ ج ٨ (٢) ابن الأثير ١٧٩ ج ٨

على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم . ولا يكون ذلك إلا فى الدولة المطلقة التى ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب . فمن ينوب عن الملك من الوزراء أو الكتاب أو الحجاب فى عصر الترف والتقاعد يكون له نحو ذلك النفوذ وخصوصاً فى مثل الدولة العباسية لأن وزراءها وكتابها من أمة لم تقم دولتهم الا بها ولم يزه تمدنهم الا بعلمائها . ولذلك كان للوزراء فى هذه الدولة الكلمة النافذة والسيف القاطع حتى فى إبان تمدنها — اعتبر ما كان من نفوذ البرامكة فى أيام الرشيد وما كان من إحرازهم الاموال لأنفسهم حتى كان يحتاج الرشيد الى اليسير من المال فلا يقدر عليه (١) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد (٢) نكبهم على ما هو مشهور كما نكب المهدى قبله وزيره يعقوب بن داود وكان قد استوزره وسلم اليه الامور وفوض اليه الدواوين وانشغل المهدى عنه باللهو وسماع الأغانى فعظم ذلك على الناس وخصوصاً العرب فهجوا يعقوب ومن ذلك قول بشار بن برد :

بنى أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خلافة الله بين النـاى والعود (٣)

ووشى بعض الناس الى المهدى بذلك فاستدعاه وقبض عليه وسجنه وظل فى سجنه أعواماً طوالا

وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكثم القاضى إذ عهد اليه بتدبير مملكته وأكرمه نحو إكرام الرشيد للبرامكة (٤) ثم لم يكن راضياً عنه ولذلك فلما دنت وفاة المأمون أوصى أخاه المعتصم قائلا «لا تتخذن وزيراً تلقى اليه شيئاً فقد علمت ما نكبنى به يحيى بن اكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته» (٥) . وكان العرب يكرهون الوزراء خصوصاً لأنهم فى الغالب من الفرس وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة — قال أعرابى يصف وزيراً :

ومظهر نسك ما عليه ضميره يحب الهدايا بالرجال مكور
أخال به جبناً وبخلا وشيمة تخبر عنـــه إنه لوزير (٦)

على أن الوزراء كثيراً ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضناً ببيت مال المسلمين أن يذهب فى الاسراف لاطماعاً به لأنفسهم كما اتفق للواثق مع وزيره ابن الزيات إذ أعجبه صوت غنته جارية اسمها علم فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار فمطل ابن الزيات فى دفعها فغضب الواثق وأمره أن يدفع ضعف ذلك المال فدفع اليه ١٠٠٠٠ دينار (٧)

(١) المسعودى ٢٠١ ج٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣ (٣) الفخرى ١٦٦
(٤) ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ (٥) الطبرى ١١٣٩ ج ٣ (٥) الطبرى ١٠٨٨ ج ٣
(٧) ابن الأثير ١٣ ج ٧

وكان الوزراء يزدادون نفوذاً واستئثاراً بالمال بزيادة ضعف الخلفاء حتى صارت معظم الاموال اليهم

﴿الوزراء﴾ بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء أو بيت المال فى أيام الزهو كأن الأموال تحولت من بيت المال الى بيوت هؤلاء الناس وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشى ويقدمون الهدايا رغبة فيها . على أنها كثير ما كانت تعرض عرضاً على من يقوم بنفقات الجند (١) ولكن الغالب أن تبذل الاموال فى سبيل الحصول عليها إما رأساً الى الخليفة كما فعل ابن مقلة إذ بذل ٥٠٠ ٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضى فى أوائل القرن الرابع للهجرة وكما فعل ابن جهير إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠ ٠٠٠ دينار (٢) أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال . وهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لاعتقادهم أنهم يسترجعون فى أثناء وزارتهم أضعاف ما بذلوه بما تصل اليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم

ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقانى وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته فى قبول الرشوة أنه ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة فانحدروا واحداً واحداً حتى اجتمعوا جميعاً فى بعض الطريق فقالوا كيف نصنع فقال أحدهم ينبغى إن أردتم النصفة أن ينحدر الى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير فهو الذى ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد . فاتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الاخير نحو الكوفة وعاد الباقون الى الوزير ففرقهم فى عدة أعمال . وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يمل من الرقاعة ... يولى ثم يعزل بعد ساعة
ويدنى من تعجل منه مال ... ويبعد من توسل بالشفاعة
اذا أهل الرشى صاروا اليه ... فأحظى القوم أوفرهم بضاعة (٣)

وكانت الاموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفى الدولة ضريبة فى كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم

على أن بعضهم وهو نادر لم يكن يقبل الرشوة ولا يعمل الا بالحق مثل عبيد الله

(١) ابن الأثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبرى ٧٩ (٢) الفخرى ٢٥٣ و ٢٦٦
(٣) الفخرى ٢٤١

ابن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفاً ـ ذكر الفخرى ان صاحب مصر حمل اليه ٢٠٠ر٠٠٠ دينار وثلاثين سفطاً من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء فلما أحضرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر « لا والله لا أقبلها ولا أثقل عليه بذلك » ثم فتح الأسفاط وأخذ منها منديلا وضعه تحت فخذه وأمر بالمال فحمل الى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دوراً لصاحب مصر[1]

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة على بن عيسى وزير المقتدر وهو صاحب جريدة الخراج التى نشرناها صفحة ١٠٧ من هذا الجزء . ولا يخلو أن يكون غيرهم قد أخلص الخدمة ولكن يقال بالاجمال ان الوزراء فى عصر التقهقر العباسى قلما كانوا يتولون الوزارة الا طمعاً باختزان الاموال . فان أبا الحسن بن الفرات وزر للمقتدر ثلاث دفعات الأولى سنة ٢٩٦ هـ بقى فيها ثلاث سنين فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوى ٧٠٠ر٠٠٠ دينار أخذت كلها مصادرة . ثم عاد الى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦ ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخلع سنة ٣١٢ فمجموع المدة التى مكث بها فى الوزارة فى الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات فكان عنده لما خلع أخيراً مايزيد على ١٠٠ر٠٠٠ دينار وضياع يستغل منها كل سنة ٢٠٠ر٠٠٠ دينار[2] ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه وإحسانه . وكان اذا ولى الوزارة يغلو الثلج والشمع والكاغد لكثرة استعماله له لأنه ما كان يشرب أحد كائناً من كان فى داره فى الفصول الثلاثة الا الماء المثلوج ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب الا وبين يديه شمعة كبيرة نقية . وكان فى داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد كل من دخلها واحتاج الى شىء منه أخذه[3] وكان يطلق لاصحاب الحديث عشرين الف درهم وللشعراء عشرين الف درهم ولأصحاب الأدب ٢٠ر٠٠٠ درهم وللفقهاء ٢٠ر٠٠٠ درهم وللصوفية ٢٠ر٠٠٠[4] وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء وأكثرهم ١٠٠ دينار فى الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك[5] فغطى الكرم طمعه كما غطى طمع البرامكة قبله وقطع ألسنة الشعراء وكسر أقلام المؤرخين

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالا طائلة وانغمسوا فى أنواع الترف والبذخ وذلك طبيعى فى الدول المنتظمة على الطرق القديمة . لأن الوزراء كانوا يجمعون الاموال

(١) الفخرى ٢١٦ (٢) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١
(٣) الفخرى ٢٤ (٤) ابن الاثير ٥٧ ج ٨ (٥) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

الكثيرة حيثما كانوا فى العراق أو فى مصر أو الاندلس . فقد خلف المارداني وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلما ملكه أحد قبله وارتفاعها ٤٠٠ر٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج وقد وهب وأعطى وأفضل وحج ٢٧ حجة أنفق فى كل منها ١٥٠ر٠٠٠ دينار (١) . ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان فى جملة أملاكه اقطاع فى الشام دخله ٣٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة وخلف أملاكا وضياعاً وقياسر ورباعاً وخيلا وبغالا ونوقاً وغير ذلك ما قيمته ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار غير ما أنفقه فى تجهيز ابنته وهو ٢٠٠ر٠٠٠ دينار وخلف ٨٠٠ حظية سوى جوارى الخدمة وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية (٢) وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمى مالم يسمع بمثله وذلك ٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار عيناً (٣) و ٢٥٠ أردب دراهم نقد مصر و٧٥ر٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و ٣٠ راحلة أحقاق ذهب عراقى ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢ر٠٠٠ ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب لبسه و ٥٠٠ صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجوارى والعبيد ما لا يحصيه عد (٤)

وقس على ذلك أحوال الوزراء فى الاندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبدالرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هـ تدل على مقدار تلك الثروة فقد أوردها ابن خلدون والمقرى وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسناً فى ثلاث صفحات كبيرة (٥)

وحدث نحو ذلك فى الدولة العثمانية فى إبان ثروتها وبعيدها فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ويحتالون فى استغلالها بأن يقفوها على بعض المساجد بشرط أن يستولى ورثتهم على معظم ريعها ليخلصوا أنفسهم من خراجها أو عشورها (٦)

وأما الأبواب التى كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة من جملتها قبول الرشوة فى التوظيف كما تقدم وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه ومنها اغتصاب الضياع بمالهم من النفوذ فيستولون على ماشاءوا بغير حساب ناهيك بما

---

(١) المقريزى ١٥٥ ج ٢ (٢) المقريزى ٦ ج ٢

(٣) وهو فى الأصل ستمائة الف الف دينار ولا بد من خطأ تطرق الى نصه اذ لا يعقل أن يجتمع هذا المال عند واحد وهو يفوق مجموع خراج مصر لمئة سنة فالأرجح أن يكون المراد ستين الف الف دينار كما قلنا . ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير لأن أموال مصر قلما قدرت بالدراهم

(٤) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ (٥) نفح الطيب ١٦٨ ج ١

(٦) Porters's Const. Hist. of Turkey Ms.

كانوا يمدون اليه أيديهم من أموال الخراج الواردة الى الديوان وقد تقدم أن طرق دفاتر تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس أو تظهره

ومن أبواب الكسب أيضاً أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون الى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولا سبيل لهم الى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناساً يشترون توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هو كاملة (١) وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضاً فى رواتب الفقهاء وأرباب البيوت فكأنهم كانوا يقاسمون الناس على انصاف رواتبهم . وهو اتجار برواتب الموظفين فضلا عن اتجارهم بالأرزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلداً أو خراجاً على سبيل الرشوة أو الاقتسام وما كانوا يغتصبونه من التجار بنفوذهم وإغضاء الخلفاء عنهم (٢) وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس . ومن مرافقهم أيضاً تنقيص عيار النقود فكانوا يضربون الدنانير ناقصة فيربحون من ذلك مالا طائلا (٣)

تلك كانت حال الوزراء وفى أيديهم الحل والعقد ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند . وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم فى الخلفاء ومطالبتهم بالأموال لأرزاقهم ونفقاتهم فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا الى ذلك إلا بمطالبة الوزراء فاذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة وهو مايعبرون عنه بالمصادرة . وكانت رائجة فى عصر التقهقر اذ لم يكن من سبيل الى سد نفقات الدولة الا بها ولا يكاد يتولى وزير الا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعاً

﴿ المصادرة ﴾ هى قديمة فى الاسلام تتصل بعصر الراشدين وأول من صودر العمال . فكانوا اذا اكتسبوا مالا من تجارة أو سبيل آخر غير مرتباتهم المفروضة أخذ الخلفاء نصفه وأضافوه الى بيت المال ـ كذلك فعل عمر بن الخطاب بعماله على الكوفة والبصرة والبحرين (٤) وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة . فلما أفضت الامور الى بنى أمية وكان ما كان من استبداد عمالهم وطمعهم فى أموال الجباية أصبح الخلفاء فى أواخر الدولة لا يعزلون عاملا عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المال واستخرجوا ما تصل اليه أيديهم وكانوا يسمون ذلك « استخراجاً »

(١) ابن الأثير ٨٤ ج ٨ (٢) الطبرى ٧٠٣ ج ٣ (٣) ابن الأثير ١٤٩ ج ٨
(٤) اليعقوبى ١٨١ ج ٢ والبلاذرى ٨٣ و ٣٨٥

ولما تسنم العباسيون منصة الخلافة كان معظم العمال فى أوائل الدولة من اخوتهم وأعمامهم ولم يكن ثمة ما يدعو الى الاستخراج أو المقاسمة ولو ساءت سيرة بعضهم . ثم انتقلت الاعمال الى رجال الدولة من غير أهلهم فجنح العمال الى الطمع والعنف فى استخراج الاموال حتى فى أيام المنصور فكان لا يعزل عاملا الا قبض ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » (١) وتكاثر تعدى العمال فى أيام المهـــدى (سنة ١٥٨ - ١٦٩ هـ) فاضطر هذا الخليفة الى النظر فى المظالم - وما هى الا مظالم العمال . ثم نظر فيها بعده الهادى فالرشيد فالمأمون الى المهتدى فى أواسط القرن الثالث

ومما نبه الخلفاء الى مظالم العمال الوزراء لأنهم كانوا يباشرون الاعمال عن الخلفاء وخصوصاً البرامكة فكانوا اذا استشارهم الخليفة فى ولاية عامل بينوا له ما يعلمونه من هذا القبيل - استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد فى تولية خراسان على بن عيسى بن ماهان فأشار عليه ألا يفعل فخالفه الرشيد وولاه اياها . فلما شخص على اليها ظلم الناس وجمع مالا كثيراً ووجه الى الرشيد هدايا من الخيل والرقيق والثياب والمسك والاموال لم ير مثلها قط . فلما وصلت الهدايا الى الرشيد أعجب بها وكان يحيى الى جانبه فقال له الرشيد « يا أبا على هذا الذى أشرت علينا ألا نوليه هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان فى خلافك البركة » فقال « يا أمير المؤمنين جعلني الله فداءك أنا وان كنت أحب أن أصيب فى رأيي وأوفق فى مشورتى فانى أحب أن يكون رأى أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمى . . . ان لم يكن وراء ذلك ما يكره . . . ان هذه الهدايا ما اجتمعت لهذا العامل حتى ظلم فيها الأشراف وأخذ أكثرها ظلماً وتعدياً . ولو أمرنى أمير المؤمنين لأتيته بضعفيها الساعة من بعض تجار الكرخ »

قال الرشيد « وكيف ذلك » قال « قد ساومنا عوناً على السقط الذى جاء به من الجوهر فأعطيناه به ٧٠٠٠٠٠٠ فأبى أن يبيعه فابعث اليه الساعة بحاجبي يأمره أن يرده الينا لنعيد فيـه نظرنا فاذا جاء به جحدناه وربحنا ٧٠٠٠٠٠٠ ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك » (٢) وفى كلام يحيى دليل صريح على ما كان يستطيعه الوزراء والعمال من جمع الأموال بلا حساب

وقد رأيت أن الطمع تطرق الى العمال حتى فى أيام الزهو العباسى ولكن البرامكة أخلصوا المشورة فغلوا أيدى العمال عن الظلم . فلما نكب البرامكة كان فيمن جاء بعدهم

(١) الطبرى ٤١٥ ج ٣ (٢) الطبرى ٧٠٢ ج ٣

من الوزراء المخلص وغير المخلص فأطلقت أيدى العمال وأحرزوا الأموال لأنفسهم وكانوا يسترضون الوزراء بالرشوة كما تقدم حتى استفحل أمرهم واكتنزوا الأموال الطائلة

﴿ العمال ﴾ وغنى العمال ميسور فى تلك الأعصر بالنظر الى استقلالهم فى ادارتهم وشؤونهم وخصوصاً عمل الاستيلاء الفوضوى فى كل شىء . وأبواب الكسب عندهم كثيرة : منها أن العامل اذا جاء فأول شىء يتوقعه أن يحمل اليه الناس الهدايا وفيها من الدواب والجوارى والأموال والثياب ما يبلغ مقداره شيئاً كثيراً (١) وقد يترك ذلك فى مقابل مايقدمه العمال من أمثال هذه الهدايا الى الخليفة أو الوزير أو القهرمانة أو الكاتب أو الحاجب أو غيرهم من حاشية الخلفاء (٢) على أنهم كانوا يكسبون من مصادر أخرى كالاتجار بأصناف البضائع والأخشاب وغيرها (٣) ناهيك بما كانوا يخترعونه من صنوف الضرائب وتحصيل بعضها مرتين أو ثلاث مرات تبعاً لما تقتضيه حاجتهم الى المال فى إرضاء الوزراء أو لادخاره والانتفاع به عند الاعتزال من المنصب . ومن أوسع أبواب الضرائب كسباً لهم المكوس على التجارة . فقد ذكر المقدسى أن ثلث أموال تجار اليمن كان يذهب الى السلطان (٤) وكانوا يأخذون على حمل الحنطة هناك نصف دينار

ومن أبواب الكسب للمال أن ينفق العامل على بناء بيت أو جسر أو على حفر ترعة أو نهر الف دينار مثلا ويطالب بعشرة آلاف أو مئة الف وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانير بستين الف دينار (٥) فضلا عن اغتصاب الضياع وغيرها (٦) وما قد يجتمع لهم من فروق الأموال التى يقبضونها من الخراج بين الفضة والذهب ـ فهل من عجب بعد ذلك اذا بلغت أموال محمد بن سليمان عامل الرشيد على البصرة ٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ؟ وكان محمد هذا يغل كل يوم ١٠٠ ٠٠٠ درهم (٧) وبلغت أموال على بن عيسى بن ماهان ٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (٨) فلم ير الرشيد الا الجنوح الى الاستخراج وهو المصادرة

وكان الغالب فى بادىء الرأى أن يقبضوا أموال العمال بعد موتهم كما فعلوا بمحمد ابن سليمان المذكور ثم صاروا يستخرجون أموالهم وهم أحياء كما فعل الرشيد بعلى بن عيسى فانه عزله واستصفى أمواله المذكورة وحملها مع خزائنه وأثاثه على ١٥٠٠ جمل

(١) ابن الأثير ٥١ ج ٦ (٢) Ein. Abb. 80 (٣) المقريزى ١٠٩ و ٣٣٣ ج ١
(٤) المقدسى ١٠٤ (٥) Ein. Abb. 76 (٦) الماوردى ٧٨
(٧) المسعودى ١٨٨ ج ٢ (٨) الطبرى ٧١٣ ج

غير ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم كان ابنه عيسى بن على قد دفنها فى بستان بداره فى بلخ (١)

﴿ مصادرة الوزراء ﴾ على أن مصادرة العمال لم يطل أمرها لاستقلالهم بأعمالهم بعد قليل فأصبح المطلوب منهم لبيت المال فى الغالب مالا معيناً فى العام على سبيل الضمان ونحوه . وتحولت الثروة المغتصبة الى الوزراء وفسدت النيات فلم يجد الخلفاء سبيلا لسد عوز بيت المال الا بمصادرتهم — لا يرون فى ذلك جوراً ولا شدة لاعتبارهم ما فى أيديهم مختلساً من حقوق بيت المال

بدأت مصادرة الوزراء فى الدولة العباسية من أولها ولكنها كانت فى أول الأمر على سبيل النكبة والغرض منها الانتقام من الوزير لجريمة سياسية أوالتخلص منه لغرض آخر . ومن هذا القبيل مقتل أبى سلمة الخلال أول وزراء بنى العباس فبعد أن أيد دعوتهم بأمواله كما أيدها أبو مسلم الخراسانى بسيفه وشى الي السفاح أنه ينوى اخراج الدولة من أيديهم فأوعز الى أبى مسلم فقتله ثم أصاب أبا مسلم من المنصور مثل تلك النكبة — ويقال نحو ذلك فى نكبة البرامكة فى أيام الرشيد و"فضل بن مروان فى أيام المعتصم . وفى نكبة الفضل هذا رغبة فى قبض أمواله لان المعتصم نكبه سنة ٢٢١ هـ وأخذ من داره ١ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار وأثاثاً وآنية قيمتها ١ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار (٢) . ولما تمكن الانحطاط من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواز على أموالهم

وبلغت المصادرة معظمها فى أيام المقتدر (سنة ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) لأن الوزراء استخفوا به لصغر سنه وأفضى تدبير الأمور فى أيامه الى أمه ونسائه وخدمه . فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم فخربت الدنيا وخلت بيوت الأموال وخلع وأعيد ثم قتل (٣) وكثر تبديل الوزراء فى أيامه وكثرت مصادراتهم . وأولهم ابن الفرات وزر له ثلاث مرات وقد تقدم ذكر ما احتشده من الأموال وقد صودر فأخذت كلها منه . وخلفه الخاقانى وكان سيء السيرة كما تقدم . ثم على بن عيسى وكان فاضلا ورعاً حاول إصلاح الأمور فلم يستطع لتمكن الفساد من عروق الدولة . ثم حامد بن عباس وكان قاسى القلب فى استخراج الأموال . ووزر له عبيد الله بن محمد . واحمد بن عبيد الله بن الخصيب . ومحمد بن على بن مقلة الخطاط المشهور . وسليمان ابن الحسن بن مخلد . وعبيد الله بن محمد الكلواذى . والحسين بن القسم (٤) وما من

(١) ابن الاثير ٨١ ج ٦
(٢) ابن خلكان ٤١٥ ج ١
(٣) الفخرى ٢٣٦
(٤) الفخرى ٢٣٩ — ٢٤٩

وزير الا وقبض أو صودر فأخذت أمواله وسجن أو قتل . وكثرت المصادرات فى أيام المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدام . وربما مجموع مازاد قبضه من المصادرة على ٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ـ على أنهم قدروا جملة ما أنفقه من الأموال تبذيراً وتضييعاً فى غير وجه نيفاً و ٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار سوى ما أنفقه فى الأمور غير الواجبة (١) وقس على ذلك أحوال سائر الوزراء

فأصبحت المصادرة بتوالى الأيام المرجع الرئيسى فى تحصيل المال ـ فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم . على أن الخلفاء لم يكونوا يعمدون الى المصادرة الا عند حاجتهم الى المال لأرزاق الجند أو لغيرها من نفقات الدولة كما تعمد دول أوربا اليوم الى عقد القروض لسد ما يعرض لها من النفقات اللازمة لحرب أو مشروع كبير

وكان الخلفاء يعتبرون أموال أولئك الوزراء أو العمال حقاً لبيت المال قد اغتصبوه فاسترجاعه لا يعد جوراً أو إجحافاً . وقد نجاهم ذلك من أثقال الدين الأهلى الذى تئن تحت عبئه معظم دول العالم المتمدن اليوم فيذهب نحو ربع دخلها أو ثلثه فى وفائه أو استهلاكه وتضطر الى استنباط الضرائب من أجل ذلك حتى أصبحت تلك الدول وخصوصاً انكلترا تكلف الناس جعلا على كل عمل يرجون به كسباً

﴿ الكتاب ﴾ وهناك فئات أخرى من موظفى الدولة كانوا يستأثرون بأموالها ومنهم كتاب الخراج ويهون ذلك عليهم لأنهم يباشرون مصادر الجباية رأساً . وقد كانوا يطمعون بتلك الأموال فى أيام بنى أمية فما بعدها . ولكنهم لم يشع أمرهم ويفش شرهم الا فى عصر التقهقر العباسى . فأمر الواثق سنة ٢٢٩ هـ بحبس الكتاب والزامهم مالا كثيراً استخرجه منهم بالعنف (٢) وفعل نحو ذلك المعتز سنة ٢٥٥ هـ (٣) . ومن الكتاب الذين اشتهروا بالغنى من مهنة الكتابة بيت الماردانى بمصر (٤)

ولم يكن الغنى خاصاً بكتاب الدواوين بل كان يتناول كل كاتب من كتاب أهل الخلفاء وغيرهم . وكانت أكثر أموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس حتى اشتهروا بالظلم كما اشتهر الوزراء وهجاهم الشعراء كما هجوا هؤلاء ـ من ذلك قول بعضهم وهو يمدح أحد الأمراء بالحزم والسهر على مصلحة الدولة:

(١) ابن الاثير ٩٠ ج ٨ (٢) الطبرى ١٣٣٠ ج ٣
(٣) ابن الاثير ٨٥ ج ٧ (٤) المقريزى ٣٣١ ج ١

هو ما علمت من الأمير فما الذى تزداد منه وفيه لا يرتاب
لا تتقى الأجناد فى أيامه فقراً ولا يرجو الغنى الكتاب

وقال ابن حبيبات الشاعر الكوفى يهجو الوزير والكاتب معاً :

ونجا خالد بن برمك منها اذ دعوه من بعدها بالأمير
أسوأ العالمين حالا لديهم من تسمى بكاتب أو وزير (١)

وكان من أبواب الكسب عند الكتاب ارتشاؤهم للتوسط فى تولية العمال أو سواهم كما فعل أحمد بن أبى خالد الاحول كاتب المأمون فى توسطه لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين خراسان وقد شرط له على نجاحه فى ذلك ٣٠٠٠٠٠٠ درهم (٢) وكان كتاب الدواوين فى الولايات يشاركون العمال فيما يأتيهم من الهدايا أو من الرشوة وقد يقاسمونهم على النصف (٣)

﴿ الحجاب ﴾ وكانت ثروة المملكة عرضة لمطامع كل من كانت له دالة أو وساطة لدى ولاة الأمر وخصوصاً الحجاب الذين يقفون بأبواب الخلفاء فانهم من أكثر الناس دالة عليهم فكانوا كثيراً ما يستخدمون تلك الدالة واكتساب الاموال من تقديم الداخلين أو تأخيرهم والاذن لهم أو منعهم فكانوا يرتشون للتعجيل فى الاذن بالدخول على الخلفاء وكان ذلك شأنهم حتى فى عصر الراشدين — قال المغيرة بن شعبة « ربما عرق الدرهم فى يدى أرفعه ليسهل اذنى على عمر » (٤) وكثيراً ما كانوا يتوسطون فى تولية المناصب بالرشوة كما توسط الربيع حاجب المنصور ليعقوب بن داود بمنصب الوزارة برشوة مقدارها ١٠٠٠٠٠٠ دينار (٥) ويقال نحو ذلك فى كل من يتوفق الى دالة على الخليفة أو الأمير ولو كان خادماً

الخلاصة

وخلاصة ما تقدم أن الدولة العباسية لما غلب الجند على أمرها واستبد قواد الاتراك بها تحولت ثروتها من بيت مالها الى أيدى رجالها ممن ينوبون عن الخليفة أو يتوسطون بينه وبين الرعايا كالعمال والوزراء والكتاب والحجاب ونحوهم . وأصبح الخلفاء لا يستطيعون استبقاء حكومتهم إلا باغتصاب أموال أولئك الموظفين فكانوا كالذى يغتذى بأكل لحمه فآل ذلك الى انحلال أمر الخلافة بعد أن بلغت غاية الضعف

(١) الفخرى ١٥٨ (٢) اليعقوبى ٥٥٤ ج ٢ (٣) المقريزى ٩٩ ج ١
(٤) الاعلاق النفيسة لابن رسته ١٩٥ ج ٧ (٥) الفخرى ١٦٦

وقد يتبادر الى الاذهان أن لثقل الضرائب دخلا كبيراً فى سقوط الدولة العباسية وقد رأيت أن الضرائب كانت ثقيلة فى عصر الزهو العباسى ـ عصر الثروة والعلم ولم يكن الناس يشكون ثقلا . بل ساءت حالهم منذ خفضت الضرائب ـ ليس ذلك لأن تخفيض الضرائب يسوء الناس ولكن تخفيضها فى تلك الايام قلل مصادر الثروة الواردة الى بيت المال فزادت حاجة أصحاب المطامع من رجال الدولة وكانت الاحوال قد اختلت بفساد النيات للأسباب التى ذكرناها فزال الأمن واختل النظام العام فتقاعد الناس عن العمل وقلت وارداتهم وعجزوا عن إشباع مطامع رجال الدولة . فعمد هؤلاء الى العنف فى استخراج الاموال فتعاظم الاضطراب وتضاعف الضيق فى الناس حتى سئموا الحياة فى دولة لا يأمنون فيها على أرواحهم ولا أموالهم

ولو كانت كثرة الضرائب تخرب الممالك لكانت انكلترا من أقرب الدول الى الخراب لما فيها من أصناف الضرائب التى لم يحلم بها العرب ولا خطرت ببالهم . لأنها فضلا عن ضرائبها على المحصولات والواردت على اختلاف أصنافها تقاسم الناس أرباحهم فتأخذ ضريبة على الايراد وجعلا على أية مهنة يريد الناس معاطاتها حتى المحاماة والطب فى مقابل الاذن لهم فى الاشتغال بها . والجعل المذكور ثقيل يختلف فيمن ينال أية رتبة من رتب القضاء من خمسين جنيهاً الى عشرين . وقس على ذلك رسوم الاطباء والصيادلة والمحامين حتى الخطباء والوعاظ وعلى البنوك وأوراقها وعقودها وعلى الزواج والطلاق وغير ذلك فيجتمع لها من هذه الرسوم أموال كثيرة

وأما ضرائب الايراد عند الانكليز فانها تشمل كل عمل يتكسب منه الناس حتى الوعاظ والخطباء . فكيف بأصناف التجارات والصنائع والبنوك وغيرها ؟ والدولة الانكليزية كلما احتاجت الى مال عدلت ميزانيتها بزيادة الضرائب وخصوصاً على الايراد وأكثر ما تكون حاجتها الى المال فى حال الحرب كما فعلت بميزانية سنة ١٩٠١ فى أثناء حرب الترنسفال فقد قدرت دخلها لذلك العام ١١٧ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه وخرجها ١٥٤ ٠٠٠ ٠٠٠ والفرق بينهما ٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠ سددت معظمه بزيادة الضرائب وكانت ضريبة الايراد ثمانية بنسات على الجنيه أى نحو ٣ ½ فى المئة فجعلتها شلناً فى كل جنيه أى خمسة فى المئة . فكان مقدار ما اجتمع لها من تلك الزيادة نحو ٩ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه وفرضت ضريبة إضافية على البيرة بلغت قيمتها ١ ٧٥٢ ٠٠٠ جنيه وضريبة على سائر الخمور قيمتها ١ ٠١٥ ٠٠٠ جنيه وعلى التبغ ١ ١٠٠ ٠٠٠ وعلى الشاى ١٨٠٠ ٠٠٠ جنيه وغير ذلك . فلما انقضت الحرب عمدت الحكومة الى رفع تلك الاضافات فخفضت

ضريبة الايراد أربعة بنسات أى أنها أرجعتها الى ما كانت عليه فقلت حصة الحكومة من الايراد ٨٥٠٠٠٠٠ جنيه وخفضت أيضاً ضرائب القمح وغيره.

وجملة القول أن انكلترا مع كثرة ضرائبها وما أثقل كاهلها من الديون فانها تعد من أثبت الدول قدماً وأوفرها ثروة . فتخفيض الضرائب لا شك أنه رحمة للناس ولكن زيادتها لا تدعو الي الخراب وانما يدعو الى خراب الممالك « الظلم » فانه يقوض أركان الدول بما يدعو اليه من تقييد الأيدى عن العمل فيقعد الزراع عن زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته ـ ولا مال الا اذا اشتغل هؤلاء ولذلك قالوا « العدل أساس الملك »

فالدولة العباسية لما أصبحت بعد المعتصم غنيمة للأجناد الغرباء يحملون أموالها الى بلادهم وأصبح الوزراء والعمال انما يعملون لحشد الاموال وأمسى الخليفة لا سلطان له حتى على قصره وبين غلمانه وجواريه تجمعت تلك الاثقال على رؤوس الرعية لأن الجباية منهم فطالبوهم بها بدون أن يساعدوهم على استغلالها فساءت حالهم كما علمت . أما دول هذه الايام فأساس نظامها الحرية الشخصية والمبادىء الاقتصادية فلا يطالب أحد من الناس إلا بما يقتنع هو أنه حق صريح وإلا فانه يتظلم وظلامته مسموعة ـ وسنعود الى هذا البحث فى بعض الاجزاء التالية

ثروة المملكة العباسية

أى البلاد وأهلها

فرغنا من الكلام فى ثروة الدولة العباسية ورجالها وبقى علينا النظر فى ثروة المملكة وهى البلاد بما فيها من الناس على اختلاف طبقاتهم من أهل التجارة والزراعة والصناعة وغيرهم . وكانت البلاد قسمين المدن والقرى :

﴿ المدن ﴾ كانت المدنية محصورة في المدن دون القرى عملا بقاعدة التمدن فى تلك الايام وهى أن تكون الثروة والابهة حيثما يكون ولاة الامر ومن يلوذ بهم من الخليفة الى أهله فأهل بلاطه فعماله ووزرائه . وهؤلاء كانوا يقيمون فى المدن وخصوصاً العواصم ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها وظلت القرى والضياع مغارس لا عمارة فيها ولا تكاد تجد أثراً من آثار ذلك التمدن فى غير المدن

ففى هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس فى الرخاء والرغد بجوار الخليفة ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع والمجوهرات والاقمشة . وفى هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة أو أمراؤه أو رجال دولته

ويمثل طبقات الناس في تلك الايام قول الفضل بن يحيى « الناس أربع طبقات ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى وعلية أنهضهم اليسار وأوساط ألحقهم بهم التأدب والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء لكع ولكاع وربيطة اتضاع هم أحدهم طعمه ونومه » (١)

وقد جعل ابن خلدون عطاء السلطان أصل ثروة المملكة وعلة كثرة جبايتها لاعتباره أن الدولة أو السلطان السوق الاعظم للعالم ومنها مادة العمران قال : « فاذا احتجن السلطان الاموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها فى مصارفها قل حينئذ ما بأيدى الحاشية والحامية وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ فى الاسواق وتضعف الارباح فى المتاجر فيقل الخراج لذلك لأن الخراج والجباية انما يكونان من الاعتمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج . فان الدولة كما قلنا هي السوق الاعظم أم الاسواق كلها وأصلها ومادتها فى الدخل والخرج فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الاسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه » اهـ

فالمدن الاسلامية كانت مؤلفة من الملوك وهم الأصل ثم رجال الدولة وانما يكونون كذلك لأن الملوك يختارونهم لفطنتهم . ثم الاغنياء وأخيراً الاوساط وهم جمهور الناس ويكونون كما يشاء أولئك . وذلك يخالف حال الهيئة الاجتماعية فى هذا العصر عصر الحرية الشخصية فالناس فيه مستقلون بأعمالهم كل منهم يعد نفسه عضواً من أعضاء ذلك المجتمع لا يستغنى عنه سواء كان صانعاً أو كاتباً أو تاجراً أو موظفاً

أما فى العصر العباسى فقد كان أهل المدن عالة على الخلفاء والامراء فتحوم آمالهم حولهم ـ يلتقطون ما يجودون به عليهم وهؤلاء انما يجودون بما يصل اليهم من أموال الجباية فاذا كثرت أكثروا واذا قلت أقلوا . والجباية من الخراج والخراج على الارضين

(١) ابن الفقيه ١

والارضون انما يعمل بها الفلاحون وهى القرى . فالثروة العباسية مصدرها من القرى وتجمع من عرق الفلاحين ـ والفلاح أساس الثروة فى كل العصور وخصوصاً فى البلاد الزراعية . وهو فى الغالب أقل الناس حظاً منها وخصوصاً فى عهد التمدن القديم أو ما نسج على منواله اذ كانت الثروة والقوة فى أيدى فئة الحكام أو من ينوب عنهم أو ينتمى اليهم ويبقى سائر الناس أعواناً أوأتباعاً أوخدماً أوعبيداً . يشتغلون إما بالصناعة لاصطناع ما قد يحتاج اليه أولئك من أصناف الابنية والالبسة والاثاث والمجوهرات أو لخدمتهم فى قصورهم بالطبابة أو الكتابة أو لتمتيع سمعهم وبصرهم بالغناء والعزف أو لترطيب قلوبهم بالنظم والنثر ونحوهما . واما للفلاحة فى الارض واستغلالها والفلاحون هم الفئة الكبرى من الناس فى كل زمان . وسنفصل ذلك فى الجزء المختص بالآداب الاجتماعية من هذا الكتاب

فالثروة فى المدن تابعة لثروة الحكومة أو رجالها للأسباب التى قدمناها . فلما كان بلاط الرشيد غاصاً بالوفود وبيت ماله حافلا بالنقود والبرامكة يبذلون المئات والالوف كان تجار بغداد فى نعمة وثروة وخصوصاً باعة المجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدنية في عهد الترف والبذخ . فقد رأيت فى بعض ما تقدم أن جوهرياً بالكرخ فى بغداد ساومه يحيى البرمكي على سقط من الجوهر بمبلغ ٧٠٠٠٠٠٠ درهم فلم يبعه [١] وهو جزء مما فى حانوته فما قولك بسائر ما فيه . وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الاموال تزيد قيمته على ٢٠٠٠٠٠٠ دينار [٢] وكان فى بغداد شريف يسمى محمد ابن عمر . بلغ خراج أملاكه ٢٥٠٠٠٠٠ درهم فى السنة [٣] . وقس على ذلك سائر التجارات فى بغداد وغيرها . فقد كان فى أصطخر بيت ينتسب الى آل حنظلة أحدهم عمرو بن عيينة بلغ من يساره أنه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرقها فى مدن الاسلام وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠٠٠٠٠٠ درهم . ومنهم مرداس ابن عمر كان خراج ماله ٣٠٠٠٠٠٠ وابن عمه محمدبن واصل ملكه مثل ملكه [٤] . وكان فى سيراف تجار واسعو الثروة يجوز مال أحدهم ٦٠٠٠٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والابنوس والفلفل وغيرها [٥] . ومنهم من يبنى داراً فينفق على بنائها ٣٠٠٠٠ دينار [٦] وأوصى

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٣ (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٨ (٣) ابن الأثير ٢٠ ج ٩
(٤) الاصطخرى ١٤٢ (٥) الاصطخرى ١٥٤ (٦) ابن حوقل ١٩٨

أحدهم بثلث ماله لعمل فبلغ ١ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته (١) وأمثال ذلك كثير فى معظم مدن المشرق

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم أو خدمهم فى بلاطهم فى ابان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال فانهم جمعوا أموالا طائلة حتى المغنون والشعراء . فقد توفى ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (٢) وتوفى جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف ما يساوى ٩٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود (صفحة ١٤١)

واعتبر ذلك فى سائر البلاد والاحوال فتجد الثروة كانت فى الغالب عند الخلفاء أو من ينتمى اليهم. حتى التجار فانهم انما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء الى أولى الأمر إلا نادراً

﴿ القرى ﴾ أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الاصليين ويسمونهم « أهل الخراج » فهؤلاء يعملون بالأجرة أو شركاء لأصحاب الاملاك من الخلفاء أو الامراء أو من ينتمى اليهم من الاعيان وخصوصاً الدهاقين فى العراق وفارس وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام

فلما كان الاسلام تقربوا من الحكومة بأموالهم (٣) ونفوذهم فى أهل بلادهم ويندر أن يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب تقدم بيانها

فسكان القرى هم الفلاحون ومن يجرى مجراهم وكانوا يقتنعون بالحصول على مايقوم بأود حياتهم ويغلب فيهم الفقر المدقع وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره فكان أهل الدولة فى المدن يبذلون الدنانير جزافاً ويهبونها مئات وآلافاً وأهل القرى فى فقر مدقع لو رأى أحدهم الدينار لسجد له وقبله مئنى وثلاثاً . ولو دفعت اليه عشرة دنانير أو عشرين لأصابه خبل أو مات لساعته كما اتفق للصياد بين يدى ابن طولون أمير مصر فى أواسط القرن الثالث للهجرة وهو مشهور بكرمه وبذخه بما أنشأه من القصور والغياض والاصطبلات . وكان ينفق كل شهر الف دينار على القراء وهو الذى جاء وكيله يوماً وقال « انى تأتينى المرأة وعليها الازار وفى يدها خاتم الذهب فتطلب منى فأعطيها » فقال له « من مد يده اليك فأعطه » (٤) ومع ذلك فان هذا الامير نفسه ركب فى غداة باردة الى جهات المقس بجوار الفسطاط فأصاب بشاطىء النيل صياداً عليه خلق لا يوارى منه شيئاً ومعه صبى فى مثل حاله وقد ألقى الشبكة فى البحر فلما رآه

(١) ابن حوقل ٢٠٧ (٢) سير الملوك ٣ ١١
(٣) ابن الأثير ١٠١ ج ٥ (٤) ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢

ابن طولون رق لحاله وقال يا نسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً فدفعها اليه ولحق ابن طولون . فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله وأخذ الدنانير منه فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن أبيه فقال له الغلام « هذا (وأشار الى نسيم الخادم) دفع الى أبي شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً » فقال « فتشه يا نسيم » فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها فعرض الصبي أن يأخذها فأبى وقال « هذه قتلت أبي وان أخذتها قتلتني » فأحضر ابن طولون قاضي القضاة وشيوخه وأمرهم أن يشتروا للصبي داراً بخمسمائة دينار تكون لها غلة وأن تحبس عليه وكتب اسمه من أصحاب الجرايات وقال « أنا قتلت أباه لأن الغنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه هذا كان يجب أن يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر فى عينيه » (١)

فاذا كان هذا حال رجل من أهل ضواحي العاصمة فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟

المدن الاسلامية

نريد بالمدن الاسلامية ما بناه المسلمون من المدن لانفسهم . وهى غير ما افتتحوه من مدائن الروم والفرس . والمدن الاسلامية عديدة فى العراق والشام ومصر وافريقية والاندلس وغيرها ومنها ما لم يزل عامراً الى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ومنها ما انقرض وعفت آثاره كالفسطاط والزهراء . وسنذكر أشهرها ونصف ما بلغ اليه عمرانها فى ابان التمدن الاسلامى تتمة لموضوع هذا الجزء . ولكننا نقول قبل ذلك كلة إجمالية فيما حمل العرب أو المسلمين على إنشاء تلك المدن

كان المسلمون فى صدر الاسلام عرباً أهل خيام وماشية وخيل يكرهون الاقامة ضمن الاسوار وينفرون من الانحصار فى المدن . فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الامصار فى العراق والشام ومصر كانوا فى بادىء الرأى اذا ساروا الى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم فاذا فتحوا بلداً أقاموا فى ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم وهو معسكرهم . وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين فى الامصار ألا يقيموا فى مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه حتى اذا أراد أن يركب راحلته اليهم ركب . كذلك فعل عمرو بن العاص فى الفسطاط وسعد بن أبي وقاص فى الكوفة (٢) والبصرة وكانت

(١) المقريزى ١٢٣ (٢) الجزء الأول ٦٥ (طبعة ثالثة)

كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرابطة أو المعسكر فاذا طال بهم المقام اختطوا الاسواق وبنوا المنازل والقصور . ذلك كان شأنهم فى صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة والفسطاط على هذه الصورة

فلما ضخم ملك العرب وتعددت دول المسلمين صاروا يختطون المدن تذكاراً لفتوحهم أو تحصناً بها من أعدائهم ـ كما فعل المنصور ببغداد فانه بناها حصناً له وكذلك فعل الفاطميون بالقاهرة . وكثيراً ما كان الخلفاء يبنون المدن للتنزه بها وابتعاداً عن الغوغاء مثل سامرا والمتوكلية والزهراء وغيرها مما يطول بنا ايراده فلنأت الى وصف أشهر المدن الاسلامية فى ابان ثروتها

كثيراً ما وصف المؤرخون المسلمون المدن الاسلامية كما يصف السياح اليوم ما يزورونه من المدن العظمى ولكنهم لم يذكروا عدد سكان تلك المدن أو مساحتها إلا نادراً . وانما كان همهم تعداد ما فى تلك المدن من الجوامع والحمامات والغالب أن يبالغوا فى ذلك الى ما يتجاوز طور التصديق كما سترى . واليك وصف أشهر المدائن الاسلامية مرتبة باعتبار قدمها

البصرة

هى من أقدم المدن التى بناها المسلمون أو أقدمها ولا تزال باقية الى الآن . مصرها عتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة [١] وقد اتخذها العرب فى بادىء الرأى معسكراً فى مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة فكان من البصرة على الضفة الغربية للفرات الى مكة رمال وجبال وسهول لا يفصل بينهما نهر . وبنوها أولا بالقصب ثم خافوا الحريق فبنوها باللبن باذن عمر كما سيأتى فى الكلام عن الكوفة . وجعلوا المدينة خططاً بحسب القبائل لكل قبيلة خط وجعلوا عرض شارعها الاعظم ستين ذراعاً وهو مربدها وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً . وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ووسط كل خط رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبوروموتاهم وتلاصقوا بالمنازل [٢] ونظراً لموقعها التجارى فرضة للعراق ووسطاً بين الشام وفارس أسرع اليها العمران واتخذتها الحكومة مقراً لامارة العراق فى أيام بنى أمية . فعمرت البصرة فى أيامهم واتسعت عمارتها حتى بلغت مساحتها فى امارة خالد بن عبد الله (القسرى) فرسخين فى فرسخين أى ٣٦ ميلا مربعاً فى أرض منبسطة لا جبال فيها وذلك أوسع من مدينة القاهرة مع زيادة عمارتها اليوم

(١) ابن الفقيه ١٨٨ (٢) الماوردى ١٧١

وكثرت ثروة البصرة فى أيام العباسيين لاجتماع التجار فيها وتجاراتهم تمتد شرقاً الى الهند والصين وغرباً الى أقصى بلاد المغرب وجنوباً الى الحبشة . وكانت السفن ترسو فى ميناها وتحمل أصناف التجارات من الأقمشة والأطياب وغيرها وتكاثرت الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين اليها للاتجار أو الاقامة فابتنوا فيها القصور والحدائق وأنشأوا الميادين والبرك ـ قال ابن حوقل « وهى موصوفة بالمجالس الحسنة والمناظر الأنيقة والميادين العجيبة والفواكه البديعة والبرك الفسيحة لا تخلو من المتنزهين ولا تعرى من المتطرقين منحدرين ومصعدين . . »

وكانت مياه البصرة مرسى مئات من السفن التجارية . وقد ذكرنا فى مكان آخر مقدار ما كانت الحكومة تجبيه من تاجر واحد من تجارها وهو نحو ١٠٠٠٠٠٠ دينار فى العام . فقس عليهم التجار الآخرين وفيهم الكبير والصغير

واشتهر أهل البصرة بالأسفار التجارية الى كل الجهات حتى ضرب المثل فى ذلك فقالوا « وأبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وخوزي ومن دخل فرغانة (فى الشرق) والسوس الأقصى (فى الغرب) فلا بد من أن يرى بها بصرياً أو خوزياً (من أهل خوزستان) أو حيرياً (من أهل الحيرة) »[1] وشأنهم فى ذلك شأن السوريين اليوم أو هو دأبهم من عهد الفينيقيين

وقد نقلنا فى الصفحة ١٠٠ من الجزء الأول من هذا الكتاب (طبعة ثالثة) ما قاله الاصطخرى عن سعة مدينة البصرة وعدد أنهارها على أيام بلال بن أبى بردة (سنة ١١٨ هـ)[2] وأنها زادت على ١٢٠٠٠٠٠ نهر تجرى بها الزوارق وأن الاصطخرى نفسه شك فى صحة هذا العدد كما يشك كل من يقرأه . فذهب بنفسه لمشاهدة المكان فى القرن الرابع للهجرة فلما عاينه قال « وقد كنت أنكر ما ذكر من هذه الأنهار فى أيام بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع فربما رأيت فى مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجرى فى كلها زوارق صغار ولكل نهر اسم ينسب الى صاحبه الذى احتفره أو الى الناحية التى يصب فيها فجوزت أن يكون ذلك فى طول هذه المسافة وعرضها »[3] وقال نفس هذا القول ابن حوقل فى عرض كلامه عن البصرة[3]. ومع ذلك ما زلنا نستكبر هذا العدد حتى رأينا عالماً دقيق الملاحظة أقام فى البصرة أعواماً طوالا وخبر أرضها فذكرنا له ذلك فهون علينا تصديقه بما بينه لنا من سعة البصرة فى تلك الأيام وحفر الأنهار وإمكان اشتباكها بحيث تتحول الى مجار قصيرة هم

(١) ابن الفقيه ١٩١ (٢) ابن الأثير ٩٣ ج٥ (٣) الاصطخرى ٨٠

يسمون كلا منها نهراً - ويؤيد ذلك أنهم لا يريدون بالبصرة المدينة فقط التى ذكرنا أن مساحتها ٣٦ ميلا مربعاً وانما يضمون اليها ما يتبعها من المغارس الى عبادان عند بحر فارس مع ما كانت عليه من الخصب وكثرة الغرس - قال ابن حوقل والاصطخرى « ولها نخيل متصلة من عبدسى الى عبادان نيفاً وخمسين فرسخاً متصلة لا يكون الانسان بمكان منها الا وهو فى نهر ونخيل أو يكون بحيث يراها » - فاعتبر هذه المسافة طولا فى مثل نصفها عرضاً على الأقل أى ١٥٠ ميلا فى ٧٥ وذلك ١١ ٢٥٠ ميلا مربعاً فيعقل أن يكون فى الميل الواحد عشر ترع صغيرة والله أعلم

الكوفة

بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة أشهر بناها سعد بن أبى وقاص . ويقال فى سبب بنائها أن سعداً بعد أن فتح العراق وتغلب على الفرس نزل فى عاصمتهم المدائن ثم بعث الى الخليفة عمر بن الخطاب فى المدينة وفداً يخبره بذلك الفتح . فلما وصل الوفد الى عمر رأى ألوانهم قد تغيرت وحالهم قد تبدلت فسألهم عن سبب ذلك فقالوا وخومة البلاد غيرتنا . فأمرهم أن يرتادوا منزلا ينزلون فيه المسلمين لأن العرب لا يوافقهم من البلاد إلا ما يوافق إبلهم وكتب الى سعد « ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر » (٢) ففعل سعد ذلك فاختاروا مكاناً وراء الفرات وبينه وبين الحيرة وبنوها أولا بالقصب كما بنوا البصرة ففعلوا ذلك لتكون المنازل قريبة من الخيام فأحرقت فاستأذنوا عمر فى البناء باللبن فأجابهم الى ذلك على شرط ألا يزيد أحدهم على ثلاثة أبيات ولا يطاولوها . وكان للكوفة شأن كبير عند الشيعة لأن الامام عليا جعلها عاصمة ملكه الى أن قتل

الفسطاط

هى أول مدن المسلمين فى القطر المصرى بناها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة فيما بين القاهرة اليوم ومصر العتيقة . ومن بقاياها جامع عمرو والأطلال والخرائب حوله الى المقطم . وكان ذلك المكان معسكراً للعرب لما جاؤا لفتح حصن بابل وهو المعروف اليوم بدير النصارى أو دير مار جرجس بمصر العتيقة . فلما فتحوه عزموا على الاسكندرية لفتحها فأمر عمرو بنزع فسطاطه (أى خيمته) فاذا فيه يمام قد فرخ

(١) ابن حوقل ١٥٩ (٢) ابن الأثير ٢٥٩ ج ٢

فأخبروا عمراً بذلك فقال « لقد تحرم بنا بمتحرم » فأمر بالفسطاط فأقر كما كان وأوصى به من بقى هناك من القبط . وسار بجنده حتى نزل الاسكندرية وفتحها وكتب الى الخليفة عمر بالمدينة يخبره بذلك ويستشيره بالسكنى فيها . فسأل عمر الرسول « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء » قال « نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل » فكتب الى عمرو « اني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم شتاء ولا صيفاً فمتى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت » (١) فاستخلف عمرو فى الاسكندرية حامية وأمر فشدت الرحال الى حصن بابل . فلما بلغوا فسطاط الأمير رأوه لا يزال منصوباً وفيه الطيور فنزلوا فيه وجعلوا تلك الخيمة مركزاً لمعسكرهم ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالفسطاط . ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض وأخذوا فى بناء البيوت لسكنى الجيوش فاختط عمرو مدينة شمالى الحصن دعاها الفسطاط فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً وأقام أربعة من كبار رجاله ينزلون الناس فى الخطط المذكورة بحسب أحزابهم وقبائلهم

ثم أخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين فى البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة فى كثير من الوجوه . وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال (٢) وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها أنه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠٠ شارع مسلوك و ١١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل فى كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء فى مدحها قول الشريف العقيلى :

أحن الى الفسطاط شوقاً وانى ... لأدعو لها ألا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها ... وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما انتظم الدر (٣)

وبلغ من تزاحم الناس فى الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع وربما سكن فى البيت الواحد ٢٠٠ من الناس وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠٠٠٠ وهى دار الحرم لخمارويه (٤)

واشتهر من تلك الأبنية دار ضرب المثل بعظمها وغنى أهلها تسمى «دار عبدالعزيز» كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم أن الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على النيل بلغ

(١) المقريزى ٢٩٦ ج ١ (٢) ابن حوقل ٩٦
(٣) المقريزى ٣٤٠ ج ١ (٤) المقريزى ٣٣٠ ج ١

عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ . وذكر رجل دخلها فى أوائل القرن الثالث للهجرة فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون قال « طلبت بها صانعاً يخدمنى فلم أجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتى وقيل لى إن كل صانع معه اثنان يخدمهما وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فأخبرت أن بها سبعين (كذا) صانعا قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج » (١)

وفى ذلك دليل على غنى أهل الفسطاط وترفهم ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يقتنى أحدهم ألف فرشة أو عشرة آلاف فرشة وذكروا رجلا من أهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها ـ وقد تكون أثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم ـ قال القضاعى إن قطر الندى ابنة خمارويه كان فى جملة جهازها ألف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار . ناهيك بتأنقهم فى المآكل والمشارب مما يطول شرحه وقد فصله المقريزى وغيره فى كلامهم على الفسطاط

بغداد

هى عاصمة العباسيين بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ ولا تزال باقية الى اليوم وقد تغير موضعها مراراً . والسبب فى بنائها أن السفاح لما بويع بالخلافة وأكثر أنصاره فى العراق وفارس نزل الكوفة ومعه أخوه المنصور . ثم بنى السفاح قرب الانبار مدينة سماها الهاشمية اشارة الى ما يجمع بين العباسيين والعلويين وانتقلا اليها (٢) وبها مات السفاح وقبره فيها . وأقام المنصور فى الهاشمية بضع سنين ثم ثار جماعة الراوندية فكره سكناها وخرج يبحث عن مكان يبنى فيه مدينة حصينة فدلوه على مكان بغداد وحسنوه له فبنى فيه مدينة سماها بغداد وعرفت بمدينة المنصور

بناها فى الجانب الغربى لدجلة بشكل مستدير وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه وأتباعه . فلما كانت أيام المهدى جعل معسكره فى الجانب الشرقى من دجلة وسمى ذلك المكان عسكر المهدى . ثم انتقل اليه الوجهاء وأهل الدولة وبنوا فيه وانتقلت الخلافة الى الجانب المذكور وامتدت أبنية الخلفاء وحداتقها على ضفة النهر . ويسمى جانب بغداد الشرقى الرصافة والجانب الغربى الكرخ

وبلغت بغداد معظم عمارتها فى أيام المأمون حتى امتدت أبنيتها وبساتينها على بقعة

(١) المقريزى ٣٣٠ ج ١ (٢) ابن خلكان ١٥١ ج ١

قالوا إن مساحتها ٥٣٧٥٠ جريباً منها ٢٦٧٥٠ جريباً فى الجانب الشرقى و ٢٧٠٠٠ فى الجانب الغربى[١] والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ونسبته الى الفدان كنسبة ١٠٠ الى ٣٣٣ ½ فتكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦٠٠٠ فدان وهو شىء كثير . ولكن يظهر أنها كانت عبارة عن مدن متلاصقة ـ قال الخطيب البغدادى فى تاريخه إنها أربعون مدينة وإن الحمامات بلغ عددها فى أيام المأمون ٦٥٠٠٠ حمام[٢] وقد أراد صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد فقال « وكان عدد الحمامات فى ذلك الوقت ببغداد ستين ألف حمام وأقل ما يكون فى كل حمام خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء يكون ذلك ثلاثمائة الف رجل وذكر أن يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد يكون ذلك ثلاثمائة الف مسجد وتقدير ذلك أن أقل ما يكون فى كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك الف الف وخمسمائة الف انسان »[٣]

ولا ينطبق هذا التخريج على ما نعلمه من أحوال هذه الايام فلا نسلم به كما هو ولكنه يدلنا على ما بلغت اليه هذه المدينة من العظمة فى عهد ذلك التمدن العجيب . وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبرى فى أثناء كلامه عن الفتنة التى وقعت فى بغداد سنة ٢٥٥ هـ قال « وقيل إنه عبر الجسرين من العامة فى ذلك الوقت ١٠٠٠٠٠ انسان فى الزواريق . . »[٤] فاذا كان هذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبر فلا نبالغ اذا جعلنا عدد سكان بغداد فى ذلك العهد نحو مليون ونصف أو مليونين

ناهيك بما كان من العمارة حول بغداد وفى سائر بلاد السواد ـ قال ابن حوقل وقد رآها فى أثناء القرن الرابع للهجرة « وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه أنهار من الفرات . . الخ »[٥]

وهناك مدائن أخرى من بناء المسلمين ذات شأن كالقيروان فى بلاد المغرب وواسط فى العراق وغيرهما فى مصر والشام وفارس . ناهيك بالمدائن التى كانت عامرة قبل الاسلام وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتها مثل دمشق الشام وقرطبة وغرناطة وطليطلة والاسكندرية . وسنأتى على شىء كثير من حضارة هذه المدن وغيرها فيما سنذكره من حالتها الاجتماعية فى بعض الأجزاء الآتية إن شاء الله

﴿ تم الجزء الثانى ﴾

(١) سير الملوك ٥٥ (٢) ابن خلدون ٢٨٧ ج ١ (٣) سير الملوك ٥٥
(٤) الطبرى ١٧٣٠ ج ٣ (٥) ابن حوقل ١٦٦

A.U.B. LIBRARY

R:956.01:Z39tbA:v.1-2:c.1
زيدان، جرجي
تاريخ التمدن الاسلامي...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01270470